

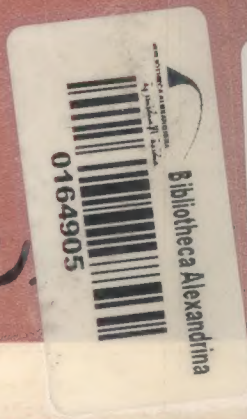


مکسیم گورکی

خوما جور دیف



رینی خشبہ



فوجہ جو ردیف

تألیف
مکسیم جورکی

ترجمة
درینی خشبہ

دار القاهرة للطباعة
۲۶ شارع منصور - القاهرة

الفصل الأول

● منذ حوالي ستين عاما ، حينما كان رجال الأعمال يجمعون ثرواتهم
التي تعد بالملايين فوق ضفاف نهر الفولجا ، كان رجل يدعى اجنات
جوردييف يعمل في كسح المياه التي تتسرب الى بطن صندل من صنادل
تقل البضائع تابع لرجل من أثرياء التجار اسمه زاييف .

وكان جوردييف هذا رجلا قوى البنية حسن المنظر ، وأبعد من
أن يكون غبيا . لقد كان واحدا من هؤلاء الذين ينجحون في أعمالهم
دائما ، لا لائتهم من ذوى المواهب والمثابرة في العمل ، ولكنهم ، لما
تأثرتوا من النشاط الجم ، لا يأنفون من القيام بأى عمل من الأعمال
التي يدركون بها ما يطمحون اليه ، وكيف يأنفون من شيء وهم
لا يعرفون ما معنى الانفة ؟ ثم هم لا يعرفون من القوانين شيئا الا قانون
رغباتهم . وفي بعض الأحيان نلاحظ أن هؤلاء الناس يتكلمون وهم في
خشية من ضمائرهم ، بل هم قد يقاسون الكثير في صراعهم مع هذه
الضمائر . الا أن الشخص الضعيف هو فقط الذي لا يستطيع أن ينتصر
على ضميره ، أما الشخص القوى فليس أسرع عليه من أن يخضع ضميره ،
ويرغمه على أن يخدم المطمح النبى يسعى اليه . انه قد يضحي بليال
طويلة لا يذوق النوم فيها لما يقوم به من تضال ، وربما انتصر عليه
ضميره آخر الامر ، ولكنه اذا انتصر فان روحه لا تنال منها الهزيمة
أبدا ، بل يظل بفضل هذه الروح القوية سائرا فيما كان فيه بمثل
الحياة التي كانت له من قبل .

وعندما بلغ اجنات جوردييف الأربعين من عمره ، كان هو نفسه مالكا لثلاثة زوارق بخارية واثنى عشر صندلا ، وكان يحظى باحترام كبير من أول نهر الفولجا الى آخره ، بوصفه رجلا من رجال المال الكثير والعقول الراجحة ، الا أنهم كانوا يلقبونه بلقب : أبو كييف ! لأنه لم يكن يتبع في حياته طريقا واحدا رتبيا لا يتعداه كما يفعل من هم مثله من الناس ، بل كان في ثورة ضدها دائما ، لا يكاد يأخذ منها بعمل حتى يتركه الى غيره ، نافرا من الجرى وراء الثروة التي كان غيره من الناس ينظرون اليها بوصفها الغرض الاساسي من وجودهم في هذه الحياة . . . وكان يبدو كأنما هناك ثلاثة أشخاص من هذا الرجل اسم كل منهم جوردييف ! أو قل ان ثلاث أرواح مختلفة كانت تسكن جسد جوردييف هذا ! وكانت احدى هذه الأرواح ، وهي أهمها جميعا ، روحا مغرمة باحراز المكاسب والجري وراءها . . . ولا شيء غير ذلك . وكانت هذه الروح حينما تتناول السوط وتلوح به الى اجنات ، تدفعه فيفزع الى العمل بهمة عجيبة ، كأنه خلق للكدح وللكدح فحسب . ولقد كانت هذه الهمة تتأجج فيه ليلا ونهارا ، وتقنى منه روحه وجسمه ، وكان لا يننى يفتح يديه لتسلم المئات والآلاف من الروبلات - أي الريالات - كأنه لم يكن يشبع قط من سماع رنين النقود الحلوة ، ووقعها الساحر . لقد كان موكلا بنهر الفولجا يذرعه شمالا وجنوبا ، وفي يده شباكه التي يصيد بها ذهبه الكثير الجم . محكما قبضته على حبالها . لقد كان يشتري القمح من القرى ثم يحمله في صنادله لبيعه في مدينة ريبنسك ، وكان مغرما بغش الناس وخداعهم ، يغشهم قاصدا أحيانا ، ويغشهم بفطرته ومن غير قصد أحيانا ، وكان يضحك من نشوة النصر في وجوه ضحاياه على الدوام . وقد بلغ جنونه بالمال خدائخرافيا يفوق خيال الشعراء . الا أنه بالرغم من هذا النشاط الجم الذي كان يسخره لجمع المال ، لم يكن شرها بأي معنى من معاني هذه الكلمة ، بل لقد كان في بعض الاحيان يبدى من عدم المبالاة بأمواله ما يحير البال !

فقد حدث ذات يوم من الايام التي كانت ثلوج الفولجا تنهار فيها
فى بواكير الربيع ، وكان اجنات جوردييف واقفا على الشاطئ يشاهد
هذا المنظر ، أن رأى كتل الجليد تدفع صندله الكبير الجديد الذى يبلغ
طوله مائتين وخمسين قدما فتصدمه بصخرة ناتئة من صخور الشاطئ ،
فتسحقه سحقا .

وهنا ، يصر اجنات بأسنانه متمتما : « عال ! أعصره يا ثلوج
مرة ثانية ! ٠٠ هيا ٠٠ مرة ثانية قلت لك ! »
وهنا يلتفت اليه ماياكين ، أعز أصدقائه ، واشبين (١) أبائه .
ويقول له : « انها كأنما تعتصر عشرة آلاف روبل بتمامها من جيبك
يا اجنات ! »

ويجيبه اجنات : « لا بأس ! فما أيسر أن أجمع مائة ألف أخرى !
ولكن ٠٠ انظر ماذا يصنع الفولجا ! يا لله ! أى قوة هذه ؟ ان فى
بوسعه أن يقلب الارض كما تقلب الزبد بملعقة ، لو أوتى قوة التفكير
فى ذلك . أنظر ! هاهو ذا صندلى بوياريننا يطفو هناك ، وهو مع ذاك
لم يمض عليه غير موسم واحد ! حسن ٠٠ هلم فلنشرب نخب نهايته
تلك ، هل لديك مانع ؟ ! »

ثم تحطم الصندل ، وكان اجنات وصديقه جالسين عند نافذة
مشرب على ضفة النهر يجرعان الفودكا ، ويشاهدان التيار وهو
يجرف حطام البوياريننا فيما يحمل من كتل الجليد .
ويقول ماياكين : « لشد ما يؤسفنى أن تفقد هذا الصندل يا
اجنات ! »

— ليس من الحكمة أن نأسف على شىء . لقد أعطى الفولجا ، ثم
أخذ الفولجا ما أعطى ٠٠ والفولجا مع ذاك لم يقطع يدى ! »

(١) الاشبين هو والد الطفل الروحى اى الذى ينييه الوالد الاصلى عنه فى ساعة
تفهميده عند اخواننا المسيحيين وستستعمل هذه الكلمة بكثرة فنسترعى اليها الانظار (د)

— حتى اذا ... !

— حتى اذا — ماذا ؟ على الاقل ، لقد رأيت الحادث بعيني رأسي «
وهذا درس طيب للمستقبل • لشد ما يحزننى أننى لم أر كيف
احترقت سفينتى فولجار عندما احترقت • لا شك أنها كانت منظرا
عجيبا •• نيران للزينة فى منتصف الليل على صفحة الماء ! لقد كانت
سفينة كبيرة !

— وأكبر الظن أنك لم تأسف على ضياعها هى الأخرى !

— وهذه السفينة البخارية ؟! كلا •• لا أستطيع أن أقول ذلك !
لقد أسفت على ضياعها حقا •• على أن من الجنون الاسف على شىء ، اذ
ما الفائدة ؟ •• ابك ما استطعت ، ولكن الدموع لن تطفىء حريقا ••
فلتشعل السفن جميعا ، فانى لن أثور ولن أسخط اذا احترقت كلها •
ما دامت النيران التى تتأجج فى روحى ستظل مشتعلة هى أيضا •
وغمغم ماياكين ثم قال وهو يضحك بصوت خافت : « ان الرجل
الذى يتكلم مثل هذا الكلام هو رجل غنى ولا بد ، حتى اذا لم يكن
يملك قميصا يغطى به ظهره ! »

وبالرغم من تسليم اجنات هذا التسليم الفلسفى بخسارته آلاف
الروبلات • كان أعرف الناس بقيمة كل كوبك ، وكان لا يمنع
شحاذا أى درهم الا بخلع الضرس ، واذا فعل فاتما يعطى أولئك الذين
لا يقدرّون على عمل مطلقا ، فاذا لم يكن الشحاذا الذى يستجديه عاجزا
عجزا تاما عن العمل نظر اليه فى حزم ثم قال له :
— يا لك من أحمق ! ألا تستطيع أن تعمل ؟ اذهب وساعد خادم
مخازنى فى رفع هذه الكومة من التراب وسأعطيك كوبكين •

وحينما كانت حمى العمل تملك عليه زمame كان يبدو قاسيا لا
يستشعر قلبه الرحمة لمن حوله — بل لم يكن يرأف نفسه فى سبيل.

الحصول على المال ، وحينئذ تراه وقد انحس كأنه أصبح عبد أعماله
الذليل ، وليس سيدها المسيطر . وكان هذا يحدث عادة في الربيع
عندما تمتلئ الدنيا بالسحر والجمال ، وعندما تسبح الروح في زرقاة
السماء الصافية فتنتشى وتهتز ، وعند ذلك تراه مشغول البال مستغرقا
في التفكير يرسل نظراته الفاحصة من تحت جبينه المعقد ذي الأسارير ،
وقد ركبه الهم واستحوذ عليه القلق كأنما يتحدث الى نفسه بأشياء
لا يستطيع أن يحرك بها لسانه . ثم تستيقظ في أعماقه روح أخرى -
الروح الشهوانية الضارية ، روح الوحش الجائع ، فتراه وقد أصبح
فظا يسئ معاملة الناس ويسلط عليهم لسانه البذيء ، وهنا يكب
على الشراب ويستسلم لغرائزه البهيمية الجافية ، ويجمع الناس من
حوله ليشاطروه الشراب ، ومن ثم يشعر بحميا شديدة ونشوة لا
تعاذلها نشوة ، ويصبح كالبركان الذي تغل في جوفه الحمم . ومع
ذاك تراه وكأنه يحاول أن يحطم الاغلال التي أحكم احاطتها بنفسه -
فهو يشدها من هنا ومن هنا ، لكنه لا يقوى على تحطيمها . ثم تراه
وقد نهض وهو في حالته الرثة هذه ، وفي هندامه الاشعث، وبوجهه
الذي ورمه الشراب وقلة النوم ، وغينيه الحمراوين الوحشيتين ،
وصوته الخشن الاجش ، يهيم متنقلا من بيت فساد الى بيت فساد
آخر ، غير حاسب للأموال التي يبعثرها حسابا ، فاذا سمع أحدا يردد
غناء فيه شجو وفيه عاطفة رأيتنه يهتز متأثرا ثم ينهض فيرقص
ويتخايل ، فاذا حاول أحد أن يقف في سبيله تشاجر معه . ولكن
شيئا من هذا كله وا أسفاه لم يكن يذهب عنه أشجانه ولا يرد اليه
راحة باله .

وكان الناس ينسجون الأساطير عن مجالس سكره وعربداته ،
وكان الكثيرون منهم يشهرون به أبشع التشهير بسببها ، ولكن أحدا
منهم لم يكن يرفض دعوة اجنات اذا دعاه الى شيء منها . وكان اجنات
يستمر على هذه الحال أسابيع وأسابيع في كل مرة . ثم تراه يعود

الى داره فجأة وعلى غير انتظار والروائح الحبيئة التى تشبع بها جسمه ، وملابسه فى دور الفساد تفوح منه وتغشى من حوله ، لكنك مع هذا تراه مستسلما خائر النفس بادی الانقباض ، يتقبل فى صمت وبعينين ذليلتين لا تعبران عن شيء عندئذ ٠٠ الا عن الشعور بالحجل الشديد ٠٠

ما توجهه اليه زوجته من لوم وتبكيت ، ثم تراه ينسل وقد أصبح وديعا كالحمل الذى يساق الى مذبحه فيتوجه الى غرفته ويغلقها على نفسه ، وربما ركع فيها ساعات وساعات أمام الايقونات المقدسة ورأسه الى أسفل وذراعه مسترخيتان الى جانبه وكتفاه محنيتان فى ذلة وضراعة ، لكنه لم يكن يحرك لسانه بكلمة واحدة كأنما كان يخشى أن يصل ٠ وكانت زوجته ربما مشت على أطراف أصابعها الى باب غرفته لتصغى اليه من خلال ثقبه فلا تسمع الا تنهدات عميقة أشبه بآهات الرجل المريض ، أو الجواد المنهوك ، تنبعث من داخل الغرفة . وقد يناجى اجنات ربه بكلمات يتمتم بها وهو يشنى يديه بشدة الى صدره الرطب قائلا :

- يا الهى ، يا من تعلم كل شيء !

وطالما كان فى هذه الحال من التوبة والاستغفار لم يكن يذوق شيئا غير الحبز والماء ٠ وكانت زوجه تضع له فى كل صباح زجاجة من الماء ورطلا ونصف رطل من الحبز وشيئا من الملح أمام باب غرفته ، فاذا ذهبت فتح الباب ليأخذ هذا الزاد الذى يشبه جراية الرهبان تم أغلق الباب على نفسه مرة أخرى ، ولم يكن أحد يقطع عليه سكونه فى مل هذه الحلوات ، والواقع أن كل انسان كان يتحاشى لقاءه .

وبعد أيام قليلة من هذا تراه وقد عاد الى سوف الجيوب والأوراق المالية ، ثم راح يضحك ويمزح ويبرم العقود لتسليم الجيوب وعيناه صافيتان كعيني الباشق لا تخطنان صغيرة ولا كبيرة من دقائق العمل .

ولكن اجنات فى حالاته الروحية الثلاث هذه كانت تسيطر عليه
أمنية عظيمة واحدة - هى أن يكون له ولد • وكان كلما تقدمت به
«السن اشتدت هذه الأمنية ، واستبدت به ، وكان يكثر من التحدث الى
زوجته فى هذا الشأن • وكان كلما قدمت اليه فطوره أو غدائه قطب
جبينه وعبس ، وراح يسائل أكيولينا زوجته السمينة المكتنزة
ذات الحدين الموردين والعينين النعساوين قائلا :

- هيه •• ألا تحسبن بشئ يا أكيولينا ؟

وكانت تعلم جيدا ماذا يقصد ، الا أنها كانت تجيبه غير حافلة :

- وكيف بالله عليك لا أحس شيئا ، ولك قبضتان تزنان عشرة
أرطال ؟

- انى أسأل عما فى بطنك أيتها البلهاء !

- أى امرأة أكلت كل تلك (العلق) يمكن أن تحمل فى بطنها
جنينا ؟!

- المهم ليس « العلق » ، المهم هو افراطك فى الشراب • انك تتخمين
نفسك بالطعام حتى لا يبقى فى بطنك موضع للجنين !

- ولماذا ؟ ألم ألد لك أطفالا ؟

وهنا يجيبها اجنات بازدرء :

- بنات !! اننى انما أريد ولدا ، ألا تستطيعين أن تفهمى ذلك ؟
ولد ، و •• وريث !-خبرينى لمن أترك أموالى اذا مت ؟ من ذا الذى
يستغفر لى ويصلى من أجلى حينما أفارق هذه الحياة ؟ أهب أموالى كلها
لديبر من الاديرة ؟ لقد منحتها ما فيه الكفاية ؟ أ أتركها لك ؟ لشد ما
تصبحين شفيعا مليحا ، ولشد ما يمتلىء عقلك بالفطائر المحشوة حتى وأنت
فى الكنيسة ! ثم أنا اذا مت فسرعان ماتتزوجين رجلا آخر ويكون مصير

أموالى الى يد مغفل من المغفلين ، فهل تظنين أن هذا هو ما أكدح فى سبيله ؟ هه ؟

وكان كلما فكر فى أن حياته حياة خاوية ولا معنى لها ما دام محروما من ولد يحمل اسمه من بعده ، ثار ودارت الدنيا من حوله ، وصار نكدا حاد الطبع بدرجة لا تحتل .

لقد ولدت له زوجته فى خلال السنوات التسع من زواجهما أربع بنات ، الا أنهن جميعا قد توفين ، وبالرغم مما كان يحدوه من الشوق الى يوم ميلاد كل منهن فإنه لم يكن يشعر الا بالقليل من الحزن لوفاة كل منهن . لأنه لم يكن يريد بنات . . . وقد بدأ يضرب امرأته فى العام الثانى من زواجهما ، ولم يكن يضربها فى أول الامر الا عندما يكون مخمورا فقط ، ولم يكن يدفعه الى ضربها حقد أو بغض ، بل كان لا يضربها الا عملا بالمثل الذى يقول :

« حب امرأتك كما تحب حياتك ، ولكن هزها كما تهز شجرة التفاح » . ولكن بما أن كل طفلة وضعتها كانت تحطم أحلامه فقد بدأ يكرهها ، وأصبح مولعا بضربها لأنها لا تلد له غلاما !

وحدث مرة حينما كان فى بعض أعماله فى اقليم سامارا جوبرنيا أن تسلم رسالة جاء فيها أن زوجته قد توفيت ، فصلب على نفسه ، ثم كتب الى صديقه ماياكين يقول له هذه العبارة الساذجة : « ادفنها من غيرى (!) » وخذ بالك من أملاكى » ثم ذهب الى الكنيسة حيث أقام لها قداسا ، وبعد أن فرغ من صلاته سكتا لروحها صمم على أن يتزوج ثانية ، وبقدر ما يستطيع من سرعة .

وقد كان عندئذ فى الثالثة والأربعين من عمره . ولقد كان ، كما قدمنا ، طويلا عريض الكتفين همشى الجسم ، ذا صوت عميق جهير . وكانت نظرات عينيه المظللتين بحاجبيه الكثيفين الأسودين نظرات جريئة يشع فيها الذكاء . وكان فى وجهه الذى لوحته الشمس ،

وبلحيته الثقيلة السوداء كثير من ذلك الجمال الروسى السليم الذى كان يتدفق فى هيكله القوى كله . وكان احساسه بقوته يتجلى فى خطرات مشيته ، ورشاقة حركاته جميعا ، وكانت النساء ينجذبن اليه ، ولم يكن هو يصدف عنهن .

ولم يكده يمضى على وفاة زوجته أكثر من ستة أشهر حتى تقدم لخطبة ابنة رجل قوزاقى من أتباع المذهب القديم كان يعيش فى الاورال ، وكانت بينهما علاقات تجارية . وقد وافق القوزاقى على هذا الزواج بالرغم من شهرة اجنات بأنه (أبو كيه) ، وبالأحرى بالرغم من وصول شهرته بالهوس الى اقليم الاورال . أما اسم الفتاة فكان ناتاليا ، وكانت طويلة رشيقة ذات عينين زرقاوين واسعتين . وشعر كستنائى طويل ، وبهذا كانت نعم العروس لاجنات الرشيق . ولشد ما كان فخورا بزوجه الجديدة ، ولشد ما أحبها من صميم قلبه ولكن سرعان ما أخذ يدرسها فى تأمل عميق !

ان الابتسام لم يكن يعرف طريقه الى وجه زوجته الجميل البضى الا نادرا ، وكانت تبدو مساهمة حاملة باستمرار ، وكانت عيناها الزرقاوان ذواتا هذا الصفاء الساكن تعكسهما أحيانا نظرة قائمة صارمة ، وكانت اذا فرغت من أعمال المنزل تذهب الى أكبر غرفة من غرفه ثم تجلس فى النافذة ساكنة هادئة دون أن تنبس أو تتحرك ساعتين أو ثلاثا ، وبالرغم من أنها كانت تحملق فى الشارع فانها كانت تبدو كأنها منقطعة الصلة عن كل ما يجرى فيه ، وكان كل انتباهها مركز فى أغوار نفسها ، تبحث فيها عن ذاتها . وكانت لها مشية غريبة . . فلم تكن تمشى طليقة حرة فى غرفات المنزل الفسيحة الرحبة ، بل كانت تمشى ببطء وفى حذر ، وكان البيت مؤثنا تأثينا ثقيلًا شديد التباهى ، كل ما فيه من رياض لامع يكاد يصرخ كاللئى يقول : ان المالك رجل ذو ثراء جم ومال كثير ، وكانت الزوجة القوزاقية تتحاشى أن تمس هذا الاثاث الفاخر والصواوين الزاخرة :

بالفضة ، كأنما كانت تخشى أن تمسكها فتسحقها سحقا . وكانت الحياة التي تغلي غليانا في تلك المدينة التجارية الكبيرة لا تثير شيئا من البهجة في نفس ناتاليا ، وإذا حدث أن خرجت مع زوجها لنزهة على ظهور الخيل ظلت عينها ثابتتين في ظهر السائس لا تريمان عنه ، وإذا سألها زوجها أن تصحبه لزيارة أصدقائه لم ترفض ، لكنها كانت تظل ساكنة هادئة في أثناء تلك الزيارات كما هو دأبها في المنزل . فإذا حضر بعض الأضياف لزيارتها قدمت اليهم الطعام والشراب بطريقة آلية دون أن تشترك معهم فيما يشرثرون به ، ودون أن توجه من الحفاوة بأحدهم أكثر مما توجهه الى الآخر . وكان الشخص الوحيد الذي يستطيع أن يثير شبح الابتسام على ثغرها هو هذا الرجل الذكي اللبق ماياكين .

لقد كان ماياكين يقول عنها دائما : « هذه ليست امرأة ، انما هي عصا ! ولكن .. صبرا .. فما الحياة الا شعلة من نار للزينة ، ولا بد أن تشتعل منها هذه الراهبة يوما ما .. وكل ما تحتاج اليه هو الزمن ، وعند ذلك سنرى أى زهرات يانعات ستقدم لنا ؟ »

وكان اجنات يقول لزوجته ممازحا : « وبعد ، فيا ذات الوجه الطويل ، فيم تفكرين ؟ أمشوقة أنت الى دار أببك ؟ هيا .. امرحي ! »

لكنها لم تكن تزيد على أن تنظر اليه في سكون وصمت ، دون أن تنبس بكلمة .

« انك تقضين وقتا طويلا في الكنيسة ، ورأيت أن الاوان لم يئن بعد لهذا .. وسيكون لديك الوقت الكثير لكي تذهبي اليها وتعترفي بذنوبك .. فاقترفي هذه الذنوب أولا ، فإذا لم تقترفي ذنوبا ، فلن يكون لديك ما تتوبين منه أو تأسفين على أنك فعلته .. وإذا لم تتوبى فلن تجدى خلاصا .. ولهذا .. فهلمى فاقترفي قليلا من

الذنوب وأنت لا تزالين في حسدانة العمر .. هيا .. لنذهب.
فلنتنزه على ظهور الحيل .. هيا » .

- لا أحسب أن بي ميلا الى هذا !

فاذا قالت ذلك ، جلس الى جانبها ، ونثر ذراعه حولها ، لكنها
كانت تبدو باردة ولا تستجيب لأية عاطفة ... فلا يملك الا أن.
يقول لها وهو محمق في عينيها :

- ناتاليا .. ما الذى يجعلك مهمومة هكذا ؟ هل وجدتنى غشا.
ثقيل انظر ، اه ! لكنها لم تكن تجيب بأكثر من : كلا .. !

- فماذا اذن ، يا ست أهلك !

- لست هذا على الاخص

- ففيم تفكرين ؟

- لا شيء

- فماذا ... اذن ؟

- لا شيء .

واستطاع يوما أن يجعلها تصرح بما فى نفسها بصورة أوضح :

- ان احساسا غامضا يخامرني .. وكل شيء يبدو فى عيني.
غامضا مبهما .. ويبدو لى أن كل هذه الاشياء ليست حقيقية !

ثم لوححت بيدها مشيرة الى الجدران والاثاث ، وكل ما حولها ،
ولم يعن اجنات بالتفكير فيما قالتة ، بل لم يزد على أن ضحك ضحكة
خاطفة ثم قال :

- ماشاء الله ! ليس هذا صحيحا ، فكلها اشياء حقيقية ، واشياء
جيدة وغالية الثمن .. ولكنك اذا كان يسرك أن أحرقها ، أو أن
أبيعها أو أن أتخلص منها وأشتري كل شيء من جديد ، فعلت ، فهل
يسرك أن أفعل ؟

وتسأله في غير احساس : - ولماذا ؟

لقد كان يعجب كيف تستطيع فتاة في مثل هذا الشباب اليانع والصحة الثامة أن تعيش كأنها داخل قوقعة ٠٠ لا تشتت شيئا ولا تذهب الى مكان الا الى الكنيسة ، ودون أن تميل الى لقاء أحد ٠٠٠

وكان اجنات يقول لها مواسيا : ليس عليك الا أن تصبري حتى تلدى لى ابنا ٠٠ وعندها ٠٠ تتبدل الحال غير الحال ! ان عدم وجود هذا الطفل هو الذى يسبب لك كل هذا الهم ، لأنك لا تجددين الآن ما تشغلين به نفسك ، فاذا جاء وجئت أمامك بما يشغلك دائما ٠٠٠ وعلى هذا ٠٠ فسوف تلدين لى ابنا ٠٠ أليس كذلك ؟

وتجيبه وهي تنكس عينيها : حتى يشاء الله !

ولم تمض أيام حتى كانت أعصابه لا تحتمل تلك المناكدة ، ولا هذا التجهم

- وبعد فأيتها الراهبة ٠٠ أنت يا ستنا ! ما الذى يجعلك تبدين مهمومة مغمومة هكذا ؟ انك تسيرين كأنك تطئين زجاجا مكسورا ، وتظهرين بمظهر الذى ارتكب جريمة قتل ٠ انك صبيبة قوية ذات عضل ٠٠ لكنك باردة لا روح فيك ٠٠٠ حمقاء صغيرة ٠٠ وهذا هو ما أنت !

وقد عاد ذات يوم الى المنزل وبه آثار نشوة من السكر ، ثم راح يغازلها ، الا أنها قاومته ، فأثار هذا غضبه ، مما جعله يصيح بها :

- نائاليا ٠٠ احذرى نتيجة تصرفاتك !

وتنظر اليه بملء عينيها وتقول له غير مهمة :

- وماذا يحدث اذا لم أفعل ؟

ويصيح بها وهو يخطو نحوها : ماذا ؟
فتقول له وهي ثابتة في مكانها ، ودون أن تطرف لها عين :
- لعلك تحدث نفسك بأن تضربنى !

وكان اجنات معتادا أن يرى الناس يرجفون أمامه اذا كان غاضبا
أو مهتاجا ، ولهذا فقد جن جنونه لما رأى من تحديها له بهدوئها
ورباطة جأشها ، ولم يملك الا أن صاح بها :
- سأريك اذن ...

ثم أرسل ذراعه يريد أن يبطش بها ، لكنها أتت بحركة رشيقة
فى اللحظة المناسبة فتفادت من الضربة ، بعد أن أمسكت بالذراع
الهائلة ، ونثرتها بعيدا عنها ، ثم قالت له بصوت هادئ : « اذا
مستنتى بسوء فلن تدنو منى بعد اليوم »

ثم أخذت عينها العظيمة تضيئان شيئا فشيئا ، وأخذت ميضهما
النفاذ بعيد اجنات الى صوابه ، وقد عرف من قسما وجهها أنها
هى أيضا وحش شرس مثله ، وأنها لن تستسلم أبدا وان ضربها
حتى الموت . فرأى أن يقصر الشر ، فانصرف وهو يقول : « يالك من
امراة جريئة ! »

لقد استسلم لها هذه المرة ، لكنه كان ينوى ألا يتكرر هذا مرة
أخرى ، فقد كان من أشق الامور على نفسه أن توجد فى هذه الدنيا
امراة تأبى أن تسجد بين يديه ، فما بالك اذا كانت هذه المرأة
زوجته ؟ ومع ذاك فقد أدرك أنها لن تستسلم له فى أى أمر من
الامور ، وأن نتيجة هذا لا بد أن تكون ملحمة مروعة بينهما .

وفى اليوم التالى ، بينما كان يرصد كل حركة من حركاتها ،
والدهشة بادية على وجهه العابس المقطب سمع نفسه يتمتم قائلا :
« لا بأس ، سنرى من يكسب المعركة ! » قالها وزوبعة القلق العاتية

تجتمع في أغوار قلبه ٠٠٠ وكان يؤمن بأن القتال كلما نشب سريعا
أسرع اليه بالتمتع بنشوة النصر . ولكن لم تكد تمضي أيام أربعة
حتى أخبرته ناتاشا بأن جنينا يتحرك في أحشائها ، وقد سرت في
كيانه رعشة من الفرح وأخذها في ذراعيه ، وهو يقول لها في صوت
متهدج :

« آه يا ناتاليا لو أن الجنين ولد ٠٠٠ لو أنك وهبت لي ولدا ٠٠٠
أقسم لا أغمرنك بالكداس من الذهب ! ولكن هذا لا قيمة له ! بل
أقسم لا تكونن لك عبدا مدى الحياة ! وأقسم على ذلك بالله العظيم !
وأقسم لا أسجدن عند قدميك لتطئني بهما !

— ليس هذا بأيدينا ، بل الله وحده هو الذي يعلم ماذا يكون
الجنين ٠٠ ؟

قالت هذا لتذكره في لطف ورقة . ويجيبها اجنات في حسرة
وأسف وقد نكس رأسه : « أوه ٠٠ أجل ٠٠٠ الله وحده »

ومنذ تلك اللحظة وهو يترفق بزوجه كأنها طفل صغير .

وقد سألها مرة في لهجة حبيبة وان تكن صارمة : « لماذا تجلسين
هكذا في النافذة ؟ انك تعرضين نفسك للاصابة ببرد شديد ان لم
تحذري ، ثم اني ألاحظ أنك لا تنفكين صاعدة نازلة على السلالم ،
فلماذا ؟ انك تضرين نفسك بهذا . وأرجوك يا ناتاشا أن تزيد في
مقدار ما تأكلين ، اذ لا بد أن تأكلي لشخصين ، ولا بد أن يكون له
نصيبه » .

وكانت ناتاليا قد أخذت تبدو أكثر هدوءا وتفكيراً في أشهر
الحمل ، وأشد انطواء على نفسها ، وكانت الأفكار في حياة الأمومة
المستقبلية تجيش في نفسها ، الا أن هذا لم يمنع التبتسم الهادئ من
الامام بشفتيها ، وأخذت عيناها تلمعان أحيانا بشعاع جديد أشبه
في ضعفه ورفيفه بأول أنفاس الفجر .

وبدأت أول آلام الوضع تنتابها في باكورة يوم من أيام الحريف ،
وعندما سمع اجنات أولى صرخات الألم ترسلها زوجته في جوانب
المنزل امتقع وجهه وأراد أن يقول لها شيئا لكنه لم يستطع أن ينبس
بكلمة ، ومن ثم لوح لها بيمينه محييا وهبط الى الطابق الأرضي
وأوى الى تلك الغرفة الصغيرة التي كانت مصلى والدته ، وأمر الخادم
بأن يحضر اليه شيئا من الفودكا ، وجلس مكتئبا وراح يشرب وهو
ينصت الى الجلبة التي تجرى في المنزل . وكانت أوجه الصور
المقدسة التي تتسم بالقتامة وقلة المبالة تتخايل في شحوب في
الركن الذي تضيئه مصابيح الايقونات . تم سمع وقع أقدام
مصعدة في الدرج . . . وصوت شيء ثقيل يجرونه فوق الأرضية . .
وفرقة أحواض وآنية . . . لقد كان كل شيء يجري في سرعة ، ومع
ذلك فقد كان يخيل له أن الزمن كسيح مقعد لا يكاد يتحرك .

وسمع اجنات صوتا يائسا يقول : « الظاهر أنها لن تستطيع أن
تلد ، ولعل الواجب يقتضى أن نرسل الى الكنيسة ليفتحوا أبواب
الملكوت » .

ثم دخلت الغرفة التالية لغرفة اجنات امرأة صالحة عجوز كانت
تعيش في المنزل كاحدى الخدم ، وأخذت تصلى بصوت مسموع
قائلة :

— يا مولانا ومخلصنا العزيز . . يا من نزلت من السموات لتلدك
العدراء المقدسة . . يا عالما بضعف المخلوقات جميعا . . اغفر
لهذه . . خادمتك الوفية . .

ومن حين الى حين كانت صرخة تمزق نياط القلب تتردد في البيت
فتعلو على جميع الاصوات ، أو ربما سمع أنين طويل يدوى في جميع
غرف المنزل ثم يتلاشى في أركانها التي أخذت تنتشر فيها ظلال المساء ،
وكان اجنات يرسل نظراته الضارعة الى الايقونات ، متنهدا من أعماقه
وهو يحدث نفسه قائلا : « أما والله لو جاءت بنتا بعد هذا كله ! »

وكان يقطع انتظاره بالنهوض بين حين وآخر ليصلب على نفسه
وليركع بين أيدي الايقونات ثم يعود فيجلس عند المائدة مرة أخرى
ليعكف على شرب الفودكا التي لم تعد تسكره الآن ، ثم يستسلم
لأغفاء خاطفة • وعلى هذا النحو أمضى المساء كله والليل جميعه
وصباح اليوم التالي •

وعند الظهر قدمت القابلة وهي تهبط مسرعة على الدرج وتصبح
بصوت سعيد مسرّح :

— تهنئاتي يا اجنات ماتفييفتش لقد ولدت ابنا !

— هل — أنت لا تهزلين •• اليس كذلك ؟

— يا الهى •• أنا لا أهزل ، وما الداعى للهزل ؟

وهنا يأخذ اجنات نفسا عميقا يملأ صدره الكبير كله ، ثم يركع
على ركبتيه ليصلى لله فى صوت متهدج ويداه الى صدره قائلاً : « حمدا
لك يا الهى — لا شك أنك لم تشأ أن تنقطع ذريتي التى سوف تكفر
عما ارتكبتها فى حقك من الذنوب •• فشكرا لك يا الهى الكريم ! »

ثم ينهض ويشرع فى اصدار أوامره بصوت مجلجل قائلاً : « هيا !
ليذهب أحدكم الى كنيسة سانت نيكولاس ليحضر القسيس ! وليقل
له ان اجنات ماتفييفتش هو الذى يطلبه ! وليخبره بأنه سيقراً صلاة
لامرأة ولدت طفلا ! •• »

ولم يكده يفرغ من أوامره حتى دخلت إحدى الخدم وهي تقول فى
صوت قلق :

« سيدى اجنات ماتفييفتش ! ان سيدتى ناتاليا فومينيشنا تسأل
عنك • انها فى حالة سيئة »

وهنا يصيح اجنات بصوت مدو وعيناه تلعبان بشرا : « فى حالة
سيئة ؟ •• بل انها ستتعافى • قولى لها اننى آت سريعا واننى فخور

يها ، واننى سأتبها بهدية عظيمة ! انتظري ! جهزي شيئا من الطعام للنفس ، وأرسلنى فى طلب ماياكين .. الاشبين ! »

والظاهر أن نشوة الفرح قد جعلت جسمه الكبير الضخم يزداد كبيرا على كبره ، وكنت تراه يندرع الغرفة وهويحك يديه احدهما بالآخرى ، ناظرا الى الايقونات شاكرا مصليا ، ملوحا بذراعيه .. ثم لم يلبث أن ذهب بعد هذا الى زوجته .

وكان أول ما استرعى انتباهه جسم أحمر صغير كانت القابلة تغسله فى حوض صغير ، وما كاد يراه حتى عقد يديه وراء ظهره ، وراح يخطو على أطراف قدميه ، متقدما نحوه ، وهو ينظر الى شفثيه فى صورة مضحكة .. لقد كان الطفل يصرخ ، ويتحوى وهو فى الماء .. عريانا ، عاجزا ، مثيرا للرافة والرثاء !

ثم راح اجنات يقول للقابلة فى صوت كله ضراعة : « خنى بالك منه أرجوك .. حاسبى عليه ، فهو ليس له عظام بعد ! »

ونظرت القابلة اليه وهى تبتسم بفمها الاهتم الخالى من الأسنان ، وجعلت تتشاقط الوليد من يد الى يد فى خفة ورشاقة ، ثم قالت له : « اذهب الى زوجتك ! »

ولم يسعه الا أن يطيع ، ثم راح لزوجته وهو يخطو نحوها :
— هيه ناتاليا !

وما كاد يدنو من السرير حتى أزعج الكلة قليلا ، وسمع ناتاليا تقول فى صوت ضعيف : « اننى لن أسلم مما أنا فيه ! »

وراح اجنات يحملق فى وجه زوجته الفارق فى تلك الوسادة البيضاء التى كانت تنتشر فوقها خصل شعرها الاسود ، أشبه ما تكون بالافاعي الميتة . ولم يكد يميز ذلك الوجه الاصفر الخالى من الحياة الذى انتشرت التجاعيد القائمة حول عينيه الكبيرتين المحملقتين ، بل

لم يكده يميز هاتين العينين المفزعيتين المسمرتين بلا حراك فى شىء ما وراء الحائط .. وهكذا كان هذا انذارا بوقوع كارثة تؤجل دقات السعادة فى قلب اجنات .

- حسن .. هذا هو الذى يحدث دائما فى مثل هذه الأحوال .
قال ذلك وهو ينحنى ليقبلها ، لكنها أنشأت تقول وهى تنظر فى عينيه مباشرة :

- اننى لن أسلم مما أنا فيه أبدا !

لقد كانت شفتاها بيضاوين باردتين ، ولم تكده شفتاه تلمسانهما حتى أيقن أن الموت قد دب فى جسمانها بالفعل ..

وأنشأ يتمتم وقد أجس بالخوف يجثم على صدره ويبهز أنفاسه :
« يا الهى ! ناتاليا .. هذا لا يمكن ! انه .. انه لا يستغنى عنك ..
فيم تفكرين ؟ »

وهكذا وقف وهو لا يستطيع أن يصنع شيئا الا أن يهتف بزوجه .
وكانت القابلة لا تفك ترقص من حوله وهى تهدد الطفل الصارخ فى الهواء ، محاولة أن تجعل اجنات يفهم ما تقول لكنه لم يكن يسمع شيئا ولم يكن يستطيع أن يحول عينيه عن وجه زوجته المخيف المفزع .
وكانت شفتاها تختلجان ، وكان فى وسعه أن يتلقف منها بعض الكلمات الا أنه لم يكن يفهم منها شيئا . ثم جلس على حافة السرير وجعل يقول بصوت متقطع لا يعنى شيئا :

« ولكن .. انه لا يستطيع أن يعيش من غيرك .. لقد ولد توا ..
هيا .. خذى بالك من نفسك .. لا تفكرى مطلقا فى مثل هذا الامر ..
اطردى هذه الفكرة من رأسك .. اطردىها ! »

لقد كان يتكلم وهو يعلم أن كلامه لا فائدة فيه . وكانت الدموع تتجمد فى عينيه ، وهو يحس أن شيئا ثقيلا كالرصاصة ، باردا كالثلج ينصب فى صدره .

ثم سمع ناتاليا تتمتم بصوت غير مسموع تقريبا قائلة :

« سامحنى • وداعا •• اعتن به • لا تشرب »
ثم حضر القس ووضع شيئاً ما فوق وجهها ، ثم شرع من خلال
تأوهات كثيرة ينشد هذه الدعوات :

« يا الهنا العظيم يا خالق الكون •• يا شافى جميع الامراض ،
اشف خادمك الوديعه ناتاليا التى وضعت طفلاً توا •• ارفعها يا اله
السموات من فوق فراشها الذى ترقد فيه •• ذاكرة ما قاله نبيك
داود : « انهم ينهمكون فى المعاصي ، وهم أشرار فى عينيك »

ثم تهافت صوت القس الطاعن فى السن ، وتجهم وجهه الناحل ،
وانتشر عبق البخور من ثيابه •• ثم وصل صلاته قائلاً :
« ثم نج الطفل الذى وضعت من كل شر •• ومن كل شدة ••
ومن كل المتاعب •• ومن الأرواح الشريرة التى تطيف بالنهار ،
وتطيف بالليل » •

وكان اجنات فى أثناء ذلك يبكي فى صمت • وكانت دموعه
الغليظة الدافئة تتساقط فوق الذراع العارية •• ذراع ناتاليا ••
لكنها لم تكن تستطيع أن تحس شيئاً منها •• فقد كانت ذراعها لا
تتحرك ولا تسير فيها أية رعشة حينما كانت الدموع تنهمر فوقها ••
وعندما انتهت الصلاة ، راحت ناتاليا فى غيبوبة ، ثم وافتها المنية بعد
يومين ، دون أن تنفرج شفتها بكلمة لأحد - لقد ماتت فى مثل هذا
السكون والصمت اللذين لازاماها فى حياتها • وقد احتفل اجنات
بدفنها احتفالاً فخماً ، وبعد أن تم تنصير ابنه وتسميته فوما ، عهد
به ، والاسف يلاً قلبه ، الى صديقه ماياكين ، الذى كانت زوجته قد
وضعت طفلاً هى الاخرى ، لتتعهد برعايتها •

ولقد تركت وفاة ناتاليا كثيراً من الشعرات البيض فى لحية اجنات
•• الا أنها بالرغم من ذلك زادت فى حياته شيئاً جديداً - شيئاً لطيفاً
ظريفاً •• ملاً عينيه بهجة ونورا :

الفصل الثانى

كان ماياكين يعيش فى بيت كبير ذى طابقين ، تحيط به حديقة واسعة تنمو فيها أشجار جميلة طويلة العمر من أشجار الزيزفون ، التى كانت أغصانها المورقة تغطى نوافذ المنزل بستائر داكنة من الدانتلا المخرمة ، وكان كل ما فى وسع الشمس أن تصنعه هو أن تتخلل هذه الستائر المورقة ، وتتسرب الى الغرف القائمة المثقلة بالصواوين والصناديق الكثيرة وشتى أنواع الاثاث ، مما كان يجعلها دائما تبدو فى مظهر معتم صارم . وكانت أسرة ماياكين أسرة مشهورة بالتقى والورع ، ومن ثم فقد كان جو الدار لا ينفك تجلجل فيه أصوات التوبة ودعوات الانابة والتسبيحات والصلوات ، كما كان ينتشر فيه عبق البخور ودخان الشموع ورائحة الزيت الذى تضاء به مصابيح الايقونات . وكانت الطقوس الدينية كلها تجرى فى دقة ونظام تام ، وبباعث من السرور بها والاقبال عليها كذلك ، وذلك أن أفراد العائلة الذين كانوا يعيشون فى هذا البيت كانوا يوجهون كل نشاطهم المتدفق الحياش الى مسائل الورع وأمور التقوى . وكانت أطيات السيدات المتشحات بالثياب السوداء تشاهد رائحة وغادية خلال تلك الغرف المعتمة الحائقة المقبضة ، وفى أرجلهن تلك الاكواث - أو قل الشباشب - الخفيفة ، وعلى وجوههن مظاهر الورع المصطنع .

وكانت أسرة ماياكين تتكون منه ومن زوجته وابنته ومن خمس قريبات كان عمر صغراهن أربعة وثلاثين عاما ، وكان هؤلاء القريبات جميعا يتساوين فى التقى والزهد فى المسرات ، وكن جميعا ياتمرن بأمر آنتونينا ايفانوفنا ، زوجة ماياكين ، وهى امرأة طويلة نحيفة.

سمراء ، ذات عينين رماديتين تلمعان ذكاء . وكانت محبة للسلطة ، وكان لماياكين ولد يسمى تاراس ، الا أن اسمه لم يكن يذكر قط بين أسماء أفراد العائلة ، وكان أهل المدينة يقولون ان تاراس حينما كان عمره تسع عشرة سنة ، كان قد ذهب الى موسكو للدراسة ، وكان قبل تزوج بعد ذلك بثلاث سنين ضد رغبة أبيه ، ومن ثم فقد تبرأ منه أبوه ياكوف ماياكين ، ولم يعد أحد يدري ماذا صار اليه أمر هذا الابن بعد ذلك ، الا أنه قد أشيع أنه نفى الى سيبيريا لجريمة ارتكبتها .

أما ياكوف ماياكين فكان رجلا ضئيلا نحيفا مفتول العضل ، ذا لحية مدببة محمرة صهباء ، ونظرات عينيه المائلتين الى الحضرة تكاد تقول للناظر اليه :

« لا بأس يا صاحبي لا بأس .. اننى أعرف ما يدور بنفسك ، ولكنك اذا كفتت عنى اذاك فلن أبوح بسرّك لا أحد »

وكان له رأس بيضى كبير لا يتناسب وجسمه الصغير . وكانت جبهته العريضة ذات الأخاديد العميقة تندمج فى صلعة رأسه بحيث يبدو كأن له وجهين ، وجه يستطيع كل انسان أن يراه ، لما يحفل به من بدوات الذكاء والنفاذ ، وما يبرز فيه من ذلك الانف الضروفي الطويل ، ثم وجه آخر خال من العيون ، وكله تجاعيد حتى ليخيل اليك أن ماياكين قد أخفى عنك عينيه وشفتيه فى تلك الغضون حتى يحين الحين للكشف عنها ، حينما يستطيع أن يطلع على الدنيا بعينين أخريين ، وأن يبتسم لها ابتسامة جديدة !

وكان يملك معملا لصنع الحبال ودكانا على أحد أرصفة السفن مملوءا الى سقفه بالحبال والقنب والسلب ، وكان له فى مدخل هذا المحل غرفة مكتب يدخل اليها من باب زجاجى ذى مفصلات تحدث صريرا مزعجا . وكان المكتب يشتمل على درج كبير قبيح الشكل ، أكل الدهر عليه وشرب ، وللدرج كرسي واطىء ذو ذراعين كان يجلس عليه

ماياكين ، ويقضى عمره فى شرب الشاي وقراءة صحيفته المفضلة الموسكوفسكيه فيدموستى . وكان يقع من نفوس زملائه التجار موقع الاحترام ، وكان معروفا بينهم بأنه رجل سريع الفهم واسع الادراك . وكان مغرما بالتباهى بأبائه وآباء آبائه ، وكان يقول بصوته ذى الازيز :

« لقد كنا ، آل ماياكين تجارا منذ عهد الملكة كاترين ، وبالاختصار ان الدم الذى يتدفق فى عروقى دم منسب ! »

ففى هذه العائلة اذن ، أمضى ابن اجنات جوردييف السنين الست الاولى من عمره . وكان فوما ، وهو فى السنة السادسة ، يبدو برأسه الكبير وكثفيه العريضتين أكبر من سنه ، بسبب كبر جسمه ، وبسبب هذا البريق الذى كان يشع من عينيه السمرالوين اللتين تشبهان ثمرتين من ثمار اللوز . وكان ولدا هادئا ، الا أنه كان من هذا النوع الذى يصر على أن يكون له أسلوبه الخاص فى الحياة . وكان ، هو والصغيرة ليوبا ابنة ماياكين ، يقضيان النهار بطوله يلعبان بلعبهما تحت رعاية احدى قريبات الاسرة ، تلك الخادمة السمينة الساكنة اعجوز المثلثة بآثار الجدرى ، التى كانوا يسمونها لسبب من الاسباب « بوزيا » وكانت مخلوقا فيه وحشة وفيه انقباض ، حتى لقد كانت تكلم الطفلين اذا كلمتهما ، بكلمات قصيرة خاطفة . وبصوت هادى خفيض . وكانت تحفظ عددا لا حصر له من الصلوات والتسابيح ، ولكن يبدو أنها لم تكن تعرف شيئا من الحكايات . لأن فوما لا يذكر أنه سمع منها حكاية ما .

وقد سارت الامور على خير حال بين فوما وليوبا ، لكنها كانت اذا عاكسته أو أثارت غضبه كان لونه يمتقع ، وكانت عيناه تدوران دورانا مضحكا ، وكانت خياشيمه تنبسط ، وربما هجم عليها وراح يضربها بكل ما فيه من قوة ، وعند ذلك كانت تصيح وتصرخ ، وربما جرت الى والدتها لتشكوه اليها ، ولكن آنتويننا ايفانوفنا كانت تحب فوما ولم تكن تعير شكواى ابنتها أدنى التفات ، وكان هذا منها يقوى أواصر

الصدقة بين الطفلين • أما أيام فوما فكانت طويلة متشاكلة • وكان كلما استيقظ في الصباح اغتسل ، ثم ركب أمام ايقونات ليتمتع بصلوات لا نهاية لها • وبعد ذلك تجلس العائلة لفطورها الذي تشرب فيه قدرا كبيرا من الشاي ، وتاكل الكثير من لقمة القاضي والكعك والفطائر المحشوة باللحم • فاذا انتهى الفطور خرج الطفلان ، ولاسيما في أيام الصيف ، يتجولان في الحديقة الشجرية التي كانت تنتهي بأخدود عميق مظلم تنتشر منه أبخرة وأشياء مخيفة • ولم يكن يسمح لهما بالاقتراب من هذا الاخدود ، وكان هذا يضاعف خوفهما منه • فاذا كان الشتاء لعبا داخل المنزل حتى وقت الغداء ، اذا كان الجو شديد البرودة ، فاذا كان غير ذلك ذهبوا يتزحلقان بالزحافات على ثلج تل سحيق •

وعند الظهر ، كانا يتناولان غداءهما « على الطراز الروسى القديم الصالح » كما كان ماياكين يقول ! لقد كان أول ما يوضع على المائدة مطبقية كبيرة ممتلئة بحساء الكرنب ، ليس فيها شيء من اللحم ، ولكنها تشتمل على أقراص من العيش المحمر وكمية كبيرة من الدسم العائم على سطح الحساء ، ثم تقدم شرائح من اللحم على حدة لتؤكل مع الحساء ، ثم يتلو هذا لحم محمر من أى نوع • • لحم خنزير مثلا ، أو لحم أوز أو لحم عجل أو لحم كرش مخلوط بشريد من دقيق الحنطة • • ثم يلي ذلك شوربة بالكبد والكلاوى أو شوربة بشعرية ، ويختتم هذا كله بشيء من الحلوى الجيدة • أما الشراب الدائم فكان شراب الكفص المصنوع من العرعر أو غنبد الديب أو الخبز - وكانت آنتونينا ايفانوفنا تحتفظ على الدوام بأنواع مختلفة من هذا الشراب • وكانوا يأكلون فى صمت وسكون ، وكان ما يبذلونه من جهد فى التهام طعامهم يجعلهم يرسلون تهديدات متعبة • وكان الطفلان يتناولان طعامهما على حدة من اناء واحد • وباقى الاسرة من اناء واحد كبير آخر • ولم يكونوا يصنعون شيئا بعد أكلة كهذه الا أن يناموا ، ولهذا كانت الحركة تخدم فى المنزل ساعتين أو ثلاثا ، ولم يكن يسمع فى منزل

ماياكين الا الشخير والتنهدات الناعسة !

فاذا صحوا تناولوا الشاي وراحوا يرددون ما يحاك من شائعات حول شماس الكنيسة والمرتلين وأنباء العرس الاخير أو سلوك بعض التجار من معارفهم .

وقد يقول ماياكين لزوجته بعد الفراغ من شرب الشاي :
« وبعد فيا أماء .. على بالكتاب المقدس » .

وكان أحب ما يقرؤه من هذا الكتاب سفر أيوب ، وكان اذا وضع نظارته ذات السلوك الفضية على أرنبه أنفه التي تشبه منقار الصقر ، استدار حوله ليلقى نظرة على الاسرة كي يطمئن على أنهم حاضرون جميعا ، وكان يلذه أن يجدهم جميعا فى أماكنهم المعتادة ، وقد بدوا فى هيئتهم تلك الكئيبة العادية التى يظهرون فيها بمظهر التقوى والصلاح .

« كان يوجد رجل فى أرض أوز » .

وهكذا بدأ ماياكين قراءته بصوته ذى الصرير ، وكان فوما الذى كان جالسا مما يلى ليوبا على الكنبه التى فى الركن يعلم أن اشبينه ماياكين ربما توقف قليلا ليتمر بيده على هامته الصلعاء ، وكان يرسم لنفسه وهو يصغى الى ماياكين صورة خيالية لهذا الرجل الذى يسكن فى أرض أوز ، فكان يتصوره طويلا عاريا ذا عينين عظيمتين كعينى المخلص المرسوم فى الايقونة ، وله صوت كصوت الطلبة النحاسية التى يطبل عليها الجنود فى ثكناتهم . وكانت كلما مرت دقيقة ازداد هذا الرجل طولا ، حتى اذا أصبح طويلا كالسماء مد يديه القائمتين بين السحاب فجعله شقين وراح يصيح بصوته المزعج :

« لماذا يوهب النور لرجل طريقه خافية ، وقد حل الله فيه ! »

لقد كان فوما يرتعد من الخوف وكانت سنوات النوم قد هربت جميعها من عينيه عندما كان ينظر الى اشبينه وهو يعبت بشعرات من لحيته ينتفها ويقول فى فكاهة رشيقة :

« ان ثم زميلا جسورا يليق بك يا فوما ! »

لقد كان فوما يعرف أن ماياكين يشير الى هذا الرجل الذى من أرض أوز ، وقد أكد له هذا ابتسامة إشيينه • ان الرجل لم يكن قمينا بأن يشد السماء فيوقعها على الأرض ثم يمزقها اربا اربا بيديه الجبارتين • ثم رأى فوما الرجل مرة ثانية بعين خياله ، وكان هذه المرة جالسا على الأرض و « لحمه مغطى بالدود وركام التراب » وكان جلده قد أصبح « مشققا كريبه الرائحة » والآن أصبح الرجل ضئيلا ضعيفا وراح ينظر الى الدنيا كما ينظر اليها أحد الشحاذين الذين يقفون عند سقيفة إحدى الكنائس •

وقال فوما متسائلا : « ومن ذا الذى يستطيع أن يخرج شيئا نظيفا من شيء غير نظيف ؟ »

فقال ماياكين شارحا : « لقد وجه هذا السؤال الى الله ، اذ سألته قائلا : كيف يمكن أن أكون صالحا اذا كنت قد ولدت من لحم امرأة ؟ » وهنا جعل ماياكين ينظر الى النساء مستقصيا وفى عينيه لمعة من النصر ••

فتنهدت النساء قائلات : « لقد برهن الرجل الصالح على قيمة نفسه » ••

وهنا قال ماياكين وهو يضحك ضحكة ساخرة :
« أيتها البلهاء اذهبن وأمنن الطفلين فى فراشهما » •

وكان اجنات جورديف يحضر الى آل ماياكين يوميا ، وكان يحضر لابنه كثيرا من اللعب ، وكان يتلقفه من على الأرض ثم يحتضنه بلذة وشغف ، الا أنه كان يبدو أحيانا منحرف المزاج • لقد كان يسأل ابنه فى شيء من القلق المكتوم :

— ماذا يجعلك بادى الكتابة مهموما هكذا ؟ لماذا لا تضحك ولا تطرب.

وقد قال لصديقه ماياكين ذات مرة متسائلا :
- أخشى أن فوما سيكون يوما ما كما كانت أمه ، لقد أصبح له مثل
- عينيها الحزبنتين !

ولكن ماياكين أجابه ضاحكا : « ليس هذا أوان التفكير فى ذلك ،
لقد كان ماياكين يحب فوما حبا شديدا ، وقد هلع هلعاً بالغا حينما
قال له اجنات فى احدى زياراته انه ينتوى أن يسترد ابنه ليعيش
معه فى منزله . » وقد قال له ماياكين يوم ذاك مفزوعا :

- دع الولد يا شيخ يعيش معنا فقد أخذ علينا وتعود الحياة بيننا . .
انظر . . انه يبكي . . ألا ترى !

- لا بأس . . فسيقلع عن بكائه عما قليل . . أتظن أن الله قد أعطاني
ولدا لكى أعطيك اياه بدورى ؟ ثم . . ان الاحوال فى منزلك هذا كثيية
موحشة . . انه أشد وحشة من دير . . وهذا مما يضر بالولد . . ثم
أنا . . لشد ما أشعر بالفراغ بسبب بعده عني . . اننى أعود الى
منزلى لأجده دارا خاوية ، ليس فيها ما يسعدنى ويثير البهجة فى
نفسى . . وأنا لا يمكننى أن آتى لأسكن معك من أجله . . فليست أنا
الذى كان المقصود أن أكون له . . بل كان المقصود أن يكون لى . .
تلك هى المسألة يا صديقى . . وقد حضرت أختى آنفيسا لتعيش معى
. . وستوليها عنايتها .

وعلى هذا فقد انتقل فوما الى دار أبيه . .

وقد استقبلته عند باب هذه الدار امرأة عجوز مضحكة ذات أنف
طويل مقوس وفم كبير أهتم . . وكانت طويلة الجسم مستديرة الكتفين
ذات شعر أشيب ، تلبس ثوبا رماديا ، وتلف شعرها الذى وخطه
الشيب ، بمنديل حريرى صغير - ولم يشعر فوما نحوها بشئ من
المحبة أول الامر ، بل كان يوجس منها خيفة ، لكنه عندما رأى عينيها
السوداوين المتسمتين قفيضان محبة وحنانا وسط هذا الوجه
المجعد - المكرمش - اندفع نحوها ليخفى وجهه فى نطاقها الواسع .

الفضفاض ، وهنا لم يسعها الا أن تقول له بصوتها الناعم والعاطفة :
تهزها هذا ، وهى تربت على رأسه الصغير :
- يا ولدى الصغير اليتيم ! انظر يا اجنات كيف يحتضننى ويتشبث
بى هذا الحبيب الصغير !

وكان فى غرامها بفوما شئ حلو رقيق لكنه غريب غير عادى ..
شئ لم يعهده اجنات جورديف من قبل ، مما جعله يحملق فى عيني
أخته العجوز فى تطلع ورجاء . لقد كانت مهمة هذه السيدة هى أن
تبدأ تعويد الغلام على حياة لم تكن تدور له فى بال من قبل . فهى
عندما ذهبت به لتضعه فى فراشه ذلك اليوم الاول ، لم تلبث أن جلست
الى جانبه ، ثم مالت نحوه قليلا وهى تقول :

- هل أروى لك حديثه ؟!

وتعود فوما بعد ذلك أن يستغرق فى نوم عميق لذيذ على صوتها
الناعم الباعم ، وهو يزخرف لنفسه الصور الحلوة الرائعة من عالم
الخيال . ولقد كان يعجب من جمال هذا العالم عبا . وكان من حسن
حظه أن عمته العجوز هذه كان فى رأسها كنز من الاساطير لا تفنى
مادته ، وذاكرة عجيبة وخيال أعجب يساعدانها على سرد تلك الاساطير
وكان يخيّل فوما حينما تغفو عمته أحيانا ، وهى تسرد عليه قصصها
الشائقة ، أنها هى هذا ال - بابا - يا جا ، بطل أساطيرها .. بابا -
يا جا صالح رحيم .. وفى أحيان أخرى كان يتصورها فى صورة
فاسيليزيا الحكيمة الجميلة .. أما اذا رقد بعينيهِ المفتوحتين ، وأنفاسه
الوانية ، محملا فى ظلال التهاويل المرتعشة ، المتصاعدة من مصابيح
الايقونات .. فقد كان خياله يملأ تلك الظلال بمنظر عجيبة يصوغها
من قصص تلك الاساطير . وكانت الظلال الصامتة - الحية مع ذاك -
تحتشد فوق الجدران وأرضية الحجرة وتنزل على عينيها ، وكان فوما
يستشعر شيئا من الرهبة ، وان تكن رهبة لطيفة مسلية مع ذاك ،
وهو يحيل هذه الظلال فيجعلها صورا وألوانا من الحياة ، ثم لا يلبث

أن يبطلش بها ويمزقها في لحظة ، بخطفة واحدة من أهذاب عينيه ،
وعند ذلك كانت عيناه تأخذان تعبيراً جديداً ، أقل خطورة وجداً ،
وأكثر دعة وطفولة ٠٠ لقد كان الظلام والوحشة يثيران فيه احساساً
عميقاً من اللفة والترقب ، يدفعه الى حب الاستطلاع ، ويجعله لا يزال
الرعب المنبعث من بعض الاركان المظلمة ٠٠ فهو يذهب اليه ليستطلع
ماذا يختبئ فيه ٠٠ ولم يكن يجد فيه شيئاً بالطبع ٠٠ الا أنه لم يكن
يفقد الامل في أن يجد فيه شيئاً يوماً ما ٠

وكان أبوه يثير الخوف في نفسه ، الا أنه كان يحبه مع ذلك ٠ وكان
جسم اجنات الضخم ، وصوته المجلجل الرنان ، ووجهه الملتحي ،
وشعره الكثيف الاشيب ، وذراعا الطويلتان الجبارتان ، وعيناه
اللماحتان ٠٠ كان هذا كله يجعله في روع الطفل أشبه بأحد لصوص
الغاب في احدي الاساطير ٠

وفي أحد الايام ، وكان فوما قد بلغ السابعة من عمره ، راح يسأل
أباه الذي كان قد غاد توا من رحلة طويلة ، عن المكان الذي كان فيه ٠
فلما قال له أبوه : « من أقصى الفولجا » راح يسأله هذا السؤال
العجيب : « هل كنت في غارة من غاراتك ؟ » يريد فوما بالطبع
غارة من تلك الغارات التي يشنها لصوص الغاب !

وهنا ذهل أبوه ٠٠ وراح يتساءل وقد حمله وصعد حاجبيه :

— ١٠٠١ هـ ؟ !

— لكنك ٠٠ لص يا أبى ٠٠ اليس كذلك ؟ ٠٠ أنا أعلم أنك لص !
قالها فوما وهو يدير عينيه في خبث ، وقد بلغ به السرور مبلغه
لاعتقاده أنه استنطع بمثل هذه السهولة اختراق الحجب التي تحجز
بينه وبين حياة أبيه السرية !

وقد رد عليه أبوه في صرامة :

« انما أنا تاجر ! »

الا أنه بعد لحظة من التفكير راح يبتسم ابتسامة طريفة مهبدة ، ثم
قال :

- وأنت مغفل صغير ! أنا تاجر حبوب يا أبله .. وأمتلك عددا من
المرائب البخارية ! ألم تقع عينك على السفينة يرمك ؟ هذه إحدى
سفنى .. وسفنك أنت أيضا !

وعند ذلك أنشأ فوما يقول فى تنهدة خاطفة : « يا لها من سفينة
ضخمة ! »

وهنا قال له أبوه وهو يداعبه :

- اذن .. ما دمت صغيرا فسأشتري لك سفينة صغيرة .. على
قدك ! فهل أفعل ؟

وقال فوما متلهفا : « أوه .. أجل ! »

الا أنه بعد ما أجال تفكيره فيما دار بينه وبين أبيه من حديث عاد
يقول ، كالذى يعتذر : « لقد كنت أعتقد أنك لص ! »

- أنا تاجر قلت لك !

وقد قالها اجنات محتدا ، وهو يتفرس مشفقا فى ابنه الذى كأنما
بدت عليه خيبة الرجاء فى أن أباه ليس لصا .

وسأله فوما بعد لحظة : « مثل بابا فيدور ماياكين ، الذى يبيع
السلب والحبال ؟ »

- أجل . مثله ، لكننى أغنى منه بكثير .. ان لدى أموالا أكثر
مما لدى فيدور .

- لديك أكوام من المال ؟

- ربما .. ولعل بعض الناس عندهم أكثر مما عندى .

- كم خزنة ؟

- ماذا ؟ !

- كم خزنة من المال ؟

- يا مغفل .. ان الناس لا يقيسون الغنى بعدد الخزائن .

- بل هم يفعلون ! !

وقد قالها فوما منتشيا وفي انتعاش شديد ، ثم رفع عينيه الى أبيه متعجلا الشرح .. ثم أكمل حديثه فقال :

- لقد سرق مكسيم اللص ذات مرة اثني عشر صندوقا مملوءة بالذهب ، فضلا عن فضة كثيرة ، من رجل غني ، ثم سطا على الكنيسة بعد ذلك ، واخترق بسيفه صدر رجل آخر ، وقذف بجسمه خارج قبة الجرس ، لأنه كان يحاول دقه طلبا للنجدة .

وهنا راح اجنات يسأل ابنه ، وقد سر سرورا كبيرا لما رأى من انتشاء فوما وانتعاشه :

- أكانت عمّتك تحدثك بكل هذا ؟

- أجل .. ولماذا ؟

فضحك اجنات ثم قال : « لا شيء .. ولكنني فهمت الآن لماذا جعلت من والدك لصا ! »

وسأله فوما في رجاء وتمن :

- لعلك كنت لصا ذات مرة !

- كلا .. أبدا أبدا .. واطرد هذه الفكرة من رأسك !

- أبدا .. أبدا .. ؟

- أبدا أبدا ، قلت لك : يا لك من غبي صغير أتخسب أن مما يشرف أى انسان أن يكون لصا ؟! انهم جميعا مجرمون آثمون هؤلاء اللصوص الذين تعجب بهم .. انهم لا يؤمنون بالله ، ويسطون على الكنائس ، ومن أجل هذا تستنزل الكنائس ومن فيها لعنة الله عليهم .. هم ! ولكنني جئت لأقول لك يا بني ، انه قد آن أوان تعليمك .. وهذا هو الوقت المناسب لذلك ، أيها العفريت الصغير .. ستدرس طول الشتاء ، فاذا أقبل الربيع ، وحان موسم أعمالى ، أخذتك معى على الفولجا .. وسأله فوما في رهبة :

- تعنى أننى أذهب الى المدرسة ؟

- بل تبدأ دراستك أولا مع عمته في المنزل .
ومنذ ذلك اليوم وفوما الصغير يجلس كل صباح عند منضدته
لبكر ما تقولته عمته من أحرف الهجاء السلافى ، مشيرا اليها باصبعه :
آز . . بوكى . . فيدى . .

حتى اذا وصل الى الاحرف :
برا . . فرا . . جرا . . درا . . أخذت المقاطع تزن في أذنيه رنيناً
رتيباً مضحكاً . . ولم يكن يملك نفسه من الضحك عليها فعلا . .
وكان يكرها كرا سريعا - ثم لم يمض زمن طويل حتى كان يشرع
فى قراءة أولى تساويحه :
- مبارك هو الذى . .

وكانت عمته تشجعه وهى مسرورة بنجاحه قائلة :
- عال . . عال . . يا حبيبى . . صح يا فوموشسكا . . صح
يا حبيبى !

وحينما حدثت أباه عما ناله من التقدم فى دراسته ، التفت اليه
وقال له فى لهجة فيها من الجدة والخطورة ما فيها :

« عال جدا . . مبروك عليك يا فوما . . سأخذك معى الى أستراخان
فى الربيع . . وعندما يأتى الخريف سوف أرسل بك الى المدرسة ،
لقد كانت الايام تمر مرا سريعا فى نظر فوما . . حتى لكانها كرة
ندحرج على منحدر تل من التلال ، وكانت عمته لعبته ، بقدر ما كانت
معلمته . وكانت صديقة طفولته ليوبا ماياكيينا تحضر أحيانا لزيارتهما ،
فكانت العمة العجوز الشمطاء تنقلب فتكون طفلة مثلهما تماما ، وكانوا
جميعا يلعبون لعبة الاستغماء ، وربطة العينين . وكان الطفلان
بضحكان من أعماقهما حينما يريان العمة العجوز تتخبط وسط الغرفة
والمندبل مربوط على عينيها ، ويداهما ممدودتان ، وهى تتعثر بالكراسى
والمناضد بالرغم مما تبديه من حذر ، وهى تتحسس الأماكن التى
يختبئان فيها ، مغممة فى أنفاسها المقطوعة :

« العفريتان الصغيران .. القردان الشقيان .. يا ترى أين هما
مختفيان ؟! »

لقد كانت الشمس ترسل أشعتها اللطيفة على هذا البدن العجوز
ذي الروح الشابة - تلك الحياة المعتقة التي تصب ما تبقى فيها من مدخر
القوة والعافية لتنضج هاتين الروحين وتزيدهما بهجة .

وكان اجنات يذهب الى بورصة الجيوب فى الصباح الباكر ، ثم
يبقى هناك فى كثير من الاحيان حتى المساء ، وربما ذهب فى المساء
لزيارة أصدقائه ، أو لحضور جلسات مجلس المدينة ، أو الى أى مكان
آخر . وفى بعض الاحيان كان يعود الى المنزل مخمورا لا يعي . وكان
فوما ، فى أول الامر ، يهرب منه ليختبئ فى مكان ما ، حينما يراه
كذلك ، لكنه سرعان ما تعود هذا منه ، وكان يسره أن يلتقيه على هذه
الصورة من أن يراه مقيقا واعيا ، فقد كان يبدو أكثر سذاجة وبراءة
وهو سكران ، وأكثر بشاشة وودا .. وفضلا عن هذا فقد كان يبدو
أكثر سخفا ومعاينة ! وكان اذا عاد ليلا ، يرسل من صوته المدوى
ما يوقظ الطفل من نومه العميق :

- أنفيسا ! افتحى يا أختى العزيزة لكى أرى ابنى وورينى ..
افتحى يا أختى .. افتحى .. با لك من أخت طيبة !

وربما كان جواب أخته الوحيد هو :

- اذهب ونم أيها السكير العرييد .. الواقف هناك .. تلخبط
وتهذى ولا تستحى من شيبتك هذه !

- أنفيسا ! ألا تسمحين لى بأن ألقى نظرة واحدة على ابنى ! نظرة
واحدة فقط !

- قلع الله عينيك من كثرة ما تشرب من هذه الخمر !

وكان فوما يعرف أن عمته لن تفتح لايه باب الغرفة .. ولهذا
كان يعود الى فراشه ، تاركا اياهما فيما فيه من شجار ونقار .

فان كانت عودته نهارا وهو فى هذه الحالة من السكر ، فربما تلقف
ابنه فى يديه الجبارتين ، ثم راح يضحك فى نشوة سكره ، وجعل
يجىء ويروح فى الغرفة وهو يقول :

— ماذا تريد أن أشتري لك يا فوما ؟ تكلم ! حلويات ؟ لعب ؟ هيا !
أطلب منى أى شىء ٠٠ فلن يوجد فى هذه الدنيا شىء لا يمكن أن
أشتريه لك ٠٠ تذكر هذا ٠٠ لقد جمعت مليون روبل ٠٠ ولا زلت
أجمع أكثر وأكثر ، وهى كلها لك !

الا أن بشاشته تلك ربما انطفأت فجأة كما تنطفىء الشمعة فى
هبه من الريح ٠ فترى خديه المنتفخين وقد انخسفا ، وعينييه الملتهبتين
وقد أغرقهما الدمع ، وشفتيه وقد عرتهما تكشيرة واجمة ٠

وربما نظر الى أخته وقال :

— أنفيسا ! ماذا لو أنه مات ؟! ماذا أصنع اذن ؟

وكانت هذه الفكرة قمينة بأن تصيبه بنوبة من نوبات الجنون ،
وعند ذلك تسمعه يجأر ويصر ، ثم ينظر متفرسا فى ركن من الاركان
المظلمة ، ويهتف قائلا :

— لو حدث هذا لأضرمت النار فى كل شىء ، وأتيت على كل شىء
٠٠ وجعلته كله حطاما !

وكانت أخته تصيح به :

— كف عن صياحك هذا أيها الوحش ، أتريد أن تشيع الرعب فى
نفس الطفل ؟ أم تريد أن تجلب له المرض ؟

وكان جوابها ذاك كافيا لتراجعه ، فينصرف وهو يغمغم :

— طيب ٠٠ طيب ! هأنذا منصرف ، فلا تصيحى ولا تصخبى ٠٠
ولا تزعجيه !

وكان فوما اذا أصابته علة أو ألم به مرض ، ترك أبوه كل أشغاله
وقد يلزم بيته لا يبارحه ، ويأخذ فى التنقل من غرفة الى غرفة أخرى



.. فلن يوجد في هذه الدنيا شيء لا يمكن أن اشتريه لك ..

مهموما محزونوا ، وفى عينيه من الخوف ما فيهما ، وفى صدره من
الآثمين والتفجع ما فيه ، ولا يننى يوجه الى اخته والى ابنه سيلا لا ينقطع
من الاسئلة والنصائح .

وكانت أخته ربما نهرتة قائلة :

- انك ربما استنزلت غضب الله وسخطه على رأسك . فأمسك
عليك لسانك والا سمع ما تلغو به . . . وقد ينزل بك عقابه لما تجازيه
به من هذا الجزاء السيء على ما أحسن به اليك من هذه النعم كلها !
- آه يا أختاه ! ألا تستطيعين أن تفهمي أنه اذا أصابه أى شيء
نحطمت حياتي ! فما جدوى الحياة من بعده ؟ لا شيء . . . !

وكان فوما ينزعج أول الامر لهذه المشاجرات ، ولتلك التقلبات
العابزة فى مزاج أبيه ، الا أنه سرعان ما تعودها . . . وكان كلما أطل
من النافذة ولمح أباه ينزل من مركبة الجليد فى صعوبة ومشقة أسرع
الى عمته ليقول لها فى غير مبالاة :

- لقد عاد بابا مخمورا مرة أخرى يا عمة !

ثم أقبل الربيع ، وبر اجنات بوعده لفوما ، فقد ضجبه معه فى
السفينة ، حيث تكشففت لعيني الطفل ألوان من الحياة جديدة ومختلفة
اختلافا كلياً .

لقد كانت اليرمك ، تلك السفينة الجرارة البديعة التابعة للتاجر
اجنات جوردييف ، تنزلق مع التيار بسرعة رشيقة ، على حين كانت
شططان الفولجا على الجانبين تقبل للقائها . وكان الشاطئ الأيسر يمتد
الى حيث يلتقى والافق نفسه كبساط من السندس الأخضر مغمورا
فى أشعة الشمس ، والشاطئ الأيمن يرسل قممه المغطاة بالغابات
الى عنان السماء حيث تتشبث بها سكينتها الغافية . وكان الفولجا
المنبسطة الصدر ينساب بينهما فى هذا المدى المهييب ، وأمواهه
تترقرق فى هدوء وجلال وتؤدة ، تنعكس فيها تلك الظلال القائمة

التي ترسلها القمم المشجرة الى اليمين ، والمخمل الاخضر والقטיפه الذهبية التي تكتسى بها المروج المائية والشواطىء الرملية الى اليسار . وكانت القرى تترامى تارة فوق القمم ، وأخرى وسط المروج ، والشمس تعكس أشعتها على زجاج نوافذ الاكواخ ، وتلمع على الكلل المنسوجة من القش ، والتي تغطي الاسطح ، وتتلأأ في ذهب الصلبان التي تحجب قمم الاشجار جانبا منها . وكانت مراوح الطواحين تتحرك في وناء ورفق في النسيم الطلق ، ومداخن المعامل تنسج خيوطا من دخانها في صفحة السماء . وكان صمت النهر تشمه صيحات الاطفال بقمصانهم الحمراء والزرقاء والبيضاء ، وهم وقوف عند حفاقي الشاطيء يشاهدون السفينة منسابة فوق الماء ، منتظرين هذا الموج المرج الصغير الذي ترسله قلابة السفينة من ورائها لكي يصل الى أقدامهم فيدغدغها . . وحفنة من أطفال آخرين يثبون في زورق صغير ثم يعملون أيديهم في مجاديفه بشدة وعنف حتى يكونوا في وسط التيار لكي تؤرجحهم جرة (١) السفينة . وكانت تيجان بعض الاشجار العالية تبرز من تحت الماء - وفي بعض الاماكن كانت أحراش بأكملها تنبت فوق صفحة النهر ، حتى لتبدو كأنها جزائر في وسط العباب . وكانت ألحان بعض الاغنيات الكثيبة التي يتغنى بها العمال اللاهثون تصل من الشاطيء هكذا :

- واحد . . اثنين . . هب ! واحد ، اثنين . . شد !

وكانت اليرمك تمر ببعض أرمات (٢) الحشب فتطويها في أمواجه فتتهتز اهتزازا عنيفا ، ويأخذ ملاحوها يتضاحكون ويتصايحون عندما يختل توازنهم . وكانت ثقالة صغيرة مشحونة مصعدة في النهر ، وكانت عروق الحشب الصفراء التي تحملها تتلأأ كالذهب في أشعة

(١) جرة السفينة هي هذا الدليل من الأمواج والزيد الذي تعدنه ورائها وهي نمخر

عباب الماء (د)

(٢) الرمت بفتح العين الحشب يضم بعضه الى بعض ويركب في البحر (القاموس ،

الشمس فتنعكس في صفحة الماء التي يكسبها الريح قتامة . وقد أرسلت سفينة ركاب صفارتها وهي مقبلة نحو اليرموك ، وكانت أصداء الصفير تنساب بعيدا لتتلاشى في الغابات وفي كهوف الجبال . وقد دفعت الامواج بالمركبين فاصطلما وسط التيار ثم افترقا ، وهما يهزان الجراة والنقالة ، وكان على منحدرات الشاطئ الايمن شرائط من الحقول تلمع فيها سنابل القمح الشتوى ، وشرائط من الارض البور ، وشرائط أخرى من الارض المحروثة استعدادا لزراعة الربيع . وكانت تنتشر فوق ذلك جميعا طيور لم تكن تبدو أكثر من نقط صغيرة ترى من وراء الماء ، ومع ذاك فقد كانت ترى بوضوح تام اذا طارت وانعكست على صفحة السماء الزرقاء . وكانت قطعان الماشية التي تبدو كاللعب ترعى من قرب ، على حين وقف راعيها الذى يبدو كاللعبه هو الآخر ، متكئا على عصاه يمتع ناظريه بجمال النهر .

وكان الانسان يجد على مدى النظر الانطلاق ، والحرية . . واللائلاء ، وخضرة المروج البهيجة ، وزرقة السماء الصافية . . . كما كان يستشعر القوة المكبوتة في الماء الساكن . وكانت شمس مايو الساطعة تتلظى في كبد السماء ، وكان الهواء ممتلئا بعطر النباتات ذات الحضرة الدائمة والاغصان الصغيرة ، وكانت الشواطئ على عادتها في استقبال السفينة وامتاع العين والروح بجمالها الذى كانت لا تفنى تبدي منه منظرا جديدا بعد منظر جديد . وكان كل شيء يتحرك ببطء ، كل شيء . . الطبيعة والناس على السواء . . . كانوا يتسمون بالكسل والكلال . . . ولكن لا . . . لقد كان يبدو أن وراء هذا الكسل تجثم قوة هائلة ، قوة لا تقهر ، لكنها لم تشعر بنفسها بعد ، ولم تكون لها أهدافا ولا أغراضا واضحة ، وعدم شعورها بنفسها هذا كان يلقي ظلالا حزينا على هذه الافاق الجميلة الشاسعة . لقد كان يمكن أن تسمع ، حتى في صيحات الطيور الهائلة مع الريح ، نغمات وأصوات تشف عما تكتم هذه الطيور نفسها من الجلد وقوة الاحتمال . . كما تشف عن الانتظار المستسلم

المتشوف الى ظهور حياة جديدة . لقد كانت الاغانى الباكية أشبه بالتماس للنجدة . وكان الانسان يستطيع فى بعض الأحيان أن يتبين فيها ما يؤدى اليه اليأس من مخاطرة لقد كان النهر يتنهد مستجيبا ، والأشجار تحنى رؤوسها مفكرة ، والصمت مخيما على كل شئ .

وكان فوما يقضى جميع أوقاته فى قمره الربان الى جانب والده ، وكان يلاحظ فى صمت وبعينين مفتوحتين المنظر العام لضفاف النهر ، وكان يبدو له أنه يسبح فى طريق فضى واسع الى الملكوت العجيب الذى يسكنه الفرسان وسحراء العصور الحالية . وفى بعض الأحيان كان يوجه الى والده أسئلة عما يرى ، وكان اجنات يجيبه راضيا طيب خاطر ، الا أن فوما لم يكن يقتنع بأجوبة أبيه ، لقد كانت أجوبة سطحية لا يفهمها ولم يكن فيها ما كان يتشوف الى معرفته . وقد تنهد مرة قائلا :

- ان عمى أنفيسا تعرف خيرا منك بكثير

وضحك اجنات وسأل فوما :

- وماذا عساها تعرف ؟

وأجاب فوما فى اقتناع : - كل شئ !

لكنه لم يصل الى الملكوت العجيب مطلقا ، وان كانوا يصلون الى مدن لا تختلف فى شئ عن المدينة التى نشأ فيها فوما ، وكان بعض هذه المدن أكبر من مدينته ، وكان بعضها أصغر ، الا أن الناس والمنازل والكنائس كانت كلها مثل التى كان يعرفها من قبل . وقد ذهب مع والده ليراها ألا أنها لم تعجبه وفضل أن يعود الى السفينة ، فعاد اليها وهو متعب منحرف المزاج .

وقال له اجنات يوما :

- غدا سنصل الى أستراخان

- وهل أستراخان مثل هذه المدن كلها ؟
- طبعاً . وماذا تنتظر أن تكون ؟
- وماذا بعد أستراخان ؟
- البحر . بحر قزوين ، كما يسمونه
- وماذا فيه ؟
- سمك ، أيها المغفل ، وماذا غير السمك يعيش في الماء ؟
- ان مدينة ركتزا تقع تحت الماء !
- آه . . . ركتزا ! ولكن هذه كانت مدينة خصوصية جداً ، ولم يكن يعيش فيها الا الصالحون .
- أليس في البحر أية مدن صالحة ؟
- راح اجنات يفكر قليلاً ثم قال :
- كلا . . . ان ماء البحر مالح ولا تستطيع أن تشربه .
- وبعد البحر ؟ هل توجد أرض مرة أخرى ؟
- طبعاً . . . ان البحر لا بد أن ينتهى مهما بلغ من الاتساع ، أليس كذلك ؟ انه أشبه بوعاء كبير
- وبعد ، أفليس هناك مدن أخرى ؟
- أجل ، لكنها ليست مدناً ، انها مدن فارسية . تذكر هذه الأشياء الفارسية التي رأيتها في السوق . . . خوخ ومشمش وعناب . . . و . . . و . . .
- أجل . أجل
- فالحا: فوما ثم استسلم للنوم
- وقد اُقال لأبيه يوماً ما :
- أ توجد بلاد أخرى كثيرة ؟
- بلاد كثيرة يا بني . . . كثيرة جداً
- وهل كلها متماثلة ؟
- ماذا تعنى ؟

- أعنى المدن و . . والأشياء !

- هي كما تقول

وبعد عدد من أمثال هذه الأحاديث لم تعد عينا فوما السوداوان
تحقق في الاتفاق بمثل التشوف الذى كانت تحقق به من قبل .

وقد أخذ عمال السفينة يحبونه ، وبادلهم هو حبا بحب . لقد
أحب جميع هؤلاء الرجال الأقوياء المشوقين الذين دبغ الطقس
جلودهم ، والذين كانوا يكلمونه مداعبين مازحين ، وزاده حبا فيهم
ما صنعوا له من غاب وسنارات لصيد السمك وزوارق صغيرة من
لحاء الشجر ، وكانوا ربما يلعبون معه ويأخذونه ليجدف فى الزوارق
الصغيرة عندما يكون أبوه فى المدينة فى بعض أعماله . وكان فوما
كثيرا ما يسمعهم يثرثرون بكلام عن أبيه ، الا أنه لم يكن يهتم بهذا ،
ولم يخبر أباه قط بشيء مما كانوا يتحدثون به عنه . الا أنه قد
حدث ذات مرة حينما كانوا يحملون السفينة فى أستراخان بأحوال
من الوقود أن سمع فوما الميكانيكى بتروفتش يقول :-

« يا له من مجنون أحمق ! يأمرنا بأن نأخذ كل هذا الخشب على
ظهر السفينة انه حمل ثقيل سيفطس بها الى حافتها ، ثم يأتى
فيقول : «ما قصدكم من اتلاف الآلات ؟ وما غرضكم من استهلاك
كل ذلك الزيت ؟ »

ثم سمع الربان الأثيب الصارم الوجه يقول : « وهذا كله
لا سبب له الا شرهه الشنيع الملعون . . . تالله انه للشيطان الطماع
نفسه ، ان كان ثمة شيطان طماع !

- انه شره لا شك !

لقد كانت هذه الكلمة تتكرر على كل لسان ، حتى انطبعت فى
ذاكرة فوما ، وعندما جلسا يتناولان عشاءهما فى تلك الليلة قال
لأبيه فجأة :

- بابا !

- أجل ؟

- هل أنت سره ؟

ولما سأله عما يعنى ذكر له فوما ما سمعه من الربان وما قاله الميكانيكى ، فاريد وجه اجنات ، وبدا الغضب فى عينيه ، وأنشأ بقول وهو يهز رأسه :

« فهذا هو ما كان اذن !! حسن ، خير . . . خير لك ألا تسمع ما يقولون . . . فهم ليسوا من مقامك . . . لا تختلط بهم ، ولا تنس أنك سيدهم ، وأنهم خدمك . وفى وسعنا أن نقذف بهم جميعا من السفينة اذا أردنا . انهم لا قيمة لهم ، وكثير منهم أشبه بالكلاب الضالة ، فافهم ذلك ولا تنسه . وهم باستمرار لا يتورعون أن يقولوا فى حقى كلاما شنيعا ، والسبب الوحيد هو أنني سيدهم وصاحب الامر والنهى عليهم . اننى رجل غنى وناجح ، وكل غنى محسود دائما ، وكل الناس أعداء لصاحب الطالع السعيد » .

ولم يعض على ذلك يومان حتى كان للسفينة ربان جديد وميكانيكى جديد .

وقد سأل فوما أباه قائلا :

- أين الربان يا كوف ؟

- لقد تخلصنا منه - فصلناه !

- ولماذا ؟

- لأنه قال ما قاله

- وبتروفتش

- وبتروفتش كذلك

وقد راقى فى عينى فوما تلك البساطة التى كان أبوه يستطيع بها التخلص من الناس ، وقد تبسم له ، ثم نزل من القمرة الى ظهر

السفينة حيث وجد أحد العمال جالسا يفك حبلا ليصنع ممسحه .
فقال له :

- لقد أحضرنا ربانا جديدا
- أعرف . . صباح الخير يا فوما اجناتيفتش . هل نمت جيدا .
- وميكانيكيا جديدا أيضا
- وميكانيكيا جديدا أيضا . . ألا تشعر بالاسف على بتروفتش ؟
- كلا
- كلا ؟ مع أنه كان دائما لطيفا معك !
- لماذا كان دائما يتكلم كلاما فارغا عن والدى ؟
- أوه ! هل حصل هذا ؟
- حصل . . لقد سمعته بنفسى
- هم . . وعمل سمعه والدك هو أيضا ؟
- كلا . . فأنا الذى بلغتة !
- فأنت اذن الذى أخبرته . . أليس كذلك ؟
- قالها العامل وهو يعود الى عمله دون أن يزيد .
- لقد قال لى أبى اننى صاحب الأمر هنا ، وقال اننى
- النخلص من أى واحد اذا أردت .
- هل قال ذلك حقا ؟

وكان العامل يحملق فى الطفل الذى كان يقول ما قال متباهيا
بسلطانه فى حماسة كبيرة .

ولاحظ فوما أن العمال قد أخذوا يعاملونه بحذر بعد الذى
حدث ، بل كان بعضهم يشند فى تملقه وابداء الضراعة له ، وبعضهم
قد أخذ يغير لهجة المباشطة الى لهجة الجد ، وقد يمتنع من التحدث
اليه على الاطلاق . وكان فوما يحب مشاهدتهم وهم ينظفون ظهر
السفينة ، لقد كانوا ينفلتون برشاقة والماسح بأيديهم ، وبناطيلهم

مشمرة الى ركبهم ، وهم يصبون جرادل الماء على الختسب ، وينثرونه الى بعضهم مازحين متضاحكين صاخبين ، وكانوا يتزحلقون فيقعون أحيانا . وكان الماء يتصبب في كل مكان ، وكان صوت انصبابه أشبه بظاهرة مرحلة لأصوات العمال . ولم يكونوا يعملون حسابا لوجود فوما بينهم وهم يقومون بهذا العمل الظريف . فقد كان هو نفسه يشاركهم فيه ، وكان يداعبهم بنثر الماء عليهم . . . ثم يجرى صائحا مسرورا عندما يهددونه بأن ينثروا الماء عليه هو أيضا . لكنهم بعد فصل ياكوف وبتروفتش لم يعودوا ينظرون اليه نظرة الصداقة التي كانوا يولونها اياه من قبل ، وقد أدرك أنه كان سبب ذلك ، وأن أحدا منهم لم يعد يود ملاعبته ، فكان شعور الحزن والريكة يستولى عليه ، فيترك سطح المركب ، ويولى وجهه شطر قمره الربان ، حيث يجلس مكتئبا متراخيا وهو ينظر الى شواطئ النهر الزرقاء ، وقمم الغابات الطالعة الهابطة في أفق السماء ، والعمال من أسفل منه ينثرون الماء ويتضاحكون مرحين ، وهو يتطلع الى الذهاب اليهم ، الا أن شيئا ما كان يمنعه من ذلك .

« لا تخلط نفسك بهم . . . فأنت سيدهم ! »

انه لم يكن ينسى هذه الكلمات التي قالها له أبوه

لقد كان يجد في نفسه نزوعا الى الهتاف بهم في لهجة أمرة ناهيه كما كان أبوه يفعل ، وكان يحاول أن يجد كلاما مناسبيا يوجهه اليهم . الا أنه لم يكن يستطيع . ومر على ذلك يومان أو ثلاثة ، ثم اقتنع أخيرا أنهم لا يحبونه ، فأخذ يسأم من وجوده على السفينة ، وراح بهفو الى وجه عمته الحبيبة أنفيسا وهو يتسم له من خلال هذه الضبابة الوردية من الانطباعات الجديدة التي حجبت عنه . . العمة أنفيسا التي كانت ايتساباتها وقصصها وضحكاتها الظريفة تجلب لقلبه الدفء دائما ، وتغمره بالسعادة باستمرار . . . لقد كان لا يزال يعيش في عالم السحر والحواريات . . . الا أن يد الواقع القاسية

كانت قد مزقت هذا النسيج من عنكبوت الوهم الذى كان يتخيل مر حلاله كل شئ حوله . لقد اضطرته حادثة الريان والميكانيكى الى اجالة فكره فيما حوله ، فأصبحت عيناه أحد بصرا لقد اكتسبتا نظرة فاجصة لم تكن فيهما ، وكانت الأسئلة التى يوجهها الى والده تنبعث عن رغبة الذى يريد أن يفهم السبب فى كون أن العجل والآلات جعلت الناس يسلكون على هذا النحو الذى يسلكونه !

وذات يوم شاهد المنظر التالى :

لقد كان العمال يحملون كتلا من الأخشاب على نقالات ، فاذا عامل منهم اسمه ييفيم ، وكان صبيا ظريفا ذا شعر مجعد ، يقول :

- أوه . . لا . . لقد زادت المسألة عن الحد . . أنا عمى ما اتفقت معه على جر كتل الأخشاب لحضرته ! أنا عامل فى سفينة ليس الا وكل العالم يعرف ماذا يصنع العامل فى سفينة وأنا لا يمكن أن أجر كتل الخشب لحضرته شكرا ! ان هذا يعنى أنه يسألنى مرتين . . يعنى . . يشغلنى بروحين . . وأنا لم أتفق على ذلك انه رجل لا ضمير له ، ما دام يمص دماءنا على هذا النحو .

وسمعه فوما ، وأدرك أنه يتحدث عن والده وقد لاحظ أن هذا الصبي ييفيم ، بالرغم من شكواه ، يضع كتلا على نقالته أكثر مما يفعل أى عامل آخر . . ثم يشتغل أسرع مما يشتغلون أيضا ، وكان العمال الآخرون لا يلقون بالا الى صخبه وجعيره حتى العامل الآخر الذى كان يحمل النقالة من طرفها الآخر مع ييفيم انه لم يكن يشكو الا حينما كان ييفيم يبالغ فى الاكثار من وصع لأخشاب فوق النقالة فكان يقول له :

- كفاية . . انه تيس حصانا الذى تحمله هذه الأحمال !

- أخرس ! انهم ما داموا قد وضعوك فى السرج فما عليك الا أن

جر الحمل من غير أن تحزن ٠٠٠ فأمسك عليك لسانك حتى ان
صوا دمك كله ٠٠٠ فليس في وسعك أن تفعل شيئا في هذا
لأمر .

وظهر اجنات فجأة ٠٠٠ من أين ؟ لا يدرى أحد ٠٠٠ وقد توجه
بحو ييقيم ، وراح يسأله في صراحة :

- ما هذا الذي تقوله ؟

- أقول ٠٠٠ آ ٠٠٠ أقول ان الاتفاق الذي بيننا لم يشتمل على
٠٠٠ على أن يظل فمي ٠٠ مقفلا !

فقال له وهو يمشى بأصابعه خلال لحيته :

- ومن هذا الذي يمص دماء الناس ؟

ولما وجد الصبى أنه فد طب في ورطة لا يستطيع منها فكاكا ،
ودف بالكتلة التي كان ممسكا بها ، ثم مسح يديه في بنطلونه .
وراح يتفرس في عيني اجنات ويسأله بجرأة :

- حسن ٠٠٠ أأست على حق ؟ أأست تمص دماءنا ؟

آ أنا ؟

- نعم ٠٠ أنت !

ورأى فوما ذراع أبيه ترتفع في الهواء ، ثم سمع لطمة تهوى على
الصبى فيسقط بشدة على كومة الأخشاب ٠٠٠ وسرعان ما نهض
الصبى وعاد الى عمله دون أن ينبس بكلمة . لقد كان وجهه مجروحا
والدم يتصبب منه على لحاء عرق من خشب البتولا ، وكان يمسح
الدم في كفه ، وينظر الى البقع الحمراء ، ويتنفس من أعماق رئتيه
٠٠٠ لكنه لا يفوه بكلمة ٠٠٠ وحينما مر بفوما والنقالة على كتفه ،
لاحظ فوما أن في عينيه دمعتين غزيرتين تترقرقان في محاجرهما .

وفي أثناء الغداء : كان فوما سارد الذهن زائع العينين ، يخالس
أباد نظرات مضطربة خائفة ٠٠٠ مما جعل أباه يسأله في رقه

— ما الذى يجعلك تنظر عابسا مكتئبا هكذا ؟

— لا شيء !

— ألا تشعر بصحة طيبة ؟

— أنا بخير

— اذا كان بك شيء ، فقل لى

وفال فوما فجأة :

— انك قوى قوة هائلة !

— أنا ؟ أجل ٠٠ أتا قوى شيئا ما ٠٠ ان الله لم يبخل على فيما

وعب لى من القوة ، فى جملة ما وهب لى ، حينما خلقتنى .

وصاح فوما بصوت ناعم وهو خافض رأسه :

— يا لها من لطمة تلك التى لطمته إياها !

— أقصد هذا الولد ييقيم ؟

— نعم . لقد كان الدم يتصبب منه ٠٠ وحينما ذهب لعمله كان

يبكى !

وكان فوما يقول ذلك بصوت خفيض فيه رنة من الاسى ، فتميم

احنات وهو يقضم شطيرته :

— هم ٠٠٠ ألتشعر بالأسف مما لحقه ؟

فقال فوما وصوته تخنقه الدموع : أجل ! وهنا قال أبوه .

— فأنت اذن من هذا النوع من الاولاد الذين يتأثرون بسرعه !

قالها وهو يصب لنفسه كوبا من الفودكا ٠٠٠ فلما جرعه فال

بلهجة مثيرة :

— لا داعى لأن تأسف من أجله . لقد استحق ما لحقه لجراءته فى

الحهر عما فى نفسه . أنا أعرفه ٠٠ انه شاب طيب ، قوى ، مجد

فى عمله ، ذو عقل سليم ٠٠ غير أنه ليس من شأنه أن ينطق بكل ما يجول فى رأسه ٠ وليس من حق أحد أن يفعل هذا ، غيرى أنا ٠٠ فأنا الرئيس هنا ، وليس من الهين أن يكون الانسان رئيسا - ثم ان هذه الكلمة الصغيرة لن تضره ٠٠ بل هى من صالحه ٠ آه يا فوما ٠٠! انك لم تزل صغيرا ٠٠ وأنت لا تستطيع أن تفهم الامور على وجهها بعد ٠٠ ومن واجبى أن أعلمك كيف تسلك سبيلك لى هذه الحياة ٠٠٠ ومن يدرى ٠٠ فلعل الزمن المتبقى لى فى هذه الحياة ليس شيئا طويلا ٠

وقد أخذ اجنات يفكر لحظة ٠٠٠ ثم جرع كوبا آخر من الفودكا قبل أن يصل نصائحه لابنه :

- لا شك أن من الخير أن يستشعر الانسان الرحمة للناس - وهذا يسرنى منك ٠ ولكن يجب أن تعرف متى تستشعر الرحمة ٠٠٠ وأول ما يجب عليك هو أن تنظر الى الشخص ، وماذا ينطوى عليه ، وما قيمته ٠ فاذا وجدت أنه قوى ومقتدر فلا بأس من أن تدرك الرحمة من أجله وأن تبذل له المعونة والمساعدة ، أما اذا كان ضعيفا و (شغال ردى) فابصق عليه ووله ظهرك ٠ ثم تذكر ما يلى : اذا وجدت أحدا لا يمل من الشكوى فاعرف أنه لا خير فيه ، ولا معنى للعطف على مثله ، ولا جدوى فى أية مساعدة تبذلها له ٠٠٠ ولن يزيده اشعارك له بالاسف الا فسادا وتواكلا ٠٠٠ واشبينك ماياكين يجمع فى داره اصنافا من هؤلاء الذين لا خير فيهم ولا جدوى منهم ٠٠ من هؤلاء الصالحات المخرفات والشحاذات والعاطلات وحثالة الخلق وغيرهن ٠٠٠ فاقتذف بهن من فكرك ٠٠٠ انهن لسن بشرا ٠٠ انهن مجرد قواقع فادغة ، ولا جدوى منهن لأحد ٠٠٠ بل هن بالبراغيث والبتى والهوام الأخرى أشبه ، وليس هو الله الذى يخدمه ويقمن بعبادته ٠٠٠ فهن لا رب لهن ٠٠ بل هن يستخدمن اسمه كى يتغفلن الناس ليعطفوا عليهن ، ويمنحوهن شيئا يملأن به بطونهن ٠٠٠ فهن لا يخدمن الا بطونهن ، وهن لا يصلحن لعمل شيء الا أن

يأكلن ويشربن ٠٠ ثم ينمن ويحدثن الشخير ٠ انهن يصنعن من أى انسان تريدا ٠ وهن دائما يظهرن لك الضراعة والتذلل، الا أنهن يعطبن من يقترب منهن مهما كان صالحا طيبا ، كما تعطب التفاحة المتعفنة ما حولها من التفاح السليم ٠٠٠ ان المشكلة هى أنك لا تزال صغير السن بحيث لا تستطيع أن تفهم مرمى كلامى : لا خير مطلقا فى أن تساعد انسانا لا يقف جامدا مسلوب الارادة أمام مشكلاته ٠٠ وهو ربما لا يسألك المعونة مطلقا ، لكنك اذا رأيت أنه فى حاجة الى المعونة فابذلها له دون أن يسألك اياها ٠٠٠ فاذا كان شخصا فيه كبرياء ، وممن يشعرون بكرامتهم ، ويؤلمه أن تقدم له أية معونة ، فحاول أن تساعدوه دون أن يشعر هو بذلك ٠ وهذا هو التصرف الوحيد للصحيح ٠٠٠ ثم ٠٠ اليك هذا المثال : افرض أن لوحين من الخشب قد سقطا منك فى الوحل ، أحدهما معطوب ، والاخر متين صالح ، فماذا ينبغي لك أن تفعل ؟ ان اللوح المعطوب لا يساوى شيئا ، فعدّه ، وليظل مكانه فى الوحل ، وفى وسعك أن تدوس فوقه لتظل قدماك نظيفتين جافتين ٠٠ ولكن عليك أن تسحب اللوح الصالح المتين من الوحل ، ثم تجففه فى الشمس ، وسيصلح للاستعمال ذات يوم ولا بد ٠ فهذا هو ما يجب أن يكون يا بنى ، فاستمع لما أقول ، واجتهد أن تتذكره دائما ٠ ان شعورك بالأسف من أجل ييقيم لا معنى له — انه فتى مجد ، وهو يعرف قيمة نفسه ، وأنت لا يمكنك أن تقضى على ما فيه من حيوية بضربة تنزل بها على أم رأسه ٠٠ ولسوف ألقى بالى اليه أسبوعا أو نحوه ، وبعد ذلك سأسعد به الى مكان القيادة ، وقبل أن تلاحظ أنت ذلك ٠٠ سيصبح مرشدا ، فاذا أنا جعلت منه ربانا ، فسيكون ربانا ماهرا ٠ وهذه هى الطريقة التى يصبح بها الانسان شيئا ما ٠٠٠ هذه هى المدرسة التى تربيت فيها ٠٠٠ وكمن من لكمة تلقيتها حينما كنت فى مثل سنه ٠٠٠ ان الحياة يا بنى ليست بالنسبة لأى مخلوق هذه الأم العطوف التى تتصورها ٠٠٠ انها رئيس الاعمال المتجهم الكالح الوجه !

وظل اجنات يتحدث الى ولده مدة ساعتين عن شبيبته وعن الاعمال التي كان ينهض بها ، وعن الطبيعة البشرية ، وعن القوة المخيفة الكامنة فيما نحسبه ضعفا ، وعما يميل اليه بعض الناس من التظاهر بسوء البخت لكي يستطيعوا بذلك أن يعيشوا على حساب غيرهم . ثم يعود فيتكلم عن نفسه من جديد ، فيخبره كيف استطاع أن يرتفع من عامل بسيط الى صاحب مشروع تجارى ضخم .

وبينما كان الطفل جالسا وعيناه مسمرتان فى وجه أبيه ، واعيا لكل كلمة يقولها كانت وشيجة من القربى تدنيه منه ، لم يكن يحس بها من قبل ، لقد كان ما يقصه عليه أبوه يفتقر الى الجاذبية التي كانت تتسم فى قصص العمة أنفيسا ، الا أنه كان شيئا جديدا ، الا أنه كان أوضح وأشد بيانا ، وأيسر على الفهم من أساطيرها ، دون أن يكون أقل تشويقا لقد خفق قلبه الصغير خفقانا سريعا وعنيفا ، وشعر به يقترب من أبيه ولا بد أن اجنات قد تبين هذا فى عيني ابنه ، وآية ذلك أنه نهض فجأة ، ثم تناوله فى ذراعيه ، وراح يضمه الى صدره ، فما كان من فوما الا أن لف ذراعيه الصغيرتين حول عنقه ، ثم أسند خده الى خد أبيه ، حيث ظل هكذا دون أن ينبس .

وهنا ، أخذ أبوه يهمهم :

— يا ولدى ! يا حياتى وبهجة دنيائى . . . تعلم عن أبيك ما دام هو معك . . ان الحياة ليست شيئا هينا !

وقد أثارت هذه الكلمات المهموسة غصة فى قلب الطفل ، فشبد على أسنانه ، وطفرت الدموع من عينيه حارة سخينة .

والآن . . . هاهى ذى السفينة مصعدة فى الفولجا من جديد . وقد وصلوا الى قازان فى ليلة من ليالى يوليو ، تحت سماء ملبدة

بالغيوم الداكنة ، وفى سكون كثيب كان يلف النهر من كل جانب .
فألقوا مراسيهم عند أسلون ، فى ذيل قافلة طويلة من السفن .
وكان فوما نائما ، فاستيقظ على قرعنة سلاسل المرساة ، وعلى
صيحات العمال ، ثم أطل من نافذة قمرة ، فلم يستطع أن يتبين
شيئا ، الا بعض الاضواء الخافتة فى ظلام البعد ، والا الماء الذى كان
حالكا ثقيلًا كحلقة الزيت وثقله . . . وقد خفق قلب الطفل من
الرغبة ، فصك أذنيه وجلس صامتا . . . ثم ترددت من بعد أغنية
حزينة تترقرق بالدمع كأنها ترتيلة متوسل . وكان حراس السفن
ينادى بعضهم بعضا فى هذه القافلة ، وكان هسيس البخار العادم
الذى تطلقه البواخر الراسية يشق ظلام الليل ، والمياه السوداء
تنقر جوانب السفن نقرا لطيفا حزينا . وكان فوما يحرق فى الظلام
تحديقًا ممعنا مجهدا لعينه فتتراءى له أخيلة سوداء لها أهداب من
النور وكان يعرف أنها صنادل نقل ، الا أن معرفته بشئون
المراكب لم تجعله يتثبت مما يرى . ومن ثمة فقد كان قلبه يسرع
فى نبضه ، وظل خياله يهيم له صورا كابية ، وتهاويل مفرجة .

ثم سمع من بعد صوت نشيج طويل ينتهى بما يشبه البكاء . .
يتردد هكذا :

« أو . . أو . . أو . . » وإذا بعضهم يعبر ظهر السفينة .

ثم تردد النشيج ثانية . . الا أنه هذه المرة كان أوضح وأقرب
ونادى الشخص الواقف على الظهر يقول بصوت منخفض :
- ييفيم . . عليك اللعنة . . قم . . استيقظ هات المرساة !
ولكن النشيج كان قريبا جدا هذه المرة ، مما جعل فوما يثب من
مكانه عند النافذة ، ورعشة شديدة سارية فى جسمه .

ثم اقترب الصوت الغريب أكثر وأكثر ، وجعل يعلو مرة ،
وينخفض أخرى ، متلاشيا فى الظلام . . وهنا تتردد صوت خائف
فوق الظهر وهو يهمس :

« - ييفيم ! انهض ! ان ضيفا يسبح قريبا منا .
وما كان من ييفيم عندما سمع ذلك الا أن سأل مسرعا :
- أين ؟! »

وهنا سمع وقع أقدام عارية تدب فوق ظهر السفينة ، ودبدبة
وجلجلة ، ثم اذا فوما يلحج مرساتين تهبطان الى الماء بالقرب .
نافذته ، ثم تقعان في الماء الثقيل دون أن تحدثا صوتا تقريبا .
وأخذ بعضهم يولول من قرب قائلا : « ض . . . ف . . » ثم تبعت
هذا طربشة صغيرة في الماء .

وقد جعل هذا التشيج الباكي جسم فوما ينتفض من الفزع ، ا
أنه لم يجعله يسحب يديه من حديد النافذة ، ولا يحول عينيه عما
يجرى في الماء .

« أشعل مصباحا . . . انى لا أستطيع أن أرى شيئا ! »
وفى الحال كانت دائرة من الضوء الخافت تنتشر فوق الماء . وقد
لاحظ فوما أن الماء يعلو ويهبط قليلا ، والأمواج الخفيفة تنتشر فوق
صفحته كأنما كان ينتفض الماء .

وهنا سمع من يقول بصوت مفزوع :

« انظر . . انظر . . »

لقد كان يسبح في دائرة النور وجه انسان مرعب ذو أسنان كبيرة
بيضاء ذات تكشيرة بادية ، وكان الوجه يعلو ويهبط وهو يمر
بالسفينة . . . وكانت الأسنان كأنها تتفرس في وجه فوما ،
وتقول :

« آه ، أيها الولد الصغير . . أيها الولد الصغير . . ان الماء بارد
هنا . »

ثم اهتزت المرساتان ، وشدتا الى أعلى . . . ثم أسقطتا فى الماء ثانية .

— ادفعهما بعيدا . . خذ بالك منهما . . خذ حذرك . . يجب ألا تشتبكا فى العجلة القلابة فى مؤخرة السفينة .

لقد كانت المرساتان تخبطان جانب السفينة فتحدثان صوتا كصرير الأسنان ، ثم أخذت دبذبة الاقدام العارية تبعد قليلا قليلا نحو مؤخر السفينة ، ومن هناك عاد صوت النشيج من جديد :

« أو . . أ . . أو . . ؛ ضد . . ي . . ف . . ! »

وهنا صاح فوما :

— بابا . . بابا . .

وقفز أبوه ثم أسرع اليه .

وصاح فوما ثانية : — ما هذا ؟ ماذا يفعلون ؟

وزار اجنات زارة متوحشة ، ووثب خارج القمرة فى خطوات ثلاث ، ثم عاد سريعا . . حتى قبل أن يرتد بصر فوما من النافذة الى سرير أبيه

وقال له أبوه :

— هل أخافوك يا بنى ؟ انهم لا يفعلون شيئا . . . تعال . . نم معى فى سريرى .

ثم أخذه ملء ذراعيه . . وفوما يسأله هامسا :

— ماذا يصنعون ؟

— لا شيء يا بنى . . لا شيء . . لقد غرق واحد من الناس .

وذهبت جثته تطفو على الماء ... هذا كل شيء .. فلا تنزعج ..
فالجنة بعيدة من هنا الآن

وسأله فوما وهو يتشبث به ، ويغمض عينيه :

— ولكن .. لماذا كانوا يدفعون به بعيدا

— أو .. كان يجب أن يفعلوا هذا .. لأن الجنة لو علقبت بالمرارح
.. لوجب أن نسأل عن ذلك .. ان البوليس قد يراها ، ويحدث لنا
كثيرا من المتاعب .. ويدخل معنا فى سين وجيم — وقد يقبض علينا
ويعطل أعمالنا ، ولهذا فقد دفعوا بالجنة بعيدا ... ثم ماذا يضير
الميت هذا ما دام قد مات بالفعل ؟ .. ان هذا لا يلحق ضررا بجثته
ولا بمشاعره ، لكنها يمكن أن تحدث لنا نحن كثيرا من المتاعب ..
اطمئن يا بنى .. ونم ملء عينيك .

— وعلى هذا فسيتترك طافيا هكذا ؟

— قليلا من الوقت ، حتى يخرجه أحد من الماء ويدفنه

— ألا يأكله السمك ؟

— السمك لا يأكل لحم الادميين ... أما السراطين فتأكله

وأفرخ روع فوما قليلا ... لكنه لم يزل تنتابه أشباح هذا الوجه
المرعب ، بأسنانه العارية تعلو وتهبط فوق صفحة الماء الاسود .

— ترى من كان هذا الغريق ؟

— الله وحده يعلم .. اسأل الله أن يشمل بالسلام روحه .

وهنا همس فوما :

— أيها الله الرحيم .. اشمل بالسلام روحه .

— عال .. والآن تستطيع أن تنام ولا تخشى شيئا .. لقد أصبح

الآن بعيدا ... بعيدا جدا من هنا ... ماضيا فى طوفانه ...

وليكن فى هذا درس لك ... فحاذر عندما تقترب من الدرابزين
فقد تسقط فى الماء .. لا قدر الله ... و ...

- وهل سقط هو فى الماء ؟

- نعم .. ربما كان سكران .. وربما يكون قد ألقى بنفسه فى
الماء لسبب ما ... كما يصنع الناس أحيانا ... والحياة مثل هذا
... ان الموت قد يكون بركة للانسان ونعمة ... وربما كان موت
بعض الناس بركة ونعمة للناس جميعا ..

- يايا ...

- هلم فنم .. يا ولدى .



الفصل الثالث

● وذهب فوما الى المدرسة .. وقد بهره هذا الزيت الفطيع الذي كان الاولاد يحدثونه في أثناء لعبهم ومرحهم .. وفي اليوم الاول من التحاقه بها لم يلبث أن اكتشف بين لداته تلميذين كانا يبدوان أكثر ظرفا من غيرهما ، وكان أحدهما يجلس أمامه مباشرة ، ولم يكن يتمالك من النظر الى ظهره العريض ، وعنقه الغليظ الكثير النمش ، والى أذنيه الكبيرتين ، ورأسه المربع المغطى بوبرة من الشعر الأحمر اللامع .

وحينما نادى المدرس الاصلع ذو الشفة السفلى البارزة : «سمولين الافريقي » وقف الولد ذو الشعر الاحمر متثاقلا ، ثم مشى الى مقدمة الحجرة ، وجعل ينظر في هدوء الى عيني المدرس حينما كان يقرأ له مسألة الحساب ، ثم تناول قطعة من الطباشير وراح يكتب أرقاما كبيرة مستديرة على السبورة بمنتهى الدقة .

وقال المدرس بعد قليل :

— حسن ... كفاية ... نيقولاى يزهوف .. هلم .. أكمل المسألة .

وهنا يثب تلميذ صغير ملول بادى التبرم ، تشبه عيناه الحادثان السوداوان عيني فأر متربص ، ثم يترك التخته التى يجلس عليها مع فوما ، ويمضى فى الممر مصطلما بكل شيء فى طريقه ، مديرا رأسه من جهة الى جهة ، حتى اذا وصل الى السبورة خطف قطعة الطباشير خطفا ، ثم شب على أصابع قدميه وطفق يخربش أرقاما صغيرة

لا يمكن قراءتها ، وهو يضغط على الطباشيرة ضغطا شديدا يجعلها
تصر وتفتت . ويجعل المدرس يعقف وجهه الاصفر كالذي يشكو
من ألم ، فيخاطبه قائلا :

- على مهلك .. على مهلك .. ليس سريعا هكذا !

ويجيبه يزهوف مجلجلا بصوته المرتفع :

- الجواب هو : التاجر الاول حصل على ربح قدره سبعة عشر
كوبكا .

- كفاية ! جوردييف ! كيف يمكننا أن نعرف مقدار الربح الذي
حصل عليه التاجر الآخر ؟

لقد كان فوما مستغرقا في ملاحظة هذين التلميذين المذنين
يختلف بعضهما عن بعض تمام الاختلاف ، حتى لقد فوجيء بالسؤال
ولم يستطع أن يجيب .

- ألا تعرف ؟ قل له يا سمولين !

وكان سمولين منهما في تنظيف أصابعه من آثار الطباشير بخرقه
صغيرة ، فلما سمع المدرس يخاطبه ، وضع الخرق في الصندوق ،
ثم راح يكمل المسألة ، فلما أكملها أخذ ينظف أصابعه من جديد ،
على حين كان يزهوف يمضى الى مقعده الى جانب فوما ، وما كاد يجلس
فيه حتى لكز فوما لكزة خفيفة وهمس اليه قائلا :

- ماذا ؟ لماذا لم تستطع أن تجيب ؟ ماذا كان مجموع الأرباح
كلها . ثلاثين كوبكا . وكم تاجرا ؟ اثنان ! أحدهما ربح سبعة
عشر ... فكم يربح الآخر ؟!

- أنا عارف ..

وقد تمت بها فوما في اضطراب وهو يلاحظ سمولين يمضى الى
مقعده رزينا رابط الجأش .. لقد كان يكره وجه سمولين .. هذا

الوجه المستدير الكثير النمش ، بعينيه الزرقاوين المدفونتين فى لجة
من الشحم • ورفس يزهوف رحل فوما رفسة هؤلة ، وسأله قائلاً :
- من أبوك ؟ أبو كيفه ؟!

- آ • ها ! اسمع ، هل تريد أن أقول لك كل الاجوبة ؟

- نعم !

- وماذا تدفع لى مقابل ذلك ؟

وفكر فوما لحظة ؛ ثم قال :

- وهل تعرف كل الاجوبة ؟

- أنا ؟ أنا أول الفصل يا سيدنا !

وسمعهما المدرس فنادى بهما :

- أنتم •• هناك •• ممنوع الكلام •• أهو أنت يا ييزهوف ؟

ووثب ييزهوف على قدميه وقال بطلاقة :

- لست أنا يا ايفان آندريفتش •• انه جورديف !

وهناً قال سمولين :

- لقد كانا كلاهما يتكلمان •

ويعقف المدرس وجهه الاصفر مرة ثانية ، ويدلدل شففته السفلى
البارزة بشكل مضحك ، وينتهر التلاميذ الثلاثة ••• الا أن انتهاره
لم يمنع ييزهوف من الهمس ، ويقول لسمولين :

- لا بأس يا سمولين •• لن أنساها لك ! يا فاضح الاسرار ؛

ويجيبه سمولين دون أن يدير اليه وجهه :

- لماذا تلقى اللوم على التلميذ الجديد ؟

فهمس ييزهوف متوعدا :

- ستري .. ستري !

أما فوما فلم ينطق بكلمة ، ولم يزد على أن جعل يرنو بطرف عينه الى جاره الظريف ، وهو يعتقد أن من الخير أن يظل بعيدا عنه قليلا .. بالرغم مما فيه مما يجذب .

وفى أثناء الفسحة أخبره ييزهوف أن سمولين هو أيضا ولد غنى - وأنه ابن صاحب مصنع دبغ الجلود - لكنه هو نفسه ، أى ييزهوف ، ولد فقير ، وأن أباه فقير فى المالية . وكان واضحا أنه فقير بالفعل ، فقد كانت ملابسه مصنوعة من الكستور الرمادى ، ومزرقة عند الركبتين والكوعين ، وكان وجهه معروقا ممتقعا أصفر اللون ، وكان جسمه هزيلا ، وجلدا على عظم . وكان يتكلم بصوت خفيض له رنة معدنية ، يؤكد على الدوام بالغمزات واللمزات ، وكان يكثر من استعمال الكلمات التى لا يعرف معناها الا هو فقط . وقد قال لفوما :

- اننى ، أنا وأنت ، سنكون أصحابا !

ولكن فوما نظر اليه فى توجس وانقباض ، ثم سأل :

- ولكن لماذا وشيت بى عند المدرس ؟

- أو .. هوه ! وماذا فى ذلك ؟ انك تلميذ جديد وغنى ...

والمدرس يتساهل دائما مع التلاميذ الاغنياء ... أما أنا ، فتلميذ فقير ، وهو لا يحبني لكثرة ثرثرتي ، ولائنى لا أقدم اليه هدايا مطلقا ... ولو لم أكن تلميذا مجدا لقذف بى من المدرسة من زمان طويل .. ألا تدري ؟ اننى سأشتغل بمعهد الرياضة البدنية بعد أن أنتهى من الدرس هنا ، وسيتم ذلك بمجرد أن أنتهى من الصف الثانى . وأحد طلبة المعهد يمررنى .. ولا بد لى من أن أبذل جهدى فى الدراسة حينما أكون هناك . لابد اكم حصانا عندكم ؟

- ثلاثة ... ولكن .. لماذا يجب أن تبذل كل هذا الجهد فى

الدراسة ؟

- لائننى فقير .. والتلاميذ الفقراء يجب أن يستذكروا بجد واجتهاد ، لكى يصبحوا أغنياء هم أيضا .. انهم سيصبحون أطباء وضباطا وموظفين .. وأنا أحب أن أكون فارس سوار .. السيف الى جانبى ، والمهماز فى حداثى .. وحينما أمشى يسمع الناس خطواتى : طك .. طك .. طك ... وأنت .. ماذا تحب أن تكون ؟

- لا أعرف ..

قالها فوما بصوت ملجلج ، وهو يتفرس فى زميله ، كأنه يدرسه .

- ألا يجب أن تكون شيئا ؟ هل تحب الحمام ؟

- ن .. نعم .

وقال ييزهوف وهو يقلد لجلجة فوما :

- يا لك من مغفل صغير ! ن .. نعم .. ل ... لا ..! وكم حمامة عندكم ؟

- ولا واحدة !

- هل ترى ؟ أغنياء ، وليس عندكم .. ولا حمامة ! ان عندى ثلاث حمامات ، حمامة من النوع الهزاز ، وحمامة رقطاء ، وحمامة شقلباظ .. ولو كان أبى غنيا لاقنتيت مائة حمامة ، وأطلقتها فى الهواء تطير طول النهار . سمولين عنده عدد لا بأس به ... أربع عشرة ، وهو الذى أعطانى الحمامة الشقلباظ ... ومع هذا .. فهو ولد بخيل ... وكل الاغنياء بخلاء ، فهل أنت بخيل أيضا ؟

- أنا .. لا أدري !

- يمكنك أن تأتى الى الحى الذى يسكن فيه سمولين ، ويمكننا نحن الثلاثة أن نطارده الحمام .

- لا بأس .. ولكن اذا سمحوا لي بذلك .

- ولم لا ؟ ألا يحبك أبوك ؟

- انه يحبني

- اذن فسيسمح لك ... ولكن لا تقل له اننى سأكون هناك أنا
أيضا . فربما يمنعك من الحضور اذا عرف .. قل له انك ذاهب الى
سمولين .. هل تسمع ؟ الى سمولين !

وهنا ، أقبل الولد السمين ، فحياه ييزهوف بايماة من رأسه ثم
ناداه :

- أنت يا نمام يا أبا رأس أحمر .. هو ... كيف يستطيع
صديق أن يربط أسباب وده بأسباب ودك يا عجوز يا أبا زلط !
وحده ، سمولين وقال له فى رباطة جأش :

- بماذا تجمعع !
وأجابه ييزهوف وهو يقمز بكل جسمه ليثير نائرة سمولين :

- أنا لا أجمعع .. وأنا لا أقول الا الحق .. اسمع : فوما وأنا ،
سنحضر اليك يوم الأحد بعد الصلاة ، حتى لو كنت فتة باردة !
فاوما سمولين قائلا : - تفضلوا !

- سنحضر .. وعن اذنكم .. فلم تبق الا دقيقة واحدة علي
الجرس .. وأريد أن أبيع هذا العصفور أولا .

قال هذا ييزهوف ثم أخرج كيسا من الورق من جيبه بداخله شيء
يخشخش .. ثم انفتل كالزئبق .

وعند ذلك أخذ فوما يتابعه بنظراته ، مأخوذا برشافته وهو يقول:
« هو ... هو ... ه ه ! »

وقال الولد ذو الرأس الأحمر مستجيبا للملاحظة فوما :

- وحاذق سريع الفهم !

- وظريف أيضا !

- أو .. هوه !

ونظر كل منهما الى الآخر هنيهة دون أن يتكلما .. ثم قال صاحب الرأس الأحمر :

- هل ستأتني لزيارتي معه ؟

- نعم .

- حسن .. ان حيناً حى جميل

ولم يتكلم فوما .. فسأله سمولين :

- هل لك أصحاب كثيرون ؟

- ولا صديق واحد !

- وأنا أيضا .. لم يكن لى أى صديق حتى التحقت بالمدرسة ..

أى صديق .. الا أبناء أعمامى .. والآن .. لقد صار لك صديقان

- أجل .

- ما أظرف أن يكون للانسان أصدقاء ! .. وهذا يجعل الدرس

أسهل .. انهم يقولون للانسان الأجوبة !

- وهل أنت شاطر فى دروسك ؟

- أنا ؟ .. أنا شاطر فى كل شىء !

وقالها سمولين بوجه باش

وأخذ الجرس يصلصل ٠٠ ثم يخف صوته كالحائف الجزع .
والآن ٠٠ كان فوما يشعر بطمأنينة أكثر بعد عودته الى الفصل
مرة ثانية ، ثم بدأ يقارن بين صديقيه الجديدين وبين بقية التلاميذ
الذين فى الفصل .

ولم يلبث أن قرأه على أنهما خير تلاميذ المدرسة جميعا ، وأنهم
يبلغان فى بروزهما بين تلاميذها بمقدار ما يبرز الرقمان ٥ ، ٧ فوق
السبورة (!) ومن ثم فقد سره أن يكون هذان التلميذان ، وهم
أحسن تلاميذ مدرسته ، صديقيه الحميمين .

وعندما انتهى اليوم المدرسى ذهب الثلاثة الى منازلهم معا ،
وسرعان ما دخل يزهوف حارة جانبية ضيقة ٠٠٠ أما سمولين فقد
مشى مع فوما الطريق بطوله ٠٠٠ وقبل أن يفترقا ، قال لصاحبه :

— هل ترى ؟ اننا نستطيع أن نمشى معا الى المدرسة أيضا !

ولما وصل فوما الى المنزل لقيه الجميع بالتحايا وبالهيل والهيلمان!
فلقد أتشفه أبوه بملعة كبيرة فضية ، فيها طغراء متقنة . كما
أتشفته عمته بكوفية من التريكو ، من صنع يديها ٠٠ ثم جلسوا الى
غداهم بمجرد أن خلع فوما ثيابه ٠٠٠ وكان الغداء يتكون من أطباقه
المفضلة ٠٠٠ ثم أنشأ أبوه وعمته يلاحقانه بالأسئلة

فهذا أبوه ، الذى كان يحدق مسرورا محبورا فى خدى ولده
الموردين وعينييه المتلاثلتين ، يسأله قائلا :

— هيه ٠٠ وكيف أحببت المدرسة ؟

ويجيبه فوما :

— أحببتها كثيرا ٠٠

وقالت عمته فى لهفة وشغف :

- يا قلبى ! خذ بالك .. واحذر الاولاد ... واذا حاولوا ان يضرؤك بشئ فاذهب الى المدرس فى الحال وقل له .
' ولكن اجنات زام قائللا :

- لا لا .. اياك وهذا .. لا تصغ اليها يا فوما ، بل خذ حقه يمينك دائما ... أذق الاولاد طعم قبضتك ... وعلى فكرة .. هل هم أولاد ظرفاء ؟

- نعم
ثم ابتسم فوما وهو يتذكر وجه ييزهوف ، ثم أردف قائلا :
- ان أحدهم من أطرف الناس جميعا ... لن تقع العين على اللطف منه .

- ابن من هو ؟
- ابن أحد الحفراء
- وتقول انه ظريف ؟
- وفيه شئ من الشراسة
- عال عال .. والآخر ؟
- والآخر ولد ذو رأس أحمر .. اسمه سمولين .

- آه .. هذا ولا بد ابن ديمترى ايفانوفتش ... اتخذ منه صديقا لك .. فهو من مستواك .. ان ديمترى رجل واع ، واذا كان ابنه سيكون مثله .. يكون ولدا طيبا .. أما هذا الولد الآخر .. فهو ما سوف ننظر فى أمره .. فوما .. ادعهما لزيارتك يوم الأحد .. وسأشتري بعض الأشياء الطيبة لنقدمها اليهما .. وسنلقى نظرة عليهما .

— ولكن سمولين دعاني لزيارته يوم الأحد !

وراح الولد ينظر في وجه أبيه في شيء من الحيرة والقلق :

— أوه .. أحدث هذا ؟ هل دعاك حقا ؟ .. اذن فاذهب اليه .. نعم
اذهب اذهب .. فلا بد لك من التمرس بجميع أهل هذه الدنيا
يمختلف طبقاتهم .. والانسان لا يستطيع أن يعيش في دنيا وحده ..
دون أن يكون له صديق .. هانذا مثلاً .. لقد كنت صديقا
لاشبينك ماياكين لمدة تزيد على عشرين سنة .. وقد أفادني أيما فائدة
بالكثير الثمين من آرائه .. وعليك أن تكون كما كان أبوك .. حاول
أن تصادق من هم أحسن وأكثر اجتهدا منك .. احتك بالصديق
الصالح مدة من الزمن ، كما تحتك قطعة النقود النحاسية بقطعة
فضية ، فلا تلبث أن تصبح فضة مثلها .

وضحك اجنات ، وقد خامره السرور بتشبيهه ، ثم أردف :

— ولكنني أمزح .. فحاول أن تكون أنت الاصل لا التقليد ..
الفضة .. لا للنحاس .. عش بمخك أنت ، حتى لو لم يكن لديك
ذكاء .. والآن .. هل كلفوك كثيرا من الواجبات المنزلية ؟

وتنهذ فوما قائلا : « كثير جدا » وقد رددت عمته تنهذته :

— اذن فلا بد من عمل هذه الواجبات .. ولا يصح أن تتأخر عن
أقرانك . وبهذه المناسبة يطيب لي أن أذكر لك أنك لن تتعلم في تلك
المدرسة الا القراءة والكتابة والحساب .. ولو أقممت فيها عشرين عاما
.. أوه .. نسيت أن أقول الا أن تتعلم الاشياء السيئة ، فكان الله
في عونك اذا حدث لك هذا .. اذن .. أعطيك علة طيبة ! أما اذا
شرعت تدخن التبغ ، فلسوف أشق لك شفتيك !

وتدخلت عمته تقول :

— وليعمر قلبك بالخوف من الله يا فوميكما ! لا تنس الله أبدا !

وهنا عماد والدة يقول :

— هذا حق .. خف الله واخش أباك ! إلا أنتى كنت أريد أن أقول
إن الكتب المدرسية ليست كل شيء .. وأنت لن تحتاج إليها إلا كما
يحتاج النجار إلى عدده ، فأرجع إليها كما يرجع هو إلى مطرقته
ومنشاره ، إن هذه الكتب هي عددك .. إلا أن العدد لا تستطيع أن
تعلمك الغرض الذى خلقت من أجله ، وفيه تستعمل .. فافهم ذلك ..
ولكى تدرك الأمر على وجهه ، دعنا ننظر ماذا يصنع النجار إذا أعطى
بيلطة وكلف أن يلحق (١) كتلة من الخشب .. فهذه عملية لا يكفى
فيها أن يكون للنجار يدان وبيلطة ليقوم بها ، بل لا بد أن يكون قد
حصل على الدراية بطريقة استعمال البيلطة حتى لا يضرب قديمه بدلا
من أن يضرب الخشب .. وهذا نفسه ينطبق عليك وعلى كتابك ،
فليس يكفى أن يكون معك كتاب ، بل يجب عليك أن تعرف كيف
تستعمل الكتاب .. وهذه المعرفة فيها فائدة أكثر من أى كتاب ..
وأنت لا يمكنك أن تحصل عليها من أى كتاب .. والحياة هي التى
«الوحيد الذى يستطيع أن يعلمك هذا يا فوما .. فالكتاب شيء ميت ،
وهو لن يصبح من الألم مهما عصرته وضغطت عليه ، أو ثنيته أو
مزقته .. أما الحياة فشيء آخر ، لأنك إذا خطوت خطوة خاطئة ، أو
حللت محلا ليس لك أن تحل فيه ، تصايح الناس بك من كل جانب ،
بل ربما أوسعوك ضربا بالهراوات حتى تخر ولا حراك بك ..

وكان فوما جالسا ومرفقا إلى المائدة ، يصغى فى انتباه تام ،
وحينما كان صوت أبيه يهدر كان يخيل لنفسه طرق النجار ببيلطته
فى لحاء الخشب .. ثم يخيل لنفسه بعد ذلك جسمه وهو ممدود على
الأرض المداعة ، ويدهام مبسوطتان يزحف نحو شيء حتى ضخم يريد
أن يثيبث به ، وإن قلبه خلع من الرعب فزعا منه !

- ان من واجب الانسان أن يأخذ باله من نفسه ، من أجل العمل نفسه الذى كلف القيام به ، ويجب أن يعرف تماما طريقة القيام به ومباشرة . ان الانسان أشبه شئ بمرشد السفينة ، وهو فى شبابه ، أشبه بالنهر فى فيضانه ، يمكنه أن يسوس سفينته الى وجهتها الصحيحة ، وفى الطريق السوى ، لأن النهر عميق فى كل مكان عمق الشباب نفسه . الا أن لكل شئ ابانه ! والانسان اذا ولى شبابه فلا بد له من الحيلة والحذر . فالفيضان اذا انتهى أخذ ماء النهر يهبط الى مستواه ، ويكون واجب مرشد السفينة أن يتحسس طريقه ، ويحذر الصخور والنتوء والمياه الضحلة ، فيستدير حولها حتى يصل بسفينته الى بر الامان » .

ولا يكاد اجنات يصل من حديثه الى هذا الحد ، حتى يقول فوما فى كبرياء وثقة :

- لسوف أصل الى بر الامان سالما !

ويضحك أبوه قائلا :

- حقا ؟ يا لك من شجاع !

وتضحك عمته ضحكة رقيقة هي أيضا .

★ ★ ★

لقد أصبح فوما منذ تلك الرحلة التى صحب فيها أباه على نهر الفونجا أكثر نشاطا ومرحا ، وأكثر ثرثرة أيضا فى حضرة والده وعمته وفى حضرة ماياكين . أما اذا كان بين الناس ، خارج المنزل ، فقد رأيت لا يجد طريق لسائه . لقد كان ينطوى على نفسه ، ثم لا يفتأ يقلب فى الناس عينيه ، كأنما يشم فى جوهم روحا عدائية . أو كأنه فى أغوارهم شئ مخفى يتربص به !

وكان يصحو أحيانا في منتصف الليل ، ثم يرقد طويلا مصغيا الى صمت العالم الذي حوله ، ومعدقا بعينه في ظلماته . . . وكانت الأمور التي حدثه أبوه عنها ربما ثارت أمام ناظريه في شريط من الرؤى المتتابعة ، وكان يخلطها ، دون أن يدري ، بمنظر من الأساطير التي قصتها عليه عمته ، مما تكون نتيجه مزيجا تندمج فيه ألوان الوهم الصارخة بأصداء الواقع الرزينة اندماجا غريبا . . . لقد كانت تؤلف شيئا ضخما ومحيرا . . . وكان ربما أغمض عينيه عسى أن يطرد تلك الرؤى عنهما ، وعسى أن يقف تيار الوهم الذي أثار في نفسه الخوف . . . لكنه لم يكن يستطيع النوم . . . وكانت الغرفة لا تزداد الا أشباحا . . . وعند ذلك كان ربما نادى عمته بصوت خافت :

— عمتي . . . عمتي . . .

— ايه . . . ماذا حدث ؟

فيقول هامسا :

— هل آتني لا تام معك ؟

— لماذا ؟ نم يا حبيبي . . . نم .

— أنا . . . خائف !

— قل : تعالى الله . . . وكررها في سرك عدة مرات ، فلن تشعر بأى خوف .

وكان فوما يغمض عينيه ، ثم يأخذ في ترديد التسبيحة في سره .
لقد كان يخيل اليه أن صمت الليل وسكونه أشبه بمدى لا نهاية له من الماء الاسود الراكد ركودا تاما . . . وكان يغطي كل شيء . . . وليس على سطحه أية اهتزازة . . . أية حركة مهما كانت ضعيفة . . . بل لم يكن في الماء شيء قط ، بالرغم من عمقه الذي يشبه عمق البحر . . . وكان شيئا مزعجا أن يكون وحيدا فريدا هكذا . . . لا أنيس له ولا من يذهب بوحيته . . . محمقا وسط هذه الظلمات في هذا الماء الميت ! ثم يرسل

حارس الليل جلجلة فى السكون فجأة ٠٠ فىرى الولد سطح الماء يهتز «
ويلمح كرات صغيرة وضاعة تثب على وجهه وتغطيه بحباب كثير ٠٠ ثم
يرن ناقوس ساعة البرج معلنا الوقت ، فينداح الماء ٠٠ ويظل زمنا
طويلا وهو يموج بسبب رنين دقات الساعة ٠٠ ثم تسقط شعاعة من
الضوء على سطحه ٠٠ وتظل تتسع حتى تتلاشى فى حواشى الظلال .
ومرة ثانية تنتاب فوما تلك الكآبة الموحجة التى يثيرها ذلك المنى
الاسود ، فيضرع الى عمته وهو يصر بأسنانه :

- عمتى !

- ماذا ؟

- أنا جى !

- تعال ٠٠ تعال يا حبيبى !

فاذا صعد الى سريرها ، لصق بها وقال :

- قولى لى حكاية !

وتقول عمته معترضة ، وبصوت ناعس :

- فى وسط الليل !

- أوه ٠٠ من فضلك !

ولم يلح عليها طويلا ، فقد ثأبت المرأة العجوز ، ثم أغضت عينيها
وبدأت تجر صوتها الناعس وهى تقول :

- فى مرة من المرات ، وفى بلاد بعيدة جدا كان يعيش رجل مع
امراته ، وكانا فقيرين أشد ما يكون الفقر ٠٠ وكان يبلغ من فقرهما
ألا يجدا شيئا يطعمانه . وكانا يخرجان فى كل صباح ليسالا
الناس احسانا ٠٠ ولم يكن لهما غذاء الا هذه الكسر من الخبز التى
كان الناس يجودون بها عليهما ٠٠ وبعد مدة من الزمن ولد لهما ولد .
ولما يولد لائى انسان ولد فلا يد من تعميده . الا أنهما كانا فقيرين

لا يستطيعان اقامة وليمة للاشبين والضيوف في حفلة التنصير ، ومن ثمة فلا يمكن أن يجدا أحدا يكون اشبيننا للمولود .. وجعلا يترددان على الناس .. على هذا مرة ، وعلى ذاك مرة .. لكن أحدا لم يرض أن يكون اشبيننا .. ولهذا أخذنا يصليسان لله : « يا ربنا .. يا اله السموات »

وكان فوما يعرف قصة تعميد السيد المسيح .. تلك القصة الرهيبة : لقد سمعها مرات كثيرة .. ولم تكده عمته تبدوها حتى تخيل المسيح الطفل راكبا حصانا أبيض ، وهو يبحث عن اشبين واشبيينة .. وهو يسير في الظلام في البرية ، حيث رأى الملعونين يقاسون العذاب ، وسمع توسلاتهم وصلواتهم :

« آه أيها الادمي الفاني ، اسأل ربك حينما تلقاه ، كم من الزمن سوف نبقى في هذا العذاب أكثر مما بقينا ؟ ! »

وقد خيل لفوما أنه هو الذي كان يركب الحصان الابيض ، وأنه هو الذي وجهت اليه تلك التوسلات وهذه الصلوات .. فخفق قلبه ، وامتلأت عيناه بالدموع ، فعصر عينيه المغمضتين ، ثم تحوى تحت البطانية ، وهو خائف من فتحهما ثانية .

وقطعت المرأة العجوز قصتها المخيفة لتقول له :
- نم يا صغيرى ، نم وليباركك الله !

واستيقظ فوما في الصباح التالى على عادته ، واغتسل بسرعة ، وازدرد فنجاله من الشاي ، ودلف الى المدرسة وجيوبه ممتلئة بالكعك الاطاييب كى يهدى منها الى الزميل الجائع ييزهوف ، الذى بدأ الآن يتغذى بانتظام مما يجلب له زميله الغنى الموسر الجديد .

وأول ما لقيه ييزهوف قال له وهو يزوى أنفه الصغير المدبب :
- أحضرت لنا شيئا ؟ هلم نأكله .. لقد غادرت المنزل اليوم دون أن أذوق شيئا .. ولقد تأخرت فى النوم ليلة البارحة .. عليها

لللعنة ! ظلمت جالسا حتى الثانية صباحا وأنا مكب على دروسى . هل عملت مسائل الحساب ؟

— لا !

— آه يا حمة .. ياكسول .. هات أحلها لك ..

ثم راح يقضم كعكة ، بثناياه الحادة الصغيرة وهو يزوم كالقطة ، ويخبط الأرض بقدمه اليسرى ، على حين كان يحل المسائل :

— انظر هنا ! اذا كانت ثمانية جرادل تملأ فى الساعة الواحدة ، فكم ساعة استمر نضج الماء ؟ ست ، عال .. ما أحلى طعامك يا صديقى ! اذن فيجب أن نضربها فى ثمانية . هل تحب الكعك المحشو بالبصل الاخضر ؟ أنا أحبه لدرجة الجنون .. وعلى هذا يكون عدد الجرادل التى ملئت فى ست ساعات — ثمانية وأربعين جردلا ، ويكون مجموع الجرادل التى أفرغت فى الجوض تسعين جردلا .. وعلى هذا فماذا عليك أن تصنع بعد ذلك ؟

لقد أحب فوما ييزهوف أكثر مما أحب سمولين ، ومع ذاك فقد كان يولى سمولين مقدارا من البود أكثر .. . لقد كان يفزع من ذكاء ييزهوف ومن نشاطه الجم .. . وكان يلاحظ أن هذا الزميل الصغير كان أذكى منه وأحذق ، فكره ذلك ، وحسبه من أجله ، وان كان يعطف عليه فى الوقت نفسه عطف الغنى المتفضل الشبعان ، على الفقير الجوعان . ولعل هذا هو السبب فى أنه كان أكثر ودا لزيميله سمولين ذى الرأس الأحمر .. . منه ليزهوف الذى كان مغرما بتوجيه نكاته الى زملائه المتخومين المشومين . الذين كان لا يناديهم الا قائلا :

— هو .. أنتم يا سلال الكعك والاطايب !

وكانت نكاته تسمى فوما وتثيره . حتى لقد زجره مرة قائلا :

— أنت يا شحاذا يا صعلوك !

مما جعل وجه ييزهوف الشاحب الأصفر يصطبغ ببقع كبيرة حمراء ، ورد عليه قائلا :

— حسن .. عال جدا .. انى لن أساعدك فى عمل دروسك بعد اليوم .. وسنرى فلاحتك اذن .. أيها الكتلة المعتبرة !

ومضت أيام ثلاثة لم يتحدثا معا خلالها ، الأمر الذى سبب شيئا من الضيق للمدرس ، اذ اقتضى هذا أن يعطى ابن الرجل المحترم اجنات جورديف درجات غير مرضية !

★ ★ ★

لقد كان ييزهوف ولدا طلعة، عساسا .. لا يفوته شىء مما يجرى حوله ... وكان يعرف أحسن المناسبات للصيد ، وأحسن الأماكن التى يصيد فيها أسماكه ... وكان يعرف كيف يصنع الفخاخ والاقفاص للطيور ، وقد أخبر زملاءه عن السبب الذى شق الخندق نفسه من أجله فى الطابق العلوى من القشلاق ، ولماذا فعل ذلك . وكان يعرف والد أى التلاميذ قدم هدايا للمدرس وماذا كانت هذه الهدايا .

أما ما كان يعرفه سمولين ويهتم به فكان مقصورا على حياة تجار الحى الذى يعيش فيه ... لقد كان يلذه أن يعرف مقدار ثروتهم النسبية ، والقيمة الصحيحة التى تساويها بيوتهم وسفنهم البخارية .. وكان يبحث هذه الامور بحماسة .

وكان ميله نحو ييزهوف ميل المتفضل المنزل كما كان شأن فوما نحو ييزهوف أيضا ، لكنه كان أكثر ودا وأقل تعرضا للقطيعة . وكان كلما نشب شجار بين فوما وبين ييزهوف ، قام هو بدور حمامة السلام بينهما ، فيصلح ذات بينهما ويسوى خصوماتهما . وقد سأل فوما مرة ، وهما راجعان من المدرسة :

— لماذا تتشاجر معه دائما ؟

فأجابه فوما مهتاجا : انه متبجح مزهو بنفسه .. بدرجة شنيعة !

— هذا لائنك لا تستذكر دروسك ، ولا انه يساعدك .. انه حاذق .
ذكي .. وليس ذنبه انه فقير .. وهو يستطيع أن يتعلم أى شىء
يريد أن يتعلمه ، وسوف يصبح غنيا يوما ما هو أيضا .

فقال له فوما بازدرأ :

— انه لا يزيد على كونه بعوضة ... هذا هو ! انه لا ينفك يزن .
ويطن ... وسيأتى اليوم الذى يعض فيه ويلدغ ..

الا أنه كان ثمة ما يؤلف رابطة بين هؤلاء الأولاد الثلاثة ،
وينساعدهم على قضاء الساعات الطويلة بعضهم مع بعض ، متناسين .
ما بينهم من الفرق فى الحسب والاختلاق . فجميعهم كانوا من هواة
الحمام . وكانوا يجتمعون كل يوم أحد عند سمولين ثم يتسلقون
أبراج الحمام المشيدة على سطوح المنازل الحلوية ليطيروا الحمام
الذى فيها .

وكانت هذه المخلوقات المرحية الرشيقة تنتفض ثم تفرد أجنحتها ،
وتطير من البرج واحدة بعد أخرى ، ثم تقف فى صف طويل عند
حافة السطح ، وهى تثغو وتقل نفسها فى أشعة الشمس ، مما
يلخل السرور على نفوس الأولاد .

وكان ييزهوف لا يفتأ يقول لصاحبيه وهو يختلج وينتفض :
« طيروها .. طيروها .. » فكان سمولين يزجر الحمام بعضا طويلة
ربط فى طرفها بعض النثار والسيور ، ثم يرسل من فمه صفيرا
يشق أجواز السماء ، فتطير الحمام مفزعة فى الهواء ، وهى تملؤه
بزئيف أجنحتها ، ثم تستدير فتعلو وتعلو فى السماء الزرقاء
الصفافية ، صانعة من نفسها دوائر جميلة ، ويسطع ريشها الأبيض
فى وهج الشمس ، فتبدو كأنها قطع من فضة فى بحر من الثلج ..

ويرتفع عدد منها محلقا ٠٠ محلقا ٠٠ كأنه يريد أن يمس بأجنحته.
قبة السماء نفسها ٠٠ في سرعة البراة وخفتها ٠٠ وأجنحتها
مبسوطة ٠٠ لا تكاد تشعر بأنها تتحرك أبدا ٠ ويبدو بعضها الآخر
كأنه (يتشقلب) في الهواء بخفة ورشاقة ٠٠ فهو يسقط ككرات
من الثلج مرة ، ثم يعلو تارة أخرى شاقا الهواء كأنه السهام المريشة ،
والآن ٠٠ ها هو ذا سرب الحمام كله يبدو كأنه قد تجمد في لوحة
السماء ، انه يغوص فيها ، بل يفرق في أديمها ، والأولاد يلاحظونه
في مسرة وانتشاء ، دون أن يفوهوا بكلمة ٠٠ ورءوسهم مائلة الى
وراء ، وأعينهم مثبتة في السماء ، والبريق السعيد الذي يشع من
نواظرهم المتعبدة يوشيه الحسد لهذه المخلوقات المجنحة التي
تستطيع بمثل هذه الرشاقة الوثوب من الأرض والتحليق في العلال.
الصافية ، الساكنة التي تغمرها أشعة الشمس ٠٠٠ لقد أطلق خيال
الأطفال من عقاله منظر هذه النقط التي لا تكاد تدركها الأبصار ،
والتي تبدو كالعنقود في لوحة السماء ٠٠٠ وكأنما كان يزهوف.
ينطق بما في روع الأولاد جميعا حينما قال في صوت ناعم مفكر :
- يا سلام ! لو كنا فقط ٠٠ نستطيع الطيران مثل هذا !

وفي نشوة هذه المسرة ، تجمع الأولاد متكبيكين ، ملتصقين بعضهم
ببعض ، منتظرين في هدوء وتشوف عودة تلك الطيور من رحلتها
في أعماق السموات ، وكأنهم قد نأوا عن هذا العالم كله ، بقدر
ما ابتعدت الحمايم عن تلك الأرض ٠ وقد كانوا في تلك اللحظة
السعيدة أطفالا أسعد وأصفى ما تكون الطفولة ٠٠٠ وأبعد من أن
يتطرق الغضب أو الحسد الى قلوبهم ، وبقدر ما كانوا يشبعرون
بالعزلة عن كل ما في العالم ، بقدر ما كانوا يشعرون بالقرب من
أنفسهم ، لقد كانت أفواههم صامتة لا تلجلج بكلمة ٠٠٠ وكانوا
لا تربطهم الا تلك الأشعة المنبعثة من أعينهم ٠٠٠ وكان كل منهم
يعرف ماذا يحس صاحبه ٠٠ لقد كانوا سعداء بقدر ما كانت
هذه الطيور الذاهبة في السماء ناعمة سعيدة !

ثم يعود الحمام الى السطح وقد نال منه التعب والجهد من طول
ما طار ، ثم يدخل البرج من جديد .

وعندما فرغوا من فرجتهم هذه فى أحد أيام الاتحاد .. قال
ييزهوف ، المحرك الحافز لجميع ما يقومون به من مغامرات :

هلموا أيها الرفاق .. هلموا نلتمس شيئا من ثمار التفاح !

وقد قشغ تحديه هذا الغشاء من صفاء النفس الذى استروحته
قلوبهم من التمتع بمشاهدة الحمام ، فلم يشعروا الا وهم يتجهون
نحو إحدى الحدائق المجاورة ... مندفعين اليها كما تندفع الحيوانات
وزاء دليلها ، مصيخة لأقل إشارة منه . وقد غلب على خوفهم من
أن يضبطوا شوقهم الى القيام بغارة ناجحة . فالسرقة هى أيضا ،
عمل من الأعمال ، وعمل خطر .. وما أحلى ثمراته ! .. وكلما كانت
المسقة التى تبذل فيه كبيرة ، كانت ثمرته أشهى وأحلى ..

وتسلىق الأولاد سياج البستان فى حيلة وحذر ، وكانوا ينتنون
كرقم ثمانية وهم يزحفون نحو أشجار التفاح ، ناظرين حولهم ههنا
وههنا . وكان أقل صوت يجعل قلوبهم تدق كالمطارق . وكان
خوفهم من أن يراهم أحد فيعرفهم لا يقل عن خوفهم من أن يضبطوا
ويقبض عليهم ... وكانوا يفضلون طبعاً أن يكتفى بمطاردتهم دون
أن تعرف شخصياتهم - وذلك بالصياح بهم لا أكثر ، فرب صيحة
مزقت شملهم وأطلقت سيقانهم للريح فى كل مكان ... فإذا التأم
شملهم بعد ذلك ... جلسوا ليضحكوا وينثرثروا فى هرج شديد
عما كانوا يشعرون به حينما سمعوا الصيحات ووقع الأقدام التى
بعثت الرعب فى قلوبهم وجعلتهم ينطلقون لا يلوون على شيء .

لقد كان فوما يبعث الجراءة فى حوادث السطو هذه أكثر مما كان
يبعثه فى غيرها من الشقاوات والمغامرات . وكان يظهر من الطيش
والتهور ما يذهل صديقيه ويسلمهما للغم والضيق ، وكان يتعمد
ألا يبدى أى شيء من الحيلة وهو يجوس خلال بستان من بساتين

الجيران ٠٠ فكان يتكلم بصوت مرتفع ، ويكسر فروع الشجر محدثاً قرقعة عالية ٠٠٠ فاذا حدث أن قطف تفاحة معطوبة لم يبال أن يلقي بها فى منزل صاحب البستان ٠ فاذا نبهه أحد صديقيه الى خطر القبض عليه فى مكان الجريمة لم يخفه هذا ، بل حفزه الى ما هو أكثر ، وقد يصر بأسبانه ، وتغيم عيناه ، وتظهر بدوات الكبرياء والمقت على وجهه ، مما جعل سمولين يقول له مرة ، وقد صعر له خده :

- انك تعتمد أن تظهر بمظاهر الشجاعة

فأجابه فوما :

- أنا لست جبانا

- أعرف انك لست جبانا ، ولكن المغفلين فقط هم الذين يتكلمون هذه المظاهر ٠٠ وفى وسعك أن تقوم بما تعمل دون أن تتظاهر بأنك شجاع !

أما ييزهوف فكان رأيه مختلفا قليلا ٠٠ لقد قال مرة فوما :

- يا للمصيبة فى رميل يسعى الى حتفه بظلفه ٠٠ ويتمنى أن يقبض عليه ٠ انك لست لى صاحباً ! فأنت اذا قبض عليك فسيأخذونك الى والدك ، ولن يمسك بأذى ٠٠ أما أنا ٠٠ فسوف يعطوننى علقه طيبة لن تترك فى جسمى كله عظمة نيلية !

فما زاد فوما على أن أجابه :

- جبان !

ثم حدث أن قبض على فوما فى أحد الايام رجل عجوز هزيل الجسم يدعى تشوماكوف ، كان ضابطاً من ضباط الجيش ، ثم تقاعد ٠٠ ولقد نافل فوما وهو يقطف التفاح ويدسه فى جيبه ٠٠ فصاح به وهو بمسك بتلابيبه :

— والآن .. قفشتك يا لص !

وكان فوما فى حوالى الخامسة عشرة فى تلك الآونة ، فاستطاع أن يخلص نفسه بسهولة من يدى ذلك الرجل العجوز .. الا أنه لم يلبذ بالفرار . بل أخذ يحذر الرجل وهو يقطب وجهه ، ويلوح بقبضتيه ، وهو يقول :

— أتجرؤ أن تلمسنى بيديك ؟

— ألسك ! اننى سأسلمك للبوليس .. فهذا الذى سأعمله . من أبوك ؟

وهنا ارتد فوما الى الخلف لهول المفاجأة .. لقد سكنت عنه غضبه ، وخذله كل ما أبداه من مظاهر الشجاعة . لقد كان يؤمن كل الايمان بأن أباه لن يعفو عنه مطلقا اذا هو سيق الى البوليس ..

وقال وهو يرتجف متلعثما :

— جوردييف !

— ابن اجنات ماتفييفتشن ؟

— نعم !

والآن كان الضابط هو الذى يتراجع الى الوراء .. لقد شد الرجل من نفسه ، وأبرز صدره ، ثم راح يبلع ريقه .. ولم يلبث أن قال فى لهجة الوالد الحنون :

— ألسنت تشعر بالحجل من نفسك يا بنى ؟ أنت ! ابن رجل مشهور ، وشخصية عظيمة الاحترام كهذه ! انبنى ما كنت أنتظر أن يحدث من مثلك هذا العمل أبدا .. تفضل .. انطلق الى بيتك .. ولكن .. اذا عدت الى مثلها ، فلسوف أذهب بك الى والدك — الذى — بهذه المناسبة — يشرفنى أن تسلم لى عليه كثيرا .

وحسب فوما ، من التغير السريع الذى طرأ على وجه الرجل ، أنه قد خاف سيده الوالد ! وبدلاً من أن يقصر الشر ، ويبضى الى منزله كما قال له الرجل ، وقف مقطباً وجهه فى عينى الضابط ، كأنه جرو ذئب . على حين راح الآخر ينتقل بثقله من احدى قدميه الى القدم الأخرى ، ويبرم شاربه الذى وخطه الشيب ، وعليه أماراة مضحكة من أمارات الاهتمام والجد . ثم قال له بلهجة أمرة ، وهو يشير الى الطريقة التى تفضى الى منزله :

— تفضل فاذهب .

— وماذا عن البوليس ؟

وقد قالها فوما مكتئباً . وكان يخيفه فى نفس اللحظة التى قالها فيها ما عسى أن يكون الجواب .

ولكن الرجل تبسم ثم قال :

— أو . . . لقد كنت أمزح . . . انما كنت أريد أن أخيفك فقط !

— بل . . . لقد خفت أبى !

ولم يعتم أن أدار ظهره للرجل العجوز ، وولى فى البستان مدبراً ، أما الضابط فقد تمتع يقول :

— خفت ؟! أوه . . . يالها من كلمة طريفة !

وقد أدرك فوما من لهجة الرجل أن كلمته قد نالت منه . على أن الحجل كان قد بلغ به المدى ، حتى لقد ظل يومه بطوله يتسكع هنا وهناك وحيداً فريداً . . . وعند عودته فى المساء لقيه أبوه محيياً ، بوجه عبوس صارم ، ثم قال له :

— فوما . . . هل تسلقت سياج بستان تشوماكوف ؟

وأجاب فوما فى ثبات ، وهو يحلق عينيه فى عينى أبيه :

— نعم !

والظاهر أن اجنات لم يكن ينتظر مثل هذا الرد ، فلبث لحظة
يقلب أصابعه في لحيته دون أن يتكلم .. ثم قال :

— ولماذا فعلت هذا أيها النصاب الصغير ! أليس لديك من التفاح
ما فيه كفايتك ؟

ولم يرد فوما بكلمة .. بل نكس رأسه ووقف صامتا .

— أنت خجلان .. أليس كذلك ؟ أحسب أن الذي دفعك الى هذا
هو صديقك هذا .. ييزهوف ! وعندما أراه سأرد له الكيل كيلين ..
وربما منعتك من اللعب معه على الاطلاق .

وقال فوما وهو رابط الجأش :

— لقد فعلت هذا من نفسى

— وهذا ألعن ! ولماذا فعلت هذا ؟

— لا لشيء .. الا أن

وقال أبوه ساخرا :

— لا لشيء .. الا .. اذا فعلت شيئا فيجب أن تعرف لماذا تفعله ..
تعال .

وتتقدم فوما الى حيث يجلس أبوه ، وأوقفه أبوه بين ركبتيه ، ووضع
يديه على كتفيه ، ثم راح ينظر فى عينيه ، وهو يقول له متنهدا :

— خجلان .. هه !

وزام فوما قائلا :

— أو .. هو ..

— أيها المغفل الصغير .. يا من تفضح نفسك .. وتفضحنى معك !

ثم يضم رأس ابنه الى صدره ، ويربت على شعره ، ويسأله قائلا :
- عجبنا والله ! ماذا يدفعك الى سرقة التفاح من بساتين الناس !
ويتمتم فوما :

- لست أدري .. اننا دائما كنا نفعل هذا الفعل .. ولقد سئمت
منه .. ولكن هذا ..

وضحك أبوه وهو يقول :

- ولكن هذا كان شيئا مثيرا !

- نعم ..

- أحسبك الآن قد أفقت .. فلا تعمل هذا العمل ثانية .. والا
أعطيتك علة لن تنساها !

ووعده فوما أنه لن يعمل هذا على الإطلاق .

- يسرني غاية السرور ألا تعول الا على نفسك .. أما ماذا يكون
من أمرك فعلم هذا عند الله .. وانت الآن بخير كل الخير ما دمت قد
تحملت تبعه عملك واعترفت بما فعلت ، وأدبت عليه حسابك ..
ولعل شخصا غيرك كان يلقي تبعه ما عمل على غيره .. فهذا هو
الطريق يا فوما ، ليكن كل منا مسئول عما يعمل .. ثم ماذا كان من
أمر هذا الرجل تشبوماكوف .. ألم .. يضر .. بك ؟!

وقال فوما من فوره :

- لو فعل .. لرددت له الصاع صاعين !

فغمغم أبوه قائلا :

- هه .. هم ! ..

- لقد قلت له : انه كان خائفا منك .. وهذا هو السبب في أنه
جاءك وشكاني اليك .. والظاهر أنه لم يكن عازما على ذلك .

— ألم يكن فى نيته أن يفعل ؟

— كلا . . . فقد كلفنى أن أبلغك تحياته

— أوه . . . أحدث هذا ؟

— نعم .

— شخص تافه ! ان من الناس من يتصرف تصرفات غريبة . تسرق منهم فينحنون لك ويتمسحون بك ، ويرسلون اليك تحياتهم . . . أو . . . انى لا أعلم أن ما سرقت لا يساوى أكثر من كوبك ، الا أن الكوبك بالنسبة إليه كالريال بالنسبة الى . . . وليس الكوبك هو المقصود . . . بل المقصود هو أن الكوبك ملكه ، ولا يمكن أن يستولى عليه أحد الا اذا أذن هو بذلك ، ولكن . . . حسينا هذا . . . خبرنى الآن أين كنت؟ وماذا رأيت . . .؟

وجلس فوما الى جانب أبيه وقص عليه كل ما علق بذهنه ذلك اليوم . وكانت أسارير جبين اجنات تنقبض وتنزوى ، وتغرق فى تفكير عميق وهو يدرس وجه ولده الذى كان يلتهب ويتوهج .

— لقد أهجنا بومة كانت فى الخندق . . . ولشده ما كانت شينا طريفا ! لقد طارت البومة مندفعة . . . ثم . . . اذا هى تنخبط خبطة هائلة فى شجرة . . . وأرسلت صرخة مدوية أيضا — وأكبر الظن أنها ضرت نفسها . . . ثم أهجناها مرة ثانية ، فطارت مرة أخرى . . . وحدث الذى حدث أولا . . . لقد كانت كلما طارت تنخبط فى شىء . . . وما أروع ما كان الريش يتناثر منها ! . . . ثم أخذت تطير حول الخندق مرارا وتكرارا قبل أن تجد مكانا تختفى فيه . . . ولم يهمننا أن نبحث عنها بعد ذلك — وكم شعرنا بالأسف من أجلها — ان كل المخلوقات تخبط خبط عشواء هكذا . . . ألا يستطيع البوم أن يرى شينا بالنهار على الاطلاق يا بابا ؟

وقال له أبوه :

- كلا .. يابنى .. ومن الناس من يسير فى الحياة على غير هدى
كهذه البومة .. يخطون هنا مرة ، ويتخطون هناك مرة .. باحثين
عن مكان ما يناسبهم .. ثم لا يصيبون شيئا الا أن يتناثر ريشهم ..
فهم يخسرون ريشهم ، ويضرون أنفسهم ، ثم يمرضون .. وفى نهاية
المطاف يلتقون أنفسهم فى أول شيء يصادفهم - أى شيء يضع حدا
لنضالهم - وهذا من أشق ما يعانىة أمثال هؤلاء يابنى .. من أشق
ما يعون !

- وماذا يجعلهم فى مثل هذه الحال ؟

- الاجابة على هذا من الصعوبة بمكان .. ان بعضهم يعنيه العجب
والكبرياء .. لهم أطماع عظيمة .. ثم لا شيء غير .. وبعضهم لا عيب
فيهم الا الغباوة .. أوله .. ما أكثر أسباب ذلك ! ..

★ ★ ★

وعلى هذه الوتيرة أخذت حياة فوما تتكشف يوما بعد يوم .. ولقد
كانت فى جملتها حياة هادئة ، وديعة ، ليس فيها الكثير مما يكدرها .
وكانت روحه تجد أحيانا ما يحركها فى بعض الانطباعات التى تتنافر
هى وهذا الاساس الهادى الذى قام عليه وجوده .. الا أن هذا
لم يكن يدوم طويلا .. لقد كانت روحه أشبه بغدير هادى مستقر
حتى هذه الآونة .. غدير ظليل لم تصل اليه زواجر الحياة بعد - وكل
ما كان يمس حواشيه ، أو يهب على سطحه ، أو يقع فيستقر فى
أعماقه ، محركا مياحه لحظة قصيرة ، لا يلبث أن يرسل فيها موجات
تتسع وتتسع ، ثم تدع البحيرة هادئة مستقرة كما كانت .

وفى نهاية أعوام تسعة من الدرس ، ترك فوما المدرسة بعد أن لم
ينته الا من أربعة صفوف فقط ، .. ان فوما لم يكن تلميذا ذكيا ، وان
كان صبيبا أنيقا أسود الشعر ، أسمر البشرة ، وحف الحواجب ، ذا

خط دقيق من الزغب فوق شفته العليا .. وكانت عيناه الكبيرتان ،
السوداوان ترسلان نظرة بريئة مفكرة ، وكانت شفته لا تزالان
ناعمتين وأشبه بشفتي طفل . لكنه كان اذا أربكه شيء رأيت انساني
عينيه ربما يتسعان ، وشفتيه يزمان فيكون منهما خط واحد مشدود
ووجهه وقد أصبح جامدا هامدا .

وقال له اشيينه ماياكين مرة : « ان العذارى سيجدن فيك ما هو
أحلى من الشهد ، يا قوما ، غير أنك لم تبد شيئا من أمارات الذكاء .
بعد ! »

وسمع اجنات هذا ، فتنهد .. كأنه آسف .. ثم قال ماياكين :

— لقد آن الاوان لكى يضطلع قوما بأعباء الحياة يا اجنات .
— بل لا بد من الانتظار قليلا ..

— وفيما الانتظار ؟ .. خذ سنتين أو ثلاثا معك على الفولجا ..
ثم الى ال .. مذبج .. لقد كبرت ابنتى ليوبا .. وقد غلت عروسا
الآن !

لقد كانت ليوبا فى ذلك الوقت فى الصف الخامس بمدرسة
داخلية ، وكان قوما كلما مر بها أومات اليه متشامخة بهزة من
رأسها الأشقر ، الذى تغطى قمته بقبعة صغيرة أنيقة . ولقد كان
قوما يميل اليها ، الا أن خديها الموردين ، وعينيها اللطيفتين
السوداوين ، وشفتيها القرمزيتين ، لم تكن تستطيع أن تنسيه هذه
الايامات المتشامخة . وكانت علاقات الصداقة تربط بين ليوبا
وبين عدد من الطلبة ، زملائها فى المدرسة ، وبالرغم من أن صديقه
القديم بيزهوف كان واحدا منهم ، فانه لم يجد من نفسه ميلا الى
الاختلاط بهم ، لانه كان يشعر بأنه غريب عنهم . وكان يخيل اليه
أنهم يحاولون أن يظهروا له علمهم أمامه ، ثم يضحكون من جهله ،
وكانوا ربما اجتمعوا عند ليوبا ثم راحوا يقرءون فى كتبهم بصوت .

عال ٠٠ فاذا قسدم عليهم فوما ، وكانوا يقرءون أو يتناقشون فى شىء ، غضوا من أصواتهم فى الحال ، بل توقفوا عن القراءة والمناقشة . وفى يوم من الأيام ، بينما كان يزور آل ماياكين ، دعتة ليوبا ليقوما بجولة فى الحديقة . وبينما كانا سائرين اذا هى تقطب له وجهها وتسأله :

- ما الذى يجعلك غير أنيس هكذا ؟ انك لا تكاد تفتح فمك بكلمة !

فأجابها ببساطة :

- وكيف أتكلم اذا لم أجد ما أتكلم عنه ؟

- اقرأ الكتب وتعلم ٠٠

- لا أجد بى حاجة الى ذلك .

- ان هؤلاء الأولاد على علم غزير ، ويستطيعون التكلم عن أى شىء ٠٠ ييزهوف ٠٠ مثلاً !

- انه ثرثار جخاخ !

- بل أنت شخص غيور ! انه ولد خارق الذكاء ٠٠ أجل ، انه كذلك ، وسينهب الى موسكو ليلتحق بالجامعة بعد أن ينتهى من راسته هنا !

- ليكن ٠٠

- وأنت ؟ أطفل على حالك هذه ٠٠ لا تعرف شيئا ؟

- وما عيب ذلك ؟

فقالت له ليوبا متهمكة :

- الست لييبا ذكيا ؟

وأجابها فوما بلهجة أكثر تهكما :

- سأضئ فى هذه الدنيا بدون أى قسط من التعليم .. وسأقطع
علاقتى بكل أصدقائك .. هؤلاء المتعلمين .. ان التعليم لم يخلق الا
للمحاذين .. ولست منهم !

وهنا صاحت ليوبا :

- أخ ... يا لك من شخص بئىء غبى شنيع !
قالت هذا .. ثم تركته وانصرفت .

وزوى فوما ما بين حاجبيه ، ثم حدجها بنظرة جريئة ، ومضى فور
سبيله هو الآخر ، وقد نكس رأسه من ثقل ما فيه !

وبدأ يتذوق مباحج الوحدة ... سم التفكير الحلو ! لقد كان
يشعر فى كثير من أمسيات الصيف ، حينما تكون الدنيا متوهجة
بالوان الغروب التى تشب الخيال ... كان قلبه مثقل برغبة ما ،
مجهولة .. وكان اذا جلس فى ركن منعزل بالحديقة ، أو رقد على
سريره ، أخذ يصور لنفسه رؤى العرائس وجنيات الغاب وأميرات
الاساطير ... وكأنها تتراعى له فى صورة ليوبا ، أو غير ليوبا ممن
يعرف من حسان ، ثم تطيف فى سكون وصمت فى ظلال الغسق ،
ملقية عليه نظرات ناعمة غامضة ... وكانت هذه الرؤى تدفع أحيانا
بالدم حارا فى عروقه ، فتملؤه بالقوة ، حتى لكان يثب ، فيستعرض
كتفيه ، ويستنشق أنفاسا عميقة من الهواء العليل المنعش ...
وكانت فى أحيان أخرى تجعله حزينا ، كأنما يحس حاجة الى البكاء
... وبالرغم مما كان يجد من الحجل من البكاء ، وما كان يبذله من
جهد لكى يحبس دموعه ، كانت تغلبه على أمره ، وتنهمل بالرغم
منه .

وأخذ أبوه يعلمه أسرار العمل قليلا قليلا ، فكان يصحبه معه الى
سوق الأوراق المالية ، ويعلمه عمليات القطع وإبرام العقود ، ويحدثه
عن زملائه ، ويروى له سبل نجاحهم ووصولهم الى قمة الثروة .

خاصا بالذكر أولئك الذين ملكوا ناصية المال ، واصفا له شخصية كل منهم ٠٠٠ وقد حنق فوما أعمال التجارة بسرعة فائقة ، واندمج فيها بأقبال وجد .

وضحك ماياكين يوما وهو يتحدث الى اجنات ، غامزا فوما :

— ما شاء الله ٠٠ ما شاء الله ٠٠ لقد أزهري اللفت فأعطي خشخاشا !

الا أن فوما ، حتى عندما بلغ التاسعة عشرة ، كان يبدو على شيء من السداجة والطفولة يجعلانه مختلفا أشد الاختلاف عن أقرانه الذين في سنه ٠٠٠ لقد كانوا يستهزئون به ويحسبونه غبيا ، وكان هو يعتزلهم لما يبدو أنه نحوه من ذلك كله . وكان أبوه وماياكين اللذان كانا يوليانه عينا ساهرة دائما ، في حيرة شديدة من حاله المترددة وعدم استقراره على شيء .

وقال اجنات يوما في شيء من الحسرة وهو يتحدث الى صديقه ماياكين :

— اننى لا أفهمه ٠٠ انه لا يذوق الحمر ولا يهوى النساء ، وهو شديد الاحترام لك ولى ، الا أنه أقرب الى أن يكون بنتا منه الى أن يكون رجلا ٠٠ ومع هذا فهو ليس غبيا ولا بليدا ، أليس كذلك ؟

— رأى أنه ليس غبيا ولا بليدا على الإطلاق .

— انه يبدو كمن ينتظر شيئا ٠٠ وكان ثم غشاوة على عينيه — لقد كانت أمه مثل ذلك ٠٠ كانت تحسس طريقها على الدوام ٠٠ أنظر يا أخى الى أفريكان سمولين ٠٠ انه لا يكبر فوما بأكثر من عامين، ومع هذا فأنت لا تستطيع أن تقول من الرجلين يدبر العمل جميعا ٠٠ سمولين أو أبوه ٠٠٠ ثم هو يريد أن يسافر ويجوب أطراف الدنيا ليدرس — يدرس فى مصنع أو معمل أو فى أى مكان آخر — وهو من أجل هذا فى شجار مع والده دائما — وهو يقول له

انه لم يعلمه شيئا كان يستحق أن يعلم . . . فهذا هو . . أما ابني !!
فاننى لا أستطيع أن أقف على سره ولا أن أستطلع طبعه !

ثم تنهد الرجل تنهدة عميقة تحمل الحسرة والأسى .

وأجاب اجنات فى لهجة حازمة :

- اسمع . . هذا هو ما يجب أن تعمله . . اقذف به فى عمل من
الأعمال الكبيرة ، ودعه يغرق أو يعوم . . فالذهب لا يعرف الا
بالنار . . . وستكشف لنا هذه التجربة عن معدنه لانه سوف
يتصرف فيها بتفكيره هو ورأسه هو . . . أرسله فى مأمورية تجارية
على احدى سفنك الهابطة فى نهر كاما يقوم بها وحده . كتجربة من
التجارب . اه !

- وماذا اذا لم يحسن أو كبذك شيئا من الحسارة ؟ . . ان الضرر
الذى يلحق جيبك سيعود عليك بربح عظيم ، على الاقل ، ستعرف
معدن ابنك ، وأى شىء هو ؟

وأجابه اجنات مقتنعا :

- لك حق . . هذا هو ما سوف أعمله .

★ ★ ★

وفى ذلك الربيع نفسه أرسل اجنات ابنه الى نهر الكوما ومعه
مركبان يحملان قمحا ، يقطرهما الرصاص بريلىزىنى ، ويقودهما
صديق فوما القديم . . ذلك العامل السابق ييفيم - الذى لم يعد
الناس ينادونه الا ييفيم اليتش ، تأدبا واحتراما . . . وقد أصبح
الآن رجلا ربعة ، يناهز الثلاثين ، له عينان حادتان كعينى فهد ،
وقد برهنت الحوادث على أنه ربان مستقيم مثابر واسع الادراك .

وقد شددوا رجالهم حثيثا ، وأقلعت بهم مراكبهم فرحين مستبشرين ، ليس فيهم الا متفائل مسرور . وكان فوما فخورا باضطلاعها لأول مرة بمثل تلك المسئولية . وكان يقيم فرحا متهللا برياسة هذا السيد الشاب الذى لا يتبعه سبابا وشتما عند كل صغيرة وكبيرة وكان هذا المزاج الفكاهى المرح الذى يتسم به هذان الرئيسان أشبه بضوء شمس غامر يشع على سائر الملاحين . لقد أقلعا بشحنتهما فى ابريل ، فوصلا الى وجهتهما فى أوائل مايو ، وحينما ألفت السفينتان مراسيهما بجانب البر ، رسا الجرار البخارى بالقرب منهما . وأصدر فوما أوامره بتفريغ القمح بمنتهى ما يمكن من السرعة ، ثم بيعه ، وتسلم الثمن ، والاقلاع الى برم ، حيث يسق الركبين بشحنة من الحديد كان أبوه قد تعاقد عليها لكى يدفع بها الى السوق .

ورست السفن الثلاث على مقربة من قرية صغيرة عند حافة إحدى الغابات . وفى أول صبيحة من وصولهم اليها أقبلت شرذمة من الرجال والنساء مشاة وركبانا الى الشاطئ وهم يضجون ويهللون ، ويغنون ، ثم تسلقوا جوانب المركبين ، وما هى الا لحظات حتى كان العمل على أشده ، وكنت ترى النساء ينزلن الى العنابر حيث يعبئن القمح فى الغرارات التى يحملها الرجال على كواهلهم ، ويندهبون بها الى الظهر ، ثم يمشون برشاقة فوق الألواح الخشبية السميكه التى كانت تصل بين المركبين وبين الضفة . وبعد قليل كنت ترى صفا طويلا من عربات الكار ممتدا على الشاطئ محملا بغرارات القمح التى طال على الناس انتظارها ، وقد أخذت العربات تدلف فى الطريق الممتد الى القرية . وكانت النساء يغنين الاغانى ، والرجال يمزحون ويتبادلون الشتائم والسباب فى رقة وطيبة قلب ، وكان عمال السفينة وملاحوها الذين تحولوا الآن الى حراس يسهرون على النظام وتنفيذ القانون يصيحون بالشغالة والحمالين ، وكانت الألواح تضرب الماء والحمالون يمشون فوقها ، وكانت الحيل

تسهل وتجمع ، والعربات تصرف وتقرقع ، والرمل يرسل صريرا
غربيا تحت عجل العربات .

كانت الشمس قد أشرقت منذ قليل . . وكان الهواء المعطر بأريج
الصنوبر ينعش النفوس وينشط الأرواح ، والماء الهاديء الوداع
يعكس زرقة السماء ويتمتم في رفق وهو ينتثر على جوانب المراكب
ويرتطم في سلاسل المراسي . وكانت أصوات الشغالة المرحة وهم
يعملون . وجمال الشباب المتدفق في أعطاف الربيع ملء هذا المنظر
من الطبيعة الفتانة المتوهجة في أشعة الشمس - كان هذا كله مفعما
بتلك القوة الضاحكة البهيجة التي أشاعت السعادة في أعطاف فوما ،
وأثارت في جوانحه مشاعر جديدة ، ورغبات لم يكن له بها عهد .
لقد كان جالسا على الظهر في ظل تندة وهو يشرب الشاي مع ييقيم ،
وكاتب أحمر الشعر أعشى العينين ، يلبس نظارة على عينيه ، موفد
من مجلس الناحية ليتسلم القمح . وكان يروى لهما وهو يهز
كتفيه في حركة عصبية وصوت به صرير وسرسة كيف كان
الفلاحون يتضورون جوعا ، غير أن فوما لم يكن يولى ما يقوله أى
التفات . فقد كانت عيناه تتناوبان النظر بين العمال من أدنى ،
والضفة الموشاة بأشجار الصنوبر على الجانب الآخر من النهر - ذاك
المكان الساكن المهجور !

وكان فوما يتمنى لو استطاع الذهاب ثم في قارب صغير ، وبينما
هذه الفكرة تراوده اذا صوت الكاتب ، ذلك الصوت الذي يشبه
صرير المنشار ، يأتي من بعيد ليصك أذنيه قائلا :

- ربما لا تصدق الى أى مدى بلغت الحال بالناس هنا ! اسمع
يا سيدي : لقد أحضر فلاح من أوسا ابنته ذات الستة عشر ربيعا
الى سيد ظريف يوما ثم قال له : « ها قد أحضرت اليك ابنتي
يا صاحب السيادة » . فلما سألها صاحب السيادة عن السبب قال
له : « لقد حسبت أنك ، وأنت رجل عذب ، قد تكون بك اليها

حاجة » • فلما عاد السيد يسأله عن السبب مرة أخرى ، قال له الرجل : « حسن • • لقد ذهبت أطوف بابنتي هذه في كل مكان أحاول أن أجد من يحتاج الى خادمة لتشتغل عنده فلم أجد • • • فماذا لو أخذتها أنت • • • وجعلت منها خادمتك ، و • • • اذا شئت ؟ واذا لم تجد منها فائدة أخرى • • • » فانظر الى ذلك الرجل يعرض ابنته • • ابنته ! هل تسمع ؟ على ذاك السيد لمثل هذا الغرض • وقد هاج السيد وماج بالطبع ، وقال لوالد البنت رآيه فيه ، ولكن الفلاح قال ، وهو يعي ما يقوله وعيا تاما : « وماذا أستطيع أن أصنع بها في أوقات مثل هذه ، يا صاحب السيادة ؟ انها حمل مرهق ، وعندي ثلاثة أولاد غيرها ، وهم سيكبرون ويصيرون عمالا ، ولهذا بذلت جهدي في المحافظة على حياتهم • • • فأعطني عشرة روبلات ! وخذ ابنتي • • • لكي أستطيع اعاشة هؤلاء الأولاد » •

— فما رأيك في هذا ؟ أليس شيئا فظيعا ؟ هه ؟

وهنا تنهد ييفيم من أعماقه وقال :

— يا لها من حال سيئة ! ان الجوع ، على حد قول المثل ، كالهرمة التي تأكل بنيتها • • ويبدو أن البطن له رآيه هو أيضا فيما هو حق وفيما هو باطل !

ولقد شعر فوما ، لسبب لم يستطع أن يفسره ، بسرور عميق ، للحظ الذي كتب لهذه الفتاة • وسأل الكاتب :

— وهل اشترى السيد الفتاة ؟

وأجابه الكاتب بلهجة فيها شيء من التعبير :

— لم يشتريها طبعا •

— فماذا حدث لها اذن ؟

— أو • • لقد وجد بعض أهل الخير الذين أخذوها عندهم • •

وهنا أرسل فوما آهة أسفة ، ثم قال بصوت أجش فجأة :

- لوجاءني بها هذا الفلاح لعرفت كيف أعيد اليه صوابه .. تالاً
لضربته ضربة كانت تذهب بشناياه كلها !

وسأله الكاتب وهو يرفع نظارته من فوق أنفه :

- ولكن .. لماذا ؟

- لماذا ؟ وكيف يمكن أن يباع بنو آدم ؟

- هذه وحشية .. أنا معك .. ولكن -

- وفتاة صغيرة كهذه ؟! لو كنت من السيد لدفعت اليه الروبلات
العشرة التي طلبها .. مساعدة

وهز الكاتب كتفيه ولم يتكلم ، وقد غاظ هذا منه فوما الذي نهض من
مجلسه وتوجه الى الدرابزين ، حيث كان يمكنه رؤية العمال وهم
يهبطون من المركب ويصعدون في حركة دائبة .. ولقد جلبت الضوضاء
الى رأسه الدوار ، وتبلورت المشاعر الغريبة التي كانت تهوم في
أعماقه فأصبحت حنيئاً الى أن يعمل هو نفسه مع هؤلاء العمال
بيديه وتمنى أن تكون له قوة خرافية كقوتهم ، وأكتاف هرقلية
كأكتافهم يستطيع بها أن يحمل مئات ومئات من غرارات الحبوب في
المرة الواحدة ، حتى يستولى العجب على كل من ينظر اليه .

وهتف بالعمال يحضهم على العمل قائلاً :

« الهمة يا حضرات .. الهمة »

وهنا ارتفعت رعوس كثيرة ترنو اليه ، لمح من بينها وجه امرأة ذات
عينين سوداوين تبسم له في رقة ، وفي فتنة واغراء .. وقد خفق
قلبه لتلك الالبتسامة ، وشعر كأن شيئاً يأخذه من أعماقه .. وكان
دمه يغلي ويتدفق كالحميم في عروقه .. فلم يملك الا أن ينزع نفسه
من الدرابزين نزاعاً ، ويعود الى المنضدة .. شاعراً بأن خديه كانا
يلتهبان التهاباً .

ثم التفت اليه الكاتب يقول :

- اسمع .. أرسل برقية الى والدك كي يبعث الينا بكمية إضافية من القمح عوضا عما ضاع من هذه الشحنة بسبب النقل والتفريغ . ولعلك تلاحظكم من الحب يضيع فيما ترى، مع أن كل حبة منه تساوي ثقلها ذهباً .. فواجب عليك أن تعلم ذلك .. ولكن .. هذا الرجل .. والدك .. هم ..

وسكت الكاتب وعلى فمه إشارة لها معناها . فقال له فوما على الفور :

- وكم ترى أن يرسل الى سيادتكم مقابل هذا الضائع لايفائكم حقكم ؟ مائة وزنة ؟ مائتان ؟

فأجابه الرجل الذي استولى العجب على نفسه :

- الله أكبر ! هذا يكون شيئا عظيما .. اذا كنت تملك ..

فقطع عليه فوما كلامه بجفاء وقال له :

- أنا السيد هنا .. وأنا أرجوك ألا تبدى ملاحظاتك الشائنة عن والدي ، وألا تدس أنفك فيما ليس من شأنك .

- معذرة .. وأستميحك العفو .. لا شك مطلقا في أنك على حق .. وأنا أشكرك من أعماق قلبي . أنت .. والدك أيضا .. بالأصالة عني ، وبالنيابة عن جميع هؤلاء الأهل ..

ونظر ييقيم الى سيده الصغير شذرا ، وجعل يزمر شفثيه ويمصمص بهما .. ولكن السيد الصغير ظل واقفا وعلى وجهه أمارات الجهد والكبرياء على حين كان الكاتب يكيل له عبارات الشكر والممنونية ، وهو يفرك يديه .

- مائتا وزنة ! هذا هو الكرم الروسى على حقيقته ، أيها السيد

الصفير ! اننى سأخبر هؤلاء الفلاحين عن هذه الهدية ، وسترى كـ
يعترفون لك بالجميل ، ويولونك الشكران •

ثم مال برأسه نحو العمال وهتف بهم قائلا :

— ان مالك هذا القمح قد أهدي اليكم مائتى أردب من القمح أيها
الأهالى •

فقال له فوما مصححا :

— بل ثلثمائة أيها الرجل

— بل ثلثمائة وزنة •• شكرا لك يا سيدى •• ثلثمائة أردت من
القمح هدية منه لكم أيها الناس !

ولكن الاثر الذى كان يتوقعه الكاتب لم يكن هو الاثر المنشود •
لقد رفع الفلاحون رؤوسهم لحظة عابرة •• ثم عادوا الى عملهم مباشرة
دون أن يحركوا ألسنتهم بكلمة •• وأن كان قليلون منهم قد رددوا فى
لهجة متلعثمة •• بل قل ، فى اشمئزاز ، بضع كلمات خاطفة :

— شكرا لك ••

— بارك الله فيك ••

— شكرا كثيرا ••

فى حين راح بعضهم يقول فى سخرية ظاهرة :

— قمح !! جميل جدا •• وماذا كان عيب الفودكا ؟ زجاجة من
الفودكا لكل منا ، الآن ، وفى هذه اللحظة ، كانت خيرا وأولى بلا
شك ! ان القمح لن يصل إلينا •• بل •• سيلهفه المجلس !

فصاح الكاتب محزونا :

— انهم لا يفهمون يا سيدى •• لا يفهمون •• سأذهب لأشرح لهم
الموضوع •

وذهب اليهم .. ألا أن فوما لم يبال رأى الفلاحين فى هديته ..
فقد رأى العينين السوداوين تنظران اليه بابتسامة خفيفة غريبة ..
لقد كانتا تشكرانه .. تدغدان قلبه .. تدعوانه .. فكيف يستطيع
أن يرى شيئاً آخر ؟! وكانت المرأة تلبس لبس أهل المدينة .. بلوزة
من القطن ، ونعلا فى رجليها ، ثم منديلا عقصت به شعرها الاسود ..
وكانت طويلة غيداء .. تميز كد لصفصافة حتى وهى جالسة على هذا
«الكوم من الحشب تصلح الزكائبوالقرارات، وذراعاها العاريتان الى
المرفقين ، يخطفان الابصار كلما حركتهما وهى تشتغل ، وشفتاها
تبتسمان لفوما !

وسمع فوما الربان يقيم يخاطبه معنفا :

- فوما اجنا تيفتش .. ألم تكن مبالغا مبالغة شديدة فى هذا
التبرع المسرف ؟ ألم تكن خمسون وزنة هى الشئ المناسب ؟ أهكذا
تعطى باليمين وبالشمال بلا أدنى حساب ؟ انك لم تأخذ بالك جيدا ،
كان ما لنا ، أنت وأنا .. شيئا لا يسر !

وقال فوما بجفاء :

- عليك نفسك فقط !

اصنع ما شئت، وفى وسعى أن ألجم لسانى، الا أنك صغير لا تزال
.. وقد أوصانى أبوك أن آخذ بالى منك .. وأخشى أن يكيل لى
ما تعلم من لكلمات ولطمات اذا تركت الامور تجرى على تلك الحال !

- سأخبر والدى ..

- عال جدا .. فأنت الرئيس هنا .. ولكن -

- صهين ، يقيم ، صهين

وصمت يقيم بعد أن تنهد قليلا .. أما فوما فقد أرسل ناظريه
نحو المرأة ، ثم أنشأ يفكر فى نفسه :

- آه لو أن أحدا يبيع لى امرأة كهذه !

ثم أخذ نبضه يسرع . وبالرغم من أنه لا يزال قلبا بكرا ، فانه قد ألم بشيء عن علاقات اللفة بين الرجال والنساء مما كان يسمع من أحاديث الناس . لقد كانت أحاديث تتخللها كلمات وقحة وفاحشة ، حتى لكانت نفسه تعافها ، الا أنها مع ذاك كانت تثير التشوف وحب الاستطلاع فيه . ويا طالما حاول أن يعرف عن هذه الاسرار ما غاب عنه ، الا أن شيئا من الاخيلة التى كان يلفقها له وهمه عن هذه الاسرار لم يكن شيئا مفهوما ولم يكن يتصور قط أن العلاقات بين الرجال والنساء كانت من الشناعة والامر الواقع بمثل ما كانت هذه العبارات الوقحة المسفة تصورها . وحينما كان اخوانه يستهزئون به ويؤكدون له أنها كانت كذلك ، ومحال أن تكون غير ذلك ، كان يعبس ، ويكشر بصورة حمقاء ، ويصر على أن تلك الصورة المخجلة لم تكن هى الصورة الوحيدة التى يمكن التعبير بها عما يجب أن تكون العلاقة بين الرجل والمرأة ، وأن ثم صورا غيرها بلا ريب ، أكثر نقاء وطهرا ، وأقل اهانة للطبيعة البشرية .

أما الآن . . وهو واقف يرنو فى عبادة واعجاب ، الى هذه المرأة ذات العينين السوداوين . . فلم يكن يجذبه اليها الا هذا الجاذب الحشن . وقد أزعجه هذا وأشعره بالحقارة والهوان . .

ولا حظ ذلك ييفيم ، وكان واقفا الى جانبه ، فقال له فى شيء من الجلد :

- ثم هانت ذا واقف تحديق عينيك فى هذه المرأة ! قل ما تشاء ، فأنا لا يمكننى أن ألجم لسانى أكثر مما فعلت . . انك لم ترها من قبل قط ، لكنها اذا ظلت تلاحقك بعينيها هكذا فلا شك أنك - وأنت صغير غض كما أنت ، ولك أخلاقك التى فطرك الله عليها . . لا شك أنك ستطب يا مولانا . . وتقع فى الحيص بيص الذى يرسل بنا الى السيد الوالد ، حافيين ، وعلى الاقدام ، وسيكون من حسن حظنا أن

نبقى لنا سراويل تستر ما تعلم .. وما الله به أعلم .

وصعد الدم في وجه فوما ، وقال :

— ماذا تريد مني ؟

— لا شيء مطلقا ، ولكنك أنت الذى تريد أن تصغى الى .. انى
يا سيدى عليم بأدواء النساء خير .. ومن حسن حظ الشباب أن
برزقهم الله خيرا بهن مثلى ليعظهم ، وليعلمهم كيف يسوسونهن ، وأمر
النساء بسيط غاية البساطة .. فما عليك الا أن تعد مائدة حافلة
بزجاجة من الفودكا .. وبيعض ما يؤكل .. ثم لا بأس من زجاجة من
الجنة بعد ذلك .. فإذا انتهى كل شيء .. فلا أكثر من أن تنفخ صاحبتك
بعشرين كوبكا .. وهذا ثمن يجعلها تبذل لك من الحب كل ما فى
قلبها .

وكان جواب فوما هذا الجواب المكتوم :

— هذا كذب !

— كذب ؟! ولماذا أكذب وقد جربت هذا بنفسى مائة مرة على الأقل ؟
اسمع .. دعنى أتول عنك هذه اللعبة .. سأجعلك تتعرف الى هذه
السيدة !

— فأنت عند قولك !

وفالها فوما وكان يدا تقبض على عنقه

— سأتيك بها هذا المساء

وقضى فوما بقية نهاره فى ذهول وحيرة ، لا يلقى باله الى نظرات
التبجيل والتودد التى كان الفلاحون ينظرون بها اليه .. لقد كان
فلقا ، مغزوعا .. كان يشعر كأنما أساء الى أحد .. وكان هذا الشعور
يجعله ظريفا لطيفا يتودد الى كل انسان ، ويلقاه بما يشبه الاعتذار .

واجتمع العمال فى ذلك المساء على ضفة النهر ليعدوا عشاءهم الذى أشعلوا لطبخه ناراً عظيمة ، وكان اللهب يعكس على الماء شأبيب من الوهج الأحمر والأصفر كانت تتراقص على أديمه الناعم ، وعلى زجاج القمر التى كان يجلس فيها قوماً متحويين فى ركن من الكنبات . . . وقد شد الستار على النافذة ، ولم يشعل المصباح . وكان وهج النيران يخترق الستار ، وينفذ منه ضوء مرتعس خافت ، لا يفتأ يعلو ويهبط على المنضدة والجدران . وكان السكون شاملاً ، ولم يكن تم من صور ينسق هذا السكون إلا غمغمة الأصوات اللاغطة فوق الشاطئ ، والى نقر الأمواج الخفيفة على جوانب المراكب . . . وكان يخيل لقوماً أن أحداً من الناس مختبئاً فى ظلال القمر ، وقد رآه يراقبه من قرب . آه . . . لقد أقبل ! وهاهو ذا وقع أقدامهم يدب على الصقالة . . . وهام ذى الصقالة تضرب الماء فى غل وغيط ! . . . أنه يسمع ضحكاً وأصوات خافتة خارج الباب .

وأوشك أن يأمر القادم بأن ينقلب على عقبيه . . . بل لقد وقف بالعمى ليطرده . لكنه قبل أن يستطيع تحريك لسانه ، انفتح الباب مصراعيه ، وإذا بالمرأة الطويلة أمامه . . . لقد دخلت ، ثم أغلقت الباب وراءها دون أن تحدث صوتاً ما .

وقالت المرأة بصوت هادئ :

— يا سلام سلم ! ما للغرفة مظلمة هكذا ؟ ألا من أحد هنا ؟

وأجاب قوماً بصوت ضعيف مخنوق .

— بل .

فقالت المرأة وهى تخطو فى تهييب :

— اذن . . . سعد مساؤك !

— سائىء المصباح !

لكنه بدلاً من أن يفعل شيئاً ، انحط على الكنبات ، ثم تحوّل و طرفها كما كان

- أوه .. هكذا أحسن .. فبمجرد أن تعناد العين الظلام
نستطيع الرؤية فيه
- تفضل اجلسي
- شكرا

ثم جلست على بعد ذراع منه ..
لقد كان فوما يلوح الشعاع المنبعث من عينيها ، والابتسامة التي
يحلج على شفتيها .. لقد كانت ابتسامتها تبدو شيئا مختلفا الآن .
انها كانت أكثر حزنا ، وأقوى على انبعاث الاسى والتسجن !
وكان هذا كله مشجعا . لقد أغضت حينما لقيتا عينيها ، فساعده
ذلك على ضبط أنفاسه .. الا أنه لم يدرك ماذا يقسول لها ، ومن ثم
فقد ساد الغرفة صمت كثيب .. وكانت هي أول من وضعت له حدا .
- انك لا بد أن تشعر بالوحشة ما دمت تعبس وحيدا .. أليس
كذلك ؟

وقال فوما :

- بلى .
- وكيف وجدت هذا المكان من النهر ؟
- في منتهى الجمال .. غابات كثيرة !
ثم ساد الصمت مرة أخرى
وأحب أن يتكلم فوما فشد لسانه وقال :
- ان نهركم أجمل حنى من الفولجا .
- لقد سافرت على الفولجا .. الى سميرسك
وردد فوما اسم هذه المدينة ، وهو لا يستطيع أن يفكر في شيء
مفصلة .. لكنها .. وقد فهمت الآن هذا الانسان الذي يجالسها ،
عالت له متسائلة في همسة رقيقة :

تعال هنا ! لماذا لا تقدم لى شيئا أشربه أو أكله يا سيدنا ؟

وبدهته هذه الملاحظة فلم شعته ثم قال :

- آه ... نعم ... يا لى من لمة فى مثل هذه المناسبات ... تفضل

وأخذ يتحسس فى الظلام ، ويأتى بالزجاجات فيضعها على المنضدة ، وهو يصطدم بها ، ضاحكا كالذى يشعر بالاثم ويحس بالحجل ... فنهضت ووقفت الى جانبه ، ثم تبسمت وهى تنظر الى وجهه الحجول . ويديه المرتعشتين :

وأحس أنفاسها ترف على خده ، فلم يملك الا أن يهمس : « أجل ! » وعند ذلك وضعت يديها على كتفيه ، ثم ضمته الى صدرها ، وهى تغغم فى ملق :

- انه لا شيء ... لا تخجل ... تم ... أنت لا شيء بدون ذلك ... انك صغير جدا ... وجميل ... وانى لا تشعر بالأسف من أجلك !

وقد جعلته كلماتها المهموسة يحس كأنه يبكى ... تم عرت روحه استرخاءة لذينة ، فأسند رأسه الى صدرها ثم احتواها فى ذراعيه ، متمتما بكلمات غير واضحة ... كلمات لم يفهم معناها هو نفسه .

وقال لها وهو مول وجهه عنها ، محدق بعينييه فى الحائط : « اذهبنى ... وأطاعنه المرأة ، وذهبت ، بعد أن طبعت قبلة على خده . »

لقد كان فوما يشعر فى حضرتها بخجل شديد لا يمكن احتمالاه ، ولما ذهبت ، نهض ثملقى بنفسه على الكنبه من جديد ، بعد أن وقف طويلا ، مأخوذا بشعور غريب ، شعور الذى ضاع منه شيء ثمين ، لم يكن يعرف أنه يملكه حتى فقداه . على أنه فى هذه اللحظة نفسها



.. انه لا شيء .. لا تخجل .. ثم ..

تقريبا كان يملؤه شعور جرى جديد .. شعور الكبرياء والزهو بنفسه .. وهو شعور لم يلبث أن طغى على الشعور بالحجل فنسخه، وبدلا من أن يشعر بالحجل ، شعر بالاسف على ذهاب هذه المرأة لتسير وحدها في الظلام ، وفي ليلة باردة من ليالى شهر مايو ... ولهذا فقد أسرع بمغادرة القمرة ، وانطلق الى الظهر ... لقد كان الليل ممثلا بالنجوم وخاليا من حبيبه القمر .. وقد شعر فوما ببرده، وغمره ظلامه ، وكانت جمرات النار لا تزال تتأجج حمراء ذهبية على صفحة النهر . وأنصت فوما : لقد كان السكون الرهيب يمسك أنفاس الهواء ، دون أن يصدعه شيء الا ضربات الماء الخفيفة اللطيف التى تصافح سلاسل المرساة ، ولم تكن تسمع خطوة واحدة فى أى مكان ... وقد أراد أن ينادى المرأة ، الا أنه لم يكن يعرف اسمها . ولبت واقفا بضع دقائق فوق الظهر يستنشق الهواء النقي فى لذة وشغف ... ثم اذا به يسمع فجأة صوت تنهدة مقبلا من الناحية الاخرى من قمرته ، من مقدمة المركب ، فهم بالتقدم الى الامام فى هدوء ورفق ، متيقنا أنه سيجدها هناك .

لقد كانت جالسة على ظهر المركب وهى تبكى ، وقد أسندت رأسه على حوية من الحبال . وكان من اليسير على فوما رؤية كتفيها العاريتين البيضاءوين تعلوان وتهبطان وأن يسمع بكاءها اليائس .. انه هو نفسه كان يحس باليأس .

وانحنى نحوها فى رهبة يسألها :

- ماذا ؟

لكنها هزت رأسها دون أن تجيب .

- هل ألحقت بك ضررا ؟

ولم تزد على أن قالت له :

- انصرف !

وقال فوما وهو يلمس شعرها فى قلق وربكة :
- و .. ولكن .. لماذا ؟ لا تغضبى منى .. وعلى كل .. فانت
نفسك ...

وهمست المرأة الباكية تقول :

- لست غضبى ... وماذا يغضبى منك ؟ انك لست وحشا ،
راى لك لقلبا نقيآ .. آه ، يا عصفور طريقي .. اجلس الى جانبى
ثم أخذت يده وسحبته الى جانبها كأنه طفل ، ثم أسندت رأسه
على صدرها ، وأهوت بشفتيها المشتعلتين على شفتيه تقبلهما .
وسألها فوما عن سبب بكائها وهو يداعب خدها باحدى يديه ،
ويربت على كتفها بيده الأخرى ..

وسألته بلهجة نائحة مشجية :

- نسدتك نفسى الا أن تخبرنى ، لماذا طلبت الى أن أذهب ؟

وأجابها فوما وقد أطرقت برأسه :

- لقد كان الحجل يعصف بى !

ف قالت صاحكة ، والدموع الغزيرة تساقط على صدر فوما :

- يا طفلى العزيز .. اصدقنى ولا تكذب على .. انك لم تحببى ،
البس كذلك ؟

- ما هذا الذى تقولين ؟

وكان يقول لها ذلك والجزع يكاد يأخذه من صميمه . ثم راح
يصرح لها باعتراقات حارة مغلصة ، ويعبر لها عما آتاها الله من جمال
ورقة ، وعما شعر به من الرثاء لها والاسف عليها ، وما استولى عليه
من الخجل وهما معا فى تلك الغرفة ... وبينما كانت تصفى اليه
كانت تداعب بالقبل خديه وعنقه وصدره العارى . .

فلما انتهى ، أخذت هى ترقرق له الحديث بصوت باغم حزين ،
كأنما كانت تحدّثه عن قوم انتقلوا الى عالم البقاء :

— وعلى هذا فقد كنت مخطئـة . . . ولم أفهم معنى أمرك !
بالانصراف . . لقد نهضت . . وانصرفت ، الا أن كلماتك جعلتني
أشعر بمرارة شديدة . . لقد كنت أحسب أن أحدا لن يزدرينى على
هذا النحو . بل كنت أحسب أنني لو طلبت ممن يهوانى الدينـيـة
بأسرها تمن ابتسامة واحدة ما بخل بها على . . . هذا هو ما كنت
أظنه . فلما اذدريتنى أنت على هذا النحو . . بكيت . . لقد بكيت
شبابى الضائع . . فأنا الآن فى الثلاثين من عمري . . وماذا يبقى
للمرأة بعد الثلاثين ! آه . . يا فوما اجناتيفتش !

وهنا ، كانت قد خلطت صوتهـا بنغمة باكية فيها أنين وفيه
شجو ، ورفعت من طابقه ، وهى تزيد شيئا فشيئا من سرعة الإيقاع
فى حديثها الرخيم الحنون' ، الذى كانت نبراته صدى حلوا للما
الترقرق . اصغ لما أقول : انتفع بشبابك ، فليس فى الدنيا ما هو
أغلى وأثمن ! ان الأسباب مثل الذهب ، يأتيك بكل ما تشتهى
فأنفقه حتى يكون ثمة ما تستطيع أن تتذكره حينما تشيخ وتكبر .
لقد كان شبابى هو ما فكرت فيه ، وأحسب أنه هو الذى جعلنى
أبكى ، ولقد انتشى قلبى حينما تذكرت كيف كنت أعيش . وقد
عاد الى صباى حينما رويت من الماء الحى . . آه يا صغيرى العزيز
لسوف نعاود سرورنا ان كنت أقع من نفسك الموضع الذى تشتهى
وعندئذ أفرغ روحى كلها بين يديك . . . اننى ان اشتعلت النار فى
يوما . فلن تدعنى الا رمادا !

ثم أخذت فوما ملء ذراعيها ، وأهوت على شفثيه تقبله فى حراره
وشغف .

ثم ارتفع صوت أحد الملاحين من المركب المجاور ينادى في عنه
- « خف ٠٠٠ ير » !

وراح يخطف الرء خطفا مباغتاً ، ثم تناول دفاغه (١) الخنسي
وأخذ يدق به على لوح من الصاج يقوم مقام الجرس ٠٠٠ وكانت
ديذبات الدق تجلجل في حنج السكون الرهيب .

وبعد أيام قلائل ، وكانت السفينتان قد أفرغتاً من حملهما ،
واستعد الجرار البخارى لتسدهما الى برم ٠٠٠ رأى ييفيم ، ويا هول
ما رأى ، عربة تهبط نحو حافة الماء ٠٠ وإذا فوقها تلك المرأة بيلاجبا
٠٠ صاحبة العينين السوداوين ، ومعها حقيبة كبيرة ، وكم بقحة !

وقال له فوما بلهجة أمرة وهو يشير الى العربة :

- أرسل بعض الملاحين ليحملوا متاعها .

وهز ييفيم رأسه هزة الساخط الناقم ، لكنه أنفذ ما أمر به . ورى
نفسه ما فيها ٠٠٠ وبعد هذا بقليل نظر الى فوما وقال له بصوت
حافت .

- وعلى هذا فهي مسافرة معنا ٠٠ أليس كذلك ؟

- انها مسافرة معى ٠٠ أنا !

- أنا لم أقصد أنها مسافرة معنا جميعا ٠٠ أو ٠٠ هو !

- وفيهم تلهفك ؟ ٠٠ وفيهم هذه الحسرة ؟

- اسمع يا سيد فوما اجناتيفتش ، اننا ذاهبون الى مدينة كبيرة ،
وهناك من أمثالها الشيء الكثير !

وقال له فوما بلهجة صارمة :

- كفى ٠٠ أمسك عليك لسانك !

(١) الدفاق بلغة الملاحين أشبه بمدقة الخشب

فتجهم ييفيم ثم قال :
- حاضر .. حاضر .. ولكن يجب أن تعلم أن هذا شيء لا يجمل بك !

وأجابه فوما متغطرسا ، وهو يضغط على كل كلمة :
- اذا سمعتك ، أو سمعت أى شخص آخر ، يرسل فيها لسانه بمكروه ، فلسوف أحطم رأسك .. فاذكر هذا ولا تنسه !
وزام ييفيم مهمهما : - يا للداهية السوداء !

وجعل يحدث فى سيده كالمنكر عليه ، ثم رجع الى الورا حطوة ، وابن اجنات يكر عن أنيابه كأنه ذئب .. على حين كانت حديقنا عينيه تدوران وتبرقان ، ولم ينشب أن زار قائلا :
- تجاسر .. ولسوف أريك

وقال ييفيم فى شمم ، وبملء الكرامة ، بالرغم مما يخامره من خوف :

- وقد تكون السيد الأمر هنا .. الا أننى أوصيت أن آخذ نالى منك .. ثم .. لا تنس أننى الربان هنا !
فصاح به فوما وقد هرب الدم من وجنتيه ، وأخذ جسمه كله يرتجف :

- ربان ! فماذا أنا .. اذن !
- ليس ثم ما يدعوك الى هذا الصباح ... ان كان هذا كله سبب امرأة لا قيمة لها !

واصطبغ وجه فوما ببقع حمراء ، وجعل ينب من احدى قدميه الى القدم الاخرى ، ثم كئل قبضتيه ووضعهما فى جيبيه ، وقال بصوت بايت ، ساكن :

- اسمع .. أنت ربان ! اذا تفوهت بكلمة أخرى فتستطيع أن تأخذ بعضك ، وتنكشج من هنا ! أخرج من المركب ! وسيمكننا ،

أنا والمرشد أن نعمل بدونك .. فاهم ! لا تفكر أنك تستطيع أن تصدر أوامرك الى .

لقد شده ييقيم .. ووقف غاضبا عبيه عن فوما ، غير مستطيع أن ينطق بكلمة !

- لقد سألتك ان كنت تفهم !

- أجل أجل ! ولكن .. فيم هذا الصخب كله ! أمن أجل هذه المرأة ال ...

- اخرس !

وعرف الربان من عيني فوما المشتعلتين ، ووجهه المتقلص ، أن من الفطنة أن ينسحب .. وسرعان ما فعل .

لقد كان ييقيم ناقما على فوما ، وكان يعتقد أنه عومل معاملة طائلة ، لكنه أدرك في الوقت نفسه أنه أمام سيّد حقيقى قوى الإرادة . ولأنه كان معتادا أن يتلقى الأوامر فى مثل هذه الظروف ، لم ير بأسا فى أن يستشعر أن اليد التى فوقه يد قوية ذات بأس . وقد توجه فى الحال الى قمرة المرشد فقص عليه ما حدث ، وحيرا فعل .

وقال له وهو يصل رواية القصة :

- فما رأيك فى هذا ؟ انهم يقولون ان كلب الصيد الجيد تنجلي مواهبه لأول مرة تأخذه للصيد فيها ... وقد يبرز من المزاي ما لم تكن تدل عليه مشيته المترنحة المختلجة ... لا بأس .. دعه ينم لعبته .. فلن يسفر هذا عن ضرر ما .. فقط .. هذه الحدة التى تملكه ...! وهذه الطريقة التى تار بها فى وجهى ! لقد كان يطن كالطبل ... حقيقة انه لم يلبث طويلا حتى دل على معدنه ، وعلى الخامة التى صنع منها ... انه ليخيل لك أنهم كانوا يرضعونهم القوة ، ويطعمونه السلطان .. لا بالمعلقة .. ولكن بالجرذل !

لقد كان ما قاله ييقيم حقا كل الحق .. فلقد تغير فوما فى الأيام

الاحيرة تغيرا تاما ، بفعل العاطفة التي شبت فى أعماقه فجعلته المالك المسيطر على جسم هذه المرأة وروحها ٠٠٠ ولقد راح يعب عما من المفاتن المتأججة التي أصبح سيدها المسيطر ٠٠٠ انها قضت على جميع المتناقضات وألوان الشذوذ التي كانت تجعله يبدو شابا بليدا عيبيا ، كما أفعمت قلبه بتسباب الكبرياء ، وبالشعور بذاته هو ، والاحساس بعفديته ، ان حب الرجل المرأة خير أى خير للرجل ، ايا كان هذا الحب ، حتى لو لم يجلب له الا الضنى والالئم ، وذلك أن الالئم نفسه لا يخلو من الخير ، ان السم هو علاج النفوس الخبيثة ، أما الحب ، فيصهر النفوس السليمة ويصلحها كما تصهر النار الحديد وتصلحه .

ان افتتان فوما بهزم المرأة ذات الثلاثين ، التي كان حبهما له اشودة البجعة لشبابها ، لم يله عن عمله الذي كان يعمل . انه لم يكن يستغرقه حبه فينسى عمله ، ولا عمله فينسى حبه ٠٠٠ بل كان يعدل كل العدل بين هذا وذاك ، لقد كانت المرأة كالخمر الجيدة . تنير فيه الحماسة للعمل ، بقدر ما كانت تثير فيه الحماسة للحب . بل لقد كانت هى نفسها ترتد الى شبابها وعنفوانها تحت سحر ملإطفاته ومعايذاته .

وعندما انتهت بهم الرحلة الى برم ، وجد فوما خطابا ينتظره من اشبينه ما ياكين يخبره فيه بأن اجنات كان يستعين على وحشته ووحدته بشرب الخمر ٠٠ ولما كان هذا خطرا على شبيخوخته الوانية فيخلق بفوما أن يسرع بانهاء أعماله بقدر ما يستطيع ، وأن يعود أدراجه الى المدينة . وقد استنتج فوما من ثنايا الخطاب معنى كان أشبه بالنذير الذي اتلف عليه هناة قلبه ٠٠ الا أن هذه الغمامة القائمة سرعان ما قشعتها أعناء العمل وملاطفات بيلاجيا . وكان الوقت يمضى حثيثا مسرعا فى سرعة تيار النهر ، وكان كل يوم يمضى يزيد فوما تجارب جديدة وأفكارا جديدة . وكان حب بيلاجيا حب الخلية المتأجج البالغ فى

عمقه المدى الذى لا تستطيع الا امرأة فى سنها أن توفره لحليها .
وتسقيه كأسه حتى الثمالة . وكانت تتفنن أحيانا فى استحداث
احساس جديد لا يقل قوة وعمقا عن الاحساس بالحب الملهب نفسه .
ولا يقل أثرا فى ربطها بفوما برباط آكد وآمن . . انه احساس
بأحاسيس الامومة أشبه ، واليها أقرب ، الامومة التى همها الوحيد
وشغلها الشاغل هو المحافظة على وحيدها من الوقوع فى أخطاء قتاله ،
وتعليمه حكمة الحياة . لقد كانت فى كثير من الاحيان ، وهما حالسان
متعاقبين فى الليل على ظهر المركب ، ربما تكلمت اليه فى صوت
حزين عطوف ، تقول :

- استمع الى كما تسمع الى أختك الكبرى . ان لى من تجارب
هذه الدنيا الشيء الكثير ، واني لعلى دراية بالناس ومعرفة ، وكم دا
مر على من أحوالهم طوال حياتى . كن على حذر وأنت تختار
أصدقائك ، لأن من الناس من لا يقلون عن المرض الفتاك فى نقل
العدوى ، وأنت لا تستطيع أن تدرك ذلك أول عهدك بصدقة أحدهم .
وقد يبدو الصديق من الاصدقاء كما يبدو أى صديق آخر ، إلا أنك
تكون قد ابتليت بما فيه من عيوب ونقائص قبل أن تظن الى ذلك .
وانى ان حسد ترك الرجال ، فأنت بالتحذير أولى منا . . مباشر
النساء (يا رعاك الله منهن !) . أنك لا تزال غضا رطب العود ، وان
فلبك الغرير لم يعله الصدا بعد . ان الغلمان أمثالك - أولئك الاقوياء
الوجهاء الاغنياء - هم على الدوام صيد ثمين للنساء ، فايك اياك والمرأة
الناعمة الحاملة ، فهى تمص الرجال كما يمص الدم العلق ، وهى لا تفتأ
تمص وتمص وتمص ، دون أن تشعر ضحيتها البائسة ، ثم ماذا يكون
المآل ؟! تذهب الضحية ، وتبقى الدودة قوية طرية وفى كامل
صحتها !! ان النساء يحطمن قلوب الرجال ، ولا يعوضنهم شيئا . .
وقل منهن من لا تسعى الى فائدة ، ومن لا تطمع فى ربح . . فان
وجدن . . فهن أولى بمثلك يا فوما .
وتبسمت كالتى تقول له : « مثلى »

والحق أن بيلاجيا لم تكن تفكر فى كسب مادية قط . وقد اشترى
لها فوما بعض الملابس والحلى من برم . وقد فرحت بها عندما أهداها
اليها ، الا أنها عندما ألقت نظرها عليها لم تملك الا أن تقول فى قلن
واشتغال بال :

- أليس فى هذا اسراف وتبذير يا فوما ! ان أباك سيغضب .
لا شك . اننى أحبك على أية حال أمرنا . . وبدون هذا كله !
وقد حدثته منذ أول أمرهما أنها لن تذهب معه الى أبعد من قازان ،
حسب أختها المتزوجة . ولم يكن فوما يعتقد أنها ستتركه ثم ، وقبل
ليله من وصولهما الى تلك المدينة ، وبعد أن ذكرته بيلاجيا بذلك ،
إذا هو يشعر بالغم والكآبة ، ويرجوها ألا تفعل ، وأن تبقى معه .
وتجيبه بيلاجيا :

- حلمك حلمك . . لا تحزن مقدما . . ان أمامنا ليلة بتماهما ،
وسيكون لديك من الوقت ما يكفيك لسكب الدموع . . اذا كنت
سنشعر حقيقة بأنك تفقدنى .

الا أن هذا لم يزد الا الحاحا فى مطالبتها بالبقاء ، وأن تبقى معه .
لأنه يريد أن . . يتزوجها .

وتضاحكت . . ثم قالت :

- أوه . . هو . . فهذا هو ما تريد اذن ! تريد أن أهجر روجا حبا
من أجلك ! ما شاء الله ! ما أطيب قلبك ! وما أعظم سداجتك ، فانت
سريد أن تتزوج اذن ؟ وهل يتزوج الرجال أمثالى ؟ انك ستجد الكثير
من الحبيبات قبل أن تفعل . . أوصيك ألا تتزوج حتى تكون قد بلوت
من أمر هذه الدنيا ما ينفعك . . وحتى تكون قد شبعت من أطايب
الحياة شبعاً يجعلك تتوق الى خبزها الاسود ! وحينئذ يكون قد آن
لك أن تتزوج . ان الرجل الذى له مثل صحنك يجب ألا يتزوج
معرا . اذ أن زوجة واحدة لا تكفيه ، ومن ثم فلن ينفك بجرى وراء

الاحريات ! اذا أردت أن تكون سعيدا ، فانتظر حتى تتيقن أن زوجة واحدة ستكفيك !

الا أن فوما كان ، كلما زادته من هذا الحديث ، لا يزداد الا همسا وعنبانا من فكرة فراقهما ، وأخيرا قالت له فى هدوء :

- اسمع .. اذا كنت تحمل شعلة لا حاجة بك اليها ، لأن حولك من الضوء ما فيه الكفاية ، فخير لك أن تلقى بها فى الماء ، بدلا من أن نملا الدنيا من حولك دخانا ، أو من أن تحرق يديك !

- لست أفهم ماذا تعنين .

- حاول أن تفهم .. انك لم تسيء الى قط ، ولست أريد أن ألقى بك أبة اساءة .. وهذا هو ما أريد أن أتركك من أجله .

ان من الصعب التكهّن بما كان سينتهى اليه نقاشهما لو لم تندخل المصادفات والظروف . لقد تسلم فوما فى قازان برقية من والده يقول له فيها باختصار :

- احضر حالا بباجرة المسافرين

وقد غاص قلب فوما فى رجليه ، غير أنه بعد هذا ببضع ساعات كان واقفا ، أصفر ، شاحب الوجه ، منكس الرأس ، فوق ظهر باجرة المسافرين التى كانت قد أقلعت ، وأخذت تباعد عن ضفة النهر . ولم يشعر الا وهو واقف بلا حراك ، وقد قبض على الدرابزين بكلتا يديه ، وراح ينظر ، دون أن يطرف ، الى وجه تلك المرأة التى خبل اليه أنه يتلأشى بعيدا عن عينيه ، مع ما يتلأشى من الميناء ومن ضفة النهر . لقد كانت بيلاجيا تلوح له بمنديلها وتبتسم .. الا أنه كان يعرف أنها تبكى ! لقد كان صدر فيميصه لا يزال مبللا بدموعها ، تلك الدموع التى تركت قلبه المتألم المعذب يشعر بالبرد والبلل ! ثم أخذ شخصها بنضائل ويتضاءل وبينما كان فوما يرنو اليها كان يحس ان شعورا

ما ، فويا جديدا قد اقتحم قلبه ليسكن فيه مع حزنه لفقده المرأة ، ومع خوفه على أبيه . لقد كان احساسا بالغیظ والكرهية لشخص ما . . ولكن من هو ؟ انه لم يكن يدري ! .

وابتعدت الباخرة . . وأصبح الزحام المجتمع فوق الميناء أشمبه بلطخة لا وجه لها ولا رجلان ولا حركة . . وترك فوما موقفه من الدرابزين ، وراح يذرع ظهر الباخرة جيئة وذهابا ، فى هم وتفكير .

وجلس المسافرون الذين كانوا يثرثرون ويصخبون الى سايهم . وكان النذل - وبالاخرى الجرسونات - يأتون بالآنية ويرتبونها على الموائد ، ثم ينفلتون مسرعين نشيطين ، وارتفعت ضحكة طفل من مكان ما بالدرجة الثالثة ، وأخذت فرقة موسيقية صغيرة ترسل أنغامها فى عالم الباخرة ، وكان الطباخ يقفم بأطباقه ويهرس شريحة من اللحم بصفحة سكينه ، وكانت الباخرة الضخمة تمخر العباب ضد التيار ، وهى تهتز مما تبدل من جهد لتشق طريقها وسط الامواج التى كانت تتحول كلها الى زبد ، وكان فوما وهو يحرق بناظره فى الماء الفوار المنطلق من ذيل الباخرة يشعر برغبة طاغية الى التدمير والتمزيق والتخريب . . لقد كان يحس هو أيضا بأنه يريد أن يشق كالمحراث فى ذلك التيار ، وأن يهشم جبروته بصدره وكتفيه

وسمع شخصا ما يتنهد فى صوت مترهل أجش قائلا : « قضاء » . . وهى كلمة سمعها فوما من قبل . . اذ كانت عمته آنفيسا تستعملها كثيرا وهى تجيب على أسئلته . وقد أخطرت هذه الكلمة بحروفها الأربعة ، فى ذهن فوما قوة سبيهة بقوة الله . . ورفع عينيه ليرى من المتكلم . . فلمح رجلين أحدهما عجوز وخط الشيب شعره ، ذو وجه لطيف رقيق ، أما الآخر فكان أصغر سنا من صاحبه ، وله عيواز كبيرتان وايتان ، ولحية سوداء مدبية . وفى وسط وجهه ينهض أنف كبير غزير اللحم ، على جانبيه خدان معروقان مما ذكر فوما بوجسا اشمينه ماياكين .

وأنشأ الرجل العجوز يؤكد ما قاله صاحبه :

- أجل ، القضاء ! انه يظل مهوما فوق الحياة كما يهوم صياد السمك فوق الغدير ، يتحسس المواضع التي يلقي فيها صنارته ، فتتلقفها السمكة الجائعة . ثم يلى ذلك - كما تعلم - انطراح الفريسة بلى أرض الشاطئ ، وهى تلهث ، حزينة محطومة القلب . فهذا هو لقضاء ، يا صديقى !

وأغمض فوما عينيه ، كأنما بهرتهما شعاعة من ضوء الشمس . ولم يعتم أن قال بصوت عال ، وهو يهز رأسه من العجب : « صحيح :
وه . . صحيح جدا ! »

والتفت الرجلان وجعلا يتفرسان فيه - الرجل العجوز بابتسامة شاحبة معبرة ، - والآخر بنظرة استهجان وانكار من تحت جبينه . وقد أربك هذا فوما ، فاحمر وجهه خجلا ، وأخذ بعضه وانصرف ، وهولائنى يفكر فى هذا القضاء . . وقد تولاه العجب . . لما تلتطف الى هذا الحد فمن عليه بتلك المرأة . . لاشئ الا لكى يعود فينتزعها منه بمثل تلك السرعة ، وبمثل تلك القسوة . . ثم أدرك أن الشعور القارص الذى كان كامنا فيه لا يفارقه كان حنقا على القضاء الذى كان يتلاعب به بهذه القسوة . ان فوما لم يسبق أن رأى من الحياة الا وجهها البسام المدلل ، ومن ثم لم يرقه أن يجد فى كأسهما هذه القطرة الأولى من سمها الزعاف . . لقد كان يستلقى الليالى الطوال مؤرقا ساهر العينين يفكر فى هذا الذى قاله الرجل العجوز ، وهو يجتر حنقه وما يكظم من الغيظ . . الا أن هذا الحنق أثار فى نفسه السخط ، وجعله يتشهى الانتقام ، أكثر مما جعله ذليلا منكسر الحاطر مقطوع الرجاء .

ولقى فوما اشبينه ينتظره على المرفأ ، فراح يطره بالأسئلة ، وهو يتلهف لمعرفة ما هنالك .

- أبوك ! لقد جن جنونه يا مولانا !

بهذا أجابه الرجل ، وكانت عيناه الخضراوان تلمعان وهو جالس
الى جانب الشاب فى العربة

- من السكر !

- ألعن ! لقد أصبح معتوها تماما !

- قل بالله عليك .. قل !

- أقول ياسيدى .. الموضوع .. فيه واحدة .. ست صغيرة ..
تحمحم حواليه !

- جميل !

قالها فوما وقد رف فى خياله طيف بيلاجيا يداعبه مداعبة لطيفة
- وقد تمكن سحرها من فؤاد حضرته .. وراحت تحلبه .. وتأثر
عليه !

وهنا تذكر فوما ما حذرته به بيلاجيا من النساء ولا ســـــيما
« السواهى » فراح يسأل :

- وهل هى من النوع الساهى ؟ هه !

- هى ! يا سلام ! ساهية كالبيت الذى شبت فى جوانبه حريقة
.. ! لقد لظشت من حضرته خمسة وسبعين ألف أهيف ، وكأنها
تتناول منه ريشة !

- يا خبر ! ومن هى ؟

- سونيا ميدنسكايا .. زوجة المهندس

- يا للمصيبة السوداء ! هل تقصد أن تقول - أيستطيع أبى ..
أخيلته هى ؟

وأرسل فوما سؤاله هذا، وهو مشدود مبهور الانفاس،

ورجع اشبينه الى الحلف قليلا ، وجحظت عيناه ، ثم قال :

— والله انك لاكثر من أبيك جنونا أيها الولد ! ألعن منه ! فكر فيما
تقول ! خليفة وهو فى سن الثالثة والستين ؟ وبمثل هذا الثمن ؟ ما
هذا ؟ وكيف تفكر ذلك التفكير ! حاضر .. صبرا حتى أبلغ أباك هذا
الكلام !

ثم انفجر يضحك ضحكة مقهقه جعلت لحيته المشعثة تهتز اهتزازا
قبيحا . وقد ظل فوما لحظة وهو لا يفهم ماذا يريد هذا الرجل أن
يقول .. ان ماياكين العجوز لم يكن فى حالته الطبيعية على الإطلاق ..
لقد كان قلقا وفى حالة عصبية ، لقد كان كلامه ، الذى كان يتدفق
فى الاحوال العادية ، كلاما متقطعا غير مرتبط الاواصر .. وكان لا
ينفك يهوشه بالسباب والبصق ، حتى لكان فوما أعجز من أن يفهم
ماذا يعنى ، والام يرمى . الظاهر أن صوفيا يا فلوفنا مدنسكيا ،
زوجة هذا المهندس الغنى ، واحدى السيدات المشهورات فى المدينة
بمسايعهن التى لا تكل فى الاضطلاع بالمشروعات الخيرية ، قد خاطبت
اجنات جورديف بصدد التبرع بخمسة وسبعين ألف روبل لبناء ملجأ
للمشردين ، ومكتبة عامة وصالة للقراءة . وقد أثنت الصحف على
اجنات لاستجابته لهذا النداء ، ثناء رفعته به الى عنان السماء ، على
كرمه وأريحيته . وكان فوما يعرف هذه السيدة ، فقد رآها غير مرة
وهى تسير فى المدينة .. وكانت سيدة قليلة الجسم ، الا أنها اشتهرت
مع ذاك بأنها من أرشق سيدات المدينة .. وكان الاهالى لا يعفونها
من الغمز وشىء من سوء الاحوثة .

ولما عرف فوما جلية الايمن ، حدى الرجل ثم قال :

— أهذا هو كل ما هنالك ؟ وتتركنى مع ذاك أفكر .. ويذهب
بى الظن كل مذهب ؟ وتزعج الرجل العجوز قائلا :

- أنت ! أنت كنت تفكر ! بل .. لقد كان ريقك يجرى !
وسأله فوما فى دهشة :
- وفيم كل هذا الغضب ؟
- خمسة وسبعون ألف روبل .. أمبلغ كبير هذا أم ماذا ؟ تفضل ..
أجب أنت :
وظل فوما يفكر مليا ثم قال :
- مبلغ كبير بالطبع .. الا أن أبى لديه المال الكثير .. ولست.
أنفهم لماذا ... وارتجف ماياكين ، وراح يحملق فى عيني فوما بازدراء ،
ثم سأله بصوت ضعيف
- وأنت الذى تقول ذلك ؟
- ومن اذن ؟
- لا .. لست أنت الذى تقوله .. بل هو سفه الشباب وجنونه.
هو الذى يقوله .. ثم هو سفه ما أنا فيه من هذه السن الطاعنة التى
حنكبتها التجارب هو الذى يقول انك لا تزال جروا صغيرا ، ولن يفظى
زمن طويل حتى تكبر وتتعلم النباح والهيبة !
وكان فوما خبيرا يشغف اشبينه باستعمال التشابيه والاستعارات.
والجمل المجازية فى حديثه ، وقد ناله الشيء الكثير منها من قبل - بل
لقد كان ماياكين أفسى عليه فى الحديث من أبيه ، الا أنه ضاق به هذه
المرّة ، ولم يملك الا أن يجيبه فى حزم واصرار :
- لست أدري ما الداعى لأن تكلمنى بهذه اللهجة ! ثم .. اننى نم
أحمد طفلا بعد
وقال الرجل ساخرا مسنهرثا وهو يرفع هامته :

— لا يا شيخ ؟

ركان هذا كثيرا على فوما ٠٠ ولم يلك الا أن حذج الرجل بنقرة صارمة ، وأخذ يجيبه هذا الجواب الواضح الصريح :

— فعلا أنا لم أعد طفلا ٠٠ وأؤكد لك ٠ وقد سمعت الكنير من صياحك ولا أريد أن أسمع أكثر !

— اهم ٠٠ اهم ٠٠ تس تس تس ! أستميحك العفو !

ولولب الرجل عينيه ، ثم أخذ يلوك شفتيه ، واستدار برأسه ، بوظل صامتا دقيقة أو اثنتين ٠ وعرجت العربية في شارع ضيق ؛ وحينما لمح فوما سطح منزله مال الى الأمام على غير وعى منه ٠

ثم قال ماياكين وهو يطرف بعينه :

— أتدرى فيمن كنت تنشب أسنانك ؟

وأجابه فوما وقد سره أن يسمع اشيئه يقول ذلك :

ولماذا ؟ هل كانت أسنانا حادة ؟

— الى حد ما ٠٠ وهذا شيء جميل يا بنى ، جميل جدا في الواقع ٠٠ لقد كنا نخشى ، أبوك وأنا ، أن تطلع مغفلا ٠٠ عال ! وهل تعلمت شرب الفودكا أيضا ؟

— نعم ٠٠ تعلمتها :

— من زمان ؟ وهل تشرب كثيرا ؟

— ولماذا كثيرا ؟

— كبعضهم !

— كلا ٠٠ وحاشا !

— اهم ٠٠ عال عال ٠٠ ولا بأس في هذا كله ٠ الا أنك صريح أكثر مما ينبغي ٠٠ و ٠٠ مدب ! انك لا تبالي أن تبوح بأسرارك لاي شخص ٠٠ فخذ بالك يا بنى ٠٠ فليس من المناسب دائما أن تصارح

للناس بما تنطوى عليه نفسك - والبكم ، ولا أقول السكوت ، واجب .
ينبغي لك أن تلزمه أحيانا . . وبهذا تنسى الذنوب وتكسب الاصدقاء .
ولسان الانسان نادرا ما يكون رطبا أو يعمل لما يقول حسابا . . وبعد
. . فأبوك لا ينتظر حضورك . . وأغلب الظن أنه غير موجود بالمنزل .

بل كان بالمنزل بالفعل . فهبا هو ذا . . طنين ضحكة
العميق الاجش ينطلق من النافذة المفتوحة . . وحينما وقفت العربة أمام
باب المنزل اذا هو يطل من الشباك . . وحينما لمح ابنه اذا هو يصيح
طربا :

- ماذا ؟ هل عدت بالفعل ؟!

وبعد هذا بدقيقة واحدة كان الرجل يضم ابنه الى صدره باحدى
يديه ، ويميل رأسه الى الوراء بيده الاخرى ليحقق بكلتا عينيه في
وجهه ، ويقول متعجبا وبصوت ملؤه البهجة :

« لوحتك الشمس ، وزاد وزنك ، وعدت معافى أيها الشحاذ !

ثم ينظر الى ماياكين ويقول :

- وأنت أيها المجنون . . كيف ترى فوما ؟

ويجيبه الرجل بصوت فيه رنين الفضة :

- ابن بارك الله لك فيه .

ولمح فوما وهو ينظر من فوق كتف أبيه امرأة نحيلة ذات شعر
شبيه بالزغب ، جالسة ومرفقاها على المنضدة في ركن بعيد من الحجرة
لقد كان لها عينان دعجاوان ، وحاجبان رشيقان ، وشفتان لطيفتان
حمران . . في وجه رقيق شاحب ، وكان من ورائها أصيص من نبات
الاقحوان انتشرت أغصانه المزهرة أعلى رأسها المتوج بذلك التاج
الذهبي .

وحيا السيدة ماياكين بصوت فيه رنة عذبة • وهو متجه اليها بيد ممدودة ، قائلا :

- كيف الاحوال يا سيدة صوفيا يافلوفنا ؟ ألا تزالين تأكلين أمخاخ الفقراء من أمثالنا نحن الشحاذين لتجمعي التبرعات لمشروعاتك ؟ هه :

وحياها فوما بانحناءة دون أن يتكلم • ودون أن يسمع ما أجابت به ماياكين ، ولا ماذا كان أبوه يقول ، أما السيدة الصغيرة فقد نظرت اليه بابتسامة ترحيب رفت على شفيتها •

لقد كان جسمها القريب من أجسام النبات ، المتشح ببعض الثياب السمراء يمتزج بنجادة الكرسي ذات اللون الحمري ، فكانت هذه الظهارة الداكنة تزيد من تألق شعرها الذهبي ، وصفرة وجهها الجذاب •• لقد كانت وهي جالسة في ذلك الركن تحت أغصان الاقحوانة أشبه بزهرة •• أو •• أيقونة !

وقال اجنات :

- انظري ! انه لا يستطيع أن يصرف عينيه عنك ، صوفيا يافلوفنا •• ألا ترين أنه حصان صغير لطيف •• طلوقة ! هه !

ولم يسعها الا أن تغضى أهدابها ، وصبغت خديها حمرة خفيفة ، وانطلقت منها ضحكة أشبه برنين أجراس فضية •• ثم نهضت واقفة وهي تقول :

- أستاذن •• ولن أنطفل بعد

وفغمت خياشيم فوما رائحة عطر لطيف وهي تمر به ، ولاحظ أن عينيها زرقاوان زرقة داكنة •• وأن حاجبيها يكادان يكونان أسمرين

وقال ماياكين وهو ينظر في اثرها شزرا :

- وهكذا انصرفت تلك ال •• الرقيقة !

وخاطب اجنات ابنه وهو يدفعه الى الكرسي الذي كانت السيدة

تجلس عليه ، ولكن فوما رمق الكرسي بنظرة ذات معنى ، ثم جلس على كرسي آخر :

- والآن .. حدثنا عن رحلتك .. هل أنفقت مالا كثيرا ؟

وقبل أن يجيب فوما ، وقوق ماياكين قائلا ، وهو يحدج فوما بعينيه المبرومتين :

- شيء قليل .. قليل جدا ، اه ! انك اذا وقفت أمامها بفمك مغفورا هكذا ، فانها ستلتش كل ما فى جيوبك !

ولم يعر فوما اشارة اشبينه التفاتا ، وبعد مقدمة خاطفة ، شرع يقص على أبيه ما كان من أمر رحلته ، لكن اجنات قاطعه قائلا :

- لحظة يا فوما .. أشعر بحاجة الى قليل من الشراب

وانتهز فوما هذه المناسبة فقال منكرا :

- انهم يقولون انك كنت تسرف فى الشراب يا أبى .

ونظر اليه اجنات دهشا ثم قال :

- وهل هذه هى الطريقة التى تخاطب بها أباك ؟

ونكس فوما عينيه .. فقال أبوه .

- حسن

ثم دعا بالشراب فى صفيح واغضاء .

ووقف ماياكين ، وجعل يحدق فى الرجل وابنه لحظات ، ثم استأذن فى الانصراف ، وطلب اليهما ان يشرفاه بالحضور لتناول فنجال من الشاي فى حديقته ذلك المساء

وكأنما أحس فوما ببعض الضيق لوجوده على انفراد مع والده فسأل عن عمته آنفيسا .. فقال له أبوه .:

- انها فى زيارة لاحد الاديرة .. والآن .. خبرنى عن أمنور الرحلة ، فى حين أتناول شيئا من الشراب

وفى دقائق قليلة كان فوما قد فرغ من اعطاء أبيه خلاصة سريعة
عن رحلته ، ثم قال :

- وقد أنفقت بعض المال على نفسى .

- وكم ؟

- ما يقرب من ٠٠٠ ستمائة روبل .

- فى ستة أسابيع ؟ يا له من مبلغ كبير ! انك وكيل كبير المرتب
، فوهم أنفقت هذا المبلغ كله ؟

- لقد تبرعت بثلاثمائة وزنة من القمح !

- ثلاثمائة وزنة ؟ لمن ؟

وقص عليه فوما أمر هذا التبرع ، فقال أبوه :

- حسن جدا .. ان أمثال هذه التبرعات خير فى خير ، وهى
تشريف لأبيك وللشركة .. ولا يمكن اعتبارها خسائر أبدا لأنها
تستثمر فى أغراض شريفة .. وليس ثم اعلان عن التاجر خير منها
يا بنى . ثم فيم أنفقت الباقي ؟

- أوه .. فى أمور شتى .

وأصر اجنات على أن يعرف ، فقال وهو يفحص وجه فوما فحصا
دقيقا :

- خبرنى صراحة .. اننى لا أهتم بالمال فى حد ذاته ، ولكن الذى
يهمنى هو كيف كنت تنفقه ، وتزجى به قراغك .

• وغمغم فوما يقول :

- أو .. أكلت .. و .. شربت .

- شربت ؟ فودكا ؟!

- وفودكا أيضا .

- أحسب أن أوان ذلك لم يحن بعد .. أليس كذلك ؟
- اننى لم أسكر قط .. واسأل يقيم .
- ولماذا أسأل يقيم ؟ بل أريد أن أعرف كل شيء منك أنت !
وعلى هذا فقد شربتها .. هه !
- يمكننى الاستغناء عنها .
- ربما .. اليك بعض الشراب .
ونظر فوما الى أبيه ، ثم كشر تكشيرة كبيرة ضاحكة ، بادله أبوه
منلها :

- يا للعنة ! اشرب ان أحببت ، ولكن فى حدود المعقول ، فلا
يحدث شيء مطلقا .. انك تستطيع التغلب على السكر بالنوم ،
لكنك لا تستطيع التغلب على الغباوة بشيء مطلقا .. فاذكر هذا
ولا تنسه ، وان لم يكن فيه كبير غناء . وهل ... قمت بتجارب
.. نسائية أيضا ؟ قل .. صرح لى ! ماذا .. أتخاف أن أعطيك
علقة ؟ ..

- حصل .. لقد اصطحبت امرأة على المركب ، أخذتها من برم
.. الى قازان .

وزفر اجنات زفرة كبيرة ، ثم قال عابسا :

- لقد لوثت نفسك بهذا العمل وأنت صغير السن بعد .
- اننى فى العشرين من عمري ، وطالما حدثتنى أنهم كانوا
يتزوجون فى الخامسة عشرة فى أيامكم .
- كانوا .. يتزوجون ! .. ليسوا ! .. أو .. كفانا من هذا ..
لقد كانت معك امرأة .. فماذا هى ؟ اسمع يا فوما .. ان المرأة مثل
الجدري .. ليس من العدوى بها فرار .. وأنا لا أدعى لك أننى كنت

ملكاً كريماً في شبابه ٠٠ ولقد أصبت بها قبل أن أكون في سنك ٠
وكل ما أستطيع أن أوصيك به هو أن تأخذ حذرَكَ من النساء ٠

لقد ظل اجنات جالسا جلسته هذه وقتاً طويلاً وهو لا يتحرك ،
ولا يتكلم ، وقد أسند رأسه الى صدره ٠٠٠ ثم بدأ يتحدث الى ولده
من جديد في صوت رزين هادئ :

« اليك ما أردت أن أقوله لك يا فوما ٠ ان أيامي البواقى ليست
شيئاً كثيراً ٠٠ اننى رجل شيخ طاعن في السن ، وانى لا أشعر
بشيء ينقل على صدرى ، ويهد صحتى ٠٠ وأنا لهذا هامة اليوم
أو غد ، وعندما أترك هذه الدنيا فسوف تصبح أنت المالك لجميع
أموالى ٠٠٠ وفى أول الأمر ، سيواليك اشيبك ببعض رعايته ،
ولا بد لك من الاستماع لنصيحته ٠٠٠ ولقد قمت بأول عمل عهدت
به اليك على صورة طيبة ٠٠٠ والعمل أشبه بالجواد المتوقد حيوية ،
ولا بد لك من أن تتعلم كيف تروضه وتخضعه لارادتك ، وأن تشد
شكيمته اليك شداً ، حتى لا يفلت زمامه من يديك ، فحاول أن تشرف
من عل ، على جميع أعمالك حتى يتيسر لك دائماً أن ترى كل صغيرة
وكبيرة منها بعينى طائر ، وأن ترى أصغر المسامير التى تمسكه من
الانفلات » ٠

وبينما كان فوما ينظر الى صدر والده الرحب ، وينصت الى صوته
لمججل القوى ، كان يقول فى نفسه : ليس ثم ما يدل على موتك
قريباً ٠ وكانت هذه فكرة لذيذة ، وقد كانت سبباً لانبثاق حب
جديد مفاجئ فى قلبه لهذا الوالد ٠

وواصل اجنات حديثه يقول :

— اصغ لما يقوله لك ماياكين ، فانه رجل غزير الذكاء ، وفى رأسه
من الالوعية ما يكفى لتوزيعه على جميع الناس فى هذه المدينة ، ولو
كان شجاعاً بقدر ما هو ذكى ، لا أصبح الآن من أصحاب الاسماء

الكبيرة ٠٠٠ والآن ٠٠ وكما سبق أن ذكرت لك ٠٠ انه لم يبق من
عمرى شئ كثير ٠٠٠ ولو أن بيدى ما يجب أن يكون ، لأخذت
أستعد لملاقاة منيتى ، وذلك بترك جميع أعمالى ، والتفرغ للصوم
، والصلاة ، والقيام بعمل يجعل الناس يذكروننى بالخير » .

وهنا قال فوما مؤكدا :

— أو ٠٠ انهم سيدذكرونك بكل خير ولا شك !

— لست أدري لماذا !

— وما ملجأ المشردين الفقراء هذا اذن !

ورمى اجنات ولده بنظرة وقال ضاحكا :

— اذن فقد كان لدى ماياكين من الوقت ما يكفى لأن يحدثك عز
ذاك ، أليس كذلك ؟ أحسب أنه لامنى على هذا !

وقال فوما مبتسما :

— قليلا

— انه لم يكن يصح أن يكون ياكوف ماياكين لو لم يفعل .

— لقد كان يتحدث عن هذا كما لو كان المال ماله

وعند ذلك انطرح اجنات الى الخلف ، وأخذ يضحك ضحكا
شديدا .

— يا له من غراب عجوز ٠٠٠ لك حق ٠٠٠ ان مالى وماله شئ
واحد فى نظره ٠٠٠ وهذا هو الذى أقامه وأقعه بهذا الصدد ٠٠٠
ان فى رأسه نحلة تطن وتزن ٠٠٠ هذا الاقرع الاصلع ٠٠٠ فماذا
تحزر أن تكون ؟

وأجابه فوما بعد تفكير قليل :

- لست أدرى •

- انه يريد ربط أموالى بأمواله

- وكيف ؟

- خمن

ونظر فوما فى وجه أبيه متفرسا ... وخمن

لقد غام وجهه ، ثم مال فى كرسيه الى الامام ، وقال فى صوت مصمم :

- أنا لا أريد ذلك .. ولن أتزوجها •

- لا تريد .. ولماذا ؟ انها فتاة مليحة قوية ... وغير غبية ،
نم هى ابنة أبيها الوحيدة

- وماذا عن تاراس .. ابنه الذى اختفى ؟

- ما دام قد اختفى .. فقد اختفى الى غير رجعة ... وهذا
يو كل ما هنالك ... وثمة وصية هى الفصل والمعول ، ونصها
نما يلي : جميع أملاكى ، سائلة وثابتة تصبح ملكا لابنتى ليوبا
مد وفاتى ، أما أنها أختك من اثبينك ، فيمكننا التغلب على ذلك •

وقال فوما فى اصرار :

- هذا لا يهم .. اننى لن أتزوجها !

- لا بأس ، وعلى كل فليس هذا أوان الكلام فى هذا ... ولكن
.. فيم ثورتك عليها هكذا ؟

- أنا لا أحب البنات اللاتى من هذا النوع •

- ما شاء الله ! والآن .. أى نوع من البنات تحب ، يا سيدى
الظريف ؟

فقال فوما بانفعال :

- أحبهن أكثر بساطة .. انها دائما وسط زملائها الطلبة هؤلاء ... ووسط كتبها ... انها من صنف متعال أكثر من أن يصلح لي : وهي تسخر مني

- لك حق في ذلك . انها صبية رشيقة .. بحبوحة .. بحبوحة أكثر من اللازم حقا . ولكن هذا لا شيء .. فالوسخ يزول - ولا بد - اذا حككته بما فيه الكفاية ، واشبينك رجل عجوز متعال أيضا ، وهو لم يفعل في حياته شيئا أكثر من جلوسه هكذا بلا عمل ، وقد أتاح له هذا قدرا من التفكير والتروى في كل شيء ، ومن ثمة فهو رجل يستحق أن يستمع الى نصائحه يا بنى .. فهو ذو نظرة تدرك خفايا الأمور ، ثم هو من عنصر كريم ، وحسب عريق .. انه من سلالة كاترين العظمى ، وهو رجل يقدر نفسه ... وهو عندما انقطع نسبه بتبرئه من ولده تاراس ، أحب أن يصل هذا النسب بوضعك في مكان تاراس ، فهل تدرك معنى ذلك ؟!

وقال فوما بعناد :

- اننى سأبنى مستقبلى دون الحاجة الى مساعدته

فتهكم والده مجيبا :

- انك لم تؤت شيئا من الادراك بعد .

وقطع عليهما حديثهما وصول العمة آنفيسا .. التى تصيح قبل أن تصل الى باب الغرفة :

- فوموشكا ! هل قد رجعت !؟

وهب فوما للقائهما وعلى شفثيه ابتسامة سعيدة مرحة .

وعادت حياة فوما تسير من جديد فى طريقها هذا البطيء
الرتيب ، وكان صوت أبيه لا يزال يطن فى أذنيه بهذه النغمة
الساخرة الانيسية ، الا أن سلوكه معه كان أكثر تحفظا وتدقيقا . .
لقد كاد يلزمه دائما بأن يعمل حساب كل شئ مهما كان صغيرا ،
وظل يذكره دائما بأنه رباه على اللين والتساهل ، دون أن يقيده
بالقيود ، ودون أن يلجأ الى المعاملة الحسنة ، كالضرب مثلا

— ان من الآباء من يلجئون الى الهراوى والمقارع فى تنشئة
أولادهم ، أما أنا ، فلم أمد اليك اصبعاً طول حياتى .

وقال له فوما وهو يحدثه فى ذلك ذات يوم :

— أحسب أنه لم يكن ثم سبب يدعو الى ذلك يوما ما

وقد ساء اجنات هذا الرد ، وان يكن فوما قد قاله بلهجة مهذبة،
فصاح به :

— ما هذا ؟ لقد جعلتك هذه الطريقة فى التربية ولدا جريئا ،
أليس كذلك ؟ انك تعرف كيف تكيل الصاع صاعين . . . هه ! فتح
عينيك ، والا فان هذه اليد اللينة الناعمة تنقلب فتكون يدا من
حديد تجعل الدموع تنبثق من أعقاب قدميك . . . أتظن أنك صرت
أكبر من أن تنصاع لأمثالنا ؟ يا لك من ولد كرية أشبه بشجرة
عش الغراب، تنتشر منها الرائحة المنتنة وهى لا تزال صغيرة لا تزيد
على قيراطين !!

وسأله فوما مرة ، عندما كان اجنات صافى المزاج :

— لماذا تقسو على وتعاملنى معاملة خسنة هكذا ؟

— لأنك لا تحتل أن يوجه أبوك اليك انتقادا ، فأنت دائما
تجادل وترد وتسخف فى المعارضة .

— لكنك تظلمنى* ، فأنا لم أكن قط أردا مما تعودت أن أكون .

وهل تظن أنني لا ألاحظ كيف يسلك الشبان الذين هم في سنى .
- انه لا يضرك أن ينالك شيء من الزجر من حين الى آخر . . .
نم أنا أفعل هذا لاني ألاحظ أن فيك شيئاً لا يعجبني . . أما ما
هذا الشيء ، فليست أدري . . . الا أنني أراه رأى العين وهو لابد
سيلحق بك الضرر .

وقد أسلم هذا الكلام فوما للتفكير . فهو نفسه كان يدرك وجود
خلة فيه تميزه من سائر أقرانه الذين في سنه ، الا أنه لم يكن يعرف
ما هي ؟ لقد بدأ يراقب نفسه في غمرة من السك .

وكان يهوى وجوده وسط الضجيج والصخب في البورصة ،
والاختلاط بكبار رجال الأعمال ممن يعقدون الصفقات التجارية التي
تبلغ آلاف آلاف الروبلات ، وكانت تخدعه ألوان الملق التي كان
يبديها له من هم أقل شأنًا من التجار حينما يخاطبونه بهذه اللهجة
الملوئة بالاحترام المصطنع ، منادين اياه : فوما جوردييف . وكان
كلما عهد اليه أبوه بمهمة من مهام العمل ليقوم بها بنفسه يخامره
الشعور بالفخر ، وتشيع فيه الكبرياء ، ولا سيما اذا وجه اليه
أبوه كلمة ثناء لا يقصد بها الا أن يتهمك بها عليه . وكان يتشوف
الى أن ينظر الناس اليه نظرتهم الى رجل شب عن الطوق ، نظرة
فيها من احترام رجال الأعمال ما فيها . . . الا أنه كان لا يزال
عزوفًا عن الخلق ، وراغبًا عن عقد أواصر الصداقة مع أحد منهم .
بالرغم من كثرة من يلقاهم من أبناء التجار ممن هم في سنه . . . لقد
كانوا يدعونه على الدوام لمشاطرتهم في عريباتهم . . لكنه كان
يرفض دعواتهم تلك في الحال . لقد كان ربما يعتذر بقوله مازحا :

- انني أخشى اذا كشف آباؤكم شقاواتكم أن يدبغوا لكم ظهوركم
بالسياط . . كما أخشى أنا أن « ينتش » أبى أذننى !

انه لم يكن يحب هذه الطريقة التي يعربدون بها ويلتذنون ويأثمون
من وراء ظهور آبائهم . . كان يسرقوا النقود من صناديق هؤلاء

الآباء ، أو كأن يقترضوا الأموال بأرباح فاحشة ولا مجال طويلة .
وكانوا هم يكرهون فوما لما كان يبدية من ذلك التحفظ والبعد عنهم ،
هذا التحفظ الذى كانوا يستنتجون منه معنى من معانى الكبير الذى
بسخطهم ويحز فى صدورهم .

ولقد كان فوما لا يفتأ يفكر فى بيلاجيا . . . وكان هذا فى أول
الأمر يجعله يتشهاها . . . الا أنه أخذ ينساها بمضى الزمن ، وأخذت
صورتها تتلاشى من خياله . . . حتى لقد كان طيفها يفيض ليحل
محلها ، من حيث لا يدري ، طيف صوفيا بافلوفنا . . . تلك المرأة
ذات الجسم النحيل والوجه الملائكى . لقد كانت تأتى كل يوم أحد
تقريبا الى والده لحاجة من الحاجات ، التى تدور كلها حول بناء ملجأ
المشردين . وكان فوما يشعر فى حضرتها بالارتباك ، وبأنه أخرق
سمج ، وأنه بالنسبة الى حجمها الضئيل مخلوق هائل ضخم .
وكان ربما اصطبغ وجهه بحمرة الحجل كلما التقت عيناه وعيناها
اللطيفتان . وقد لاحظ أن عينيها هاتين تشدد زرقتهما كلما رنت
اليه ، وأن شفها العليا ترتجف وترتفع قليلا ، لتبدو من تحتها
بناياها الرقاق البيض . . . وكان هذا يخيفه . . . وقد لاحظ أبوه
نلك الطريقة التى كان ينظر بها فوما الى صوفيا ، فقال له يوما :

— يحسن ألا تطيل النظر الى ذلك الوجه . . . انه أشبه بجنوة
من فحم البتولا . . . ظاهره ناعم خال من اللسع والأذى ، وباطنه
. . . أو . . . ممتلىء نارا وسعيرا !

ان صوفيا لم تكن تثير فى فوما أية رغبة جسدية . . . وهى لم
تكن تشبه بيلاجيا فى شيء قط . ولم يكن فى وسع فوما أن
يفهمها . لقد كان يعلم أن الناس يتحدثون عنها ويرسلون السننهم
فيها ، غير أنه لم يكن يصدق من أقوالهم شيئا . ولقد تغير رأيه هذا
عندما لمحها يوما راكبة فى عربة الى جانب رجل ضخم الجثة ، وعلى
رأسه قبة رمادية وخصلات شعره الطويل مرسل على كتفيه .

ووجهه أحمر منتفخ كالبالون ، وليس فى وجهه أثر للحية ، وكان يبدو فى أعين الناس جميعا كأنه امرأة فى ثياب رجل . وقيل لفوما ان هذا الرجل هو زوجها ، وقد ملأه هذا النبأ بانفعالات سوداء متناقضة : لقد بدا له أن يهين المهندس ويشتمه ، لكنه لم يسعه الا أن يحسده فى الوقت نفسه . وأن يحترمه أيضا ولقد كانت صوفيا بافلوفنا تبدو بجانبه أقل جمالا وأيسر على أيدي المتناولين ! ومن أجل هذا أحس فوما بالراء لها ، الا أنه راح يفكر فى أعماق نفسه ، وفى شىء من الاقتناع ، فى أنها تكرهه ولا بد - أن يقبلها هذا الرجل !

وفوق هذا كله . . . وأكثر منه . . . ما كان يملأ صدره أحيانا من الاحساس المؤلم المضنى بالفراغ الذى لم يكن من الممكن أن تملأه انطباعات الحاضر ولا ذكريات الماضى . . . الفراغ الذى كان يبتلع كل شىء . . . البورصة ، والعمل ، وتقديره فى صوفيا . لقد كان هذا شيئا مقلقا مربكا . لقد كان يشك أن فى أعماق هذا الفراغ قوة ما تكمن له عدو يتربص به الدوائر . . . غير معروف الشكل الا أنه مع ذلك يحاول فى اصرار وفى ثبات أن يفرض نفسه ويؤكد ذاته .

وكان اجنات فى الوقت نفسه لم يتغير ظاهره الا قليلا ، لكنه ازداد قلقا وتجهما . وكان يشكو من صحته كثيرا ، وكان لا ينسى يقول :

- اننى لم أعد أستطيع النوم ، بعد أن كنت معتادا الاستغراق فيه لدرجة انك كان يمكنك أن تسلخنى حيا ، فلا أفتح عيني اننى فى هذه الايام لا أنفك أأقلب طول الليل من جنب الى جنب . . . دون أن تزور عيني سنة من النوم الا فى الصباح . . . ثم هذا قلبى الذى لم يعد ينبض نبضا منتظما . . . فهو حينما يسرع فى دقاته : تك تك تك . . . ثم اذا هو حينما آخر يوشك أن يقف حتى يخيلى الى

إنه لن تمضى دقيقة واحدة حتى يكون قد غاص فى وهدة ما ، عميقة مظلمة . آه يا اله السموات ! ارحم عبدك البائس الآن !

وربما أدار عينيه اللتين فقدتا بريقهما الحاد الجميل ، وهو يرسل زفرات التوبة والانابة

وقد أنشأ مرة يقول فى صوت حزين ، ولكن فى صبر وتسليم .
- ان الموت مختبئ فى ركن ما . . ينتظر أن يحين حينى !
وقد صدق . . فقد أتااه فجعله خطاما !

وحدث هذا فى باكورة يوم من شهر أغسطس . حينما كان فوما مستغرقا فى نومه ، فإذا أحدهم ممسك بكتفه يهزه هزا عنيفا ، وإذا صوت أجش يقول له :

- قم . . استيقظ !

وفتح فوما عينيه ليرى والده جالسا على كرسى بجانب السرير ، مكررا فى صوت منقبض : « قم . . قم »

لقد كانت الشمس قد بادرت بالشرق ، وكانت أشعتها المتساقطة على قميص اجنات الكتانى لا تزال وردية اللون .
وقال فوما وهو يتثائب ويشد عضلاته :

- انبأ لا تزال فى الصباح الباكر !

- أجل . . لكنك ستجد من الوقت للنوم ما فيه الكفاية فيما بعد
وفال فوما وهو يتأود تحت الغطاء :

- أتريد شيئا ؟

فقال الرجل متعجبا ، وفى صوت الذئب يرجو :

- انهض يا بنى . . أرجوك . . لو لم أكن فى حاجة اليك ما أيقظتك .

ونظر فوما فى وجه أبيه فوجده شاحبا ممتعنا ، فقال :

- أريض أنت ؟ هل أرسل الى الدكتور ؟

وأجابه اجنات منكرا :

- الدكتور ٠٠٠ اننى لست طفلا بعد ٠٠٠ لست بحاجة لأز

يقول لى الطبيب ٠٠٠

- ماذا ؟

- أنا أعرف كل شئ ٠٠

وقالها الرجل العجوز بلهجة غريبة غامضة ، وعيناه ترسلان

نظرات غريبة فى جوانب الغرفة ٠٠٠ فهب فوما يلبس ثيابه .

وقال الرجل نانية بصوت خفيض ، ورأسه منكس الى صدره .

- اننى أخشى أن أتنفس ٠٠٠ وأنا أشعر اننى اذا تنفست نفس

عميقا فان قلبى سينفجر ٠٠٠ اليوم الأحد ٠٠٠ اذهب فأحص

القسيس بمجرد انتهاء الصلاة .

وقال فوما وهو يضحك ضحكة فيها استرحام وفيها استغفار :

- وفيم تفكر يا أبى ؟

- لا شئ . لا شئ ٠٠ هيا اغتسل وإخرج الى الحديقة ٠٠ لعد

أخبرتهم أن يأخذوا غلاية الشاي الى هناك ٠٠٠ وسنشرب الشاي فى

الصباح الطلق ٠٠٠ أريد شايا ٠٠ شايا ساخنا ثقيلًا .

وهب الرجل من مجلسه ، وراح يتمايل فى الغرفة حافى القدمين

حتى خرج ، وبينما كان فوما ينظر اليه وهو ذاهب أحس بقلبه

تسرى فيه رعدة باردة من الرعب . واغتسل فى سرعة ، ثم ذهب

الى الحديقة .

وجد أباه جالسا في كرسي كبير من خشب السنديان تحت شجرة تفاح كبيرة تتخلل أغصانها أشعة الشمس ، فتنتشر منها آراد رفيعة على فميص اجنات • لقد كان السكون شاملا في الحديقة حتى لقد انزعج فوما وهو يمس بعض الأغصان فتحدث هفيفا خفيفا • وكانت الغلاية تكرر فوق منضدتها كما تكرر قطرة شبعانة ، وقد انطلقت من بزبورها . حزمة طويلة من البخار ، راحت تندفع في الهواء • ولقد كانت كركرة هذه الغلاية البخارية الصفراء ، البراقة المزججة ، في تلك الهدأة الصامتة وسط الحديقة الخضراء التي جادها الفيت طوال الليل أشبه بتىء دخيل طفيل • • • لقد كانت نغمة ناشزة ، لا تنفخ هي والوقت ولا المكان ولا الشعور الذي كان مستوليا على فوما وهو محقق في أبيه العجوز المريض المتشح بذلك القميص الأبيض ، وهو مكوم تحت تلك الظلة من الغصون الخضراء التي يتخللها ثمر التفاح في رقة واحتشام •

وقال له أبوه : - اجلس •

ويجيبه فوما ، وهو يجلس قبالة الرجل في رهبة : « ألم يكن من الجبر استدعاء الدكتور ؟ »

ولكن اجنات يقول : « لا لا • • اني أشعر الآن بتحسن وأنا هنا في هذا الهواء • وربما أشعر بتحسن أكثر اذا تناولت شيئا من الشاي » •

وكان يقول هذا وهو يصب لنفسه فنجالا من الشاي ، وكان فوما يلاحظ أن يد أبيه ترتعش وهي تفرغ الشاي • •

وسحب فوما فنجاله دون أن يتكلم ، ثم مال عليه ليشرب ، وهو يسمع بكل ما في قلبه من هم وحزن ، أنفاس أبيه تسرع وتتشرج وفجأة ، وقع شيء على المنضدة بشدة وقوة ، حتى لقد اهتزت

الفناجيل والأوالى اهتزازا عنيفا

وذعر فوما ، ورفع رأسه ليرى أباه يرسل من عينيه نظرة مرعبا وهو يقول :

- تفاحة ملعونة سقطت من الشجرة ، فالى الشيطان .. لقا كانت أشبه بطلقة مدفع !! اه !

واقترح فوما على أبيه أن يضع شيئا من الشراب على الشاى فقال له :

- بل هو أحسن بحالته هذه

ثم انبثقت فتى سكون الحديقة سقسقة سرب من العصافير فشقه الصمت الموحش بجرسها الجميل ... فلما ابتعد السرب عا السكون الوقور فغمر هذا الجمال الناضج كله ، الا أن عيني اجنأ ، كانتا لا تزالان مغشأتين بالرعب .

ثم راح يصلب ، ويصلى لله بصوت مكبوت : - يا اله السموات ... ها هي ذى .. الساعة الأخيرة .. قد دنت .

وهمس فوما يقول :

- ما هذا الكلام يا أبى !

- عندما تفرغ من شايك ، اذهب الى القسيس ، ثم الى اشيبينك .

- سأذهب حالا .

- انهم سيدقون الأجراس للصلاة فى لحظات .. وعليه فلن تجد القسيس .. ولا داعى للعجلة ... وربما مرت هذه الأزمة ...

نم أخذ فى ارتشاف الشاى من فنجاله .

- لشد ما كنت أتمنى أن أعيش عاما آخر أو عامين ... فأنت

لا تزال صغيرا ٠٠ وأنا مسنق عليك ٠٠٠ وأوصيك بالشرف والحزم
٠٠٠ ولا تطمع فيما ليس لك ٠ ولكن احرص على ما هو لك ٠

وكان يجد صعوبة فى الكلام فمسح بيده على صدره ، ثم قال :

— واياك والثقة بالناس ٠٠٠ ولا تنتظر منهم أى خير ٠٠٠ وكلنا
نعيش لناخذ لا لنعطى ٠٠٠ آه ٠٠ يا الهى ٠٠ ارحم عبدك الاثم
وهب له المغفرة !

ثم جاء صوت ناقوس من بعيد فشق السكون المخيم ، وهنا صلب
اجنات وصلب فوما ثلاث مرات ٠

وتلا رنين هذا الصوت النحاسى الأول ، رنين ثان ، فتالت ، ثم
جاءت أصوات النواقيس تترى من كل مكان ، بأنغامها الموزونة
البيدة ٠

وقال اجنات وهو يصغى الى جلجلة الأجراس :

— انهم يدقون للصلاة ٠٠ فهل تستطيع أن تميز هذه الاضواء
المختلفة ؟

وقال فوما : — كلا ٠٠

فقال، اجنات . — اسمع ٠٠ هذا الرنين العميق ٠٠ انه الناقوس
الذى أهدها بيوتر دمترىفتش فياجين الى كنيسة القديس نيقولا ٠٠
ثم هذا ٠٠ اسمع ٠٠٠ هذا الرنين الأجلش ٠٠ انه ناقوس كنيسة
القديس براسكوفيا ٠

لقد كان الهواء يتخطر بتموجات الأجراس المغنية التى كانت
تتلاشى فى زرقة السماء الصافية ٠٠ ولاحظ فوما وهو ينظر فى وجه
أبيه أن القنامة التى كانت تتغشاه قد ذهبته ، وحل محلها نور
جديد ينبعث من عينيه ٠

الا أنه اصطبغ فجأة بلون أحمر قان ثم جحظت عيناه
بحوظا شديدا حتى لقد كانتا على وشك أن تتبا من محاجرهما . .
ثم فغر فاه كالمشدود ، ثم أرسل آهة غريبة من ملء حلقه هكذا .

- ج . ج . ج - آخ !

ومال رأسه عقب ذلك الى احدى كتفيه ، ثم اذا جسمه يساقط من
فوق كرسيه ، كأنما كانت الأرض تتشبث بحققها في أن تسنرده
اليها . . . ومضت ثوان وفوما يحرق فيه بصره في رعب ودهشه .
دون أن يستطيع كلاما أو حراكا . . . ثم أسرع الى جانبيه ورفع
رأسه من فوق الأرض ، وراح يحرق في عينيه . . . لقد كانتا
جامدتين غائمتين . شديدتى الاتساع ، وليس فيهما أى تعبير على
الاطلاق - لا ألم . . ولا خوف . . ولا بهجة . . ونظر فوما حواليه . .
لقد كانت الحديقة خالية شأنها من قبل ، وكان الهواء لا يزال يردد
رنين الأجراس . فارتعشت يدا فوما ، وترك رأس أبيه يهوى على
الأرض فخبطته خبطة هينة ، وانبثق شؤبوب رفيع من دم لزج من
أحد جانبي الفم على صفحة الحد الداكن .

وراح فوما يخبط صدره . ويرسل صرخة مفزوعة وهو يركع الى
جنب أبيه . . لقد جعله الرعب يرتجف ارتجافا . . . وأخذ ينظر في
الحديقة بعينيه المحمومتين عسى أن يجد أحدا . .



الفصل الرابع

● لشد ما صعق فوما بموت أبيه ! لقد اعتراه احساس غريب .. احساس الذى يشعر كأنما روحه قد ملأها الصمت ... الصمت الثقيل الراسى الذى يبتلع جميع أصداء الحياة - لقد كان من يعرفهم من الناس يحومون حوله .. يجيئون وينصرفون .. وقد يتكلمون اليه .. ثم يجيبهم .. لكن كلامهم لا يترك فيه أثرا .. أى أثر .. لقد كان هذا الكلام يهوى الى الهاوية التى لا قرار لها .. هاويه الصمت الذى يملأ روحه .. انه لم يكن يبكى ولا يحزن ولا يفكر فى أى شئ ... لقد كان فيما اعتراه من شحوب واكتئاب وتجهم ، يركز جميع قواه فى الاصغاء الى هذا الصمت الذى أخمد جميع مشاعره ، وطرح للريح قلبه ، وأمسك بعقله كالذى يقبض عليه فى وضیحة !

واستقل ماياكين بالاشراف على الجناز .. وكان وقع عقبي حذاءه بسلم وهو يطرطق بصوت عال وهو يهرع بنشاط من غرفة الى أخرى ، صائحا بالخدم كما لو كان سيدهم ، ويربت على ظهر فوما كأنما يقول له معزيا :

مالك هكذا كأنما تحولت حجرا يا بنى ؟ لقد كان أبوك رجلا شيخا طاعنا فى السن ، ترهل لحمه ... والموت هو نهاية كل شئ ، ولا مهرب منه ، وهذا هو الذى يجعل واجب كل منا أن يحافظ على حيويته بقدر مستطاعه فى هذه الدنيا .. ولن تستطيع أن تردده الى الحياة بطول بكائك عليه ، ثم هو ليس فى حاجة الى أحزانك ، لأنه

مكتوب : « لا بد من يوم يجيء فيه ملك الموت فينزع الروح من الجسد ، وحينئذ تنسى كل المعارف والأقارب ، وبالاختصار ، لقد أصبح سواء عنده أضحكك أم بكيت . ومهمة الأحياء أن يحافظوا على الحياة ، فتجلد وسر عن نفسك ، فهذا هو العمل الانساني الواجب عمله ، وستشعر بحال أحسن فيما بعد ! »

الا أن هذا الكلام أيضا لم يكن له أى أثر ، لا فى عقل فوما ، ولا فى قلبه .

لقد شعر بشيء من الانتعاش يوم الجناز بفضل الحاح اشبينه الذى لم يدع وسيلة من وسائله الظريفة لايقاط روحه المعنوية المنسحقه الا اتباعها .

ولقد كان النهار يلوح كثيبا غائما . . . وكان آلاف من المشيعين يعنزون وراء النعش فى ضبابية من العثير الذى تنيره أقدامهم . وكانت ملابس رجال الدين تتلأأ بما عليها من الذهب والقصب ، ووشوشة الأقدام تنتشر فى الموكب البطيء فتمتزج بأصوات الموسيقى الحزينة التى تصدح بها الفرقة الأسقفية . وكان الناس يتدافعون حول فوما من يمين وشمال ومن خلف . . . الا أنه لم يكن يحس بشيء مما حوله وهو يخطو خطواته الواثبة الا ما كان يتخايل فى عينيه من منظر رأس أبيه الأشيب ، وأصوات تلك الموسيقى التى كانت تجد لها أصداء حزينة بين جوانحه . . . وكان ماياكين ، الذى كان يلازمه دائما ، لا ينفك يهمس فى أذنه قائلا :

- انظر كم من الناس هرعوا لتشيع الجنازة ! آلاف وآلاف ! لقد أقبل المحافظ بنفسه ليشيع أباك الى مقره الأخير ، والعمدة ، وجميع أعضاء المجلس تقريبا ، ووراءك (انظر بعينك - انظر) صوفيا بافلوفنا ! ان البلد كلها خرجت لتكريم اجنات .

ولم يكن فوما يعير ثرثرة ماياكين أى التفات أول الأمر ، لكنه

ما كاد يردد اسم صوفيا بافلوفنا حتى أدار رأسه فى حركة غير شعورية ، لكنه رأى المحافظ . وقد مست قلبه قطرة ضئيلة من الانشراح حينما رأى تلك الشخصية الفخيمة ، وعلى كتفه هذا الوشاح اللامع ، ثم تلك النياشين كلها التى تحلى صدره . ماشيا وراء نعش أبيه بوجهه الرصين الرزين ، وعليه كل تلك المهابة والوقار .

وغمغم ماياكين وهو يشنف بأنفه شنفات خفيفة ، مخاطبا فوما مرة أخرى :

— ماشاء الله ! خمسة وسبعون ألف روبل ! ان مبلغا بهذه الضخامة جدير بالآلا يجتذب من المشيعين أقل من هذا العدد ! هل سمعت ما يقال من أن سونيا ستضع حجر أساس الملجأ بمجرد انتهاء الاربعين على وفاة والدك !

ثم أدار فوما رأسه مرة أخرى ، ولقيت عيناه هذه المرة عيني صوفيا بافلوفنا ، لقد استطاعت النظرة الرقيقة التى رسّقتها بها أن نبثت زفرة من أعماق أغوار قلبه ، تحس بعدها فى الحال . كأنما تسربت شعاعا من الضوء الدافئ الى أطواء روحه فأذابت شيئا هنالك . غير أنه أدرك كذلك أن من غير اللائق أن يظل ينظر حواله هكذا !

وفى الكنيسة شعر فوما كأن قلبه ينسحق ويتحطم من أثر هذه المهابة الحزينة والحشوع الصامت الذى كان يخيم على الصلاة ، وعندما قال له القسيس هذه الكلمات التى تزلزل النفس : « تعال يا بنى .. وقبل أباك قبلتك الأخيرة » انفجرت شفتاه عن زفرة مكروبة جعلت الجمهور يترنح من وقع مثل هذا الحزن الاليم .

وكان فوما هو أيضا يترنح من هول الموقف ، فأمسك به اشبينه وتقدم به نحو النعش وهو يقول له كلمات كلها بهله .. وحشوها رعونة وقلة ذوق :

- قبله قبلة أخرى .. قبل والد ... ك .. المر .. ح .. وم ..
قبله ، يا فوما قبله .. قبله ، قبل أن يوسد التراب ويوضع من فوقه
الصفاح ، مقيما بين الموتى ، فى ظلام القبر !!

وانحنى فوما ليقبل والده .. لكنه لم يكد يمس جبينه بشفتيه
حتى جفل الى الوراء خائفا يزلزله الرعب ، مما جعل ماياكين يقول
له بصوت مكتوم :

- خذ بالك .. لقد كدت توقعنى على الأرض ! وكانت هذه
الكلمات البسيطة التى قالها ماياكين فى غير وعى أجدى على فوما من
الذراع التى كانت تسنده .. فقد نبهت منه ما كان غافلا ،

وكانت صيغة الصلاة تردد هذا التوسل بلسان اجنات : « أيها
الاصدقاء والاخوة .. ابكوا لى .. أنا ، هذا المسجى أمامكم ، محروما
من النور .. محروما من الهواء » الا أن فوما لم يعرف الى البكاء من
سبيل . لقد استولى على نفسه الهلع من منظر هذا الوجه .. وجه
أبيه المتورم الممتقع . وقد نفعه هذا الهلع ، اذ أفاقه من تلك الغيبوبة
التى غرق فيها فى أثناء ما وجهته اليه الكنيسة من تلك الندبة
الطويلة . لقد كان الناس يحدقون به ، ويوجهون اليه كلمات العزاء
والرثاء ، فأحس أنهم يحبونه ويرأفون له ، الا أن اشبينه همس فى
أذنه يقول : « انظر كيف يتزلفون لك ويتملقونك ! لقد سُم الفيران
رائحة الجبن ! »

ولقد وقعت هذه الكلمات موقع المقت من نفس فوما ، الا أنها
أفادتة على كل حال ، فقد جعلته يستجيب لمن يكلمونه بطريقة ما .

وعندما كانوا ينشدون أنشودة الراحة الابدية ، فى المقبرة ،
بكى فوما من جديد ، فأمسك اشبينه بذراعه مرة أخرى ... وعندما
كانا خارجين من الجبانة أخذ يقول له مشجعا :

« والله انك لولد خرع ! أظن أن وفاة أبيك شئ هين على .. اننى

أنا الشخص الوحيد الذى يقدره قدره • كما كنت أنت ولده
الوحيد ••• ولكن هأنذا •• لا أبكى •• لقد كنت أنا وهو أشبه
بأخوين شقيقين ما يقرب من ثلاثين عاما •• لا يتكلم بعضنا الا الى بعض.
ولا نفكر الا فى نفسنا ، ولا نشكو ههنا الا الى نفسنا ••• انك
لست الا غلاما صغيرا •• وماذا تعرف أنت من أمر الحزن ؟ ان
حياتك كلها لا تزال فسيحة المدى أمامك ، ولسوف تحفل بجميع
ألوان الصداقات ، أما أنا •• فرجل عجوز ••• تركنى أبوك وحدى
كأحد الشحاذين ، بعد أن دفنت الصديق الحميم الوحيد الذى كان
لى ••• وأحسب أن الزمان قد تخطى عنى ، ولئن أجد صديقا آخر من
بعده ••

وأخذ صوت الرجل يتحسرج ، ويصبح صريحا مؤلما ، وأخذت
عضلات وجهه تنقلص ، وشفته تنتشران وترجفان ، وقسمات خديه
تزداد عمقا ، ويجرى فيهما نثار من الدموع التى تعتصرها محاجر
عينيه •• وبدت عليه حال من الهم والأسى حركت الشجنون فى قلب
فوما ، حتى لقد وقف فأخذه فى ذراعيه ، وجعل يضمه الى صدره ،
فى رثاء وحنان ، ضم القوى الشجى ، للضعيف الاسيف • وهو
يكثر من القول له :

— لا تبك أيها السيد الوالد •• لا تبك •• لا تبك أيها الوالد
العزيز ••

فقال ماياكين بصوت ضعيف وهو يزفر زفرة عميقة : — هذا
أحسن ! ثم لم يلبث أن عاد الى حالته السابقة •• الرجل العجوز
الداهية •• صلب العود !

ثم أخذ يسر الى فوما وهو جالس بجانبه فى العربة ، اذ هما عائدان
الى المنزل :

— لا يخلق بك أن تنفطر من البكاء ، وتستسلم للحزن هكذا •
تماسك •• فانت الآن القائد •• وواجب القائد فى أثناء المعركة أن

يفود جنوده بشجاعة ٠٠٠ وجنودك هي الروبلات ، ولديك منها
جيش ضخم العدد ٠٠ فهيا ٠٠ أرنا المعدن الذي صاغت الله منه .
ودهنس فوما للسرعة التي استعاد بها أسبينه حالته الأولى ٠٠٠
ومن لم فقد كانت كلماته هذه تقع من مسامع الشباب موقع هذا
الحصى والصفاح والحجارة التي كانوا يلقونها على نعش أبيه ٠٠
- ألم يحدث أن والدك قال لك مرة أنني رجل رقيق رشيق ويجب
أن نستمع الى نصائحي ؟
- حصل !

- اذن ٠٠ فيجب أن تستمع لما أقول ٠٠٠ فنحن اذا ربطنا بين
ذكائى وبين قوتك الشابة المتوثبة أحرزنا نصرا كبيرا ٠٠ أنت ٠٠
وأنا ٠ لقد كان أبوك رجلا ضخم الجسم ، لكنه كان قصير النظر ،
وكان قلما يعنى بالاستماع الى نصائحي ٠٠٠ وهو مدين بما ناله
من نجاح الى قلبه أكثر مما هو مدين به الى مخه ٠٠٠ ولكنك ٠٠
يبدو أنك ستكون شخصا عظيما مرموق المكانة يوما ما ٠٠٠ قتعال
فعش معنا ٠٠٠ انك لن يعود عليك من بقائك وحدك فى هذا البيت
الا الكرب والفزع وشغل البال .
- ولكن عمتى ٠٠ موجودة .

- عمتك ! هـ ٠٠ هذه المرأة المريضة المحطمة ! ان ساعاتها هي
أيضا معدودة فى هذه الدنيا !
وقال له فوما متوسلا :
- لا تقل ذلك . أرجوك !

- بل ٠٠ سأقوله وأقوله ٠ ولكن لماذا تخاف الموت ؟ انك
لست امرأة عجوزا حيزبونا . فعش بلا خوف ، لتقوم بالعمل الذى
خلقت له . وقد وجد الانسان لتنظيم هذه الحياة . والانسان رأس
مال ٠ وهكذا الروبل ! انه يجتمع من دراهم وكوبكات صغيرة لا قيمه
لها ، يجمعها مادتها من تراب الأرض ، كما هو مكتوب . تم يدور هذا .

الروبل فى عمل من الاعمال ، وفى أثناء ذلك يمتزج بالعرف والدموع ، كما يمتزج بهما الزبد والسمن ، وتبدو بعد ذلك أمارات القلوب والعقول . . . ثم تراه وقد بدأ ينمو . . . فيرتفع مرة الى فوق ، وينحط تارة الى تحت . . . وقبل أن تعرف ماذا صار ، تكون قيمته قد أصبحت خمسة كوبكات ، ثم خمسين . . . ثم ٠٠ مائة روبل ! وبعض الروبلات التى تنزل الى ميدان العمل على هذا النحو ٠٠ تبلغ قيمتها بعد حين ما لا يعد ولا يحصى . . . والروبل ما دام قد نزل الى ميدانه ، أصبح واجبه أن يعود لصاحبه بالربح المنسود . . . والحياة تعرف كم يساوى كل منا . . . ثم هى لا تدعونا الى العمل قبل أن يحين أوانه . والرجل العاقل يجب ألا يعمل نسيئا يجلب عليه الحسارة . . . أسمع ؟

— أجل .

— هل تفهم أى شىء ؟

— كل شىء !

فقبع ماياكين ، وقال فى ريبة : « لعل وعسى ! »

— أنا أعرف فعلا . . . ولكن الذى لم أعرفه فقط . . . هو . . . لماذا كتب الموت على الناس ؟

ونظر اليه ماياكين فى حنان ، وأخذ يقول وهو يبيل شففته بلسانه :

— هذا سؤال يجب ألا يوجهه رجل عاقل الى نفسه . ان الرجل العاقل يرى أنه اذا كان هناك نهر من الانهار ، فلا بد له من أن يصب فى مكان ما ، فاذا لم يصب فسيحدث مستثقعا !
وقال له فوما منقبضا :

— انك لا تزيد على أنك تستهزئ بى . . . فالبحر لا يصب فى
أى مكان !

- ولكن البحر هو المكان الذى تلتقى فيه جميع الانهار
لا تنس ما يهب فى البحر من عواصف . . . وهذا هو ما يحدث
بالضبط فى بحر الحياة الذى تثيره العواطف الانسانية وتجعله
جليا عاصفا . والموت هو الذى يعيد الى أمواهه نقاءها ، ويحافظ عليه
من أن يصبح راكدا آسنا . ولا ضير فى أن يموت كثير من الناس ،
فالموجودون على قيد الحياة أكثر على الدوام مما كانوا من قبل !

- أحسب أن ليس ما يعزىنى عن أبى . . وقد مات !

- ولسوف تموت أنت أيضا يوما من الايام !

وقال فوما وهو يضحك ضحكة مريرة :

- اذن فما الفرق فى نظرى بين أن يكون الذين على قيد الحياة
أكثر دائما ممن كانوا أحياء من قبل ؟ .

وهنا . . أرسل الرجل زفرة . . ثم قال :

- لا فرق فى ذلك أبدا فى نظر أى انسان . . وأحسب أن كلامك
هذا هو ما يقوله بنطلونك أيضا اذ يسأل اخوانه البناطيل :
ما الفرق الذى يعود علينا من وجود ملابس أخرى كثيرة جدا فى هذه
الدنيا ؟ . . ولكنك لا تعير ما تقوله البنطلونات أى اهتمام - انما
أنت تخلصها عن نفسك ، ثم تقذف بها من حالى !

ونظر فوما الى الرجل نظرة تعنيف وتثريب ، الا أنه حينما رآه
يضحك أحس نحوه بالاعجاب والاحترام ، ثم راح يسأله :

- ألسنت تخشى الموت حقيقة أيها الأب ؟

وأجابه الرجل العجوز بلهجة لاذعة :

- ان أشد ما أخشاه يا بنى هم المغفلون . . . أما ماذا أقصد
فاستمع : « اذا أعطاك أحد المغفلين عسلا ، فابصق به فى وجهه .
أما اذا سقاك أحد الحكماء سما ، فاشربه ، والقنفذ الذى لا ينشر ابرمه
للدفاع عن نفسه هو قنفذ مريض القلب ! »

وقد آذى فوما وأغضبه ما أحس في كلام ماياكين من استخفافه ، فقال له غامزا :

— دائما تتكلم بالاحاجي والفواير !

فانفجر فيه الرجل قائلا :

— ماذا تقول ؟! ان كل انسان يتكلم بالاسلوب الذى تعود . هل تجد خشونة في كلامي ؟ أهذا هو ما تعنى ؟
لكن فوما لم يجب .

— أما انك لشخص ظريف ! تذكر هذا المثل : « ان الذى يحبك هو الذى يعلمك . . فلا تنس هذا أبدا : ثم دعك من التفكير في الموت . فالحماسة كل الحماسة أن يستغرق الانسان كل الاستغراق في التفكير في ذلك . لقد أنعم سفر الجامعة النظر في موضوع الموت طويلا ، وأطال الكلام فيه كثيرا . . . ثم انتهى من ذلك كله الى أن الكلب الحى أفضل من الأسد الميت ! »

ووصلا الى المنزل . وكانت صفوف من العربات متراصة في الشارع الذى فيه بيت فوما ، وكانت أصوات عالية كثيرة تنطلق من النوافذ المفتحة . ولم يكد فوما يخطو عتبة الباب حتى أمسك أحدهم بذراعه واتجه به الى مائدة حافلة بالطعام والشراب . . وكان الجميع يحثونه لياكل شيئا . وكانت الغرفة تضج بالاحاديث كأنها سوق ، وكانت مزدحمة وخمة من كثرة ما ينطلق فيها من الانفاس . ودون أن ينبس فوما بكلمة ، تنساول كوبا من شراب الفودكا وألقى به فى لهاته . ثم أتبعه ثانية وثالثة . . وكان كل من حوله يمزج ويتمطق . . وكان هو يستمع الى بقبة الفودكا وهم يفرغونها ، وقرع الكئوس وهم يهمون بها . . . وكانوا لا يستحون أن يملقوا على السمك ، وينقدوا العازف على الكمان المنفرد فى جوقة الاسقف ، ثم يعودوا الى التعليق على السمك من جديد . . . ثم يقولوا ان العمدة كان ينوى القاء خطبة فى الجناز ، الا أنه خاف — بعد الخطبة

الرائعة التي ألقاها الاسقف ، أن يتكلم بشيء حتى لا يفضح نفسه ،
ويضحك الناس عليه !

ويقول بعض الاسكابين بصوت مختلط بلعاب الاكل :

- وهذا هو ما كان من عادة المرحوم أن يفعل . لقد كان يقطع
القطعة من السالمون ثم يرش عليها مقدارا كبيرا من الفلفل ثم يأخذ
قطعة أخرى فيضعها فوق هذه ثم يرسلها في حلقومه لتلاحق الزجاجة
من الفودكا !

فيرد عليه بعضهم بصوت هادر :
- اذن هلم نحنذو نحنذو

وكان صدر فوما يكاد ينشق بالغثيان من منظر هذه الشفاه
الملوثة والاشداق التي تلتهم الطعام الدسم ، وقد شعر برغبة طارئة
في أن يصبح بهؤلاء الاندال ، وأن يطردهم جميعا ، أولئك المحدثين
الذين كان بروزهم في المجتمع قد ملأه بالحنق عليهم والكره لهم .
ولاحظ ذلك ماياكين الذي أحس فوما فجأة أنه بجانبه ، فقال
له : .

- أوه .. حيلك ! كن أكثر لطفا وبشاشة .. ثم .. ثرثر معهم
يا مولانا !

فرد عليه فوما بصوت مرتفع فيه حدة وغضب :

- ما معنى افراطهم في الشراب هكذا ؟ أيطنون أنهم في حان !
- ش شمشو !

وقالها ماياكين في هلع ، ناظرا في سرعة البرق فيمن حوله ، وعلى
فمه ابتسامة استعطاف .

ولكن .. لا فائدة .. لقد سبق السيف العذل كما يقولون ...
فلقد سمع حضراتهم فوما ، وعند ذلك سكنت الأصوات ، وانقطع
حديث القوم ، وبدا القلق على بعض الاضياف بصورة واضحة ،

يوضع آخرون سكاكينهم وشوكهم وعلى وجوههم أمارات الاستياء ،
ثم غادروا المائدة ، ونظر بعضهم الى فوما شزرا •
وكان فوما ، الذى كان ساكنا يتحرق من الغيظ ، يقابل نظراتهم
بلا أدنى مبالاة •

وهب ماياكين يهدىء نائرتهم ، ويجرى بينهم كما تنطلق الشرارة
بوسط الرماد :

- اجلسوا اجلسوا •• تفضلوا فالبقاوة ستقدم الآن !

أما فوما فقد هز كتفيه ، ثم أخذ طريقه الى الباب • قائلا :

- ليست بى حاجة الى طعام !

وسمع بعض كلمات غير لائقة من أحدهم ، كما سبم اشبينه
يحاول تفسيرها بقوله :

- انه حزنه يا سادة ••• ثم لا تنسوا أن اجنات كان كل شيء
بالنسبة له •• كل شيء !

وخرج فوما الى الحديقة حيث جلس فى المكان الذى توفى أبوه
فيه ، وكان الحزن والوحشة يجثمان بكلكنهما على صدره ، ففك
ياقة قميصه ، ووضع مرفقه على المنضدة ، وجلس بلا حراك ، ورأسه
مسند على راحتيه • وكان مطر لطيف ينهمر ، فكانت أغصان التفاحة
تمرمر فى صوت حزين وقطرات المطر تتساقط من فوقها • وظل
جالسا ثم وقتا طويلا وهو يلاحظ المطر ينزل من فوق الاوراق على
المنضدة • وكان يشعر كأنما رأسه يملؤه صراخ من الفؤاد كما التى
شربها ، وكأنما بنفسه غثيان من أولئك النهمين ، وكانت الأفكار
الغامضة المبهمة تدخل فى رأسه ثم تخرج منه ، ونظر الى صلعة
اشبينه بتاجها الصغير الفضى من ذلك الشعر الاشيب ، ووجهه المعتم
المربد الذى يشبه عجائز الايقونات •• ذلك الوجه الذى كان ،
بفمه الاهتمام الخالى من الاسنان ، وابتسامته الحبيثة المحتالة ، يثير
الكراهية والاشمئزاز فى نفس فوما ، ويزيد فيها الشعور

بالوحشة والانقباض ... ثم أخذ يستذكر عيني صوفيا بافلوفنا اللطيفتين ، وقوامها الصغير المعتدل ، وجعل يضع في خياله الى جانبها ... والسبب ما .. ليوبا ماياكين بجسمها الطويل البديع ، وخديها الموردين ، وعينيها الضاحكتين ، وضفيريها الغزيرة. النحاسية ... لقد كان الهواء مملوءا بالأصوات الكثيبة الموحشة ، والسماء كأنها تبكي وتنتثر دموعها الباردة على أغصان الشجر ، وكان الظلام والبرد يملآن قلب فوما ، وكان شعور مخيف بأنه وحده في هذه الدنيا يستولى على نفسه ... حتى لقد أخذ يسائل نفسه هذا السؤال : ترى .. كيف يمكن الاستمرار على هذا المنوال في تلك الحياة ؟

وكان المطر قد بلل ملابسه ، فلما أحس انه يرجف من البرد أوى الى المنزل .

* * *

لقد كانت الحياة تأخذ بتلابيبه من كل مكان ، حتى لم تكن تترك له فرصة التفكير في شئونه الخاصة . وفي اليوم الرابعين لوفاة والده ارتدى أحسن ما عنده من ثياب ثم ركب الى حيث حفلة ارساء حجر الاساس للمجأ الفقراء المشردين ، وكانت صوفيا بافلوفنا قد أرسلت اليه قبل ذلك بيوم واحد خطابا تخبره فيه أنه أنتخب عضوا في لجنة الاشراف على عمليات البناء ، كما أنه أنتخب أيضا عضو شرف في جماعة الاعمال الخيرية التي كانت هي رئيستها . وقد سره هذا كثيرا ، وشغل باله أيما شغل ذلك الدور الذي كان عليه أن يقوم به في احتفال اليوم . وحاول التفكير فيما عسى أن يكون ذلك الدور ، وجعل يفكر في هذا وهو راكب الى مكان الحفل ، وفي كيفية السلوك ثمة ، حتى لا يكشف نفسه بتصرف لا يكون لائقا .

ولمحه ماياكين فناداه وهو مسرع فوق الرصيف :

- أوه .. أنت هنا .. صبرك صبرك .

واستندار فوما فوجد اشبينه وقد حمل مظلة ضخمة فى كلتها يديه ، وعلى رأسه قبعة كبيرة ، وعليه معطف ضاف ذو ياقة من الفراء ، وقد استطال حتى عقبه . وقال الرجل وهو يشب الى العربية بلا استئذان ، فى رشاقة القروء :

- خذنى معك خذنى ! أقول لك الحق لقد كنت فى انتظارك ...
وما كنت أشك فى أن هذا هو ميعاد حضورك .

- اذن أنت ذاهب الى هناك !

- طبعا ، فأنا أريد أن أرى كيف يحفرون لنفود أعز أصدقائى فى التراب ! وهنا رمقه فوما بنظرة من طرف عينه ، ولم يتكلم . ولكن الرجل راح يسأله :

- لماذا تنظر الى هكذا ؟! أظنك سوف تسلك أنت أيضا سبيل الحيرات !!

وسأله فوما ببرود :

- وماذا تعنى ؟

- لقد قرأت فى تذكرة الدعوة أنهم قد أنتخبوك عضوا فى الهيئة المشرفة على بناء ذلك الملجأ ، وعضو شرف فى جمعية الست سونيا كذلك ... وهى عضوية ستخرم جيبك ان شاء الله !

وزفر وهو يقول ذلك . ولكن فوما أجابه :

- أحسب أنها لن تجعل منى أحد فقرائها المشردين !

فكان رد الرجل الداهية :

- لا أستطيع أن أحرز ذلك ، ولكن النى أستطيع أن أحرزه هو أن عمل الحيرات عمل كله حماقة ، بل ليس عملا على الإطلاق ، ولا يزيد على كونه تضييعا للوقت .

وسأله فوما متحديا :

- كأنك تعتقد أن مد يد المعونة للمحتاجين عمل ضار ؟

فتبسم ماياكين ابتسامة صفراء وقال :

- آه منك يا ٠٠ رأس الكرنية ! تعال وشرفني بالزيارة ، وسأفتح عينيك على هذا كله ٠٠٠ انك في حاجة الى النصيحة ٠٠ فهل تأتي ؟

- سأفعل

- عال ! وبهذه المناسبة ، يجب أن تسمع بأفك في هذا الاحتفال ، وعليك بالجلوس في صدر المجلس ٠٠ وأحسب أنك ٠٠ لو لم أنبهك ، الى ذلك ٠٠ كنت عساك تختبئ خلف ظهر واحد من الناس !

وقال فوما مستاء :

- وماذا كان يدعوني الى الاختباء ؟

- لك حق ٠٠ اذ ماذا يدعوك الى الاختباء ؟ ان الذي أقصده ، هو أن أباك هو الذي تبرع بالنقود لذلك المشروع ٠٠ ولا بد لك من الارتفاع الى مناط الكرامة بوصفك وريثا له : والكرامة شيء ثمين ، كالنقود تماما . والتاجر الذي يحافظ على كرامته يقابل بالحفاوة في كل مكان ، وتفتح له الابواب حينما حل ٠٠٠ ومن ثم فيجب أنه تبرز ، ويكون لك مكان الصدارة في هذا الاحتفال ٠٠ فلتجلس في الصف الاول ، حيث يمكن أن يراك كل انسان ، ويمكنك بذلك اذا تبرعت ولو بخمسة كوبكات ، أن تكسب روبلا بدلا منها . فمن الحماسة اذن أن تتوارى ٠٠ وتخفي نفسك .

وعندما وصلت عربة فوما كان صدور أعيان المدينة قد وصلوا الى مكان الاحتفال ، وكان كثير من الاهالي قد ازدحموا حول أكوام الأخشاب والطوب ومواد البناء ، وكان الاسقف والمحافظ والروس

من أهالى المدينة وأعضاء الحكومة المحلية ومعهم زوجاتهم فى أبهى
ملابسهم يكونون حشدا رائعا مختلف الالوان وهم وقوف يشاهدون
رجلين من البنائين يعدون. الحجارة ويجهزون مونة البناء ، وقد انضم
ماياكين وفوما الى هذه الجماعة .

وهمس ماياكين فى أذنه قائلا :

- لا تكن خجولا ... فالذى يخجل على المائدة .. يموت جوعا ،
والطيور الزاهية هى عادة أضعف الطيور .

وفى صوت مرح ، كله احترام مع ذاك ، أخذ يحيى المحافظ ، قبل
أن يحيى الاسقف .

- كيف صحتك يا صاحب السعادة ... نهارك سعيد يا صاحب
النيافة !

وحياه المحافظ بتحية ودية قائلا :

- آه يا كوف تاراذوفتش !

وبينما كان يقبض على يد ماياكين ويهزها هزا ، كان هذا يميل
نحو الاسقف . لكن المحافظ استمر قائلا : « كيف الأحوال أيها
الرجل العجوز المعمر الذى لا يعرف الموت إليه سبيلا ؟ »

ويجيبه ماياكين :

- عظيم جدا .. شكرا لك يا صاحب السعادة

ولمح صوفيا فحيها هذه التحية السريعة :

- مساء الخير .. صوفيا بافلوفنا

ثم زاغ كالنحلة وسط الزحام ، حيث استطاع فى خلال دقيقة أن
يحيى القاضى والنائب العام والعمدة ... وفى الواقع لقد تبادل

التحية وكل شخص من الاشخاص الذين هم فى نظره جديرون
بالتحية . . ولم يكن هناك عدد كبير من هذا النوع . لقد كان يبتسم
ويمزح ويجعل نفسه موضع الرعاية وجذب الانظار . أما فوما فكان
يقف خلفه مبهورا يسترق النظر الى الاشرطة الذهبية والملابس
النفيسة التى ترف من حوله ، وهو يحسد اشبيته على نشاطه
وجراته ، أسفا على خور عزيمته هو نفسه وتهافته أمام الملاء ، ثم
ازدياد هذا الحور وذاك التهافت حينما أدرك أنه لا شئ فى الواقع . .
وهنا أمسك ماياكين بيده فى الحال ثم قدمه للمحافظ قائلا :

— اسمح لى يا صاحب السعادة بأن أقدم لك ابنى الروحى ،
فوما ، الابن الوحيد للمرحوم اجنات .

وحيا المحافظ فوما وهو يقول :

— آه . . . سعيد لرؤيتك يا فوما ، وأشاطرك الـحزان من كل
قلبى يا بنى الصغير .

ثم شد على يده ، وقد توقف عن الكلام قليلا ، ثم عاد يقول :

— من أكبر النكبات أن يفقد الانسان أباه

وانتظر أن يرد تحيته ، لكنه لم يفعل ، ومن ثم ، التفت المحافظ
الى ماياكين يقول : كم كان خطابك رائعاً فى المجلس بالامس .
رائعاً . . . وفى منتهى الابداع . . يا كوف تاراذوفتش . ان هؤلاء
الناس لا يعرفون حاجات السكان الحقيقية .

— وعلاوة على ذلك يا صاحب السعادة . انهم لا يملكون رأس
المال . . وبعبارة أخرى ، أرى أنه يجب على المدينة أن تضم مالها
هى أيضا .

— تمام . تمام . هذا حق .

— ان الاعتدال بلا شك خصلة ممدوحة . وشرب الخمر شئ
سيئ . — وأنا أوافق على ذلك . وأنا نفسى لا أذوق الخمر ، وأكره من

يشربونها - ولكن لماذا ننشئ دور الكتب وصلات القراءة العامة
ما دام الجمهور ٠٠٠ أعنى العوام ٠٠ لا يعرفون القراءة ؟
ووافق المحافظ فى زفرة تشبه قباج الحنازير .

- أما اذا سألتنى عن رأىى ، فهو أن تأخذوا هذه النقود وتضعوها
فى مشروعات صناعية . وسيكون فى هذا المبلغ الكفاية اذا سرتهم فى
ذلك على مستوى ضيق . واذا لم يكف فلتكتبسوا الى سنت
بطرسبرج (١) ترسل لكم مبلغا آخر ولا تضيف المدينة شيئا من
مالها ، وتشغل أموالها فيما هو أجدى .

- تمام ٠٠ ولكن كيف صاح هؤلاء الأحرار فى وجهك !
- انهم لا يصلحون الا لهذا ٠٠٠ للصياح ! يا صاحب السعادة
وهنا تنجح القسيس من داخل الكنيسة ، وكان هذا يعنى ابتداء
صلاة التدشين .

وأقبلت صوفيا بافلوفنا وحيث فوما ، وقالت له بصوت ناعم
حزين :

- لقد كاد قلبى يتفطر وأنا أنظر الى وجهك يوم الجناز ٠٠٠ لقد
كنت أدرك كم كنت تقاسى !
وكانت كلماتها بردا على قلب فوما .

- لشد ما هزنى بكأؤك ٠٠ فوا رحمتا لك يا بنى الصغير ٠٠
واسمح لى أن أخطأك هكذا فقد أصبحت أنا امرأة عجوزا بالفعل .
وأجابها فوما مشدوها :
- أنت ؟

وسأله وهى تنظر فى وجهه بلا تكلف :

- ألا تصدقنى ؟

(١) لينينجراد الآن .

ونكس فوما رأسه ولم يتكلم . فقالت له صوفيا :

— اذن فانت لا تصدقنى . ألسنت امرأة عجوزا ؟

وأجابها وكأنه يحتج بصوت منخفض :

— أصدقك وان كان هذا ليس صحيحا

— ما الذى ليس صحيحا . هل هو أنك تصدقنى ؟

فقال فوما وقد استولى عليه الخجل الشديد :

— لا لا . ليس هذا . ولكن هو أنك . هو أنك . . . معذرة

. . . فأنا لا أستطيع التعبير ، اذ لبست واحدا ممن تعرفين من هذا
الشباب المتعلمين .

وهنا أسرع صوفيا الى الجواب التالى وكأنما أرادت به أن ترد
عنه عادية هذا الشعور :

— ليس هذا شيئا يستدعى الخجل على الاطلاق . . . فانت
لا تزال شابا يافعا ، وأى شخص يستطيع أن يحصل على التعليم الذى
يريد . . . الا أنه يوجد من الناس من لا يحتاجون الى تعليم . بل قد
يضرهم التعليم ولا ينفعهم — أناس أنقياء القلوب . . . أطهار أبرار
أصفياء النية كالاطفال تماما . وانت واحد من هؤلاء . . . أو كذلك.
. . . أليس كذلك ؟

فأنى لفوما الاجابة على ذلك ؟

انه لم يزد على أن قال : — شكرا

ولاحظ أن كلماته قد ابتعثت بريقا مرحا فى عيني صوفيا
بافلوفنا ، فأحس بأنه كان شديد البله والحماقة . . . مما جعله يثور
فى أعماقه على نفسه . ومن ثم استدرك يقول :

— اذن فهذا هو رأيك فى ! اننى أقول ما أعتقد .. ولم أتعود
الرياء والتظاهر ... وعندما أرى شيئا مثيرا للضحك، فأنى أضحك
من كل قلبى . ولم أرزق المقدرة على اخفاء ما فى نفسى .
— حيلك حيلك ! ما الداعى لأن تقول هذا كله ؟

وكانت تكلمه كأنها تلومه وتعتب عليه .. وبينما كانت تصلح
« كسر جونلتها » تصادف أن مست يبيدها يد فوما التى كان يحمل بها
قبعته .. فنظر فوما الى يده نظرة تفيض بالحجل .. وبالسعادة.
أيضا .

وسألته صوفيا :

— أرجو أن تشرف البوفيه .. أليس كذلك ؟

— بلى .

— وأن تشرف الاجتماع الذى سينعقد غدا فى منزل ؟

— بكل تأكيد !

— وأن تنزل بزيارتى كلما سمحت لك الفرص بذلك ..
وبدون أى تكليف !

— أو .. شكرا لله .. ان شاء الله !

— بل أنا التى يجب أن أشكرك على هذا الوعد .

ثم لزمنا الصمت بعد ذلك كلاهما ... وجاء صوت القسيس فى
وقار وخشوع من بعيد وهو يبارك بيده أرض الملجأ ، ويدعو دعاءه
قائلا :

« ... ونسأل الله ألا يصيب هذه المؤسسة بريح أو فيضان أو
طاعون .. وألا يقع بساكنيها أى شر أو أذى ! »

وقالت له صوفيا :

— لله ما أجمل صلواتنا وأحفلها بالمعاني ! ألا ترى ذلك ؟

ولم يزد على أن قال لها : « بلى » وقد عاوده حياؤه مرة أخرى ..
لأنه لم يفهم ماذا كانت تقول له

وقال ما ياكين هامبسا فى أذن العمدة الذي يقف قريبا من فوما :

— انهم دائما يأخذون الجانب الذى يكون ضد مصالحنا نحن
التجار . وماذا يهمهم ؟ ان كل ما يحرصون عليه هو أن ينالوا ثناء
الصحافة . وهم قلما يتعمقون معاني الاشياء . . ولا يعنون الا
بالمظهر ، ولا يعملون على تحسين الحياة نفسها أبدا . الصحافة
والسويد ! هذان هما القاعدتان اللتان يقيسون كل شيء بهما !
فصاحبنا الدكتور ظل يضرب طول النهار أمس على وتر السويد . .
ولم يفتأ يقول ان التعليم العام ، بل كل شيء آخر ، على أحسن
ما يرام . ولكن . . . ما تلك السويد اذا وقفت على حقائق
الاشياء فيها ؟ اه ؟ . . ان كل ما نعرفه عن تقدم السويد التى
يطنطنون بها هو القفزات والكبريت . . . ومهما يكن ، فنحن غير
السويد ، ولا يمكن أن تكون السويد نموذجا لنا . ولا بد لنا من أن
يكون لنا أسلوبنا الخاص فى كل شئونا . أليس كذلك ؟

وهنا ، كان الكاهن قد مال برأسه الى الخلف وهو يقول :

« فالراحة الأبدية لروح ذلك الذى أنشأ هذه المؤسسة الخيرية »

وقد انتفض فوما عندما صافح أذنيه هذا الدعاء ، غير أن اشبيهه
قنبه الى ذلك فشده من كفه على الفور وقال له :

— هل ستذهب الى البوفيه ؟

ثم مست يده مرة أخرى تلك اليد الدافئة الناعمة البضة . . يد
صوفيا بأفلوفنا .

لقد كان البوفيه محنة شقى بها فوما ٠٠٠ فلاؤل مرة فى حياته .
يجد نفسه فى طبقة راقية ٠ وكان يدرك أن هؤلاء الناس يأكلون
ويتحدثون ويفعلون كل شئ آخر أحسن مما يستطيع هو أن يفعله ،
وأن المائدة لم تكن هى التى تفصل بينه وبين صوفيا بافلوفنا التى
تصادف أنها كانت تجلس قبالة تماما ٠٠ بل كان يفصله عنها جبل
حقيقى ، جبل بأكمله ٠ وكان يجلس فى المقعد الذى يليه سكرتير الجماعة ،
الذى أنتخب فيها فوما عضو شرف . وكان كاتباً حدث السن فى المحكمة ،
وكان يحمل هذا الاسم الغريب : أوتشيشيف ٠ وكأننا أراد أن
يجعل اسمه أشد غرابة ، فلم يكن ينقطع عن السرعة بصوته
الرفيع العالى - أضف الى ذلك منظره العام الأشد غرابة ٠٠٠ اذ
كنى قصيرا سميئا مستدير الوجه ، فاذا تذكرت صوته خارجا من
هذا الرأس العجيب خيل اليك أنه جرس ٠٠٠ جرس آدمى !
اسمع اليه يتملق السيدة صوفيا بهذا الكلام السمج :

- ان أعظم ما يحق لمجتمعنا أن يفخر به هو راعيته ، صوفيا
بافلوفنا ٠ وأهم عمل يمكنه أن يقوم به هو أن يقدم لها الت شكرات
التي ترتضيها ، وأحسن طريقة تقدم بها هذه الت شكرات هى عبادتها
وتوقيرها فى سكون وفى صمت ٠٠٠ وهكذا نرى أيها السادة أننا
فى الحقيقة لسنا أعضاء فى جمعية مكرسة لقضية الح ٠٠٠ بل فى
جمعية من طيور أبى قردان فى خدمة سيدتنا المعبودة صوفيا ،
بافلوفنا ٠

وكان فوما يستمع الى هذا الهذيان ، وهو ينظر الى صوفيا ،
مستغرقة فى حديث خاطر بينها وبين رئيس البوليس ٠ وكان يجيب ،
عما يوجهه اليه جاره من أسئلة باجابات خاطفة ، متظاهرا بالانهماك
فى طعامه ، وهو فى الحقيقة يتمنى لو انتهى هذا الاحتفال ، وانفرط
عقده ، فقد كان يحس كأننا جميع عيون القوم متجهة نحوه ٠٠٠
وأن كل انسان قد لمس فيه البله والسخف ، وأنه شئ تافه .
لا يستأهل الا الزراية والاحتقار ٠

وكان ماياكين يلوح بشوكته فى الهواء ، ويلعب أسارير وجهه وهو يشرح أمرا ما للعمدة ذى الوجه الأحمر الاثسيب الرأس الذى لا رقبة له ! وكان العمدة يحملق فيه بعينه كما يحملق العجل ، وهو ينقر بأباهامه على المائدة من وقت الى آخر ، كأنما نقره هذا هو علامة بالموافقة على ما يقول محدثه . وكانت الاحاديث المرحه ، والضحك المتواصل يطبقان على ما يقوله ماياكين ، فلم يكن فوما يميز كلمة واحدة منه ، وبخاصة أن سرسعة السكرتير الفصيح كانت تظن فى أذنيه طول الوقت .

ثم قال السكرتير أخيرا بلهجته السمجة :

- انظر ٠٠ ان الكاهن يأخذ نفسا طويلا ٠٠٠ وهو موشك أن يصل على روح المرحوم اجنات مانفييفتش !

وسأل فوما بصوت خافت :

- ألا أستطيع الانصراف ؟

- ولم لا ؟ ان الناس سيفهمون

- كان صوت الكاهن قد طغى على الاصوات الاخرى ٠٠ أو قل ٠٠ انه قد نسخها جميعا ، فراح هؤلأ التجار ينظرون فى اعجاب الى ذلك الفم الكبير المغفور الذى كانت تتدفق منه مقاطع الكلمات الرنانة ٠٠٠ وانتهاز فوما هذه الفرصة ، فغادر الغرفة .

ولم تمض دقيقة حتى كان متكئا بظهره على مسند عربته ، وهو يشهق كالذى أتاه الفرج بعد الضيق ، ويحدث نفسه بأن مجتمع هؤلأ الناس ليس مجتمعه . فقد أدرك أنهم قوم متكلفون ، فكره أناقتهم وتباهيهم ، وكره وجوههم ، وابتساماتهم وأحاديثهم . الا أن ما كانوا يبدونه من حرية وثقة بالنفس ، وقدرتهم على التحدث فى أى موضوع ، وملابسهم الجميلة الانيقة - كل هذا أثار فى نفسه

تأحاسيس يختلط فيها الحسد والاحرام . وقد آلمه وأحزنه ما لمسه
فى نفسه من عدم القدرة على التعبير عما فى خاطره بهذه الطلاقة التى
كانوا يعبرون بها عما فى أنفسهم ، وفى أى موضوع يشاءون .
مذكر ابن ليوبا ماياكين كانت طالما تستهزئ به من أجل ذلك .

لقد كان فوما لا يميل الى ابنة ماياكين ، ولم يكده يعلم من أبيه أن
والدها يريد تزويجها منه حتى امتنع من مقابلتها اطلاقا . الا أنه منذ
أن توفى أبوه لم ينقطع عن زيارة آل ماياكين يوميا .

وقالت له ليوبا مرة :

- أتعلم يا فوما أنك لا تبدو عليك أية أماراة تدل على أنك ابن
تاجر ؟

ورد عليها بمثل لهجتها قائلا :

- وأنت أيضا لا يبدو عليك أنك ابنة تاجر .

ولم يكن يعلم هل قالت له ما قالت وهى تعتمد جرح مشاعره أو
لم تعتمد ، بدليل أنها قالت له : حمدا لله ! ثم أولته ابتسامة حلوة
تفيض ودا ، حتى لقد سألها :

- لماذا أنت مسرورة ؟

- لأننا لا نشبه والدينا

وقد نظر اليها فوما متعجبا حينما قالت ذلك ، وأدركت هى هذا
فقالته بصوت خافت :

- اصدقنى القول يا فوما .. أنت لا تحب والدى ، أليس
كذلك ؟

فاجابها فوما بصراحة : - ليس كثيرا !

فقالته له :

- أوه ٠٠ اننى لا أحبه بالمرّة !

- ولماذا ؟

- أوه ٠٠ لأسباب كثيرة مختلفة ، وحينما يتسع ادراكك للأمور أكثر مما هو الآن ، ستفهم كل شيء . لقد كان أبوك خيرا من أبى .

وشاع الكبير فى أعطاف فوما وقال :

- أجل ، لقد كان خيرا بكثير .

وكان من نتيجة هذا الاعتراف أن بدأ كل منهما يميل الى صاحبه ، ثم تطور هذا الميل يوما بعد يوم حتى أصبح أقرب الى لون غير عادى من الصداقة .

لقد كانت ليوبا فى سن فوما نفسها ، الا أن ميلها اليه كان أشبه بميل بنت كبيرة الى ولد صغير . لقد كانت تتحدث اليه بلهجة استعلاء ، وكانت طالما تهكم عليه . وكانت تستعمل فى حديثها اليه على الدوام عبارات لم يكن معتادا سماعها ، وكانت تنطق هذه العبارات بلهجة خاصة فيها سمة التاكيد ، والاقتناع الواضح . وكانت تحب أن تتحدث اليه وبخاصة عن أخيها تاراس ، الذى ، وإن لم تره قط ، كانت تصوره فى ألوان وأضواء تدنيه من لصوص الحرافات الشجعان الشرفاء فى حكايات العمة آنفيسا . وكان فوما اذا شكها اليها من والدها أجابته قائلة :

- ستكون أنت نفسك يوما ما هذا الهولة الوحش الذى هو أبى !

ولم يكن يسره أن يسمع ما تقوله من ذاك عن أبيها ، بل كان هذا يضايقه منها ، الا أنها كانت تبدو فى بعض الظروف بسيطة ساذجة ، صريحة ، بل لطيفة فيأضة الود . وكان هو يستجيب لذلك فيفتح لها أبواب قلبه ، وطالما كانا يجلسان معا ينفض كل منهما لصاحبه أخص أفكاره وخفايا مشاعره .

لقد كانا يتحدنان في صراحة وفي اخلاص ، الا أن فوما كان يشعر أن أفكار ليوبا لم تكن مما يمكن الموافقة عليه ، بل كانت مما يجلب الضرر لها . وفي الوقت نفسه كان يلاحظ أن أحاديثه المهوشة العرجاء لم تكن تسرها على الاطلاق ، وأنها لم تكن تفهمه قط وبالرغم من كل هذه الاحاديث الطويلة بينهما لم يزدد بعضهما الا تبرما ببعض وقلة رضا . لقد كان يخيل اليه ان حائطا لاتراه الانظار يفصل بينهما ، ولم يكن أى منهما يجرؤ على أن يمس هذا الحائط ، أو أن يعترف حتى بوجوده وهكذا استمرا في هذه المحادثات العقيمة ، وكل منهم مدرك ادراكا مبهما لما يتسم به الآخر من تلك السمات التي كانت أخرى بأن تقرب مسافة الخلف بينهما .

لقد ذهب فوما بعد عودته من الحفلة الى منزل اسبينه فوجد ليوبا وحدها . وبمجرد أن دخلت الغرفة لاحظ أنها اما متوعكة ، أو مشغولة البال بأمر ما ، فقد كانت عينها محمرتين ، وحولهما دوائر داكنة .

وقالت مجيبة بابتسامة خفيفة ، وهي تشد شالها الصوفى حول كتفها :

— يسرنى أنك جئت . لقد كنت أشعر بوحشة ، ولم أكن أحس برغبة في الذهاب الى أى مكان . . . أتشرب شايًا ؟

— أجل . . . ولكن . . . ماذا ؟ ألا تشعرين بصحة جيدة ؟ .

وقالت وكأنما تتجاهل سؤاله :

— تفضل في غرفة الطعام . سأخبرهم بايقاد غلاية الشاي .

ودخل فوما الى غرفة ضيقة لها نافذتان تطلان على حديقة أمامية . وكان بين النافذتين مائدة بيضية حولها كراسي من (الدقة) القديمة منجدة بالجلد ، وعلى الحائط ساعة قديمة في صندوق زجاجي طويل ، وفي أحد أركان الغرفة دولاب صيني مملوء بالأدوات الفضية .

وسألته وهي تدخل الغرفة :

- أعائد من الحفلة ؟

فأجابها فوما بإيماءة

وعادت فسألته بأسلوب عال :

- حسن .. وكيف كانت ؟

فأجابها بضحكة خفيفة :

- شنيعة ! لقد كنت أجلس هناك على أحر من الجمر ، بل على أشد من وخز الابر . لقد كانوا جميعا أشبه بالطواويس ، أما أنا .. فكنت بالبومة أشبه .

ولم تعلق ليوبا بكلمة .. بل كانت ماضية فى اعداد أدوات الشاى . ولما لاحظ أنها تنظر الى وجهه المكتئب راح يسألها :

- ما الذى يجعلك تبدين كئيبة منقبضة هكذا ؟

وخطت منه خطوة مغرية ثم أخذت تقول له فى ألم وانشراح معا :

- آه يا فوما لو علمت أى كتاب فرغت من قراءته الآن فقط ! وآه لو كنت تستطيع أن تفهمه ؟!

وضحك فوما ثم قال :

- انه يكون ولا بد كتابا عجيبا ما دام قد راقك الى هذا الحد !

- لقد ظللت طول الليل أقرؤه .. ولم يغمض لى طرف لحظة واحدة . وأنت اذا قدر لك أن تقرأ كهذا فكأنما تتفتح لك أبواب عالم جديد لم يكن لك به عهد من قبل .. ان الناس فى هذا الكتاب يختلفون عنا ، وما يقولونه مختلف عما نقول ... كل ما فيه مختلف .. كل ما فيه ... الحياة نفسها مختلفة .

وأجابها فوما فى لهجة المنكر المستهزئ :

— اننى لا أحب مثل هذا الهراء •• انهم يزخرفون أمثال هذه الكتب ليتغفلوكم بها ••• وشأنهم فى هذا شأنهم فى المسرح، حيث يظهرون التجار كشرذمة من الحمقى والمغفلين ، فهل هم حقيقة من الغباوة بهذا الحد الذى يظهرونهم فيه ؟ كلا بالطبع ••• واليك بهالدك مثلاً !

وتجيبه ليوبا متحدية :

— ان المسرح لا يقل عن كونه مدرسة يا فوما ••• وكم من التجار ممن هم كما صورهم المسرح • وكيف يمكن أن يتغفلك الكتاب ؟

— كما تفعل بنا الاساطير •• وليس منها ما هو صحيح •

— أنت مخطئ • وأنت لم تقرأ كتاباً ما ، فكيف يمكن أن تحكم هذا الحكم عليها ، بالعكس فالكتب هى الشئ الصحيح • انها تعلم الناس كيف ينبغي لهم أن يعيشوا •

وقال فوما وهو يلوح بيده مستهزئاً :

— يا سلام ! لتسقط كتبكم ! انها لا يمكن أن تعلمكم شيئاً ••• واليك والدك •• انه لم يقرأ كتاباً طوال حياته •• ولكن أنظرى كم هو شخص ماهر ••• لقد كنت أحسده وأنا أنظر اليه فى الحفلة اليوم ••• ما كان أرشق أسلوبه فى لقاء الناس ! انه دائماً يعرف ما ينبغي أن يقال • وما ينبغي أن يفعل ••• وأينما حل فكأنه فى بيته ••• ورأى الناس فيه جميعاً أنه رجل لا يعجز عن الوصول الى ما يريد •

وتعترض ليوبا قائلة :

— ولكن ماذا يريد ؟ لا شئ • الا المال •• ان من الناس من يريدون السعادة — السعادة لكل من فى الدنيا ، ومن أجل هذا تراهم

يرغبون فى العمل ، وفى المقاساة ، بل فى التضحية بأنفسهم اذا لزم الامر . فهل تستطيع أن تقارن بين أبى وبين هؤلاء ؟

- وفيهم المقارنة ؟ ان أباك يرغب فى شىء ، وهم يرغبون فى أشياء أخرى .

- انهم لا يحبون أى شىء !

- ماذا تعنين ؟

- انهم يريدون تغيير كل شىء !

ويجبها فوما مدركا ما تعنيه تماما !

- لا بد أن يكون لهم غرض وراء هذا ، ولا شك فى أن لهم هدفا يسعون اليه .

وتعيد ليوبا ما سبق أن قالته فى عنف واصرار :

- السعادة لكل انسان .

ويهر فوما يده هو أيضا ويقول :

- هذا ما لا أستطيع أن أهضمه . من ذا الذى يعنيه أمرى سعدت أو شقيت ؟ فضلا عن هذا ، كيف يستطيعون معرفة ما يجعلنى سعيدا ، اذا كنت أنا لا أستطيع معرفة ذلك - لكن - كان يجب أن ترى الى هؤلاء الآخرين . . . أولئك الناس الذين كانوا فى الحفلة اليوم !

وتقول ليوبا مستهزئة :

- هؤلاء ليسوا ناسا

- أنا لا أعرف ماذا يمكنك أن تسميهم ، ولكن الواضح أنهم يعرفون مركزهم فى الحياة . . . انهم قوم يفيضون حيوية ونشاطا وثقة بأنفسهم

وتجيبه ليوبا متعجبة وكأنما أدركتها خيبة الرجاء :

- أوه فوما ٠٠ انك لا تفهم شيئا ٠٠٠ وكل شيء لديك سواء ،
انك كسول كسلا شنيعا !

- وهكذا تعودين الى رأيك القديم من جديد ! فأنت لا تزالين
تقرين أننى لا خبرة لى بأمور هذه الحياة ، لأننى لم أتمرس بها بعد !
وهنا تقول له ليوبا مؤمنة :

- انك لا تزيد على أن تكون انسانا ذا رأس فارغ !

ويحتج فوما بأسلوب هادئ :

- وكيف تعرفين ماذا فى رأسى ؟

وتهز كتفها وهى تقول له :

- انك ليس لديك ما تفكر فيه .

- بل لدى ما أفكر فيه . اننى أعيش فى هذه الحياة وحدى لشيء
واحد ، وكان لا بد أن أعيش لشيء آخر ٠٠ وأنا لا يمكن أن أظل
عائشا بالحالة التى أعيش فيها الآن . وأنا أعرف هذا معرفة تامة
٠٠ اننى لا أريد أن أكون أضحوكة يتلهى الناس بها . وأنا لا أعرف
كيف أتحدث الى الناس ، بل لا أعرف كيف أفكر .

وتجيبه ليوبا وهى تتمشى فى الغرفة :

- فيجب أن تقرأ ، ويجب أن تدرس .

ويقول لها فوما دون أن ينظر اليها ، وكأنما كان يتحدث الى
نفسه :

- ان ثم شيئا يضطرب فى أعماق نفسى ، لكننى لست أفهم
ما هو ٠٠٠ وأحسب أن ما يتحدث به والدك الى شيء معقول ، الا أنه

لا يرضيني الى حد ما ٠٠٠ وأشعر أن أولئك الآخرين ألطف منه
وأظرف .

- تعنى أولئك الارستقراطيين !

- أجل

وتختلج شفتا ليوبا ، ويبدو عليهما الاشمئزاز ، وتقول :

- إذن ٠٠ فأنت من ذلك الصنف نفسه ٠٠ منهم ! يا للعار !
كيف تسمى هؤلاء ناسا ؟ أتحسب أن لهم قلوبا يحسون بها !

- وماذا تعرفين عنهم ؟ انك لم تجلسى الى أحد منهم قط !

- لقد قرأت عنهم .

وقطع عليهما حديثهما مجيء الخادمة ومعها الغلاية . وشرعت
ليوبا فى عمل الشاى دون أن تنطق بكلمة . وكان فوما وهو يلاحظها
متجها بأفكاره كلها نحو صوفيا بافلوفنا . متمنيا لو كان فى قدرته
أن يتحدث اليها .

وحينما فرغت ليوبا من عمل الشاى ، انطلقت تقول فى استغراق
وتأمل :

- انى لا يكاد يمر على يوم حتى يتضح لى أن الحياة شىء شاق.
مرير . فأنا مثلاً ٠٠ ماذا يكون من أمرى ؟ أتزوج ؟! ومن ؟!
تاجرا يقضى وقته كله فى سرقة الناس ، وفى السكر ، وفى لعب
الورق ؟ كلا ٠٠ ان هذا لن يكون أبدا ! - انى أريد أن أكون
شخصية ! - وأنا بالفعل شخصية ، ولو لسبب واحد ، وهو أنى
أدرك مدى ما فى الحياة من بشاعة وشناعة . هل أصل دراستى ؟
كانهم يحسبون أن أبى سيسمح لى بذلك ! هل أهرب ؟ لست أجد
الشجاعة ! فليت شعرى ، ماذا على أن أفعل ؟

تم قبضت باحدى يديها على الاخرى بحالة عصبية ، ونكست
رأسها

— آه لو عرفت مقدار ما أمقت هؤلاء الناس وأزدرهم ! انك
لا تجد فيهم واحدا .. واحدا فحسب .. فيه إثارة من الحياة .
لقد طرد أبى من هنا كل مخلوق بعد وفاة والدتى ... وسافرت جميع
صديقاتى لمواصلة الدرس — ومن هؤلاء أعزهن جميعا على نفسى ..
صديقتى ليلى ، التى لا تنى تكتب الى ، توصينى بقراءة الكتب .
ولكن .. هأنذا أقرأ ، وأقرأ ، ولا أنقطع عن القراءة .

وانشأت ليوبا تزفر زفرات يائسة ، ثم عادت تقول بعد قليل :

— ان الكتب لا تنبئك بما تهفو، نفسك الى معرفته ... وأنا
نفسى لا أفهم الكثير مما تقدمه لنا .. ثم انه مما يبعث الملل فى
النفس ألا تفعل شيئا الا أن تقرأ وأنت وحدك ولا سمير لك . انى
فى حاجة الى سمير أتحدث اليه ويتحدث الى .. ولكن .. أين هو ؟
لا أحد ! لشد ما مللت هذه الحياة ! ان الانسان لا يحيا الا حياة
واحدة .. ولقد بدأت زهرة حياتى منذ حين ، الا أن الرجل الملائم
لما يأت بعد . فما يا ترى هذا الهدف الذى أعيش من أجله ؟ ..
لعمري ان هذه الحياة التى أحيها سجن .. سجن !

وكان فوما يحدق بعينيه فى أصابعه وهو ينصت اليها . لقد
كان يلمس بلواها .. الا أنه لم يكن يدرك من أمرها شيئا . ولم
يفتح الله عليه بشئ يقوله لها ، بعد أن فرغت من كلامها ، والتعاسة
تكاد تسحقها ، الا أن قال لها فى لهجة أشبه بالتأنيب :

— أرايت ؟ انك أنت نفسك تعترفين بأن الكتب لا تستطيع أن
تمدك بشئ من المعونة ، ومع ذلك ، فأنت لا تنفكين توصينى
بقراءتها ..

ولم تملك ليوبيا الا أن ترمقه بنظرة سُزراء ، والغضب ينقدح من عينيها :

- آه لو كان فى وسعك أن تتذوق شيئاً من الآلام التى أعانيها
... وآه لو كان قد كتب عليك أن تسهر الليالى ، كما أسهر ،
يضنيك الفكر ، ويؤرق عينيك شغل البال ! وآه لو كنت منلى
تتنقز من كل شيء ، كما أتقزز ، وتغشى من كل شيء ، حتى من
نفسك ! يا لله ! لشد ما أمقتكم جميعاً ! بل لشد ما أمقتك !

لقد كان وجهها يلتهب من الغضب ، وكانت نظراتها اليه مملوءة
بالحقد ، وكلماتها له فياضة بالضغينة ، حتى لقد ذهل ذهولاً شديداً ،
وسقط فى يديه فلم يدر ماذا يصنع ، بالرغم مما قدمت اليه من
إساءة . لقد كانت هذه هى المرة الأولى التى تكلمه فيها ليوبيا بهذه
الطريقة .

وسألها فوما واجما :

- ماذا ؟ ما الذى جرى لك ؟

، وردت عليه وهى تزوم بغل :

- أجل ... أنا أمقتك ... أمقتك أنت بالذات ... أنت ؟ من
أنت ؟ ومن عسى أن تكون ؟ شخص خرج لا يعرف شيئاً فى الوجود !
ما الدور الذى سوف تؤديه فى هذه الحياة ؟ وماذا فى وسعك أن
تقدم من خير للآخرين ؟

وأجابها فوما وهو يتعمد اغاظتها ، وتأجيج نيران غضبها :

- اننى لن أقدم اليهم شيئاً ... ولماذا لا يحصلون على ما يحتاجون
اليه بأنفسهم ؟

لقد كان استذناؤها له من القوة والشدة بحيث لم يسعه الا أن
يستمتع اليها ، فتقدم بكرسيه خطوة منها ، لكنها نفرت وابتعدت

عنه محنقة مغضبة ، ورفضت أن تقول كلمة أخرى .

وكانت الدنيا لا تزال نورا في الخارج ، وكانت أشعة شمس الاصيل تنعكس على أفنان أشجار الزيزفون القريبة من النافذة ، الا أن الغرفة كانت معتمة مع ذلك . وكان بندول الساعة النحاسي الاغبش ربما تبدى في كل ثانية من خلال زجاج صندوقه وهو يجيء ويروح في دقات ضعيفة وانية . وعندئذ وقفت ليوبا لتضيء اللمبة المعلقة في السقف أعلى المنضدة ، وكان وجهها يبدو شاحبا ممتعا في وهج النور المفاجيء .

وقال لها فوما وهو يكبح جماح نفسه :

- لقد وجهت الى حملة من التعنيف الشديد ، ولكنى لست أدري لماذا !

فأجابته ليوبا وهي تتعمد المشاكسة :

- لا أريد أن أكلّمك !

- لك هذا .. ولكنى ما زلت أسألك ماذا فعلت ؟

- ألا تستطيع أن تلاحظ أنني أكاد أغص بريقى ؟ أكاد أختنق ! أى حياة هذه الحياة التى أحياها ! من أنا ؟ ان أبى رجل عاجز يعتمد فى الحياة على غيره ، وهو يحتفظ بى لا بأسر له شئون المنزل ... فإذا انتهى ذلك الدور من حياتى ، بدأ الدور الثانى وذلك حينما أتزوج ... ومن ثم يكون واجبى أن أرعى شئون منزل آخر .

- ولكن .. ما شأنى وهذا كله ؟

- انك لست أفضل من هؤلاء جميعا

- ولكن .. أى شىء تأخذينه على ؟

- انك يجب أن ترغب فى أن تكون أحسن مما أنت الآن

- ولكنى أرغب فى ذلك وأتمناه .

وكانت على وشك أن ترد عليه لولا رنين جرس الباب ...
فارتمت فوق كرسيها وهى تقول عندما لمحت والدها :

- ابنى

وقال فوما :

- لم يكن ظريفا مجيئه سريعا هكذا .. فلقد كنت أود أن أسمع
ما عسى أن تقولى أكثر مما قلت .. بل كنت أتلهف الى ذلك .

وراح ماياكين يقول بمجرد ظهوره فى الغرفة :

- آه يا طفلى العزيزين ... أيها القمرىان الحبيبان ! أتشربان
الشئى ؟ أفرغى لى كوبا يا ليوبا .

وجلس الى جوار فوما وهو يدعك يديه ، ويبتسم مبتهجا

وتساءل وهو يرسل بزغدة ظريفة الى أضلاع فوما :

- وفيم كنتما تهدلان يا ترى !

وأسرعت ليوبا تقول :

- فى لا شئ على الاطلاق .

وقال لها أبوها وهو يلوى بوزه :

- أنا لا أسألك ... فأجبنى لسانك ، وعليك بشئون الستات
فقط ! و ...

وقاطعه فوما بقوله :

- لقد كنت أحدثها عن المأدبة ، عن الحفلة ...

- عال عال ٠٠ والآن جاء دورى فى الكلام عن المأدبة ٠٠٠ لقد كنت لا أنقل عينى عنك يا فوما ٠٠٠ ولا مفر لى من أن أقول لك انك لم تكن تدرى كيف تتصرف وعبس فوما وهو يقول :

- أتظن ذلك ؟

- أجل ٠٠ أظن هذا ٠٠٠ انك لم تكن تدرى كيف يسلك الناس فى هذه المناسبات ، فمثلا ٠٠ لقد كلمك المحافظ ، لكنك لم ترد عليه بكلمة .

- وماذا كان على أن أقول له ؟ لقد قال ان فقد الانسان أباه كارتة ٠٠٠ وهذا شىء لم أكن أجهله ، فماذا كان فى وسعى أن أقول ؟

- كان فى وسعك أن تقول : ما دام الله سبحانه قد أراد أن يصيبنا بهذا يا صاحب السعادة ، فنحن لا نملك الا التسليم بما أراد الله ! ٠٠ أو شيئاً من هذا القبيل . ان الحكام يحبون من يحتمل الامور فى صمت يا بنى !

وضحك فوما ثم قال :

- وهل كان الواجب يقتضىنى أن أنظر اليه كما تنظر النعجة ؟

- لقد كانت نظراتك كنظرات النعجة بما فيه الكفاية ٠٠ وهذا هو ما يجب ألا تكون . والواجب أن تكون لا نعجة ولا ذئبا ٠٠ ولكن ٠٠ بين بين ٠٠٠ فمرة هذه ٠٠ ومرة ذلك - فكنت تقول له مثلاً ! انك والدنا العزيز يا صاحب السعادة ، ونحن أبناؤك الاعزة ٠٠٠ وكان هذا يكسبك عطفه التام قبل أن تظن أنت الى ذلك .

- وما قيمة أن يعطف على ؟

- قد ينفعك هذا فى حينه يا بنى ٠٠٠ انك تستطيع أن تنتفع على الدوام بصلتك بالحكام يا فوما .

وهنا تقول ليوبا مشجزة :

- ماذا تحاول أن تجعل منه يا بابا ؟

- وماذا تظنين أنت ؟

- متزلف !

- غلط أيتها العلامة الحماء ٠٠٠ بل هى السياسة والدبلوماسية التى أعلمه إياها ٠٠٠ وليس التزلف ٠٠٠ الدبلوماسية التى تعلم الانسان كيف يظفر فى هذه الحياة . ولكن ٠٠ اسمعى ٠٠ الا فضل أن تتركينا ٠٠٠ هلمى ٠٠ اغربى عن وجهى أيتها الشيطانة ٠٠ وأعدى لنا شيئا نأكله ٠٠٠ هيا ٠٠ هيا ٠٠٠

ونهبزت ليوبا مسرعة ، وألقت الفوطة التى كانت فى يدها على مسند أحد الكراسى ، ثم خرجت ، وكان أبوها يوارب عينيه ، وينقر على المنضدة ، وهو يتبعها بعينه .

- وعلى هذا يا فوما ، فلسوف ألقنك درسا ٠٠٠ انى سأعلمك علم الفلسفة الحق المتوقع به ، وأنت اذا تفهمته فلسوف تشق طريقك فى الحياة دون أن تقع فى أى خطأ

ورفع فوما عينيه ليرى الأسارير التى تلعب بحركة عجيبة فوق جبين اشبينه ، والتى كانت تذكره بسطور من الكتابة السلافية

- فأول ما يجب عليك معرفته يا فوما ، أنه لا بد لك ، اذا قدر لك العيش فى هذه الحياة ، أن تكون لك فكرة عن كل ما يدور حولك من أمورها . لماذا ؟ لكىلا يترتب على جهلك بهذه الامور ما يسوءك ، وما قد يسوء غيرك أيضا . ثم يجب أن تعلم بعد هذا أن كل شيء يفعله الانسان له ناحيتان . ناحيته الخارجية التى تقع عليها عيون

الناس ، وهى الناحية الزائفة التى لا قيمة لها ، ثم الناحية الداخلية-
المسنرة التى لا تراها الأعين ٠٠٠ وهذه هى الناحية الحقيقية .
وهذه هى الناحية الهامة التى يجب أن تعنى بها اذا أردت أن تقف
على حقائق الاثنياء . ولنضرب مثالا لذلك بهذه الملاجىء ، والمنشآت
العمالية وغيرها وغيرها من المؤسسات الخيرية ٠٠٠ هل يمكنك أن
تعجز لماذا أقيمت ؟

ويجيبه فوما فى فتور :

- ولماذا أحزر ؟ ان كل انسان يعرف لماذا أنشئت ٠٠ ألم تنشأ
للفقراء والعجزة ؟

- آه يا صديقى ! يحدث أحيانا أن يعرف الناس أن فلانا وغد-
خسيس ، ومع ذلك لا يتادونه الا بحضرة السيد المحترم ، بدلا من
مناداته بما يستحق من ألقاب التحقير ؟
- لست أدري ماذا تقصد ؟

- أقصد هذا بالذات ٠٠ فأنت تقول ان هذه الملاجىء والمنشآت
للفقراء والمشردين والشحاذين - وبعبارة أخرى لتنفيذ تعليمات
المسيح ٠٠٠ حسن جدا ٠٠٠ وأنا أسألك عن الشحاذين من هم ،
وما هم ؟ ان الشحاذ هو ذاك الرجل الذى هدفه من الحياة هو أن
بذكرنا بالسيد المسيح - انه حبيب المسيح ٠٠ انه هذا الجرس
الذى لا تفتأ السموات تصلصل به لكى توظف ضمائرنا ٠٠ لكى
تحرك ما خمد من لحمنا الشبعان البشيم ٠٠٠ انه يقف تحت نوافذنا
ولا ينفك يصيح : « لقمه لله يا أسيادى ! » وهذه الصيحة تذكرنا
بالله فعلا ، وبالطريقة التى علمنا بها كيف يساعد أحدا أخاه . الا
أن الناس قد نظموا الحياة بطريقة أصبح من المستحيل عليهم بمقتضاها
أن يتبعوا تعاليم الله ٠٠٠ وبهذا لم يعد ثم متسع لهذه التعاليم فى
حياتنا التى نحياها وفقا للمنوال الذى رسمناه . اننا لم نصلبه

المسيح مرة واحدة فحسب ، بل لقد صلبناه مئات الآلاف من المرات
•• ومع هذا فنحن لا نستطيع التخلص منه طالما أحباؤه ، هؤلاء
الشحاذون ، لا ينفكون يجوبون الشوارع ، هاتفين باسمه ،
ليذكرونا به ••• تم اهتدينا آخر الأمر الى وسيلة طيبة تخلصنا من
هذا الكرب ••• لقد قرأنا على أن نحشد هؤلاء الشحاذين في دور
خاصة ، تمنعهم من الضرب في الشوارع ، وإيقاظ ضمائرنا •

وما كاد فوما يسمع ذلك حتى قال للرجل وهو يحدق فيه
عينيه :

- فكرة عظيمة !

ويجيبه ماياكين وقد زوى ما بين عينيه الصغيرتين ، وبريق الانتصار
يلمع فيهما :

- هل فهمت !

ويسأله فوما وقد بدا عليه القلق :

- وكيف غاب هذا عن والدي ؟

- ولكن •• صبرك ! دعني أكمل حديثي - فالأتي منه أدهى
وأمر • لقد فكرنا في مشروعات مختلفة من المنتسبات نقيمها لهم
لنسجنهم فيها ••• حتى اذا حشدناهم ثم جئنا لهم بأعمال
يقومون بها ••• هؤلاء العجزة الطاعنون في السن ••• العميان
الصم • المقعدون ••• وفعلنا ذلك لكي ينتجوا أشياء تدر ربها يعوضنا
مما ننفق في سبيل المحافظة عليهم ••• وبهذا لم يعد ثم مجال
لإعطائهم زكاة وصدقات ، من يوم أن نظفنا من أسماهم الطرقات ،
ومن هنا لم تعد أنظارنا تقع على مشاهد بؤسهم وتعاستهم •••
وأصبح يبدو لنا أن الناس في أطراف الدنيا جميعا يلبسون النعال
ويقتنون الملابس ويطعمون ويشربون بما فيه الكفاية • فهذا اذن هو
ما أقيمت تلك المنشئات من أجله - لحجب الحقائق عن الأنظار !
لابعاد السيد المسيح من حياتنا ••• فهل رأيث ؟

ويجيبه فوما مأخوذاً مبهوراً من طريقة اشبينه البارعة فى سوق
الحجج :

- ن ٠٠٠ ع ٠٠٠ م !

ويسارع ماياكين بقوله ، وهو يلوح بيديه فى الهواء :

- وليس هذا هو كل ما هنالك . اننا لم ننزع كل ما فى الغدير
من ماء بعد .

لقد كانت أساريـر جبينه ترتجف ، وكان أنفه الطويل الذى يسببه
منقار الصقر ينتفض ويختلج ، وصوته مشوباً بفرحة خبيثة :

- ولننظر الآن الى المسألة من وجهة أخرى . فمن الذين يسهمون
أكثر من غيرهم فى إقامة هذه الدور والملاجئ وسائر المنشآت الخيرية
الأخرى ؟ الأغنياء بالطبع . . أعنى التجار . . . حسن جداً . .
ومن الذى يصدر الأوامر ويقرر ما يجب أن يتبع فى التنفيذ ؟ لسنا
نحن طبعاً ! بل هم . . الذوات ، وأولاد الأعيان ، وموظفو الحكومة
ومن اليهم . . . انهم أولئك الذين يقنون القوانين ويؤسسون
الصحف ويصنعون العلم ! انهم هؤلاء الذين كانوا يملكون الاراضى
يوماً ما . . . فلما اهتزت الاراضى تحت أقدامهم ، ثم طارت منهم ،
اضطروا الى التوظف . . . ولكن . . . من أقوى طبقة فى الشعب
اليوم ؟ أليس التجار هم القوة الحقيقية الفعالة فى البلاد الآن ،
لأنهم يملكون الملايين ؟ أليس الأمر كذلك ؟

ورد فوما بالايجاب ، وهو أشد ما يكون شوقاً الى النتيجة التى
كانت قد بدت تبشيرها فى عينى ماياكين بالفعل .

ومضى الرجل يقول بلهجة المطمئن الواثق :

- اذن فاستمع لما أقول ، وحاول أن تفهمه جيداً . اننا نحن
التجار لسنا الذين جعلنا الحياة ما هى عليه الآن . . ونحن الى هذه

الأيام لم يكن لنا رأى فى تكييفها ٠٠٠ ولم يكن فى مقدورنا أن ندخل فى تدبير أمورها بصغيرة أو كبيرة ٠٠٠ انهم هم هؤلاء الآخرون الذين جعلوا الحياة ما هى الآن ٠ انهم هم الذين خلقوا هذه الطبقة من الشحاذين والعجزة والمقعدين ومن لا يصلحون لشيء ٠ انهم هم الذين لطخوا الحياة بهذا القدر ٠٠٠ واذا حق للعدالة أن تأخذ مجراها ، فالواجب يقتضى أن يتولوا هم تنظيفها ٠٠٠ ومع هذا فنحن الذين نتولى عملية التنظيف ٠٠٠ نحن الذين نتبرع بالمال للفقراء ، ونحن الذين نتولاهم بالرعاية ٠ وما الداعى الى ذلك ؟ ما الداعى الذى يلزمنا أن نرقع ثياب غيرنا ، ما دمننا لم نكن نحن الذين مزقناها ٠ ما الداعى الذى يلزمنا ترميم بيت غيرنا ما دمننا لا نعيش فيه ؟ أليس من الأسلم ، والأحكم أن نقف جانبا فى الوقت الحاضر ، لنشاهد الحشرات والهوام تجتاح غيرنا من هؤلاء السادة ، والعلية الأعيان ؟ انهم لا شك سيعجزون عن مدافعتها ، لأنهم لا يملكون وسائل المدافعة ، وعند ذلك سيهرعون إلينا ويسألوننا العون ، قائلين لنا متوسلين : « نضرع اليكم بعامل الرأفة أن تخفوا لنجدتنا » تم نجيبهم نحن : « اذن فاتركوا لنا الحرية فى تنظيم الأمور واقامتها بحسب ما تراه موافقا ٠ اتركوا لنا الفرصة لنقول كيف يجب أن تنظم الحياة » وبمجرد أن يعطونا هذه الفرصة ، فلسوف نتخلص من القدر ومن الهوام فى غمضة عين ، وسيرى صاحب الملالاة القيصر بملء عينيه من رعاياه المخلصون ، وما كانوا ينظرون عليه من الحكمة والسداد وهم منزوون لا يقدرّون على شيء ! فهل رأيت ؟ »

وقال فوما متعجبا :

— هذا شيء لا تصعب رؤيته !

وحيسا كان ما ياكين يتحدث عن الموظفين تراءت لعينى فوما وليمة الحفلة بمن حولها من تلك الوجوه ، ولا سيما وجه ذلك السكرتير

النشيط البحبوح ! ثم خطر لفوما أن هذا السكرتير، الكرة، العجيب الشكل ربما لا يزيد إيراده في العام عن ألف روبل ، على حين أراد فوما يزيد على ألف ألف ٠٠٠ ومع ذلك فالسكرتير يشعر بالسعادة وببهجة الحياة في حين يشعر فوما على الدوام بالضيق والقلق وغربة النفس . وقد ضاعف هذا التباين بين حالته وحالة السكرتير مما حدثه عنه ما ياكين منذ لحظة ، وأثار عاصفة من الأفكار في رأسه ، إلا أنه لم ينجح إلا في الإمساك بفكرة واحدة منها وصياغتها في السؤال التالي :

- قل لي ٠٠ ولنتترك كل هذا اللف والدوران ٠٠ هل نحن لا نعمل في هذه الحياة إلا للحصول على المال ؟ وما فائدة المال إذا لم يمنحك القوة والسلطان ؟

ولم يزد الرجل على أن قال متعجبا : - آها ! ٠٠ وهو يزعم أجفان عينيه ٠٠٠ وعاد فوما يسأله :

- وكيف لم يظن والدي إلى ذلك ؟ هل نبهته إليه ؟

- لقد ظللت عشرين عاما أنبهه إلى ذلك

- وماذا كان رأيه ؟

- كان كلامي يذهب أدراج الرياح دائما ٠٠ لقد كان مخه ثخيناً : سيدك الوالد عليه رحمة الله ! لقد كان رجلاً رقيق القلب فياض المشاعر ٠٠٠ أما عقله ٠٠ فقد كان كأنه في بئر من شدة عمقه ! هم ! لقد أُنْذِبَ في هذه الغلظة الفاحشة ، ووا أسفاه على تلك النقود ! - أنا لا يهمنى خسارة النقود !

- طبعاً ٠٠ ولكن حاول أولاً أن تربح عشر هذا المبلغ ، ثم تعال فحدثني : هل كان هذا المبلغ يهكم أو لا يهكم .

وهنا يسمع صوت ليوبا وهي بالباب :

— هل أدخل ؟

ويأذن لها أبوها ، فتدخل وتقول :

— هل أنتما على استعداد لتناول العشاء ؟

ويقول لها أبوها : — هيا .. أعديه

وتذهب الى دولاب الفضية ، وتشرع فى تنظيم الأطباق ، على حين
كان أبوها يمضغ شفثيه وهو ينظر اليها ، ثم اذا هو يضرب فوما
فجأة فوق ركبتيه ويقول :

— فهذا هو الموضوع يا بنى العزيز ، فتدبره ، وفكر فيه جيدا .
ويجيب فوما بابتسامة ، ثم يتحدث الى نفسه قائلا :

— يا له من رجل ذكى حاذق .. أذكى مما كان والدى نفسه !

ثم اذا صوت آخر فى أعماقه يقول :

— أذكى .. ربما .. ولكن والدى كان أحسن وأطيب قلبا !



الفصل الخامس

ه واستمر فوما على هذا الاتجاه المزدوج نحو اشبيته ٠٠٠ فكان يصغى اليه بمنتهى الاهتمام وفى تشوف شديد وهو يشرح آراءه ، الا أنه كان يزداد له بغضا وكراهية ٠ وكان ماياكين يثير في نفسه احساسا أقرب الى أن يكون خوفا ، بل أقرب الى أن يكون اشمئزا مادبا ٠ وكان هذا يحدث عادة حينما يقع شيء يسر الرجل ويجعله يضحك ، فكانت أساريه تتراقص ، محدثة تغييرا مستمرا فى تعبيرات وجهه ، وكانت شفتاه النحيلتان الجافتان تبرزان الى الامام فتتحولان الى تكشيرة تنفرج عن أسنانه اللطخة بالسواد ، وكانت لحيته الحمراء تتوهج كما يتوهج اللهب ، وكان صوت ضحكه أشبه باحتكاك مفاصل باب علاها الصدا ! وكان فوما يعجز أحيانا عن ضبط مشاعر الكراهية له ، فتراه يشتد عليه ويخاشنه ٠٠ الا أن الرجل العجوز الداهية يتجاهل غلظة الشاب ، ويظل يتابع بنظراته جميع حركاته ٠ بل كان يهمل دكانه ، ويكرس جميع وقته لاشغال فوما جورديف الملاحية ، ومن ثم فقد كان فوما يجد متسعا من الوقت يقضيه بعيدا عن متاعب العمل ٠ وقد ازدهرت أعمال فوما أيما ازدهار بفضل نفوذ ماياكين ومركزه فى المدينة ، وصلاته الكبيرة فى جميع أطراف اقليم الفولجا ٠ ولكن هذه الغيرة التى كان يبديها ماياكين فى ذلك كله قوت اعتقاد فوما فى أن مضمرها هو ما يقصده ما ياكين من تزويجه ابنته ليوبا ، وكان هذا الشعور يزيده كراهية له ٠ أشد الكراهية ٠

لقد كان مغرما بليوبا حقا ، الا أنه كان يعدها خطرا أى خطر . وكانت لا تزال بنتا لم تتزوج بعد ، الا أن أباهما لم يكن يبدي رغبة فى تزويجها ، ولم يكن يقيم الحفلات يبتغى بها اظهارها ، بل لم يكن يدعو الشباب لزيارته ، ولم يكن يسمح لها بالخروج من المنزل . ولقد تزوج جميع أترابها . وقد ذهل فوما لما كانت تقول ليوبا ، الا أنه كان يصغى اليها بالاهتمام الذى كان يصغى با الى أبيها . لقد كانت تتحدث عن أخيها تاراس بلهجة حبيبة وفي شوق زائد ، حتى لقد كان فوما يحسب أنها تتخذ من اسم أخيها ستارا لشخص آخر ، لعله ييزهوف ، ذلك الشاب الذى كانت قد حدثته يوما أنه اضطر الى ترك الجامعة ، والى مغادرة موسسكو لسبب من الأسباب . ولقد كانت ليوبا على قدر كبير من السداجا والرافة مما كان موضع تقدير فوما . وكان ما تقوله له يثير في عاطفة الرثاء لها والعطف عليها فى كثير من الأحيان وكان يخيّل اليها أنها تقع فيما يشبه الغيبوبة وهى تنفض اليه بذات نفسها .

ولقد انتشرت أنباء ما صدر من فوما فى وليمة جناز أبيه بسرعة البرق بين طبقة التجار ، وقد نال ذلك من سمعته مما عاد عليها بأذى كبير . وكان يلاحظ أن زملاءه فى البورصة ينظرون اليه بشئ من الامتعاض ، واذا كلموه كلموه بلهجة خاصة . . وقد سمع أحدهم مرة يقول دبر ظهره ، وبصوت مرتفع فيه غطرسة واستهزاء : « هذا اللوح المخنث ! » ولم يلتفت ليرى من قائل هذه العبارة ، لكنه لم يعد يعجب بأحد من هؤلاء الاغنياء بعد ذلك قط ، وهم الذين كان يرتحف قبل ذلك اذا كان فى حضرتهم . لطالما كانوا يلقفون الاذون الراحبة من بين يديه . . . ولم يغب عنه أنهم لا يتورعون عن عمل ذلك فى المستقبل ، فهمم الوحيد هو الحصول على الارباح ، والحصول عليها بشراة ، وقد كاتوا دائما ، فى سبيل المال ، على استعداد تام لغش بعضهم بعضا ، وفى أى وقت . وعندما أخبر اشبينه برأيه هذا فيهم قال له :

- وماذا تنتظر منهم غير هذا ؟ ان التجارة مثل الحرب ، عمل كله مفسامة • فهم يقتتلون فى سبيل الأرباح ••• وأرباحهم هى أناجيلهم •

وقال فوما :

- انى أمقت التجارة •
فأجابه الرجل :

- ان فى التجارة أشياء أمقتها أنا أيضا - ومن ذلك الخداع الذى يجاوز الحد • الا أنك لا يمكن أن تكون صريحا ، ومن يلعبون على المكشوف اذا كان الأمر متعلقا بالتجارة ••• انك ينبغي أن تكون دبلوماسيا ، فاذا تكلمت مع شخص ما فى شأن من الشؤون التجارية ، وجب عليك أن تحمل نقودك فى احدى يديك ، وسكينك فى اليد الأخرى •

وعلق فوما على ذلك فى تفكير وترو :

- وهذا أيضا شيء لا يليق

- الشيء الذى يليق يأتى فيما بعد ، وذلك عندما تفوز بالغنم فى الصفقة • ان شريعة الحياة يا فوما يا ولدى شيء فى منتهى البساطة :
انك ان لم تعض ، فانبطح على الأرض لتطأك أقدام الناس •

وكشر الرجل قليلا فبدت أسنانه الملطخة بالسواد ، وهنا جعل فوما يوسوس الى نفسه :

- أوه ! انك ، ولا بد ، قد عضضت ونهشت بما فيه الكفاية فى حياتك الطويلة !

ثم خاطب صاحب تلك الاسنان فقال :

- أليس ثم طريقة خير من هذه ؟ هل هذه هى الطريقة الوحيدة ؟

- وأى طريقة أخرى يمكن أن تكون هنالك ؟ ان كل انسان يريد أن ينتفع من حياته على أحسن وجه ! وما معنى أن ينتفع على أحسن

وجه ؟ معني ذلك السبق في الحلبة ، والارتفاع أكثر مما يرتفع الآخرون . أن كل انسان يحاول أن ينال مكان الصدارة لنفسه . . . فبعضهم يسلك الى ذلك سبيلا ، ويسلك بعضهم سبيلا آخر ، الا أن كلا منهم يحاول أن يحلق فوق منافسيه كما يحلق البرج الشامخ ، لكى يراه الجميع . . . فهذا هو ما خلق الانسان من أجله . . أن يسمو الى المكان اللائق به فى الحياة . . . انك تجد ذلك فى سفر أيوب نفسه : « . . . الانسان مولود للمشقة ، كما أن الجوارح لارتفاع الجناح » والأطفال أنفسهم يحاولون أن يبد بعضهم بعضا فى حلبة ألعابهم ، وكل لعبة يمكن أن تكسب ، وهذا هو الذى يجعلها شيئا ممتعا . فهل هذا مفهوم ؟ »

- نعم . . مفهوم

- ولكن الذى أنت فى حاجة اليه هو أن تحس هذا ، فالفهم وحده لا يجديك نفعا . . انك لا بد أن تريد . . وأن تريد من كل قلبك . . . وحينئذ تصبح الجبال وكأنها تلال قممته تحت رجلك ، والبحار وكأنها أوشال ضحلة لا عمق لها . . أوه . . اننى عندما كنت فى سنك ، كنت أتقن لعبة الحياة والعمل أيما اتقان . . . أما أنت . . . فهأنت ذا لا تزال تفكر فى كيف تبدأ الحياة ، وقد بلغت من عمرك ما بلغت !

وبالضرب على هذا الوتر يوما بعد يوم استطاع الرجل الداهية أن يصل الى الهدف الذى أراد . فقد استقر رأى فوما على الغاية التى يعمل لها فى هذه الحياة . وهو لم ينفك يقول لنفسه : انك لا بد أن تكون خيرا من الآخرين . . ولقد استقرت فى أعماق نفسه بوادر الطمع التى زرعها فيه والده الروحى ماياكين . استقرت فى أعماقه ، الا أنها لم تملأها تماما ، لأن صلاته بصوفيا بافلوفنا سارت فى الطريق المقدر لها . لقد كان منجذبا اليها بصورة لا يمكن مقاومتها ، وكان مشوقا الى رؤيتها على الدوام ، لكنه كان اذا جلس اليها استولى

عليه الارتباك والحجل واستغلاق الذهن . وكان يعترف هذا في نفسه ويقاسى منه كثيرا . وكان كثير التردد على منزلها ، الا أنه كان لا يجدها وحدها الا نادرا ، وكان الفتیان المتأفقون يحومون حولها كما يحوم الذباب على قطعة من الحلوى . وكانوا يغنون لها ويضاحكونها ويتكلمون معها بالفرنسية ، على حين كان هو يجلس صامتا مبهوتا ، تكاد تشق مرارته الكراهية والحسد . وكان ربما جلس الساعات الطوال في هذه الحالة في أحد أركان صالونها الفخم المؤث بأجمل الاثاث . وكان يشعر بالحذر يذب في قدميه وهو جالس ينظر اليها في هم واكتئاب .

وكانت تلقى نحوه بنظرات وابتسامات رقيقة وهي تتحرك خفيفة رشيفة جيئة وزهابا فوق السجادة الثمينة اللينة بين المعجبين المعطرين الذين كانوا ينسلون من حولها برشاقة انسلال الثعابين ، بين المناضد والكراسى والسواثر الكثيرة والتحف المنتشرة انتشارا فنيا بارعا وان بدت أنها موضوعة وضعا خاليا من العناية ، فيه من الخطر عليها بقدر ما تتعرض له من الخطر من السيد فوما . لقد كان اذا دخل الحجرة لم تقو السجادة على تخفيف صوت خطواته ، وكانت التحف تعلق بمعطفه الرحب فتهنوى من مواضعها على الأرض . وكان بالقرب من البيانو تمثال من البرونز لبحار موشك أن يلقي في البحر بعجلة نجاة محلاة بسلوك رقيقة لا تدري كيف اشتبكت بشعر فوما ، مما جعل صوفيا بافلوفنا هى وأصدقائها يضحكون ضحكا شديدا ، في حين كان فوما تتناوبه الحرارة والبرودة على التوالي .

ولم يعد فوما يحس بغير القلق كلما جلس هو وصوفيا على انفراد . لقد كانت تحييه بابتسامة رقيقة ، ثم تنطوى على نفسها كالقطة في أحد أركان الأريكة قبل أن تكلمه ، وعندئذ تشرع نحوه عينيها الظليتين اللتين يشع منهما ذلك البريق الجائع !

هَمَسَتْ إِلَيْهِ مَرَّةً وَهِيَ تَمُطُ كَلِمَاتِهَا مَطَا مُوسِيقِيَا رَشِيقَا :
- لَشِدْ مَا أَحَبُّ أَنْ أَتَحَدَّثَ إِلَيْكَ أَنْتَ - لَقَدْ ضُنِقَتْ ذُرْعَا بِجَمِيعِ
هَؤُلَاءِ الْآخَرِينَ . . . أَوْلَئِكَ الْإِغْثِيَاءُ ، الْعَادِيينَ ، التَّافِهِينَ - أَمَّا
أَنْتَ فَلَا تَرَالُ نَاضِرًا غَضُ الْإِهَابِ . . مَخْلَصًا طَاهِرَ الْقَلْبِ . . وَيَبْدُو
أَنَّكَ تَضِيقُ بِهِمْ مِثْلِي . . هَهِ !

وَانْطَلَقَ فَوَمَا يَقُولُ :

- إِنِّي أَمَقَّتُهُمْ :

فَسَأَلَتْهُ صُوفِيَا :

- وَأَنَا ؟؟

وَزَوَى. فَوَمَا وَجْهَهُ وَهُوَ يَقُولُ :

- أَنْتَ دَائِمًا تَسْأَلِينَنِي هَذَا السُّؤَالَ !

- وَهَلْ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيْكَ أَنْ تَجِيبَ ؟

- لَيْسَ صَعْبًا . . وَلَكِنْ . . مَا الْفَائِدَةُ ؟

- أُرِيدُ أَنْ أَعْرِفَ !

وَأَجَابَهَا فَوَمَا مَكْتَتِبًا :

- إِنَّكَ تَعْبَثِينَ بِي . . هَذَا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ !

- أَعَبْتُ بِكَ ؟ مَا مَعْنَى هَذَا ؟

وَقَدْ سَأَلَتْ سُؤَالَهَا هَذَا فِي نَغْمَةٍ مَذْهَلَةٍ ، وَهِيَ تَفْتَحُ عَيْنَيْهَا
الْكَبِيرَتَيْنِ ، وَقَدْ بَدَتْ فِي وَجْهِهَا بَرَاءَةُ الْمَلَائِكَةِ ، مِمَّا جَعَلَهُ يُؤْمِنُ
بِإِخْلَاصِهَا . فَأَجَابَهَا بِحَرَارَةٍ :

- إِنِّي أَحْبَبْتُكَ ، أَحْبَبْتُكَ مِنْ صَمِيمِ قَلْبِي ! وَكَيْفَ يُمْكِنُ إِلَّا أَحْبَبْتُكَ !

ثُمَّ أَرْدَفَ يَقُولُ فِي رَقَّةٍ وَحْزَنٍ :

- وَلَكِنْ هَذَا لَا يَعْنِي شَيْئًا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْكَ !

وَتَجِيبُهُ صُوفِيَا بِأَفْلُوفِنَا مَسْرُورَةٍ وَهِيَ تَبْتَعدُ عَنْهُ قَلِيلًا قَلِيلًا :

- هَأَنْتَ ذَا تَقُولُهَا مَرَّةً أُخْرَى ! إِنِّي تَلَذُّنِي الطَّرِيقَةُ الَّتِي تَقُولُهَا

سُبحا • انها دائما تحمل رنة الشباب ! وفيها من الاغراء ما فيها :
لأتحب أن تقبل يدي !

وينحنى فى سرعة البرق ، ويتناول يدها النحيلة الجميلة ، ليطبع
عليها قبلة طويلة • • طويلة • • تفيض حماسة ، حتى لتنزعها
صوفيا آخر الأمر وهى تبتسم ، غير متأثرة بحماسته • ثم جلست
ترمقه وتحقق فيه كأنه إحدى المعجائب ، وعيناها تتألقان بتلك
الطريقة الخاصة التى كانت تبليبل فوما دائما وتحيزه •

وقالت له متعجبة :

— لله ما أوفر قوتك وأتم صحتك وأطهر قلبك ! لماذا كنتم أيها
التجار طبقة وحكم ، جيسلا طاهر القلب لم تتلف روحه ، لكم
تقاليدكم الغدة ، وفواكم الجسمية والروحانية العظيمة ؟ فهأنت ذا
مثلا • • انك جوهرة صافية ! وآه لو أتيح لى أن أجلوك !

وكانت كلما قالت : أنت أو أنتم ، أو أنتم أيها التجار ، أحس
فوما كأنها تنتقى الالفاظ التى من شأنها أن تباعد بينها وبينه •
وكان هذا يؤلمه ويحزنه ، ولم يكن يجيب بشيء ، بل يجلس صامتا ،
ويرقب جسمها النحيل الرقيق الذى هو الى أجسام العذارى أقرب
منه الى أجسام السيدات • • جسمها النضر كالزهرة الفيحاء ، والذى
تكسوه بطريقة نادرة وذوق غير عادى • لقد كان فى بعض الأحيان
يشعر برغبة طاغية عاتية تغريه بأن يتلقفها بين يديه ليطبع على فمها
قبلة ، الا أن جمالها ورقتها كانا يخيفانه • • ويلقيان فى روعه أن
هذا العمل ربما ألما ، على حين كان صوتها اللطيف ، ونظراتها
الصافية ، الحريصة الحذرة مع ذلك ، كفيلة بأن تكبح جماح عاطفته
الجياشة الثائرة • لقد كان يخيل اليه أنها تنظر الى أعماق أغوار
نفسه ، وتقرأ أدق أفكاره • وكانت هذه الفورات العاطفية لا تقع
الا فى النادر ، اذ كان حبه لصوفيا بأفلوفنا حبا أشبه بالعبادة —

كان كل ما فيها يروقه ويشير اعجابه - جمالها ، كلامها ، ملابسها . .
ولم تكن عبادته اياها هي كل ما هنالك . . . فقد كان يؤمله ويجرح
كبريائه ما يعلم من وجود هذه الفجوة الكبيرة بينه وبينها . . لقد
كانت أرفع منه تفكيراً ، وأوسع أفقاً ، وأقدر في كل شيء !

ثم تطورت العلاقات بينهما بسرعة كبيرة . . . ولم يكده يخلو إليها
مرتين أو ثلاثاً حتى كانت قد استعبدته . استعباداً وأسرت فؤاده
أسراً تاماً ، ومن ثم بدأ يتعذب عذابه الأليم العظيم . ولم يكن
خافياً أنها كانت تجده لذة في فرض سلطانها على شاب قوى سليم
البنية مثل فوما ، وفي إثارة الوحش السباكن في صميمه تم
ترويضه واخضاعه بمجرد كلمة أو نظرة . . . لقد كانت هذه المعاناة
تلذها لأنها كانت على يقين من سلطانها . . . وحينما كان ينصرف من
عندها كان يخامرهم شيء من توفز الأعصاب ، ويشعر بالسخط
عليها وبالغضب على نفسه ، إلا أنه لم يكن يصبر على لقاءها أكثر من
يوم أو يومين ، ثم يعود إليها ليتلقى مزيداً من الألم .

قال لها يوماً والحجل آخذ بزمامه :
- صوفيا بافلوفنا . . . ألم تنجبي . . . يوماً ما . . أطفالاً ؟
كلا !

- هذا هو ما كنت أعتقد .
وقد قال هذا متهللاً جذلان .
وقالت له وهي تنظر إليه كأنه طفل برىء حدث :
- وماذا جعلك تعتقد ذلك ؟ ولماذا أردت أن تعرف هل كنت قد
أنجبت أطفالاً أو لم أنجب ؟

وشاعت حمرة الحجل في وجه فوما وغض عينيه . وغار صوته ،
وأخذ يتكلم وكان كل كلمة تزن قنطاراً ، وكأنه ينزع كلامه هسهة
الثقيل من الأرض نزعاً .

- لأنه حدث ذات مرة أن امرأة ٠٠٠ أقصد ٠٠٠ امرأة ٠٠٠ لهما
اولاد ٠٠٠ لم تكن عيناها ٠٠٠ مثل عينيك !

- لم تكونا مثل عيني ٠٠٠ فماذا كانتا اذن ؟
فقال بلهفة وعلى عجل :

- كانتا جريئتين ٠٠٠ ولا تشعرا بخجل !

وأرسلت صوفيا بافلوفنا ضحكاتها الفضية ، ورفع فوما عينيه ثم
ضحك هو أيضا

وقال مستغفرا :

- معذرة ! ربما أكون قد قلت شيئا ٠٠٠ شيئا لا يليق !

- أوه ٠٠ أبدا أبدا ٠٠ انك لست ممن يقولون شيئا غير لائق .
٠٠ انك ولد طيب القلب ٠٠ لطيف ، وعلى هذا : فهل عيناى جريئتان
لا تعرفان الحجل ؟

وأجابها هامسا والسعادة تغمر قلبه ، وعيناها تلمعان :

- ان عينيك عينا ملك

ونظرت اليه هذه المرة كما لم تنظر اليه من قبل قط ٠٠ لقد
نظرت اليه نظرة تفيض أمومة ٠٠٠ نظرة يغشاها الحزن ٠٠٠ لقد
كان حبها له يوشيه الاشفاق عليه والثناء من أجله .

وصرفت عينيها عنه وهى تهتم بالوقوف ، قائلة له :

- اذهب الآن يا عزيزى ٠٠ فأنا متعبة ، وأريد أن أستريح .

وانصرف فوما طائعا ممثلا .

وظلت فترة من الزمان بعد هذا تلزم التحفظ والجد فى حديثها
اليه ، كأنما كانت ترأف به وترثى لحاله ٠٠ غير أن هذا لم يستمر

طويلا . . . فقد عادت من جديد الى معابثته ولعبها به ، كما تلعب
القطعة بالغار .

ولم يكن في مستطاع فوما أن يخفي علاقاته بصوفيا بافلوفنا عن
اشبينه ، الذى قال له مرة ، وهو يرمقه بعيني ثعلب :

- فوما ! تحسس رأسك لحظة بعد لحظة يا بنى لتتيقن أنه
لا يزال فى مكانه . . . ولم يطير !

وسأله فوما :

- ماذا تعنى ؟

- سونيا ! . . انك تقضى كثيرا من وقتك عندها

فسأله فوما بجفاء :

- وما شأنك أنت وهذا ؟ وبأى حق تدعوها سونيا ؟

- لا شأن لى . . . ولا يضيرنى مطلقا اذا هى التهمتكَ التهاما . .
أما دعائى لها سونيا . . فهذا هو اسمها كما يعلم الناس جميعا . .
وكما يعلمون أيضا أنها تحب أن يقوم الناس بما لديها من أعمال
دنسة بالنيابة عنها .

ويجيبه فوما مقطبا وقد وضع يديه فى جيوب معطفه :

- انها امرأة ماهرة . . على قسط حسن من التعليم .

- ماهرة ، ما فى ذلك شك ولا ينكر هذا أحد ، ومتعلمة تعليما
حسنا أيضا . وهى لا بد سوف تلقنك أنت دروسا . . . كما سوف
يلقنك دروسا هؤلاء البلطجية الصائعون الذين يلزمونها ويحومون
حولها !

وقال فوما كالذى يرد الالهانة ، منكرا ما يعتقدوه هو شخصا فى
غورة غضبه :

- انهم ليسوا بلطجية ولا صائعين ٠٠٠ وسوف أتعلم الكثير منهم ٠٠٠ ما الذى أعرفه أنا ؟ لا الكلام ٠٠ ولا أساليب الاجتماع ٠٠ ان أحدا لم يعلمنى شيئا مطلقا ٠ وهم يتناقشون فى جميع الأمور فى منزلها ، وكل منهم يدلى برأيه ٠٠٠ اننى عزمت على أن أصنع من نفسى شيئا ، فلا تحاول أن تقف فى سبيلى ٠

- ماشاء الله ! اسمعوا يا عالم هذا الانسان ماذا يقول ! كلام أثقل من الهم على القلب ! عال ! تصنع من نفسك شيئا ٠٠٠ ولكنك اذا أردت أن تفعل ذلك فخير لك أن تنقطع له فى حان أو خمارة ٠٠ على الأقل تجد هناك أناسا خيرا ممن تجدهم عند سونيا ٠ انها فكرة طيبة أن تتعلم كيف تقدر الناس حق قدرهم ، أيها الرجل الصغير - أن تعرف قيمة هذا وقيمة ذاك ، الصالح منهم والطالح ٠٠ ولنضرب لذلك مثلا ٠٠ سونيا نفسها ٠٠ ترى ؟ ماذا عسى هذه السيدة الشابة أن تكون ؟ حشرة ! فراشة جميلة اللون تزين الحقول ٠٠ لا أكثر ولا أقل !

وأحفظ فوما هذا الكلام الجارح عن سونيا فصر بأسنانه ، ووضع يديه الى قاع جيوبه بحركة عصبية ٠٠٠ وخرج :

ولم تمض مدة حتى أثار ماياكين موضوع صوفيا بأفلوفنا مرة ثانية ، وكان هو وفوما راكبين فى زلاقة واسعة ، وهما يتحدثان حديثا أخويا عن شئون العمل ، وذلك فى عودتهما من جولة تفتيشية على المراكب والصنادل الراسية فى أحد الخلجان منتظرة انتهاء فصل الثلوج ٠ لقد كان الشهر شهر مارس ٠٠ وكان الماء ينسرب من تحت طارات الزلاقة ، وأوشك الجليد أن يتلاشى كله ، والشمس ترسل دفئا بديعا ينتشر فى السماء الصافية ٠

وحول ماياكين حديثه عن شئون العمل فجأة ليقول :

- أحسب أنه لن تمضى دقيقة واحدة على وصولك الى المنزل حتى

تنتطلق فى الحال الى منزل صديقتك ! اياها ... أليس كذلك ؟

ويجيبه قوما مشدوها : منحرف المزاج :

— طبعا !

ويسأله ماياكين بلهجة مهذبة :

— هم ! .. أتكثر من تقديم الهدايا اليها ؟

ويجيب قوما متعجبا :

— هدايا ؟ .. ولماذا أقدم اليها هدايا ؟

— لا هدايا ؟ .. ماشاء الله ! أتقصد أنها تصادقك لغير شىء ؟ مر

أجل الحب .. والحب فقط ؟

ويصطبغ وجه قوما بحمرة الحجل وحمرة الغضب ، ويقول :

— انك رجل عجوز ... الا أنك تقول أشياء تخجل من يسمعها

ثم زاد محتجا :

— كأنك تعنى أنها ترتكب مثل هذه الأشياء الـ ... كأن فر

وسعها أن ... !

ومصمص ماياكين ثم قال وهو ينفث وينفخ ويبصق :

— يا أمير المغفلين ، يا سيد الحمقى ! بفو ! لقد رحض جميع

الحلاليف من ذلك الحوض ... والآن .. وبعد أن لم يبق فيه الا

ما سأل من أنوفهم ومن مخلفاتهم ... يأتى حضرة المغفل الكبير

ويشرع فى عبادته ، والسجود بين يديه ، من بين الأصنام الملعونة

كلها !! اسمع ! اذهب اليها الآن فى الحبال وقل لها فى غير لف ولا

دوران : انى أريد أن أكون حبيبك ، وأنا لا أزال صغير السن بعد ،

خلك حياتى وما أملك ! وكيسى وما فيه !

وقال قوما مقطبا منذرا :

— يا سيدى الوالد ، اننى لا أصدق هذه الاشياء ٠٠٠ ولو أن
أحدًا غيرك ٠٠٠

وأدركه الشيخ وهو يزوم ويلقى بيديه فى الهواء فقال مولولا :

— ومن غيرى يهमे أمرك ويحرص على مصالحك ؟ هل صحيح أنها
ظلت الشتاء بطوله مستولية عليك ، وتقودك من منخرك ! ٠٠ فيالك
من منخر ، ويا لها من حية رقطاء !

لقد كان الرجل فى منتهى الاستياء ، وكان فى صوته سورة من
الغضب ولفحة من الغم ، بل لقد كانت عيناه شرقتين بالدمع • لقد
كان فى حال لم يره فوما فى مثلها من قبل ، حتى أرغمه هذا على أن
يلزم الصمت •

— انها ستجر عليك الحراب ٠٠٠ هذه البغى البابية !

وجعلت عينه تطرف بسرعة ، وشفتاه تختلجان وهو يحمل على
صوفيا بافلوفنا حملته الشعواء وبتعبيراته المخزية المخجلة التى كانت
تتخللها صرخات الغضب وصيحات الاستياء •

وأدرك فوما أن الرجل كان صادقا فى كل ما يقوله عنها ، ومن
ثم شعر بعبء ثقيل من الهم يجثم على صدره

ثم راح يغغم مهموما يائسا وهو يزوى وجهه عن الرجل :

— حسن •• حسن جدا ٠٠٠ فى هذا الكفاية يا سيدى الوالد !
فصاح به ماياكين :

— ان ما يلزمك هو الزواج •• والزواج بمنتهى السرعة

وتوسل اليه فوما يقول :

— كفى بالله عليك كفى !

ونظر اليه الشيخ ولم ينطق بكلمة • وشحب وجه فوما ، وكان

من السهل ادراك ما ينطوى عليه من ألم ممرض ، من شفثيه المغفورة
ونظراته المعذبة

لقد كانت الحقول ممتدة عن يمين وشمال وعليها بقايا أسمال م
سراييل الشتاء . وكانت الاغربة السحم تثب وتتطاير رشية
طليقة فوق قطع الأرض السمرء التى ذاب من فوقها الثلج . وكار
الماء يخر خريرا لطيفا تحت طارات الزلاقة ، على حين كانت قطع
الثلج ملوثة بالوحل تنتشر من حوافر الحيل

وراح ماياكين يزوم فجأة وهو يصر بأسنانه :

- يا للانسان فى شبابه من جحش لا يفقه شيئا ! كلما نظرا
زرزور ، حسبه أحد النسور ! فواخيبتاه ، وألف ألف خيبتاه !

وقال له فوما مخاشنا :

- كفى كلاما بالاحاجي والالغاز .

- وبماذا نتكلم الا فى هذا ؟ كل شيء واضح . البنات قشه
.. والنساء .. شرش ! وفى امكانك أن تمسك النساء ، أما البنات
.. فيزغن منك كما يزوغ الزئبق ! وبعبارة أخرى يمكنك أن تذهب
الى سونيا اذا لم تستطع أن تعيش بدونها .. ثم قل لها فى وجه
كذا وكذا ... ثم ... كذا وكذا ! مالك مقطب الجبين هكذا ؟ ف
تفكر أيها المغفل ؟ ما الداعى الى كل هذا العبوس ؟

وقال له فوما فى هدوء :

- أنت لا تفهم !

- أنا لا أفهم ؟ بل أنا فاهم كل شيء !

- القلب .. الانسان له قلب !

ويزوى ماياكين عينيه ثم يقول :

- واذا كان الانسان له قلب ، فلن يكون فى رأسه مخ !

الفصل السادس

م ولم يكذ فوما يصل الى منزله حتى كان طائف من الغضب المؤلم النزاع الى الانتقام يعصف به عصفا . لقد كان يحبوه شوق طاغ الى تحقير صوفيا بافلوفنا وصب الإهانات على رأسها ، وهامو ذا ينزع حجرات منزله الحالية جيئة وذهابا مدة ساعات تباعا ، وقد علا وجهه الوجوم والاكتئاب ، وأسنانه تصر صريرا شديدا ، ويده عائرتان فى جيوبه ، ورأسه منتشر كراس الصل ، والغيط يملا صدره ويكاد يشق مرارته ، وقدماه تدقان الأرض دقا كأنهما مطرقتان يسحق بهما غيظه .

— الساقطة ... فى زى الملائكة !

يقول ذلك .. تم يراوده الأمل أحيانا فيقول بصوت خافت :

— ومن يدري ؟ فقد يكون هذا كله وشايات ومحض افتراء !

لكنه لا يكاد يذكر تلك القوة التى كان يتكلم بها اشيبينه عنها واللهجة الفائرة التى كان يؤكد بها ما يقول ، حتى تعود أسنانه الى صريرها ، ويعود رأسه الى الانتشار أشد مما كان .

وقد خيل لفوما أن صوفيا بافلوفنا قد أصبحت ، بعد الذى رماها به ماياكين ولوث به سمعتها ، سهلة المنال ، وسرعان ما سر هو بذلك . ومضت أيام طويلة كان العمل يستغرقه استعدادا لبده موسم الملاحه ، وانتفع فوما بهذا ، فقد هدأت سورتة بتفرغه الى أعماله ، وخفت حدة المرارة التى كان يشعر بها نحو صوفيا كأمراة ،

لأسفه عليها ككائن بشرى ، وشحذت فكرة أنها أصبحت سهلة
المنال من رغبته فيها . ثم انتهى شيئا فسيئا ، ومن حيث لا يتسعر ،
الى أن من واجبه أن يذهب اليها ، وأن يطلب اليها صراحة ما يريده
منها ، من غير محاورة ولا مداورة .

وكانت وصيفة صوفيا قد تعودت زيارته لسيدتها ، فلما أقبل
هذه المرة ، وسألها : هل سيدتها موجودة ، أشارت الى الصالون
قائلة :

- تفضل الى الصالون . . ان سمحت

وخذلته نجاعته لحظة ، لكنه حينما لمح نفسه فى المرأة ، بجسمه
السمهرى فى بزته القصيرة ، وبوجهه الجاد ذى الاطار من تلك اللحمة
السوداء المجعدة ، وبعينيه الكبيرتين السمراوين ، شد كتفيه .
وانفتل فى اعتداد كبير داخل الصالون

وانسابت موسيقى وترية فى أذنيه . . موسيقى ذات أصوات
غريبة تشبه ضحكا هادئا مكتئبا ، أصوات فيها حنين وفيها توسل
يجعلها تتدفق فى قرارة القلوب غير مستأذنة ، وان كانت تثير فى
نفس فوما الهواجس ، وتوحى بضالة الامل فى تحقيق آماله . لقد
كان لا يحب الاصغاء الى الموسيقى لما تنيره فى نفسه من الهم
والشجن . وعندما كان الدولاب الموسيقى فى الحان يرسل بعض
النغمات المحزنة كان فوما يشعر بالكآبة والانقباض وضيق الصدر
فكان يطلب اغلاقه أو يقوم فيخلفه بنفسه ، لأنه لا يطيق موسيقاه
الصامتة المتوسلة المبتهلة المملوءة بالدموع والاحزان . . . وبعد . .
فقد رأى نفسه يدلف داخل الصالون ، وكأن يدا مجهولة تدفعه اليه
دون رغبة منه .

وكان باب الصالون محجوبا بشبكة من حبال خرز ملون تؤلف
رسما لزهرة غريبة الشكل وقد تحركت حبال الخرز برشاقة وهى
تنتثر من حولها احياء عجيبا بأن الهواء كله مملوء بأشباح زهور

باهته ، وكانت شفافية الشبكة تتيح للانسان رؤية ما فى داخل الغرفة وكانت صوفيا بافلوفنا جالسة على أريكتها المحببة بعزف على الماندولين ، وعلى الحائط مظلة يابانية كبيرة تكون عريشا بلونا فوق جسم صوفيا النحيل المظلل ، الذى كان مغمورا فى وهج نافى ينسكب من مصباح طويل برونزى مغطى بأباجور أحمر .
كانت أنغام حبال الخرز الناعمة تنتشر منتشية مرتعشة فى ضوء لغسق المعطر الذى كان يملأ الغرفة الصغيرة . وكانت صوفيا فى هذه اللحظة قد وضعت الماندولين فوق ركبتها ، ثم مدت يدها مسست بها حبال الخرز وهى ذاهلة شاردة اللب على حين ذهب عيناها حملقان فى فراغ الغرفة .

وعندما وقعت عليها عينا فوما ، لاحظ أنها لا تبدو جميلة رائعة للجمال وهى جالسة وحدها ، كما تبدو جميلة ساحرة الجمال وهى بين الناس فقد كان وجهها أكثر رزانة ووقارا . وكانت تبدو كبر سنا ، وقد حلت سيماء الضجر والسامة محل النظرة اللطيفة ذات الحفر فى عينيها ، وكان فى أعضائها ارتخاء ووناء ، كأنها تريد أن تقف فلا تستطيع

وسعل فوما سعلة خفيفة . . . فأفاقت صوفيا ، ونادت :
- من ؟

واهتزت يدها فوق حبال الخرز فأحدثت هذه صوتا منبها وأجابها فوما وهو يفرق حبال الخرز جانبا :
- أنا !

- أوه . . ! انك لم تحدث أى صوت وأنت داخل سعيدة برؤيتك . اجلس . ما الذى منعك من زيارتى كل هذه المدة ؟
ومدت احدى يديها نحوه ، وأشارت بالأخرى الى كرسي صغير بجانبها وقد نفخته عيناها بنظرة سعيدة
وقال فوما فى عجلة مبالغ فيها وهو يسحب الكرسي قريبا من لكنية :

- كنت فى جولة تفتيشية على سفننا الرابية فى الخليج
- أو لا يزال قدر كبير من اللئوج فى الحقول ؟

- لا يزال مقدار كبير منها ، الا أنها تذوب بسرعة ٠٠ والطره
مملوءة بالبرك ٠ ثم نظر إليها وراح يبتسم ، ولا بد أنها لاحظت
سلوكه غير عادى ، وان ابتسامته تحمل معنى جديدا ، بدليل
أعادت ترتيب ثنايا جونلتها ، ثم أشاحت بعيدا عنه ٠٠ والـ
عيناهما ٠٠ ولكن صوفيا بافلوفنا أغضت قليلا ٠
ثم تمتمت وهى تحقق فى خاتم فوق خنصرها :

- اذن فالثلوج تذوب !

وأجابها فوما وهو ينظر الى مقدمة حدائه :

- أجل ٠٠ والنهريات ومسائل الماء فى كل مكان ٠

- ما أجمل هذا ! ان ذلك يعنى أن الربيع على الأبواب ٠
- وأنه أصبح وشيكاً ٠

ورددت صوفيا بصوت ناعم كأنها تختبر مقاطع كلماتها :
- الربيع ٠٠ يدنو !

ويقول فوما وهو يتضحك ويدعك يديه بخفة ونشاط :

- الربيع ٠٠ فصل الحب ٠٠ وموسم الذين يحاولون أن
فيه !

وتسأله صوفيا بجفاء :

- وهل أنت موشك أن تطب ؟

- أو ٠٠ كلا ٠٠ فقد حدث هذا منذ زمن بعيد ٠٠ وأنا
غارق فى الحب بالفعل الى آخر لحظة من حياتي
ورشيقته بنظرة خاطفة ، ثم قالت وهى مستغرقة فى تفكير
وقد بدأت تعزف على الماندولين من جديد :

ما أسعد حظك أن تكون هذه أولى تجاربك في الحياة ! وأن يكون
قلب قوى جرىء خال من الأشباح التى تكمن فى جوانبه !
ناداها فوما بصوت رقيق :
صوفيا بافلوفنا !
ومنعتة من الكلام بايماء رقيقة وهى تقول :

انتظر يا ولدى العزيز . فأنا أريد أن أذكر لك اليوم شيئا .
لطيفا . ان ثم لحظات تمر بالانسان الذى عرف الكثير من
بب الحياة ، تجعله ينظر فى حنايا قلبه فيجد فيها أشياء لم
ينتظر أن يجدها هناك مطلقا . . . أشياء موهلة فى القدم ، أشياء
عليها النسيان أذياته منذ عهد بعيد ، لطول ما اندست فى أعرق
القلب سنوات وسنوات . . . الا أنها لم تفقد أريج الشباب
هذا الزمن . . . وحينما تغمرها الذاكرة بضوئها ، يشعر الانسان
ملاؤ رثيته بجرعة طويلة من نسيم الصباح المنعش ، صباح
!

وهنا . . . راحت الأوتار تتنهى وترتعش تحت أصابعها ، وأخذت
صوات المنطلقة من الماندولين ، وترنيمات صوتها وهى تتكلم ،
عجب بمشاعره وأحاسيسه . . . وأخذ ينصت فارغ انصبر وهو
بفهم كلمة واحدة مما تقول . مما جعله يهمس فى قرارة نفسه :
ستمرى ! تكلمى ! وان لم أعد أو من شئ مما تقولين بعند ! ،
ان ما كان يهمس به هو قراره الأخير الذى لن ينثنى .
وفد ساءه ذلك . وشعر بالأسف يغمر نفسه لأنه لم يكن
يستطيع أن يصغى الى صوفيا بالثقة التى كان يصغى اليها من قبل
وسأله صوفيا :

- هل فكرت يوما فى أسلوب الحياة التى يجب أن تحياها ؟
قال وهو يضحك ضحكة صغيرة :

- أرانى أحيانا أفكر فيها ... ولكن هذا لا يستغرق منى وقتا طويلا ... فليس عندى وقت كاف للتفكير فى ذلك . ثم ... ماذا هنالك يستحق التفكير اذا أردت الحقيقة ؟ أجبلى عينيك فيما حولك، تم انظرى كيف يعيش الآخرون ، وانسجى على منوالهم .

- أو ... أو ! احذر أن تفعل هذا ، بل ارفق بنفسك ، ولا تنس أنك شخص ... شخص ظريف ! وفيك شىء يختلف عما فى هؤلاء الناس ، وان كنت لا أعرف ما هو ، غير أننى أحسه وأشعر به ولشد ما أخشى أن تكتشف أن الحياة فى هذه الدنيا ليست شىء هينا ... وأنا على يقين أنك لن تسلك فيها سبيل أبناء طبقتك ... من المحال أن ترضى عن حياة ينفقونها بأكملها فى جمع المال ... أ ... كلا ! ان ثم شيئا آخر أنت بحاجة اليه ... أليس كذلك ؟

وكانت تتكلم بسرعة وطلاقة ، وكانت عيناها ترسلان بنظرة فى رعب وفيها انزعاج . وكان فوما ينظر اليها وهو يتساءل فيما بين وبين نفسه : « ترى ؟ الام ترمى ؟

ودلفت صوفيا قريبا منه ، ثم جعلت تحديق فى عينيه، وهى تحده :
:

- بل اتخذ لك مثالا آخر تحتذيه فى بناء حياتك ، فأنت صنف وقوى و ... طيب .

وأجابها فوما وقد لمس ما يعرفه من ارتباك ، وما ينتاب قلبه ، دق عنيف :

- ان كنت طيبا حقا ، وجب أن يكون الآخرون طيبين !
وتقول له صوفيا محزونة :

- ان الصالحين من الناس يعاملون دائما بأسوأ مما يعامل !
الطالحون فى هذه الدنيا !

ثم انطلقت الاُنفام من تحت أصابعها مرة أخرى • وخيل الى فوما أنه ان لم يصارح لها بما جاء من أجله ، فلن يجرز على مصارحتها به بعد ذلك •

وتوكل على الله •• وتوسل اليه أن يعينه، ثم أخذ يغالب الاحساس المكبوت في صدره ، وقذف بنفسه في اللجة وهو يقول :

- صوفيا بافلوفنا ! كفاية من هذا ! لقد آن لى أن أصارح لك •
لقد جئت بخاصة لكي أقول لك : كفاية من هذا ! لقد آن لك أن تكوني شريفة معى •• صريحة وشريفة ! لقد اتبعت معى أول الأمر كل الطرق التى تجعلني أحبك ، والآن •• هانت تشيحين عني -
- وأنا لا أفهم الذى تقولين - فعقلى عقل مظلم ، الا أننى أشعر أنك تريدان الاختباء منى ••• وأحسب أنك قد عرفت الآن الغرض من مجيئى

وكانت عيناه تبرقان ، وكان طابق صوته يرتفع مع كل كلمة ، ويزيد حرارة •

وقاطعته بصوت فيه رنين النذير ، وهى تتقدم خطوة نحوه :

- أوه •• لا تزد

- أو •• لا ! وما دمت قد بدأت الكلام •• فسوف أقول كل شئ

- وأنا أعرف ما تريد أن تقول •

ويجيئها فوما مهددا ، وهو يهم واقفا :

- بل أنت لا تعرفين كل شئ •• لكنى •• أنا •• أعرف عنك كل شئ •• كل شئ !

وتسأله صوفيا وهى متمالكة كل أعصابها :

— أحقا ؟ اذا كان ذلك فهو خير لى
ونهضت واقفة هى أيضا ، وكأنها تهم بالانصراف ، غير أنها عادت
الى جلستها الاولى بعد لحظة من التفكير ، وقد تجهم وجهها وقطب .
وانطبقت شفتاها ، وغضت عينيها ، حتى لم يكن فى مستطاع
فوما أن يميز ما تنطويان عليه . لقد خيل اليه حينما قال لها انه
يعرف عنها كل شئ أنها سوف تنزعج وتخجل ، وتشفق من الخطر
الذى يتهدها ، ثم ترتبك ، وتسأله الصفح والمغفرة لمعابثها اياه
واستغفالتها له ، فلا يسعه الا أن يأخذها ملء ذراعيه ويعفو عنها .
الا أن هذا لم يحدث والذى حدث هو أنه الذى ارتبك بالفعل
عند مرآه برودها ورباطة جأشها ، فوقف يحرق فيها ويبحث عن
كلمة يقولها فلا يجد .

وعادت تكرر ما قالتة فى جفاء وبجنان ثابت :

— خير لى أن تعرف عنى كل شئ . . . وعلى هذا فأنت تعرفه
جميعا ، أليس كذلك ؟ وبالطبع أنت تعرف عنى ما لا يسر ، كما
لا يمكن أن يكون شيئا آخر . . على أننى أفهم . . . فلقد كنت أعبت
بك . . . ولكن . . لا . . فلن أحاول أن أعذر بشيء !

وجلست لا تتكلم بشيء ، ثم أمسكت برأسها فجأة ، وراحت
تثبت دبابيس شعرها . وترسلها فيه ارسالا .

وزفر فوما زفرة عميقة . . لقد قضت كلمات صوفيا الاخيرة على
ذلك الأمل الذى بدت بوادره فى نفسه . . الأمل الذى لم يشعر
به الا بعد أن صار لا شيء .

وهز رأسه ، تم انطلق يقول بمرارة ، وفى جفاء وغلظة :

— يا طالما كنت أنظر اليك فأقول لنفسى : انها جميلة ووديمة
كالحمامة . . وهأنت الآن تعترفين أنك كنت تعبتين بى ، فويل
منك !

وقالت له صوفيا وعلى شفقتها ابتسامة خفيفة :

... الله ما أظرفك ! والله أنت من شخص مسل !

وتحقق وهو ينظر إليها أنها جردته من جميع أسلحته بهذه الرقة
كانت تقطر من كلماتها ، وذلك الحزن الذى كان يغشى
تسامنها . فيا لله ما أعجب ما ذابت تلوج الحباثت التى كانت تنطوى
بيها جوانحه ، فى الأشعة الدافئة التى كانت تنسكب من عينيها !
كانت تبدو جميلة نحيلة لا حول لها ولا قوة حتى لكانها طفل .
لقد ظلت تبتسم وتتكلم بهذه الطريقة اللطيفة المنقعة ... الا أنه
يصغ الى ما كانت تقول . بل قاطعها بقوله :

... لقد جئت الى هنا مصمما على ألا تأخذنى بك رحمة . ولقد
أقول لنفسى : لا بد أن أصارح لها بما أعتقد فيها ، الا أننى لم
قل لك شيئا . ولن أقول لك شيئا ... لأننى لا أجد فى الشجاعة
للإزمنة لذلك . انك تلقين على بما يشبه تعاويذ السحر ... فيا لله !
إذا قدر لى أن ألقاك ؟ وأى الوشائج تربطنى اليك ؟ ... عن اذنك ...
آن لى أن أنصرف .

ولكن صوفيا قالت له فى لهجة خاطفة وقد مدت اليه يدها :
... بل انتظر ... فلم يحن الا وان للانصراف بعد ... قل لى ...
ما الذى يدفعك الى كل هذه ... هذه الحشونة ؟ أرجوك ألا تحنق
على ... اننى لست الانسانة الجديرة بك ... انك فى حاجة الى
صنف آخر من النساء ... انك فى حاجة الى امرأة لها سداجتك
وسلامة بنيتك ... امرأة مرحة جريئة القلب ... أما أنا ... فامرأة
عجوز بلغت من الكبر عتيا ... كل ما عمله هو أن تجلس ليتولاهما
الوجوم والاكتئاب . ان حياتى أتعس حياة وأشدها فراغا - فراغ
موحش يثير الحسرة والغم . انه لا أمر مرعب يشق على النفس أن
يجلس انسان تعود أن يجيا حياة مرحة كلها نشاط وكلها حركة ،
ولا يجد شيئا يثير فيه المرح بعد . فاذا رأيته يضحك فلا تظنن أنه

هو الذى يضحك ، بل الحياة هى التى تضحك عليه !! أما عن الناس .. فآه منهم .. أصح الى يا عزيزى كأنك تصيخ الى أمك .. انى أرجوك وأتوسل اليك ألا تصغى الى شىء مطلقا الا الى ما يلميه عليك قلبك .. عش وفقا لما يرسم لك هو .. لأن الناس لا يعلمون نيتنا ، وهم لا يستطيعون أن يزجوا اليك أية نصيحة حق ، فلا تصخ اليهم .

لقد كانت كلماتها ، من أتر ما كانت تبذله من جهد لكى تجعل ما تقوله واضحا بسيطا بقدر المستطاع تندفع فى سبيل سريع متقطع . ولم تغادر شفيتها قط تلك الابتسامة الحزينة النائجة .

- ان الحياة صارمة ذات قلب من حجر . وهى تصر على أن يخضع الناس جميعا لما تريد ، ولا يستطيع أن يتحداها ويفلت من عقابها الا الاقوياء . بل انهم لا يستطيعون ذلك أيضا ! أواه .. لو أنك فقط تدرك مبلغ ما فى العيش فى هذا العالم من عناء ! انه يجعل الانسان يفزع حتى من نفسه هو ! انه يصبح شخصية مزدوجة .. قاضيا وحكما .. يتهم نفسه دائما ويدافع عنه أبدا ! ولكى يهرب من الجلوة الى نفسه تراه يرغب فى تزجيا وقته ، ليلا ونهارا ، مع من يكرههم ويزدرهم ... مع من تتقزز منهم نفسه !!

ورفع فوما رأسه ، وكان صوته ينطوى على الدهش والريب فيما قالته صوفيا .. وهو يجيبها :

- لست أدري ما الذى يجعلك تتكلمين مثل هذا الكلام ؟ والعجيب أن ليوبا تقول هذا الكلام نفسه !

- ومن ليوبا ؟ وماذا تقول ؟

- أختى الروحية ... انها تقول ما تقولين - وهى دائمة الشكوى من الحياة .. وتقول ان من المحال مواصلة الحياة !

- يا للسعادة أن يكون هذا هو رأيها ، وأن تتكلم هى أيضا فى هذه الامور !

- سعادة ؟ انها سعادة غريبة تلك التى تجعل الانسان يجار
ويضج بالشكوى !

- بل أصح لما تقول . ان فى الشكوى لحكمة عظيمة .. والحكمة
هى .. الألم !

لقد كان فوما وهو يصغى الى هذا الكلام العجيب يحدق عينيه
مرتبكاً . وكانت الغرفة العادية تبدو مختلفة اليوم ، وان كانت
خاصة كعادتها بالاثاث الكثير ، وعلى جدرانها نفس الرفوف والصور ،
مزدانة بالاشياء البديعة والطرف الرائعة التى كانت تزدان بها من
قبل . وكان وهج المصباح الاحمر داكنا مرتعشا ، وكان كل شئ
نغشيه الكتابة وفى كل ركن ، وفى كل مكان كان يرى بريق هذا
الاطار المذهب ، ولألاء تلك الطرفة الصينية اللامعة ، والمستائر
التمينة الضافية مرخاة بلا حراك على الأبواب والنوافذ . لقد شعر
فوما بالضيق من هذا كله .. ووجد نفسه غرقا فى بحر من الحيرة
.. لقد استشعر قلبه الاسف لهذه المرأة ... وفى هذه اللحظة
نفسها حاجته بقولها :

- أنت مصغ لما أقول ؟ اننى أود أن أكون لك أختا ! بل .. أما !
اننى لم أشعر نحو أحد قط بما أشعر به نحوك من الشفقة والمحبة
والحنان ... ومع هذا .. فأنت تنظر الى نظرات كلها عداوة
وبغضاء . هل تصدقنى أو لا تصدقنى ؟

وأجابها متنهدا :

- لست أدرى .. فقد كنت أصدقك من قبل !

فسألته بسرعة :

- والآن ؟

فقال :

- الآن .. يحسن أن انصرف .. اننى لا أفهم شيئا .. اننى

لا أفهم حتى نفسى !

لقد كنت أعرف ما كنت أريد أن أقوله عندما جئت الى هنا .
الا أن كل شيء اختلط علي . . . لقد أثرتني ، بل نخستني . . .
والآن تريدني أن تكوني أمي . . . وبعبارة أخرى . . . تفضل . . من
غير مطرود !

وتقول له صوفيا بصوت لطيف :

— ولكن ! ألا ترى أنني أشعر بالرثاء لك ، والشفقة عليك ؟

لقد ازداد سخط فوما عليها . . وكان كلما تكلم أكثر ، زاد من
سجريته بها . وازرائه عليها . . وكان لا ينفك يشد كتفيه ، كأنهما
مصعدتان بأغلال وسلاسل يريد أن ينثرها عنهما .

— تشعريين بالرثاء لي ؟ عجبا . . بل لا أريد أن تشعري لي بأى
شيء ! آه لو كنت فقط أستطيع التعبير عما يجول فى خاطري ! اذن
. . لا أخبرتك عما أعرفه عنك ! انك لم تنصفى فى معاملتك لي .
ما الذى دفعك الى اثاره مشاعري ؟ أكنت تتخذين منى لعبة تلهين
بها ؟

وتجيبه ببساطة ، وكأنها تشعر بذنبها :

— لقد كنت أريدك الى جانبي . . . قريبا مني .

لكنه لم يسمع ما قالت . وشرع هو يصل كلامه فقال :

— وعندما بلغت علاقتنا ذروتها ، اذا بك تخافين ، وتقيمين بيننا
سدا ، واذا بك تبدئين دور الاسف والرثاء ، وتقولين ان الحياة هي
الملومة . . . ولست أدري ما الذى يجعلك تلقين بالتبعة على الحياة ؟
ما الحياة ؟ ان الناس هم الحياة . وخارج الناس ليس ثم حياة
مطلقا . لكنك تخرعين نوعا من الناطور أو ما يسمونه خيال المزرعة
الذى يذود الطير عن المزروعات . . . وما ذاك ! الا لتخدعى غيرك
وتتلمسى الأعذار لنفسك . . . فأنت تلذين بكل ما تشتهين ،
وتنصين للناس شرك الماخلة والحداع من كل لون ، ثم تصيحين

بعد ذلك : يا لها من حياة خبيثة ! من حياة قاسية ظالمة ! فماذا جعلها خبيثة وقاسية ، ان لم تكونى أنت ؟ وأنت حينما تخفين نبعتك وراء هذه الشكاوى كلها ، توقعين الربكة والاضطراب فى نفوس الآخرين . لماذا تريدین أن أسلك سبيل العوج لا لشيء الا لأنك سلكتها وترديت فيها ؟ أكنت تتشهن الانتقام لنفسك من الناس ، أم ماذا ؟ أم تقولين على وعلى أعدائى ؟ أليس كذلك ؟ يا للعار ! لقد جعلك الله جميلة كالملائكة ... ولكن ... أين قلبك ؟!

لقد كان يقف فى مواجهتها وجسه يرتجف، وهو ينظر اليها من رأسها الى قدميها بنظرة كلها اتهام وكلها تأنييم .. والكلمات تتدفق من فيه دون أن يمنعها مانع أو يصدها ارتباك .. وكان يتكلم بلهجة هادئة الا أنها لهجة قوية .. وقد سره هذا وأثلج قلبه . ورفعت صوفيا رأسها ثم حدثت فيه بعينيها الواسعتين النفاذتين .. وقد اختلجت شفتاها وتعقدت الحطوط العميقة فى طرفى فيها . وعاد يقول ملوحا بيده : اذا كانت المرأة جميلة كان من الواجب أن تكون عيشتها جميلة أيضا

تم ختم كلامه بهذه التحية السريعة : وداعا .

فحيته صوفيا بتحيته ، وانقلب على عقبيه دون أن يمد اليها يده .. الا أنه لم يكذب يبلغ الباب حتى أحس نحوها باحساس من الأسف والتوجع ، فاستدار ، ورآها واقفة فى ركن الغرفة منكسة الرأس ، ويدها مرتختان على وسطها .

وأيقن أن من قلة الذوق أن ينصرف هكذا .. من غير كلمة أخرى يوجهها اليها ، ومن ثم فقد تمت فى هم شديد ، وبدون أن يجرح كبريائه :

— معذرة ان كنت قد آذيت احساسك ٠٠٠ وعلى كل ٠٠ فانا ٠٠
أحبك !

وهنا ٠٠ زفر زفرة عميقة ٠٠٠ فلم يسع صوفيا الا أن تضحك
ضحكة غريبة ، وتقول :

— كلا ٠٠٠ انك لم تجرح احساسى

فأجابها فوما وهو يكاد يسيل رقة :

— اذن ٠٠٠ فوداعا !

وتمتتم المرأة :

— وداعا

وفرق فوما حبال الحرز ، فخشخشت ، ومست صفحة خديه .
فسرت فيهما رعشة من برودة الحب ٠٠٠ ثم مضى وقلبه مثقل
بالهموم ، وكأنه قد صيد فى شبكة مهما كانت ناعمة فانه لا فكاك
له منها !

• وكان الليل قد أرخى سدوله عند ذاك ، وكان القمر يسكب أضواءه
على الصقيع الذى يغطى البرك بغشاء رقيق فضى من الجمد • وكان وهو
يخطو فوق الرصيف يضرب الجليد بعصاه فيفتته ، وكأنما كان الجليد
يشعر بالآلم لذلك • وكانت المنازل تلقى ظلالها فى عرض الطريق ،
والأشجار تطرح على الأرض المنلوحة برسوم غريبة أشبه بأصابع
نحيلة مغروسة فى هذا الأديم المتجمد •

— ترى ! ماذا عساها تصنع الآن !

بهذا كان يحدث فوما نفسه ، وهو يرصد صوفيا بعين خياله
واقفة وحدها فى الظلال المحمرة التى يلقيها المصباح فى تلك الغرفة
المكتظة بالآثاث •

وقال لنفسه فى اصرار : « ان أحسن ما أستطيع عمله هو ان
انسائها ! ولكن ٠٠ لقد كان من المستحيل عليه أن ينساها ٠ فلقد
كانت تفرض نفسها فرضا على ذاكرته ، فتثير الرأفة فى قلبه مرة ،
ثم تنير السخط عليها مرات ٠٠ بل الغضب والحقد ! وكانت صورتها
رسيقة حية بحيث لم يكن من الممكن أن يغمر عنها عين خياله ،
مهما كان حمل أفكاره ثقيلًا فادحا ٠٠ حتى لكان يخيّل اليه أنه
يحملها بجسمها وهيكلها بين طيات قلبه ٠ ورأى عربة تقترب ،
وعجلاتُها تصدع سكون الليل وهي تدرج على البلاط المرصوف ،
وتنشق فوق اللوج ٠ وكان السائق وزبونه يميدان ويتميلان
مع حركة العربة ، وكل منهما قد اننى بجسمه الى الأمام انثناء
سديدا ٠ وكانا ٠٠٠ والحواد أيضا ٠٠٠ يكونون قطعة من الظلام
واحدة فى جنح الليل ٠ وكان الشارع مرقشا بقطع من الظلام
ومجوات من النور ، الا أن الظلام كان أغلب فى نهاية الشارع ، حتى
لكان يبدو كأنه سد يرتفع من أدنى الأرض الى صميم السماء ٠
وبدا لهما أن السائق وزبونه كانا يدلمان فى هذا الليل الى غير
عرض ٠ ثم أخذ يفكر فى منزله ذى الغرف الست ، وفى عمتيه
آنفيسا التى ذهبت الى الدير ، وما يحتفل من موتها فيه دون
أن تعود الى المنزل أبدا ٠ ولم يكن بالمنزل من السكان غير ايفان خادم
الاسطبل ، وسكليتيا التى تقوم بطهو الطعام وإدارة المنزل فى وقت
واحد ٠٠٠ ثم هذا الكلب الأسود الأشعث ذو الأنف البليد الكليل
٠٠٠ وكان الكلب نفسه عجوزا كهذيق !

ولما استقرت هذه الصورة فى ذهن قوما ٠٠ تنهد أسفا ثم حدث
نفسه فقال :

- أحسب أن لا مفر من الزواج ٠

لقد بلبلته فكرة الزواج ، بل ربما كانت وسيلة لتسليته ، فقد
خيّل له أنها من الممكن أن تتم بمنتهى اليسر وقلة المشقة ٠ وهو اذا

كلف اشيبينه ماياكين غدا أن يبحث له عن زوجة فلا يكاد يمضي شه
أو نحوه حتى تكون فتاة ما تشاركه في حياته في بيت واحد ، وتكو
قريبة منه ليلا ونهارا ، ويقول لها : هلمى ننتزه قليلا ، فتكون
أطوع من يمينه ، ثم يقول لها : هلمى ننم ، فلا تملك الا أن تطبع
واذا تشهت أن تطبع على فمه قبلة فلها أن تفعل ذلك ، حتى لو
يشأ هو . فاذا أمرها بأن تتركه لأنه لا يريد قبلاتها فقد يؤذيها
ذلك ويؤلم مشاعرها . . . ولكن يا ترى ؟ ماذا عساه أن يتحدث
اليها ؟ ثم أخذ يستعرض في ذاكرته جميع معارفه من البنات . .
لقد كان بعضهن على قسط من الجمال ، وكلهن يتمنين الزواج منه ،
الا أنه لم يجد بينهن من ترضيه كزوجة . . . ثم راح يسائل نفسه
عما عسى أن يحدث به الأزواج الصغار أنفسهم حينما يجدون أن
في تلك الخلوة بعد حفلة الزفاف ! ولقد حاول فوما أن يتخيل ذا
لكنه لم يستطع ، وكل ما كان في مقدوره أن يفعل هو أن يضح
على خيبته ! وقد فكر في ليوبا ماياكينا . وكان على ثقة من أنها
تكون لحة ذاهلة في هذا الموقف . . . الا أن كلامها قد يكون كذا
زائفا ومحض اختلاق . لقد كان واقعا تحت فكرته غير الطيبة :
. . أى أن أفكارها جميعا كانت أفكارا غير أصيلة ، أفكارا ملة
مستعارة من الكتب التي تقرأها . وكان من رأيه أنها أفكار لا تد
بفتاة في سنها وفي مظهرها وفي تربيتها .

وقد توقف عند هذه النقطة ليستعرض ما فاهت به من صنو
القذف في الحياة وفي الناس . وهنا ، أبطأ في خطوه ، وقد بدم
هذه الظاهرة التي لاحظها فيمن تربطه بهم صلات تكفي لأن يبادا
مناحي الفكر . . . انهم جميعا يتحدثون عن الحياة الاحاديث المختلا
. . . ومن هؤلاء أبوه وعمته واشيبينه وليوبا وصوفيا بافلوفنا - ل
كانوا جميعا اما يشكون من الحياة ، واما يحاولون أن يعلموه كي
يفهمها . . ثم تذكر ما قاله له الرجل العجوز على ظهر السفينة حين
كان يتحدث عن القضاء . . . وقد أورد هذا الحديث في خاطره جم

السروح وألوان النفد والشكاوى المرة التى ترددت على أذنيه من أفواه الناس .

وراح يحدث نفسه قائلا : « لست أدري لماذا ؟ ما الحياة ان لم نكن هى الناس ؟ غير أن الناس يتكلمون عن الحياة دائما كأنها شيء مستقل عنهم وخارج عن أنفسهم ، شيء يتلف عليهم الحياة دائما !! »

وأحس بيد الخوف الباردة تقبض على قلبه ، فاقشعر وجعل ينظر حوله . لقد كان الشارع هادئا خاليا من الناس ، ونوافذ البيوت السوداء تحملى فى ظلام الليل ، وخياله هو نفسه يثب مخالسا منواريا فوق الجدران والأسوار من ورائه .

ثم نادى فجأة : « سواق ! » وكان قد أخذ يبعث السير ، وراح ظله يلهي وراءه . . . ويزحف خائفا مدعورا . . . أسود . . . ساكنا . . . لا صوت له !



الفصل السابع

٣ ومضى أسبوع على الحديث الذى دار بين فوما وصوفيا بافلوفنا كانت صورتها لا تبرح ذهنه طواله ٠٠ لا ليلا ولا نهارا ٠٠ وكانت تشب فى قلبه آلاما مبرحة لا تخطر لانسان ببال ٠ وجد به الشوق الى زيارتها ، واستبدت به الرغبة فى أن يكون بالقرب منها ٠٠ لكنه كان يعود فيصر على عدم الانصياع لتلك الرغبة ، فينصرف عنها وهو ي مضع أسنانه من شدة الكبت ، ويلقى بنفسه قلبا وقالبا فى أعباء العمل ، نافخا بخياله فى نيران غيظه واستيائه اللذين كان يضمهما لها ٠ وخيل اليه أنه اذا ذهب لزيارتها الآن فربما وجدها تغيرت - ولعل شيئا يكون قد حدث لها بعد ذلك الحديث ، وأنها ربما لا تكون لطيفة معه كما تعودت أن تكون ، وربما لا تبتسم له تلك الابتسامة الرشيقة التى كانت تثير فى نفسه الأفكار والاحلام دائما ٠٠٠ لقد كان خوفه من هذا كله هو الذى يجعله يقاوم فى عناد وفى عنف هذه الرغبة التى تغريه بالذهاب اليها ٠٠ ومن ثم اثاره أن يتعذب وأن يقاسى ٠

ولم تصرفه أعماله ، ولا حنينه الى صوفيا بافلوفنا عن التأمل فى الحياة ، وادمان التفكير فيها ، وان لم يحاول أن يحل لغزها المستعصى ، ذلك اللغز الذى جعله فى حيرة دائمة ، وقلق لا ينتهى - لقد كان أعجز من أن يصل الى هذا الحل ، الا أنه شرع يستمع فى اصاخة وانتباه الى كل ما يقوله الناس من حوله عن الحياة ٠ وبدلا من أن تلقى أقوالهم تلك شيئا من الضوء على لغز الحياة ، كانت تزيد فى حيرته ، وتضاعف ريبه وشكوكه ٠ وكان من اليسير عليه ان

يلمس ما فطر عليه الناس من دهاء ومكر ولوذعية ، وأن واجب
الإنسان دائما هو أن يأخذ حذرهم منهم . وكان قد فطن الى أنهم
لا يقولون ما يعتقدون أنه الحق في الامور المهمة . وكان كلما زاد
من دراسته لهم قلت ثقته في تأوهاتهم وشكائياتهم . وهكذا
أخذ في هدوء وفي ريبية ، يفهم كل مجريات الحياة التي كانت تجري
حوله . وأخذ خط ضئيل نحيل من نورها يتلألأ فوق جبينه .

وفال له اشبينه ذات صباح وهما في بورصة الحبوب :

- تشوروف في البلد ، وهو يريد أن يتحدث اليك ، فاذهب
للقائه الليلة ، ولكن .. لا تنس أن تشكم لسانك جيدا وأنت تكلمه
- انه سيظل يستدرجك حتى تبوح له بأسرار أعمالك ... انه
ثعلب عجوز ماكر ، هذا الرجل أناني تشوروف ! .. وهو حينما
يمد عينيه الى السماء داعيا الله مبتهلا .. متضرعا بالدعاء ، تكون يده
الأخرى ممدودة الى جيوبك لينشل ما فيها من مالك كله ! فخذ
حذرك !

ويسأله فوما : - وهل نحن مدينون له بشيء ؟

- آي . اننا لم ندفع ثمن هذا الصندل ، فضلا عن ثمن مائتي
حمل من الوقود . ولكن اذا طلب منك دفع المبلغ برمته ، فلا تجب
طلبه ... فالروبلات يا فوما شيء لزج ... كلما أطلت امساكك
بها وقبض يديك عليها جمعت لك كوبكات كثيرة .

- ولكن كيف نمتنع عن الدفع اذا أصر على ذلك ؟

- لا تسأل عنه .. ليبيك ما شاء وليتوسل ما أراد .. وما عليك
الا أن تنهه وتبأكي ، وتغل يدك الى عنقك !

لقد كان أناني سافتش تشوروف تاجر الأخشاب الناجح يملك
معملا كبيرا لنشر الأخشاب ، كما كان يبني المراكب والصنادل ،

وينسفل السفن لحمل البضائع فى نهر الفولجا . . وكانت بينه وبين اجنات جوردييف معاملات تجارية ، ومن ثم فقد رآه فوما مرارا . وكان رجلا طاعنا فى السن ، الا أنه كان طويلا منتصب القامة كأنه شجرة من أشجار الصنوبر ، وله لحية كبيرة بيضاء ، وذراعان طويلتان . وكان تكويله البديع ، ومحياه الطلق ، ونظراته الصافية ، تبعث الرهبة والاحترام دائما فى نفس فوما ، وذلك بالرغم مما سمعه عنه من أفواه الناس من أنه لم يجمع ما جمعه من ثروته الضخمة من طريق شريف ، ومن أنه يحيا حياة مربية فى إحدى القرى النائية فى وسط الغابة . وقد سمع فوما قصة هذا الرجل يرويها أبوه ، وكان أبوه يقول ان تشوروف كان فلاحا فقيرا فى صدر شبابه ، وأنه تصادف أن لجأ اليه مجرم هارب محكوم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة فأواه عنده ، وكان هذا المجرم ممن يزيهون النقاد ، فكان تشوروف يحبسه فى حمام منزله ليزيف له المبالغ الضخمة . . . ومن هنا مصدر هذه الثروة التى بدأ بها حياته . وقد حدث أن اشتعلت النار ذات يوم فى الحمام ، ووجدت رفات الرجل محترقة تحت الاطالال وقد كسرت جميعته ، فانطلقت الاشاعات فى القرية بأن تشوروف قد قتل الرجل ثم أحرق جسمه . وكانت تروى أمثال هذه القصص عن كثيرين من أغنياء المدينة - أولئك الذين دأبوا جميعا على جمع ملايينهم بالقتل والسرقة ، أو ، كما كانت الطريقة الغالبة فى جمع الثروات ، بتزييف النقود وترويجها . وكان فوما يستمع الى أمثال هذه القصص والشائعات منذ نعومة أظفاره ، ولم يكن يعنى بالتثبت من حقيقتها أو كذبها . وكان يعرف أيضا أن تشوروف هذا قد تزوج زوجتين ، ماتت أولاهما وهو يعانقها فى ليلة زفافها اليه ، فلما ماتت لم يبال أن يتزوج زوجة ابنه هو وقد حزن ابنه حزنا موجعا مضطرا أن يستعين عليه بالاكساب على الحمر وادمان الشراب حتى أشفى لحي الموتى . لو لم ينقذ نفسه بتوجهه الى إحدى التكايا التى على

صفاف: نهر الأرعيز. ليقضى بقية حياته فيها . ولما ماتت زوجته
التأثبية هذه . لم يبال تشوروف أن يتخذ له خلية من فتاة شحاذة
جسماء بكماء . وكان الى ذلك الوقت لا يزال يعاشرها ، وقد ولدت
له ولدا وضعته ميتا . وكانت هذه الحكايات التي سمعها فوما من
أبيه ومن أناس آخرين تثب في ذاكرته وهو في طريقه الى الفندق
الذي ينزل فيه ذلك الرجل ، مما أضفى على شخصيته سحرا عجيبا
في ذهن فوما .

ولما فتح فوما باب الغرفة الصغيرة ذات النافذة الوحيدة المطلة
على سطح كتيب قذر لمنزل مجاور لاحظ أن تشوروف لم يكن قد
حب من نومه الا هذه اللحظة فقط وكان يجلس على حافة سريره
ممنسكا أياها بكلتا يديه ، وقد ثنى ركبتيه فاسترسلت عليهما لحيته
البيضاء . . . وكان يبدو ضحبا كبير الجرم خفي في جلسته تلك .

وفي صوت غضوب أجش ، ودون أن يرفع رأسه ليرى من الباب ،
نادى الرجل « من ؟ » ويجيبه فوما :

« أنا . . . كيف الأحوال أنائي سافتش ؟ »

« تدير الرجل رأسه ببطء ، ويعمشن بعينيه في جهة فوما ، ثم
يقول :

« ابن اجنات ؟ »

« - أجل .

« - تفضل . . . اجلس قرب النافذة . . . دعنا ننظر كيف صرت .

« أتشرب شيئا ؟

« - لا بأس .

وينادي تشوروف الجرسون ، ثم يتناول لحيته في يمينه ، ويشرع
يدقق نظره في فوما في عناية وامعان ، ويبادله فوما نظراته دون
أن يطرف !

لقد كان الجزء الأعلى من جبين هذا الرجل العجوز غائرا شديدا
الغور ، وكانت خصلات مجعدة من الشعر الأشيب تنسدل فوق
صدغيه وأذنيه المنتصبين ، وكانت عيناه الزرقاوان الوديعتان
تنسمان بسيماء الحكمة والرزانة ، بل بسيماء الشرف حتى الجزء
العلوي من وجهه ، إلا أن شفثيه كانتا غليظتين حمراوين ، ولا
تنسجمان هما وسائر الملامح الأخرى . وكان أنفه الطويل النحيل
يتقوس فجأة في طرفه ، كأنه يريد أن يختبئ في شعر الشارب
الأبيض . وكان الرجل العجوز اذا حرك شفثيه استطاع محدثه
أن يخطف لمحة من أسنانه الصفراء الحادة . وكان يلبس قميص
قرمزيا من القطن مربوطا من وسطه بمنطقة من الحرير ، وكان
بنطلونه الفضفاض الأسود ملموما داخل رقبة حذائه الطويل .
وكان بحسب فوما أن ينظر الى شفثي هذا الرجل نظرة واحدة
ليقتنع بصدق ما كان الناس يقولونه فيه .

وقال تشوروف فجأة :

- لقد كنت وأنت أصغر من ذلك أقرب شيئا الى أبيك منك
الآن . هل تذكر أباك ؟ هل تصلى من أجله ؟ هل تدعو له وتطلب
له المغفرة ؟

وكان يقاطع فوما عندما كان هذا يدلي بإجابته القصيرة، ثم قال

- لقد كان اجنات آثما كبيرا ، وقد مات دون أن يتوب . . ما
بغثة هذا الآثم الكبير !

وأجابه فوما وقد ساءه أن يتحدث الرجل عن أبيه بتلك الطريقة

- لم يكن آثما أكثر من الآخرين !

وسأله تشوروف مقتظا :

- مثل من ، مثلا ؟

- فى الدنيا عدد عظيم من الـآئمين الاشرار

ويجيبه الرجل ، وهو يؤكد ما يقول :

- ليس فى هذه الدنيا الا آثم عظيم واحد هو اعظم اثما من
المرحوم اجنات جوردييف ... وذلك هو ... اشبينك ياكوف ..
هذا المنافق الملعون !

وسأله فوما مستهزئا :

- متيقن أنت من ذلك كل التيقن ؟

ويجيبه الرجل وهو يهز يده ، وقد غامت عيناه :

- هذا أعرفه كل المعرفة ... لقد اضطرت أن أرفع أمره الى
لقضاء ليفصل فى جريمته الثقيلة التى أنقض حملها ظهري . لقد
سلك الشيطان مسلكا عجيبا ضدى ، لكنى أومن بنعمة الله . أما
ياكوف ، فلا يؤمن بالسماء ولا بالجحيم ولا بالساحرات .. بل هو
لا يؤمن بالله نفسه .. انه لا يؤمن به .. ومن أجل هذا فلسوف
يكون عقابه هنا .. فى هذه الدنيا .

وسأله فوما :

- وأنت متيقن ذلك أيضا ؟

- نعم .. متيقن . وأنا ألاحظ أنك تضحك منى ونقول : هل
حسب نفسك نبيا ؟ ولكن الرجل الذى يكون قد ارتكب من الخطايا
الاثام قدر ما ارتكبت يكون قد عرف أشياء كثيرة جدا . والخطايا
علم عظيم ... وهذا هو السبب فى أن ياكوف ماياكين أمهرنا
جميعا !

وعندما كان فوما يستمع الى صوته الأجش الممتلىء ثقة ، كان
حدث نفسه قائلا : « لقد أصابته لفحة من ريح الموت بالفعل . »

وأحضر النادل «الجرسون» هذا المخلوق الصغير الفصيح ذو الوجه الملوث غلاية الشاي ، ثم أسرع بالخروج من الغرفة ، وأخذ تشبوروو يشتغل ببعض اللفافات التى على افريز النافذة .
وقال يخاطب فوما دون أن ينظر اليه :

- انك وقح . وأنت تنظر الى الناس نظرة سوداء ، لقد كان الناس لا ينظرون هذه النظرة الى الامور . لقد كانوا ينظرون اليها نظرة بيضاء ، وكانت نفوسهم بيضاء كذلك وكان كل شئ بسيطاً لا تعقد فيه . . والناس أنفسهم كانوا أكثر بساطة مما هم الآن . . . حتى خطاهم كانت بسيطة . . . أما اليوم . . فكل شئ معقد تعقيدا شديدا .

١٠ - وصب الشاي ، ثم جلس قبالة فوما ، وراح يحدثه فقال :

- كان أبوك وهو فى مثل سنك هذه ، وعلى فكرة لقد كان والدك يشتغل فى الايام الخوالى عاملا ممن يكسحون الماء المتسرب الى بطون السفن ، وحدث أن السفينة التى كان يشتغل فيها ألقت مراسيها مرة أمام قريتنا . . أقول كان أبوك وهو فى مثل سنك رجلا صافى القلب كالبلور . . وكان من اليسير على الانسان لهذا السبب أن يرى بمجرد نظرة خاطفة أى نوع من الرجال هو . . أما أنت فأنا لا أستطيع أن أعرف أى نوع من الناس أنت . . بل أنت نفسك لا تدري . وهذا سيكون السبب فى خرابك . وكل أهل هذه الايام سينبتئون الى الخراب لأنهم لا يعرفون أنفسهم . ان الحياة غابة . . وواجبك أن تكتشف طريقك فيها . والناس يضلون طريقهم فى غابة الحياة بفعل الشيطان . . هل أنت متزوج ؟

- لم أتزوج بعد

١١ - هل رأيت ؟ انك لست متزوجا ، ولكن الراجح أنك لوئت نفسك منذ عهد بعيد . . هل تخصص لأعمالك وقتا كثيرا ؟

١- لا بد ٠٠ اننى لا أزال أشتغل مع اشبينى

وفال الرجل وهو لا يفتأ يهز رأسه ، وعينه لا تنفكان تومضان
بغضبنا :

- تشتغل ؟ وأى نوع من الشغل شغل هذه الأيام ؟! ان هذا
ليس شغلا . لقد كان التجار يتجولون بأنفسهم على خيولهم فى
جوانب الريف - ولم يكن شئ يمنعهم من هذا قط - لا العواصف
النلجية ، ولا وحشة الليل ، ولا قطع الطرق الذين كانوا يتربصون
لهم ليقتلوهم لقد كانوا يموتون كما يموت الشهداء ، فيفسلون
آثامهم بدمائهم أما تجار هذه الأيام فيركبون القطر .
ويسافر وكلاؤهم بالنيابة عنهم أو . . . هل سمعت آخر خبر .
ان الرجل يجلس فى مكتبه فيسمع صوته على بعد خمس مراحل !
جها ان هذا من عمل الشيطان وايم الحق ! فجلوس الانسان وعدم
فنامه بأى عمل هو الذى يجلب الى نفسه السامة ، فلا يملك الا
ان ياتم ويقترف الخطايا . ان الآلات هى تقوم له بجميع أعماله هذه
الأيام . أما هو فيجلس دون أن يؤدى عملا . . وفراغ الانسان مقتله
. . انه يزود نفسه بالآلات التى تؤدى له أعماله . . ثم يجلس
راضيا عن نفسه لا يعمل شيئا . ألا ان الآلات هى فخاخ الشيطان .
ان الرجل اذا وجد ما يعمل ، لم يجد وقتا للتردى فى الائم ، ولكنه
يجد نفسه حرا يصنع من الخطايا ما يشاء ما دامت الآلات قد حلت
محلّه فى عمله . ان الحرية تقضى على الانسان كما تقضى الشمس على
الديدان التى تعيش فى أحشاء الأرض إنها الحرية هى التى
نذبى الى الانسان خرابه !

وبعد أن فرغ تشوروف - هذا الداهية العجوز - من القاء هذه
الخطبة بلسان واضح لا غموض فيه ، انشأ يديق المتضدّة بأصبعه .
حتى دقها دقات أربعا . ثم تطلق وجهه بنشوة ظفر مشثومة ، وأخذ
صدره يعلو ويهبط ، وشعرات لحيته الفضية ترتعش على بطنه . .

وكان هذا يجعل من فوما آذانا مصغية تنصت اليه . فقد كانت ترن رنيناً تملؤه الثقة التي لا تتزعزع بحيث جعلت الشباب يميل ويضطرب ، مما جعله ينسى الشائعات التي سمعها عنه ، والتي كان يؤمن بصحتها من قبل .

وأخذ تشوروف يتفرس في فوما بطريقة مكشوفة خالية من الاحتراس ، كأنما كان ينظر خلاله الى شخص آخر غير الشار الجالس أمامه شخص كان يساوره الخوف ويخامره الألم بفعل كلماته مما كان يجلب السرور الى قلب الرجل العجوز .

- وأنتم جميعاً ياهل هذا الزمان ستقضى عليكم تلك الحرية . فلقد أمسك الشيطان بخناقكم حينما سلبكم العمل ووضع لكم الآلات والوكلاء مكانه . . ترى ! ما هذا الذي يجعل الأبناء أورد من آبائهم ؟ انها الحرية . . الفراغ ! ان الفراغ هو الذي أدى بهم الى السكر وفقدان لذة العيش .

وقال فوما في هدوء :

- أوه . . ان الناس كانوا يسكرون في الماضي ، ويحيون حياته الفارغة السائبة بمثل ما يصنع الناس اليوم !

وصاح الرجل وعينه تكاد ان تقدحان الشرر :

- احرص ! لقد كان الناس أقوى وكانوا يأثمون وفق لقوتهم . لقد كانوا كدوح السنديان العظيم ، ولسوف يحاسبهم الله على قدر قوتهم . . انه سيزن أجسادهم ، وسيكيل الملائكة مقدا الدماء التي تجري فيهم ، وسيبري الملائكة أن آثامهم لا ترجع وز أجسادهم ودمائهم . ولن يرضى الله بأن يناقش ذنباً الحساب لا افترس حملاً . ولكن اذا حدث أن غرس فأر لعين أسنانه في لحم حم فقد يدعو الله هذا الفأر لمناقشته الحساب !

وراح فوما يسأل الرجل فى تفكير وروية :

- وأنى لنا أن نعرف : هل الله سيجزى هذه المناقشة ؟ انما نريد محاكمة يستطيع الجميع أن يروها .

- ولماذا يجب أن يروها ؟

- حتى يستطيعوا أن يفهموا

- ومن غير الله يستطيع أن يحاكمنى ؟

ونظر فوما الى الرجل نظرة نكس بعدها رأسه ولم يقل شيئا بعد .
لعد أخذ يفكر فى المجرم الهارب المحكوم عليه بالاشغال الشاقة المؤبدة الذى قيل ان تشوروف هذا قد اغتاله وأحرقه فى حمام منزله ، وعاد اليه يقينه فى صدق هذه الشائعة . . . كما عاد اليه يقينه فيما روى الناس عن زوجاته وحظاياه . . . لا جدال فى أن هذا المجرم كان يميتهن خنقا بوساطة قبلاته . . . وأنه كان يعصرهن فيقضى عليهن فى حضنه ذى العظام الجبارة ، بل كان يمص دماهن بشفتيه هاتين الكريهيتين ، اللتين كانتا لا تزالان حمراوين من أثر دماء هؤلاء النساء للاتى قضين بين ذراعيه القويتين المعروقتين وكان دماهن لما تحف على شفتيه بعد ، والآن ، وهو فى انتظار الموت فى أية لحظة ، كان يحسب حساب جرائمه وخطاياه ، ويصدر أحكامه على الآخرين .
اثلا انه ما من أحد غير الله يستطيع أن يحاكمه .

وعندما كان فوما يحدجه بنظرة تنسرق من خلال أهدابه ، كان حدث نفسه قائلا : - ترى . . . هل هو خائف ؟

ولكن الرجل عاد الى حديثه قائلا وهو يهز رأسه :

- فكر فى هذا أبها الصغير ! فكر فى الطريقة التى يجب أن تعيش بها . لقد عشت السنين الطوال فى هذه الدنيا - آه ! ما أطول عشت ! لقد نمت أشجار وترعرعت ثم قطعت ، وبنيت بيوت من

احتسابها ثم تقادم الزمن عليها فتهدمت .. وقد رأيت هذا كله ..
ولا أزال حيا أرزق . اننى حينما أرتد بطرفى الى حباتى الحالية أحدث
بفسى : ليت شعرى ! أمحتمل أن يكون فى مقدور رجل واحد القيام
بكل تلك الاعمال ؟ وهل أنا حقيقة الذى عشت لأقوم بكل هذا ؟

نم نظر الرجل الطاعن فى السن فى وجه فوماً فى صرامة
وتعطيب ، وعاد يهز رأسه ثانية ، وغاص فى بحر من الأحلام !

لقد كان السكون شاملاً فى الغرفة ... ثم اذا دبذبة فوق
سطحها ، واذا قرقة عربات وأصوات أناس مهوشة تصل مر
الشارع ، واذا الغلاية التى كانت لا تزال فوق المنضدة ترسل صوت
عليانها الحزين . واذا تشوروف يحلق عينيه فى كوب الشاي
ويداعب لحيته الهائلة بيده ، وخيل لفوما أنه يسمع جيشانا وغرغر
فى صدر العجوز فى أثناء تنفسه .

وأخيرا يقطع العجوز هذا السكون بقوله :

— لا بد أنك تشعر بالوحشة والمرارة بعد أيك ؟ أليس كذلك ؟
ويجيبه فوما :

— لقد اعتدت ذلك .

— انك غنى . وحينما يموت ياكوف ستكون أكثر غنى ، فلسوف
يترك لك كل شيء . ان له ابنة واحدة . والأفضل لك أن تتزوج
هذه الابنة . ولا يهم مطلقاً أنها أختك الروحية وأختك فى الرضاع .
لقد آن لك أن تتزوج . اذ كيف يمكنك أن تعيش بلا زواج . أكبر
الظن أنك تزنى !

— كلا !

وقال الرجل مستهزئاً :

— ربما .. آه .. أجل .. ان طبقة التجار موشكة على الزوال .

ولقد خدشني أحد سكان الغابات مرة بما لعله أن يكون صحيحا ، وقد يكون غير صحيح . . أن الكلاب كلها كانت ذئابا يوما ما ، ثم انحطت الى مرتبة الكلاب ! . . . وها نحن أولاء نذهب الى المدارس لننتعلم ، ونضع على رؤوسنا القبعات المزخرفة ونصنع كل ما من شأنه أن يظننا كالأهم الأخرى . . ولن يمضي زمن طويل حتى تعجز عن تمييز التاجر عن أى شخص آخر من أفراد الشعب وقد أصبحت موضة العصر أن يرسل الناس كل أطفالهم الى المدرسة حيث يطبعون بطابع واحد ، ويلبسون بلون واحد أبناء التجار وأبناء الإشراف وأبناء أصحاب الحرف - لا فرق ! كلهم يلبسون الزي الرمادى . . ويتعلمون الشيء نفسه فنحن نزرع الناس كما نغرس الأشجار ، لا نأى غرض ؟ لا أحد يدري ! وأنت تستطيع أن تميز هذه الكتلة من الخشب من تلك ، بالعلامات التى عليها . . أما هم فيحاولون أن يمسحوا الناس جميعا مسحا تاما ناعما حتى يصبحوا نمطا واحدا لا يمتاز بعضه من بعض . . لا بأس . . فأياهم نحن العواجيز موشكة على الزوال ولعل أحدا لن يذكر بعد خمسين عاما أن أمثالى كانوا يعيشون فى هذه الدنيا . . أنا . . أنا . . أنا . . سافا المئى لقبه تشوروف - أو أننى . . أنا . . أنا . . لم أكن أخشى أحدا سوى الله أو أننى . . كنت فى صباى فلاحا لا يملك إلا فدانين ونصف فدان من الأرض ، حتى اذا كبرت ، ودلفت الى الشيخوخة ، أصبحت أملكها لأحدا عشر ألفا من الأفدنة مغطاة كلها بالأشجار ، فضلا عما يقرب من مليونى روبل .

وهنا قال فوما محنقا :

- المال . . كل مخلوق لا حديث له الا المال ! وأى لون من ألوان البهجة أو السعادة يستطيع المال أن يقدم للإنسان ؟ فتمتم الرجل قائلا .

- اهم ٠٠ ما أتعس ما تكون تاجرا غلبان ان لم تعرف ما للمال من سلطان !

ويسأله فوما :

- ومن ذا الذى يعرف هذا السلطان على حقيقته ؟

ويجيبه الرجل جواب ذى ثقة :

- أنا ٠٠ أنا أعرف سلطانه ، ويعرفه أى انسان أوتى سعة من الذكاء ٠ وياكوف ، اشبينك الداهية يعرف هذا ٠ المال ! المال هو كل شيء يا صغيرى ٠ اننره على صفحة أمامك وتأمل ماذا يمثل هذا القوى الجبار ؟ انك لن تلبث ، اذا فعلت ، أن تؤمن بأن المال هو السلطان ٠ هو القوة المفكرة ٠٠٠ لقد صب آلاف من الناس أرواحهم فى هذا المال الذى تملكه ٠٠٠ وأنت تستطيع أن تقذف به فى موقد ، وتنظر اليه وهو يحترق اذا أردت ٠٠ وأنت اذا فعلت هذا ٠٠ أفلا يثير فيك شعورا بالقوة والسلطان ؟ هه !

- ولكن أحدا من الناس لا يفعل هذا .

- والسبب فى ذلك أن المال لا يأخذ سبيله الى أيذى المغفلين مطلقا ٠ ان المال مكرس للعمل ٠ وبهذا العمل يحصل الناس على قوتهم اليومى ٠ وأنت سيد هؤلاء الناس جميعا ٠ لماذا خلق الله الناس ؟ لكى يعبدوه ٠ فى البدء ، كان الله ، ولم يكن معه شيء آخر ، وهو القادر ذو السلطان ٠ ومنذ كان مكتوبا أن الانسان مخلوق على صورة الله ، فالانسان أيضا بحاجة الى السلطان ٠ وأى شيء غير المال يأتى للانسان بالسلطان ؟ فهذا هو الموضوع يا صغيرى ٠٠٠ وعلم فكرة ٠٠ هل أحضرت لى نقودى ؟

- كلا ٠ ٠

وقالها فوما ورأسه يشكو الثقل والدوار من طول ما أنصت هذا العجوز ، وقد سره أن ينتقل الحديث الى العمل ٠

وقال الرجل وهو مقطب :

- ولماذا ؟ لقد آن أوان الدفع بحسب الشروط !

- سأدفع لك نصف المبلغ .. غدا .

- النصف ؟ انى أريد المبلغ كله .

- اننا فى أزمة شديدة فى الوقت الحاضر .. و

- ولم تحصل على حاجتك منه ؟ عال .. وأنا أيضا فى حاجة

الى مالى .

- لا بد أن تنتظر !

- أوه .. كلا .. لن أنتظر يا صديقى .. فأنت شيء ..

ورالدك شيء آخر .. ولا يمكن أن تكونوا موضع ثقة لأحد . أيها
الخطافون النهابون الصغار .. انكم تستطيعون أن تصبحوا على
الأرض السوداء فى شهر واحد ، وأكون أنا الذى أدفع الثمن !
سمع .. اذا لم تدفع لى المبلغ بأكمله غدا فسأعمل لك البروتستو
للإزم ، ولا تنتظر شيئا آخر غير هذا .

وذهل فوما وهو ينظر الى هذا الرجل الشيخ ! أممكن أن يكون
بكذا هو الرجل الذى كان يتحدث الآن عن الشيطان بلسان
نديس ؟ لقد تغير الوجه ، والعينان كذلك . وأصبحت نظرتهما
سارمة قاسية ، وراحت العضلات على جانبيه خياشيمه تختلج
ختلاجات الشراهة والجشع . وأيقن فوما أنه ان لم يقم بسداد
لمبيالته بتمامها فلن يتردد تشوروف فى جر الفضيحة التجارية على
لشركة باجراء هذا البروتستو عليها .

وقال تشوروف بصوت أشبه بصوت الخنازير :

- تقول ان الحالة سيئة ؟ فهل هى كذلك حقا ؟ عال .. قل لى

ذن ... فيم بعثرت نقود والدك اذن ؟

وأحس فوما بالرغبة فى أن يكشف خبيثة هذا الرجل أكرهه .
انكشفت ، فقال وهو يتعمد العبوس :

- الحالة .. سيئة جدا .. فلا حوالات ، ولا دفع سلفا .. وم
سم فالمال شحيح !

- وتريدنى على أن أمد اليك يد المساعدة !
فقال فوما وهو ينكس عينيه . بدواعة :

- اذا سمحت بمد أجل الدفع .

- .. من أجل خاطر والدك فقط . أه ؟ لا يأس ، ربما . ربما .
ربما .

- ولمدة كم ؟

- لمدة ستة أشهر .

- شكرا .. شكرا كثيرا .

- عفوا .. انك مدين لى بأحد عشر ألفا وستمائة روبل :
فاسمع يا بنى : عليك أن تكتب لى كمبيالة جديدة بخمسة عشر ألفا
وأن تدفع لى فائدتها مقدما ، وضمانا لذلك ترهن لى مركبتك
مراكبك .

وهنا هب فوما واقفا . وأخذ يضحك وهو يقول :

- ارسل الى الكمبيالة غدا ، فسأدفع لك المبلغ بتمامه .

وشخصت عينا تشوروف فى إثبات وفى غير اختلاج تحت نظر
فوما الساخرة ، وأفاق مما كان فيه ، وأخذ يهرش صدره ويقول .

- هذا أحسن أيضا

- أشكر لك حنانك واشغافك !

فقال الرجل مكشرا :

- لقد أردت أن أشفق عليك .. لكنك لم تدعنى أفعَل .

- كان الله فى عون أى بائس يقع فى مخالبك !

- يا سلام ! انه يكون سعيدا

- بل يكون شقيا منكودا !

ويجيبه تشوروف فى غلظة :

- كفى يا صغيرى كفى .. ان هذا درس لك سرعان ما تحتذيه ،

وهذه لعبة لها سحرها الجذاب .. وستعرف كيف ترقص طربا حينما

تكسبها ... وداعا . جهز النقود كاملة غدا .

- سأفعل .. وداعا .

وحينما كان فوما يغلُق الباب خلفه اذ به يسمع الرجل يتناهب

تثاؤبا طويلا ، ثم يأخذ فى دعاء عميق مبحور :

- أيتها العذراء المقدسة ، يا أم يسوع .. افتحي أبواب السموات

على مصاريحها ! .. !

وانصرف فوما وهو ينطوى على احساسين متناقضين : انه يخب

هذا الرجل ، الا أنه يحتقره !

وحينما استعرض ما قاله تشوروف عن الاثم والخطايا ، وقوة

ايمانه برحمة الله ... لم يملك الا أن يكبر من شأنه .

- انه هو أيضا يتحدث عن الحياة ! وهو يعترف بذنوبه فى غير

بكاء ولا شكوى . لقد أذنبت ، وعلى تبععة ذنوبى ، أما هى ! ..

وعندما تذكر صوفيا بأفولفنا .. استولى عليه الحزن وعاد

يحدث نفسه قائلا : « انها تتوب وتنيب ... ولكن من يدري ...

هل كانت توبتها توبة صادقة .. أو هى مجرد ادعاء ؟ »

لقد كاد فوما يغيط الرجل ويحسده .. لكنه عاد الى غشايا
منه عندما ذكر كيف كان يحاول أن يسلخه سلخا . ولما شمه
بالعجز عن تهدئة هذه الانفعالات المتصارعة ، ضحك من نفسه
ضحكة خفيفة حائرة .

وقال وهو يجلس في كرسيه بغرفة الطعام في منزل ماياكين :
- ألم تعلم ؟ لقد عدت الآن من لقاء صاحبنا .. تشوروف !

وكان ماياكين لابسا بيجامة قذرة ملوثة ببقع من الدهن ، ويده
صحفة فارغة ، ولما سمع ما قاله فوما اضطرب في كرسيه المنجد
بالجلد ، وقال وهو في شدة الشوق لمعرفة ما جرى :

• - صبي له كوبا من الشاي .. ليوبا والآن .. خبرني
يا فوما بكل ما حدث .. هيا أسرع .. لأنني يجب أن أكون في
المجلس في تمام التاسعة .

وقص عليه فوما وهو يضحك ، كيف حاول تشوروف أن يأخذ
عليه كمبيالة ثانية .. فلما فرغ من قصته ، جعل ماياكين يمصص ،
وقد علت وجهه سحابة من الغم ، وأخذ يقول :

- لقد خيبت رجائي فيك هذه المرة يا ولدي ! لماذا ؟ ايصح أن
يتصرف أحد في شئون العمل على هذا النحو ؟ أف ! ليت شعري
لماذا أرسلتك ولم أذهب اليه أنا نفسي ! تا لله لكنك فردته ثم لففته
حول خصري !

- لا أظن ذلك .. انه يقول انه قوى كشجرة السنديان !

- شجرة سنديان ! عال ! اذن .. فأنا منشارها ! ان شجرة
السنديان شجرة طيبة ، ولكن ثمرها لا يصلح الا للحلايف ! على
أن خشب السنديان خشب صلب !

- ولكننا لم يكن لنا مفر من الدفع !

- المهرة من الناس لا يجعلهم الى ذلك شيء - لكنك لست منهم -
فأنت تبرطع دائما الى الدفع ٠٠٠ فيا لك من تاجر شاطر !

وبدا الاستياء على أشده في وجه ماياكين ، وكانت تجاعيد وجهه
تتراقص وتتبرم بصورة بشعة وهو يقول لابنته في احتياج :

- هاتي السكر ! ألا ترين أنه بعيد عن يدي !

لقد كانت ليوبا شاحبة ممتعة الوجه ، وكانت عيناها مكتئبتين
كذلك ، ويدها تتحركان في خمول واسترخاء .

وكان فوما يلاحظ ذلك ويحدث نفسه قائلا : انها أمام أييها
تكون ودیعة كالحمل !

وسأله ماياكين :

- وبماذا تحدث اليك يا بنی !

- عن الذنوب ٠٠ والمعاصي !

- طبعاً ! فالناس يحبون دائما أن يتحدثوا في خصوصياتهم !
أليس يدير مصنعا للمعاصي ؟ لقد كان ينبغي أن يكون من نزلاء
السجون من سنين طويلة مضت - ثم هم ينادونه في سواء الجحيم :
انه لا يستطيع صبرا حتى يصل اليها .

ويجيبه فوما بروية وهو ينظر في شايه :

- الا أن ما يقوله له قيمته .

ويسأله ماياكين بعبوسة خبيثة :

- وهل ذكرني بسوء ؟

- فعلا

- وماذا قلت له ؟

- لقد كنت أصغى اليه فقط .

- اهم .. وماذا سمعت ؟

- لقد قال ان الاقوياء مغفورة لهم خطاياهم .. ولكن الضعفا

لا يغفر لهم !

- يا سلام .. ان البراغيث نفسها تعرف ذلك !

وظل فوما فترة ما وهو متضايق من بغض اشبينه لتشوروف

وأخيرا ضحك وهو يقول لماياكين متفرسا فى وجهه :

- انه لا يتصورك !

ويجيبه الرجل فى كبر واعتداد :

- لا أحد يتصورنى ... ولست أدرى ما الذى يدفعهم الى ذلك .

اننى لست حسناء ساحرة الجمال .. الا أن الجميع يحترموننى ...

والناس لا يحترمون الا من يرهبونهم .

ثم نظر الرجل العجوز الى فوما تياها مفاخرا .

واخذ فوما يعيد ما قاله :

- ان أقواله لها قيمتها . وهو يتحسر على أن طبقة التجار موشكا

على الزوال ، وأن الناس جميعا يتعلمون أشياء بعينها ، وأنه لز

يمضى زمن طويل حتى تعجز عن تمييز أحد من الناس عن سائر

الباقين ، لأنهم سيكونون جميعا سواء .

ويقول ماياكين متحسرا :

- وهذا لا يعجبه ؟ هذا المغفل !

ويسأله فوما وهو ينظر اليه متشككا :

- ويعجبك أنت ؟

- ان من أمهر الأشياء وأحسنها أن نجتمع الناس ذوى المشارب المختلفة فى مكان واحد ونعلمهم التعليم الذى يوحى آراءهم • ولنسأل أنفسنا هذا السؤال : ما الفرد من وجهة نظر الدولة ؟ لا شيء الا لبنة • لبنة عادية • ومن شأن اللبنة أن تكون متساوية الأحجام والأشكال • وإذا تساوى الناس فى حجومهم وأشكالهم استطعت أن تبني منهم ما تشاء •

ويقول له فوما مقطبا :

- أحسب أنه لا يسرك أن تجد نفسك لبنة !

- ربما •• ولكن هذا هو الشيء العملى • وأنت لا يمكنك أن نسوى وجه كل شيء •• الا أن الطرق الشديدة يحول بعض الأشياء فيجعلها ذهباً • أما اذا تكسرت تحت الطرق •• فما باليد حيلة •• ان هذا يعنى أنها كانت أضعف من أن تبدأ البناء بها •

- وقد تكلم عن العمل ، فذكر أن الناس صائرون الى التلف لأن الآلات تقوم لهم بأعمالهم بالنيابة عنهم •

ويقول ماياكين مستهزئاً وهو يلوح بيده علامة على الاستهجان :

- انه يدس أنفه فى كل شيء •• وكأنما قد ضاع منه أنفه فهو يبحث عنه ! ويا عجبا كيف جازت هذه الثروة ، وذلك الهذيان عليك ؟ الآلات ؟ مدهش ؟ هلا وقف لينظر مم تصنع هذه الآلات ، هذا العجوز الهرم ! من الصلب ! هذه هى ! وبعبارة أخرى ، انك لن تأخذك بها رحمة - فقط أدرها - ثم دعها تشتغل وتدر لك الروبلات بدون أن تثرثر ، وبدون أن تقدح فيك من وراء ظهرك -

وما عليك الا أن تضع الكوبس ، ثم تنظر الى العجل كيف يدور
ويدور . أما العامل . . فهو باستمرار بائس ولا يقنع بشيء ، وهو
فى بعض الأحيان يبلغ به البؤس مداه ، ولا ينفك يجأر ويشن
ويشكو ويتوجع ويبكى . . . فيكب على الشراب حتى يفقد وعيه .
ان فى العامل أمورا كثيرة يمكننى الاستغناء عنها بسهولة أما الآلة
فهى أشبه بالتر الذى نقيس به ، تستخدمها فيما صنعت من أجله
ولا شيء غير ذلك . . . أوه . . لقد آن أن ألبس وأنصرف .

وينهض الرجل وينصرف ، وهو يطرقع بشبشبيه .

ويغمغم فوما عابسا وهو ينظر اليه خارجا :

- الشيطان نفسه لا يستطيع أن يحل أو يبرم مع هذين ! أحدهم
يقول هذا . . . والاخر يقول ذاك !

وتقول ليوبا بصوت ناعم :

- وهذا هو الحال مع الكتب !

وينظر اليها فوما نظرة مهذبة ، فتبادله بابتسامة حائرة ، وفي
عينيها نظرة حزينة متعبة . . . ويسألها :

- لا تزالين تقرأين كعادتك !

وتجيبه بانقباض : نعم

- وأنت على ما أنت من الهم والتقطيب !

- وألعن ! لأننى كما يرى لا أنيس لى هنا . . . ليس ثمة مر
أحدث اليه .

- انك فى حالة سيئة !

ولم تجب . بل أخذت تعبت بوشى فوطتها وقد نكست رأسه
ويقول لها فوما بلهجة دمثة ، وقد أخذ الأسف منه مأخذة لحالتها :

- يجب أن تتزوجى يا ليوبا .

ولم يكده يقول لها هذا حتى قطبت جبينها بطريقة غير ظريفة ثم قالت :

- أوه .. لا تقل هذا

- لا أقول ماذا ؟ انك ستتزوجين يوما ما .

فزفرت الفتاة ثم قالت :

- ربما .. أنا أيضا أقول هذا .. ولكن كيف يمكنني ذلك ؟ انني أشعر كأنما .. كأنما ضباب يقف بيني وبين غيري من الناس - ضباب كثيف .

ويجبها فوما بلهجة الواثق بما يقول :

- هذا الضباب .. هو تلك الكتب !

- انتظر .. انني لم أعد أفهم شيئا ، لقد أصبح كل شيء كريها .. وليس في الدنيا شيء هو على ما كان ينبغي له أن يكون . لا شيء مطلقا . وأنا أدرك ذلك ، الا أنني لا أستطيع أن أذكر لك ما هو الخطأ ، ولماذا ؟

ويتمتم فوما :

- ليس كما ينبغي أن يكون .. هذه هي الكتب ، أؤكد لك . الا أنني أنا نفسي أستطيع أن أرى أن الأشياء ليست كما ينبغي لها أن تكون . وقد يكون السبب في هذا أننا لا نزال صغيرين ، جد صغيرين !

واستمرت لينوبا تقول ، متجاهلة ملاحظة فوما :

- لقد كنت أظن أول الامر أن الكتب تستطيع أن تساعدني على أن أفهم الأشياء .

ويقول لها فوما ساخطا :

- قلت لك انسى كتبك هذه !

- ماذا ؟ كأنك تحسب أن من السهل على الانسان أن ينساها !
انك ربما لا تصدق كم في هذه الدنيا من الافكار الكثيرة المتناقضة ..
وبعضها أفكار مرعبة .. ففي أحد هذه الكتب مثلا .. يقولون ان
وراء كل شيء ، على هذه الارض سبباً

- وراء كل شيء ؟

- كل شيء .. وفي كتاب آخر عكس هذا الرأى تماما .

- ولكن .. ألا يمكنك أن تدركى أن هذا عبث وهراء !

وقطع عليهما حديثهما صوت ماياكين الواقف بالباب ، لابساً
معطفه الطويل ذا الفراء ، وقد تدلت نياشسينه من حول عنقه على
صدره :

- فيم تتحدثان ؟

- وتجييه ليوبا عابسة :

- ليس عن شيء خاص

- وقال فوما :

- عن الكتب

- أى كتب ؟

- الكتب التى تقرأها ، ليوبا . أحدها يقول ان وراء كل على وجه
الارض سبباً .

- عال ؟

- وأنا أقول ان هذه كلها أكاذيب .

وجعل ماياكين يزوى ما بين عينيه ، ويمس لحيته يمينه ، وهو
يفكر فى الموضوع ، ثم سعل سعلة خفيفة وسأل ابنته بعد لحظة :

- فى أى كتاب جاء هذا الكلام ؟

وتجيبه ليوبيا بشئ من الضيق :

- كتاب صغير أصفر .

- ضعيه على مكتبى . ان الناس لا يكتبون كلاما كهذا لغير غرض .
اهم . . سبب وراء كل شئ . . ان النى فكر فى ذلك شخص ذكى
ولا بد . لقد صاغه صوغا جميلا . وهو كلام ان لم يكن المقصود به
المخلفين فى هذه الدنيا ، جاز أن يصدقه الانسان . الا أننا حينما
نرى أن المخلفين لا يصلحون لشيء فى أى مكان ، فمن رابع المستحيالات
القول بأن ثمة سببا وراء كل شئ . لا بأس . . وداعا . فوما . .
هل أنت باق ، أو تأتي لأوصلك الى المنزل ؟

- بل سأبقى قليلا .

ثم عاد فوما وليوبيا فخلا بعضهما الى بعض مرة أخرى .

وأوما فوما وراء اشبينه مستهزئا :

- ذكر بط . . غريب الاطوار !

- ولماذا ؟

- له رأيه الخاص فى كل شئ ، ويسمى كل شئ باسم غريب :

وتجيبه ليوبيا والحزن باد عليها :

- انه ذكى . . لكنه لا يفهم لماذا أنا غير سعيدة ؟

- ولا أنا والله . . انك تعقدين الاشياء وتجعلينها تبدو على غير

حقيقتها

وتسأله بمزاج منحرف :

- مثل ماذا مثلا !

- أوه . . كل شئ ! وهذه ليست أفكارك - انها أفكار ناس

آخرين

- أفكار ناس آخرين ! أفكار ناس - . :

وكانت على وشك أن تقول شيئاً جارحاً . . الا أنها أمسكت ولم
تف . وبينما كان فوما يجيل فيها عينيه لم يملك أن يقارن بينها وبين
صوفيا بافلوفنا

وأنشأ يحدث نفسه محزوناً محطوم القلب : ما أشد اختلاف
الناس . . حتى النساء ! وكل منها يجعلك تحس احباساً مختلفاً

لقد كان الظلام يوشك أن يرخي سدوله فى الخارج . . وفى الغرف
أيضاً . وكانت الرياح تهب خلال أغصان الزيزفون فتضرب هذ
الجدران بأفنانها كأنما كانت تمشكى البرد هى الأخرى وتود لو يؤذ
لها بالدخول .

وقال فوما بصوت باغم :

- ليوبا

ورفعت ليوبا رأسها وحدجته بعينيهما وهى تقول :

- أعلمت أننى تشاجرت مع صوفيا بافلوفنا ؟

وتسأله ليوبا منتعشة :

- ولماذا ؟

- ليس لأمر خاص . . لم تكن أمينة معى

- حسن . . يسرنى أنكما تشاجرتما . . لقد كانت قميئة أن تلقا

حول خنصرها . . انها امرأة قدرة . . أه لو عرفت ما أعرفه أنا عنها

ويجيبها مغموما :

- انها ليست كما تحسبين أبداً . . وأنت لا تعرفين شيئاً عنها .

هذه كلها أراجيف !

- أوه .. كلا .. ليست أراجيف مطلقا .

ويقول لها متوسلا :

- اسمعى يا ليوبا .. أرجوك ألا تقدحى فيها أمامى .. اننى

أعرف كل شيء .. شرفا أعرف .. فلقد ذكرت لى كل شيء .

وتسأله ليوبا فى دهشة :

- أحقا ؟ يا لها من مخلوقة عجيبة ! وماذا قالت لك ؟

وقال فوما وهو يبتسم ابتسامة خفيفة ملتوية :

- لقد اعترفت لى بأنها .. آثمة !

- وهذا كل ما قالته ؟

وأثارت رنة خيبة الامل فى سؤال ليوبا الامل فى نفس فوما .

فقال :

- أليس فى هذا الكثير ؟

- وهل تحبها حبا شديدا ؟

وجعل فوما ينظر خلال النافذة دقيقة أو نحوها وهو لا يجيب ،

حتى قال أخيرا :

- لست أدرى . يخيل لى أحيانا أننى أحبها فى وقت ما أكثر مما

أحببت .

وتهز ليوبا كتفها وتقول :

- بصراحة ، لا أستطيع أن أفهم كيف يمكن أن تحب مثل هذه

المرأة !

- أوه .. وأى صعوبة فى هذا ؟

- لا يمكننى أن أفهم ذلك • ولعل السبب هو أنك لم تر أجمل منها •

وقال فوما موافقا :

- فعلا

ثم يصل حديثه بعد برهة فيقول :

- ولعله ليس ثمة من هى أجمل منها • لشد ما أحن اليها وأريدها اننى أخشاهما - أعنى أننى لا أود أن أجعلها تأخذ فكرة سيئة عني • وأحيانا تنهكنى هذه الفكرة حتى لا أوشك أن أتغلب عليها بالشرب الى أن تدور رأسى • لكننى لا أكاد أهم بذلك حتى أتذكرها • • فاأجد من نفسى القدرة على شرب قطرة واحدة • • وهكذا فى كل شى • • اننى كلما فكرت فيها ، وما عسى أن تقول • • ضعفت قلبى واضطرب •

وتسأله ليوبا وهى فى لجة من الفكر :

- اذن فأنت تحبها حقيقة • وأنا ، اذا قسم لى أن أحب أحدا فقد أكون مثل هذا أيضا • • لن أفتأ أفكر فيه ، وفيما يقول •

ويقول فوما :

- أن كل ما فيها مختلف عما فى غيرها - انها تتكلم كما لا يتكلم أحد سواها ، ويا لله ، ما أرقها ! انها نحيلة نحيلة • • كالطفل !

- وماذا حدث بينكما ؟

ويقرب فوما بكرسيه منها ، ويميل الى أمام ، ثم يشرع فى حديث بصوت خفيض ، فيذكر لها كل شىء ، وكان كلما استعاد الكلام الذى وجهه الى صوفيا بافلوفنا ، أحس كأن المشاعر التى جعلته يقول هذا الكلام تحيا من جديد •

- قلت لها : يا للعار ! ما الذى جعلك تتلاعبين بى ؟

وكان صوته مليئا بالانفعال والثورة ، وكانت ليوبا التى هزتها الحماسة لا تنى تومئ برأسها علامة على موافقتها ، وتشجيعا لقوما على الكلام . وتقول له :

- مرحى مرحى ! وبماذا أجابت ؟

فيبدو الهم على وجه فوما ، ويهز كتفيه ، ويقول :

- لا شيء ! وبالأحرى .. انها كانت تتمحل المعاذير .. ولكن ماذا يفيد الكلام ؟

ثم ساد الصمت ، وسكت ، وسكنت ليوبا أيضا وان جعلت تلعب ضفيريها . وكانت الغلاية قد خمدت نارها ، والظلام قد أخذ يخيم نى الغرفة ، وأصبحت النوافذ أشبه ببقع معتمة وقال فوما :

- لماذا لا نضيء المصباح ؟

وتجيبه ليوبا متنهدة :

- لله ما أشد تعاستنا .. أنا .. وأنت !

أما فوما .. فلم يرضه هذا الكلام .. ولهذا اعترض قائلا ، وهو رابط الجأش :

- اننى لست نعسا ... والمسألة اننى لم أتمرس بالحياة بعد .
تجيبه ليوبا محزونة :

- ان الانسان يكون نعسا اذا لم يكن يعرف ماذا عليه أن يفعل غدا . فانا لا أعرف .. وأنت لا تعرف أيضا . وقلبي لا يعرف طعم الراحة أبدا .. وهو دائم الاضطراب بفعل حنين لا يمكن تفسيره

- أوه .. أنا أيضا أشعر بهذا .. والآن .. حان موعد ذهابي
إلى النادي

- لا تذهب ..

- بل .. لا بد .. فان صديقا ينتظرني ثمة .. وداعا ..
- وداعا ..

ثم مدت اليه يدها ، وعيناها تبحثان في حزن ووجوم في
عينيه .

وسألها فوما بعد أن ضغط يدها ضغطة خفيفة :

- أتتوئين أن تنامى ؟

- بل سأقرأ قليلا أولا

ويجيئها وهو غير موافق على أنها تنوى القراءة :

- الكتب بالقياس اليك ، كالفودكا بالقياس الى السكرارى !

- حبذا لو فكرت في تشبيه غير هذا .

وعندما كان فى الشارع رفع رأسه الى نافذتها فلمح فيه وجهها
.. وجهها الشاحب كأفكارها ورغبات نفسها . ثم أوما اليها ،
وهو يحدث نفسه قائلا : انها مختلطة الفكر .. كصاحبتنا الأخرى .

وجعلته هذه الفكرة يسرع فى خطاه ويضرب برأسه ، كأنه يحاول
طرده كل فكرة فيها عن صوفيا بأفلوفنا .

وكانت لفحات من الرياح الباردة تجتاح الشارع من جميع
جوانبه فتثير التراب فى أوجه المارة . وكان الناس يدلبجون فى
الظلام ، وكان فوما يزم وجهه ويكاد يغمض عينيه .

وجعل يحدث نفسه قائلا : اذا لقيت امرأة أول من ألقى فيكون

معنى هذا أن صوفيا بافلوفنا ستقابلنى بمثل البشاشة التى كانت
نلقانى بها من قبل .. وسأذهب لزيارتها غدا ، أما اذا لقيت رجلا ،
بلن أذهب غدا ، بل سأنتظر قليلا .

لكنه لقي كلبا ، وقد غاظه هذا حتى لقد أوشك أن يركل الحيوان
لمسكين .

ولقى فى بار النادى هذا الشاب المرح أُوختيشيف الذى كان
إقفا قرب الباب وهو يتحدث الى رجل سمين ذى شوارب . وعندما
ج الشاب فوما دلف مسرعا ، وناداه مبتسما :

- ها للو أيها المليونير المحتشم !

وكان فوما يحب هذا الشاب لبشاشته وطلاقة وجهه ، وكان
يسره دائما أن يراه . وقد صافحه بوجه يفيض ودا ثم سأله :

- ما الذى يجعلك تظننى محتشما ؟

- ان أى انسان يستطيع أن يدرك ذلك .. فأنت شخص تعيش
كما يعيش النساء .. لا تشرب ولا تلعب الورق ولا تغازل - أوه
.. على فكرة .. هل علمت أن راعيتنا التى لا نظير لها ستسافر
غدا وستقضى الصيف فى الخارج ؟

فسأله فوما فى هدوء :

- صوفيا بافلوفنا ؟

- نعم .. ان شمس حياتى .. وربما حياتك أيضا ؟ .. تميل
الى الغروب !

وغمن بوجهه غمزة مضحكة ، ورمى فوما بنظرة كلها خبث ..
أما فوما ، فقد جمده فى مكانه ، وشعر بدوران ينتاب رأسه ، وأنه
عاجز عن جمع شتات نفسه .

ثم قال أخيرا وفي صوت خفيض عميق صادر بلا وعى :

- اذن .. فسونيا مسافرة .. اليس كذلك ! شئ لطيف
لشد ما أنا مسرور !

ويسأله أُوختيشيف متعجبا :

- حيلك ! لماذا تقول هذا !

ويبتسم فوما ابتسامة بلهاء وهو يرمق رفيق صديقه المشهود
بنظرة حائرة . أما أُوختيشيف فيداعب شاربه بإصبعيه ، ويوجه
دشا من الكلمات الغيظة المنكرة الى فوما .. على حين يقول رفيق
أُوختيشيف :

- لأن المدينة ستنتقص احدى فاجراتها !

ويحتج أُوختيشيف ويقول متجهما :

- أو .. لا لا يا مارتن نكتتش !

وتثور ثائرة فوما .. ويتقدم خطوة من نكتتش ويسأله متجهما

- ومن أين لك أنها فاجرة ؟

ولا يزيد الشاب الاثنيق على أن يمسخ فوما بنظرة متشامخة ، ثم
يدير رأسه في ناحية أخرى ، وهو يقول في نفخة عجيبة ، وعضلا:
بطن ساقه اليمنى تختلج :

- اننى لم أقل انها فاجرة .. بل قلت انها فاجرة !

وهنا تدخل أُوختيشيف يقول بعنف :

- يجب ألا تقول مثل هذا الكلام عن امرأة هـ ..

ولكن فوما يقاطعه بقوله :

- لحظة من فضلك • اذ لا بد أن أسأل هذا السيد عما يعنى •
ما الكلمة التى استعملها ؟

وكان فوما يتكلم فى هدوء ووضوح ، وهو واضح يديه فى أعماق
جيبويه ، وقد شد صدره الى أمام كأنه موشك أن يدخل معركة ، أما
السيد المتشامخ فقد حدجه بنظرة ثانية ، وابتسم ابتسامة ساخرة
جعلت أوختيشيف يدرك ما وراءها من شر ، فناداهما متوسلا :

- أيها السادة !

وقال الشاب وهو يتشدد :

- ان ما قلته هو أنها : فاجرة • وان لم تكن تعرف معناها ، فأنا
أشرحه لك !

فقال فوما وهو يملأ رثتيه بنفس عميق ، وعيناه لا تريمان عن
وجه الشاب :

- نعم • اشرح معناها من فضلك •

وأدار أوختيشيف حدقتى عينيه •• ثم انتحى ناحية أمينة •

وقال الشاب المنتفخ بصوت هادى وهو يدنى وجهه الممتلئ من
وجه فوما :

- فاجرة •• ولا أزيدك علما •• معناها امرأة لا عرض لها •

وزأر فوما زارة خفيفة •• وقبل أن يعرف الشاب ماذا حدث له ،
كان فوما قد أمسكه من شغره المجعد الداكن ، وجعل يهزه هزا عنيفا
بيده اليمنى ، ثم جعل يلوح فى الهواء بيده اليسرى وهو يبرق
ويرعد قائلا :

- لا تسب الناس •• وراء ظهورهم • وقل لهم ما تشاء فى •••
وجوههم ••• قل هذا فى وجوههم صراحة •



كان فيه ما قد أمسكه من شعره الأبعد الأماكن وجعل يهزه

وقد طاب قلب فوما وثلج صدره ، حينما رأى الشاب المغرور وهو يضرب فى الهواء يديه البسميتين على هذه الصورة المضحكة ٠٠٠ وكيف كانت ركبته تصطكان من شدة الهز ، وكيف كانت قدماه تخرشان الأرض ٠ وقد انتشرت ساعة الشاب الذهبية من جيبه ، وتدحرجت من سلسلتها الذهبية على بطنه ٠ وقد بلغ من طرب فوما الذى انتشى لما أحس من قوته ، وما كان يخامره من لذة الانتقام ، بما أذاق هذا العين المحترم ، من مهانة وتحقير ٠٠٠ بلغ من طربه الذى كان يقرب من الجنون أن أخذ يصيح مسرورا مبتهجا وهو يجرجره الى وراء ثم يدفع به الى أمام والمسكين صعق مأخود لا يملك عن نفسه دفاعا ٠ ثم شعر آخر الأمر بأن العبء الثقيل الذى كان يجثم على صدره قد انزاح ٠٠٠ العبء الذى ملأ نفسه قنوطا كل هذا الوقت ٠ ولم يشعر الا وشخص ما يمسكه من وسطه وكتفيه ، ويقبض على أصابعه ، ليثنيها الى خلف ٠٠٠ وشخص آخر يشب فيقف على أصابع قدميه ٠٠٠ لكن عينيه اللتين كانتا تقدحان الشر لم تكونا تريان شيئا الا هذه الكتلة الثقيلة التى كانت تثن وتتوجع فى قبضته ٠ وأخيرا وجد نفسه ينتزع من فريسته ، وقد أفلتت من قبضته ٠٠٠ ثم يرى ٠٠ وكأنه ينظر من خلال ضبابية حمراء ٠ الى الرجل الذى صنع به هذا الذى صنع ملقى عند قدميه ، ولا حراك فيه ٠ ثم أخذ الرجل المكوم ، المشعث ، يبدى بعض الجهد اليائس لكى ينهض على قدميه ، حتى أدركه رجلان بلبسان ملابس سوداء فحملاه ، وكانت ذراعاه مسترخيتين بينهما كالأجنحة المتكسرة ، وقد جعل يلهث بصوت مجروح :

- انك لا تستطيع أن تمسنى بيديك ٠٠ انك لا تستطيع ٠٠
تعرف من أنا أيها الوغد ؟ اننى ممن يحملون أوسمة الدولة ٠٠ ولـ
اطفال ٠٠ وكل الناس يعرفون من أنا ٠ أيها الوغد ٠ أيها
الوبش ! يا أكل لحوم البشر ٠٠ لا بد من مبارزة !
ويهتف أوختشيف فى أذن فوما قائلا :

— هلم بنا .. بالله عليك .. هلم بنا .

— بل انتظر لحظة .. سأحطم له وجهه !

ولكن أُوختشيف جذبه ، ومشى به ... ورأسه يتمايل ، وقلبه يدق ، الا أنه مع ذاك يشعر بانشرائح وسعادة ... وعندما كانا عند باب النادى ، أخذ نفسا طويلا فأنعشه .

وراح يسأل أُوختشيف وعلى فمه ابتسامة لطيفة :

— أظنه لن ينسى هذا الدرس بسرعة ، هه :

وأجابته السكرتير الشاب وهو يلهث :

— لا بد أنك مجنون ! فيم كل هذا ؟ اننى لم أر مثل هذا طول حياتى !

— ولكن .. يا صديقى العزيز .. ألم يكن يستحق تلك العلقه الساخنة ؟ أليس سافلا قليل التربية ؟ كيف يجرو أن يقول هذا عنها فى غيابها ؟ ليذهب وليقل لها هذا الكلام فى مواجهتها !

— حيلك — حيلك ! ما لنا نحن وهذا كله ؟ أرجو أن تكون قد ألحقت به ما ألحقت لحسابها هى :

— وما معنى قولك لحسابها ؟ لحساب من اذن ؟

— لست أدرى . ولكن .. لا بد أن تأثرا قديما كان بينك وبينه،

وكننت تصر على تسويته .. ما شاء الله يا لها من خناقة ! اننى لـز أنساها الى آخر حياتى !

— هذا الرجل .. من هو ؟

ثم انفجر ضاحكا ووصل كلامه قائلا :

- كان شكله ظريفا وهو ينهق .. هذا الجحش .. الاحمق !

وحملق فيه أُوختشيف لحظة قبل أن يقول :

- عجيبة ! صحيح انك لا تعرف من هو ؟ وهل صحيح أنك عملت ما عملت لحساب صوفيا بأفلوفنا ؟

- بل عملته باسم الاخلاق والواجب

- بل باسم الحماقة والتفيل !..

وقالها أُوختشيف مرتبكا مترددا ، رافعا كتفه في تملل ، وملوحا بيده ، وقد عاد الى الرصيف من جديد ، ثم قال لقوما وهو يحدجه بطرف عينه :

- انك ستلقى جزاء ما فعلت .. قوما اجناتيفتش !

- وماذا عساهم أن يصنعوا بى ؟ يقدموننى للمحكمة ؟

- لو اكتفوا بهذا يكون من حسن حظك .. انه زوج بنت المحافظ !

- م .. ما .. ماذا ؟

وسقط فى يد قوما .. ولم يلبث أن نكس رأسه !

- أقول لك الحق .. إنه وغد ومن أسفل خلق الله ... وأنا

أستنتج مما أصابه أنه يستحق ما حدث ... ولكنك اذا فكرت فى أن السيدة التى كنت تنافح عنها هى أيضا ...

وقال له قوما وهو يضع يده على كتفه ، هادئا رابط الجانان :

- اسمع يا صديقى .. لقد أحببتك دائما .. وقد تركتهم جميعا

لتمشى معى .. وأنا أفهم ذلك وأقدره .. الا أن هناك شيئا أسألك

أن تجيبنى اليه .. ذلك ألا تتحدث عن هذه السيدة باستخفاف

نأمامى .. وهى مهما تكن بالنسبة اليك .. فانها بالنسبة الى ..

بالنسبة الى .. عزيزة جدا .. وليس فى هذه الدنيا كلها من هم
أعز على منها .. ولهذا ، فأنا أقولها لك صريحة وفى غير مواربة .
ما دمت رضىيت أن تمشى معى ، فأرجوك ألا تتحدث عنها .. وما دمت
أنا أرى أنها سيده صالحة .. فلنقف عند هذا .

وكان فوما يتحدث وهو يحس كأنما أُوختشيف ينظر اليه —
متعجبا .

وقال له أُوختشيف :

— حسن .. انك شخص ظريف .. ولا شك فى ذلك .

— بل أنا شخص بسيط .. وقد آكون متوحشا .. ولقد مسحت
الأرض بهذا الانسان .. وأشعر من أجل هذا ببنتهى الفخر ..
ولست أبالى ما يحدث بعد ذاك

— وأخشى أن الذى قد يحدث شيء كثير .. أقول لك الحق ؟ أذ
أحبك أيضا ... وان كنت أرى أنك — اهم — شخص خطر ! ولست
أدرى متى تعاودك نوبة أخرى من الفروسية ، فتمسح بى الأرض
أنا أيضا !

— .. أو .. اطمئن .. فأنا لا أفعل هذا كل يوم .. بل الحق ..
اننى لم أفعل هذا قبل اليوم

وضحك أُوختشيف ، لأن فوما كان يتكلم وقد بدا عليه الأسف .

— ان ما صدر منك هو البشاعة بعينها . ولكن اسمع يا فوما .
ان الشجار عمل من أعمال التوحش . انه شيء دنىء ، وأرجو أن
تغفر لى هذا التعبير ، وان كان الواجب أن أعترف بأنك أحسنت
اختيار فريستك للشجار هذه المرة .. انه حشرة .. بل داعر ..
واغل فى أعراض الناس .. رجل يرتكب أفحش المنكرات ولا يقع
تحت طائلة القانون . . .

ويقول فوما متلنذا :

- يسرنى أن أسمع ذلك .. وليس ما ناله منى الا قليل مما يستحق من العقاب .

- قليل ! لا بأس ! لنفرض أنه كان قليلا ، ولكن اصغ الى يا بنى
- كلمة نصح من كاتب محكمة .. ان هذا الرجل وغد زعيم ما فى
ذلك شك . ولكن تذكر أنك لا تستطيع أن تمسح الأرض حتى
بالأوغاد ، لأنهم هم أيضا ذوات اجتماعية ، ويتمتعون بحماية
القانون ، انهم لا يمكن أن ينالهم أذى الا فى حالة ما اذا تخطوا
حدود القانون ، وحتى فى هذه الحالة ، لست أنت ، ولكن نحن
القضاة الرسميين ، الذين نحدد ما يستحقون من العقاب ... وعلى
هذا ، فان لم يكن شيء يهمك ، فلا أقل من أن تحاول التذرع
بالصبر .

ويسأله فوما فى سداجة وبراعة قلب :

- وهل يمضى زمن طويل قبل أن يقع فى أيديكم ؟

- هذه مسألة فيها نظر . فاذا كان صاحب القضية رجلا لا غباء
فيه ، كان محتملا ألا يقع فى أيدينا .. وسيظل فى نظر القانون
الى آخر أيام حياته مواطنا جديرا بالإحترام مثلى ومثلك ... أوه !
يا الهى ! ماذا أنا قائل .

ثم تنهد أوختشيف بلهجة ساخرة

وضحك فوما وسأله :

- ماذا ؟ هل تكشف أسرارنا لا يصح أن تكشفها ؟

- ليست أسرارنا تماما . ولكن .. ليس يليق بى أن أكون خفيف
العقل الى هذا الحد . اللعنة على كل شيء ! لقد كاد ما حدث يطيش

صوابي • ان رغبة الانتقام تستطيع ، كما يقولون ، أن تقوم بعملها
بمجرد الرفس والركل خبط عشواء ، كما يرفس الجواد الجامح •

وتوقف فوما فجأة ، كأنه ازاء عقبة صبدته عن المسير ، ثم قال
ببطء وبصوت عال :

— وقد بدأ هذا كله عندما قلت أنت ان صوفيا بافلوفنا مسافرة
— انها مسافرة • • وماذا في ذلك ؟

واخذ أختشيف موقفا ازاء فوما ، ثم جعل ينظر اليه ، وفي عينيه
يريق له معناه • ووقف فوما ساكنا ، ورأسه منكس ، وهو يضرب
الحجارة المرصوفة بعصاه ، حتى دعاه أختشيف قائلا :

— هيا • • سر بنا

وسار فوما وهو يزوم بلا مبالاة :

— لا بأس • فلتسافر

وراح أختشيف يدير عصاه في الهواء ، ويصفر بفمه لحنا ،
على حين كان يرمق فوما بطرف عينيه • وأخيرا قال فوما :

— لكأني لا أستطيع الحياة بدونها !

وكان عينيه معلقتان في نقطة بذاتها فوق رأسه • • • ثم تمضي
لحظة ويعود الى الكلام مرة أخرى • • وبصوت هادئ • • الا أنه
ممتليء اقتناعا :

— بل في وسعي • • طبعا •

ويقول له أختشيف :

— اسمع • • اليك نصيحة تنفعك : لا بد أن تكون لك شخصيتك
القوية • • ويجب أن يكون للشخص دائما شخصيته • ان مزاجك
هو مزاج أبطال الملاحم • • ان صح أن نقول هذا • أما مزاج أصحاب

الفناء والغزل فلا يليق بك .. وهو ليس من ذوقك ولا يوائمك .
وقال فوما ، وقد حاول أن يفهم ما يقوله أوختشيف :
- استعمل كلمات أسهل فى حديثك لى أيتها الصديق .
- لا بأس . أن ما أردت أن أقوله لك هو أن تسقط تلك السيدة
من حسابك .. انها سم قتال لمن كان مثلك
وقال فوما أسيفا محزوننا :
- ان هذا هو الذى قالت بالضيظ !
- أصبح قالت لك هذا ؟ اهم .. حسن .. هل نذهب الى مكان
ما للعشاء ؟

ووافق فوما قائلا ، وهو يزأر ويضرب الهواء بقبضتيه :
- هيا بنا . واذا ذهبنا فلنذهب بالاسلوب الذى يليق بنا .
وأننا لا أقبل أن أذهب الى مكان ما للشرب والقصف ، وبعد كل الذى
حصل ، لست أرى لى نفسى ذاك الجنسون ، والا .. قبضت على
شعرك .. و .. !
- وما الداعى لكل هذا ؟ انه سيكون عشاء محتشما .. نظيفا !
ويمسكه فوما من كتفه ثم يقول له :

- اصدقنى القول يا أوختشيف .. هل أنا شر من أى شخص
ممن تعرف ؟ ان بعض الناس يبدو عليهم أنهم يتمتعون بالحياة -
تراهم دائما يقصدون الى هذا المكان أو ذاك ، وراء غرض من
الأغراض ، أما أنا .. فأراني متقبضا انقباضا شديدا .. بل فل
انقباضا مهلكا - وهم جميعا راضون عن أنفسهم - واذا سمعهم
يشكون ، فشكواهم محض ادعاء ، هؤلاء الأوباش ! وهم دائما
يسلكون مسلك التعاطف والاستكبار ، الأمر الذى لا أجيد منه قليلا
ولا كثيرا . اننى شخص مغفل .. على نيائه ! لا أفهم الأمور الحبيثة ،

ولا أستطيع النفاذ الى بواطن الأمور . وهذا أمر يؤلمنى ويمضنى
وبعض الناس يقول هذا . . . وبعضهم يقول ذاك . . . وأما عنها .
فوا أسفاه ! لو أنك فقط تعرف ! لقد وضعت جميع آمالى فيها . .
لقد كنت أنتظر منها أن . . . أن . . . ؟ ليت شعرى ماذا كنت أنتظر
حتى هذا لا أعرفه ! الا أننى أعلم أن أحدا لا يمكن أن يذهب اليه
. . . وأننى كنت على يقين أنها كانت ستطلعنى يوما من الأيام على
أمر من أخص شئونها . ان عينيها عينان عجيبتان حقا . . . ويا لله
ان الانسان ليرتجف خوفا وهو ينظر فيهما . . . اننى لم أكن أحبه
فقط ، بل لقد وهبت لها روحى وقلبى جميعا . ولقد كنت أحسب
أن مجرد قربى من سيدة فى جمالها وعذوبتها سيخلق منى رجلا .

وكان أؤختشيف يصغى الى تلك الكلمات المتقطعة وهى تتدفق من
فم فوما ، ويرى عضلات وجهه وهى تتقلص من شدة ما يبذل من
جهد فى التعبير عن أفكاره ، كما كان يلمس الحزن العميق الكامن
وراء هذه الاعترافات الموهشة . لقد كان ثمة فى الواقع شئ مؤلم
أشد الألم ، موجع أشد الإيذاء فى عجز ذلك الشاب القوى المتوحش،
وقلة حيلته . . . ذلك الطاغى الذى كان يطوى الشوارع طيا بخطواته
الواسعة غير المتساوية . وقد شعر أؤختشيف ، وهو يشب خلفه
لاهثا ، برجليه القصيرتين ، أن من واجبه أن يواسيه ويسليه بأية
طريقة من الطرق ، اذ كان كل ما صدر عن فوما وما قاله فى تلك
الأمسية قد أثار اهتمامه ، وهذا ، بالإضافة الى ما خامره من الزهو
خين أحس أنه قد أصبح موضع ثقة هذا الشاب الغنى ، فوما
جورديف . لقد ناء بحمل هذه الثقة ، وكادت بثقلها أن تبهر
أنفاسه . وبالرغم من أنه ، على صغر سنه ، قد أعد من العبارات
ما يلزم للتعبير عن كل حادث من أحداث الحياة ، الا أنه كان يجد
صعوبة فى تذكر هذه العبارات فى المناسبة الحاضرة .

وقال وهو يدفع بذراعه تحت ذراع فوما بطريقه تفيض ودأ :

- يا لله ! انك لا تستطيع أن تسير في الحياة على هذا الأسلوب .
انك تفلسف ولما تكذب تقف على عتبة الحياة . . الواقع أنك لا تستطيع .
وأنت تعرف هذا . لقد أعطينا الحياة لنحيها - وبعبارة أخرى : عش .
ودع غيرك يعيش . وهذا هو جماع الفلسفة - أما عن هذه المرأة . .
فيا عجباً لك ! ان السماء لا تشرق وتغرب في أفقها فقط . .
وبالأحرى انها ليست المرأة الوحيدة في هذه الدنيا . . ودعني
أقدمك - اذا أردت - الى امرأة أشد منها فتكاً ، امرأة تنسيك
فلسفاتك جميعاً في اللحظة التي تقع عينك عليها . . سيدة
أرق من الرقة نفسها . . . السيدة التي تجعلك تنتفع بحياتك على
أحسن الوجوه ! وهي تشبهك من حيث أن مزاجها هو مزاج أبطال
الملاحم . . . ثم هي جميلة . . . بل هي هيلين نفسها . لكنّها خلقت
لك ، وفصلت على قدك ! يا للفكرة البديعة . انى سوف أقفك اليها
ما في ذلك شك . . وسأداويك بالتى كانت هي الداء .

ويقول له فوما مكتئباً :

- لا تنس أن لى ضميراً . . وطالما أن صوفيا بافلوفنا على قيد
الحياة فلا تفكر في أننى أستطيع مجرد النظر الى أية امرأة أخرى .

- اه ! رجل معافى سليم البنية مثلك . . يقول هذا ! أوهوه !

ثم شرع أوختشيف يشرح له نظرية حاجة الانسان الى التنفيس
عن مشاعره بالمنامة والانبساط وذلك بطريقة تعليمية . قال :

- بل هذا هو ما أنت في أشد الحاجة اليه . . وصدقنى . أما
مسألة ضميرك . . ومعذرة . . فأنت غير مصيب في هذه النقطة .
وضميرك ليس هو الذى يصدك ويقف بينك وبين الاستمتاع . .
بل هو خجلك . . فأنت لم تعود الاختلاط بالناس ، ومن ثمة فأنت
تشعر بالتهيب والاستحياء ، وبالضيق وأنت في حضرتهم . وأنت
تفهم هذا فهماً خاطئاً ، وتحسب أنه الضمير - ولكن لا يمكن أن .

يفسح المجال لذكر الضمير هنا - اذ ماذا هنا مما يمكن للضمير أن يعترض عليه ، اذا لم يكن بد للانسان من أن يلذ ويمتع نفسه ، واذا كان هذا الالتذاذ وذاك الاستمتاع من حقه ومن صميم حاجته !

وكان فوما يحملق فيه وهو يسايره ، ويوفق بين خطواته وخطواته . وكان الشارع بصفي المنازل على جانبيه أشبه بهوة هائلة متثلثة بالظلام ، وكأنه لا نهاية له ، وكان مجرى لا ينضب من شيء أسود خائق يتدفق فيه ببطء وتراخ . وكان صوت أختشيف . . ذلك الصوت اللطيف ذو القدرة على الاقناع يأتي رتيبا ، وبينما لم يكن فوما يستمع الى الكلمات ، كان يدرك أن فيها لزوجة تجعلها تلصق في ذهنه بالرغم منه . . كما كان يخيل اليه ، بالرغم من وجود رفيق الى جانبه يحدثه ، أنه يسير وحده ، تأثها في ظلام الليل الذي لف نفسه حوله ، وجعل يهدده الى الأمام . وكان يعرف أنه مسوق للغواية في مكان ما ، الا أنه لم يكن يملك أية قدرة على المقاومة ، وقد جد به التعب والضمنى فلم يعد يستطيع الى التفكير من سبيل . ولم تكن به رغبة في معارضة ما يقول أختشيف . . . ولماذا يفعل !

واسنمر أختشيف في حديثه مزهوا بحكمته فقال :

- اننا انما نحيا حياة واحدة ، ومن ثمة وجب ألا نضيع أى قدر من الوقت هدرا . . وصدقنى . ولكن . . فيم هذا الاسراف فى الكلام ؟ اسمح لى بأن أنتشلك مما أنت فيه . . . هلم بنا الى منزل تعيش فيه أختان . . يا حسن ما تعيشان ! تعال . . تعال . . هل تقبل ؟

ويجيبه فوما وهو يتثاوب فى غير مبالاة :

- ولم لا ؟ ولكن . . ألا ترى أن الوقت لم يعد مناسباً ؟
- ان الوقت لا يكون غير مناسب مطلقا ما دمنا سنذهب ونراهما ،
قالها أختشيف وهو يكاد يطير فرحا .

الفصل الثامن

وجد فوما نفسه بعد ثلاثة أيام من حادثة النبادى ، فوق المرفأ الخشبي الذى يملكه التاجر زفانتسيف ، والذى على بعد سبعة أميال من المدينة ، وفى صحبته أربع نساء ، وصديقه أؤختسيف ، وابن التاجر زفانتسيف ، ورجل أنيق آخر ، أصلع الرأس ، أحمر الأنف ، ذو شوارب مدلاة على جانبي فمه . وكان زفانتسيف فتى حدث السن شاحب اللون نحيل الجسم ، يلبس نظارة من النوع الذى يشبك على الأنف . وقد جعلت عضلات بطن ساقيه تختلج مع أنه واقف ساكن لا يتحرك ، كأنها تكره حمل جسمه النحيل المنتهى من أعلى بهذا الرأس الصغير المضحك المغطى بهذه الطاقية الجوكى التى أرخى فوقها طرطور معطفه الطويل ذى الترايبع . وكان السيد الأنيق ذو الشوارب المدلاة يدعوه جان ، وتسمعه ينطق بهذا الاسم بشيء من الحنف كأنه مصاب ببرد مزمن فى أنفه .

أما فتاة جان فطويلة مملوءة الصدر ، ذات رأس مبسط يبدو كأنه دق من الجانبين ، ولها جبين يتقلص من أعلاه الى الخلف تقلصا شديدا ، وأنف بالغ الطول يضفى عليها هيئة الطير . ولم يكن شيء من هذا الوجه القبيح كله يبدى أية حركة ، إلا العينين الصغيرتين المستديرتين الباردتين اللتين كانت حدقتاهما تدوران الى أعلى باستمرار فى ابتسامة ماكرة . أما فتاة أؤختسيف فاسمها فيرا ، رهى بنية طويلة شاحبة ذات شعر غزير أصحر ، يبدو لغزاته كقبعة ضخمة مكبوسة دائما على أذنيها وخديها وأعلى جبينها ، وهذه لزوج من العيون الزرق الذى يفتر تفتيرا حلوا من تحتها .

وكان السيد ذو الشوارب المدلاة يجلس بجانب فتاة صغيرة بضعة يانعة ، لا تقلع عن الضحك لاشياء يسرها السيد في أذنها وهو مائل فوق كتفها .

أما فتاة فوما ، فقمحية اللون ، هيفاء القوام ، وملابسها كلها سوداء . ولها بشرة سمراء وشعر مموج . ورأس مرفوع لا يطأطيء ، وتلقى نظراتها على كل ما حولها في ترفع واستعلاء ، حتى ليدرك الانسان بسهولة أنها تعتبر نفسها فوق مستوى زميلاتها .

وكانت الجماعة قد انتظمت فوق آخر عوامة من سلسلة العوامات الممتدة الى مدى بعيد في داخل النهر الوديح الخالي من السفن . وقد صفت ألواح الخشب فوق العوامة ، وقامت في وسطها منضدة خشنة ، وانتشرت سلال الطعام والزجاجات الفارغة وأكياس البونبون وقشر البرتقال في كل مكان . وكانت كومة من التراب تشاهد في أحد أركان العوامة ومن فوقها موقد جثم بالقرب منه فلاح لبس فروة من فراء الغنم ، وجعل يدفئ يديه ، ملقيا نظراته على أسياده الذين كانوا قد انتهوا توا من تناول شيء من حساء السمك ، ثم حفلت المائدة التي أمامهم بعسد ذلك بألوان الشراب والفاكهة .

وكان ما بشموا به من كثرة الاكل والشرب ، فضلا عن يومين متصلين من الفسق والفجور قد أنهكهم وجعلهم جثثا هامدة لا حياة فيها . وقد سمرت عيونهم جميعا في صفحة النهر ، وهم يثرثرون بأحاديث لا تلبث أن تنقطع . وكان اليوم من أيام الربيع الصافية التي تبعث النشاط في النفوس ، شأن أيام الربيع ، والسماء الصافية الباردة تمتد في جلال وروعة فوق النهر المعتم المفعم بالماء . وقد لف ضباب المساء المائل الى الزرقة شعاف التلال الممتدة على ضفاف الماء ، وأخذت صلبان الكنائس الباسقة فوقها تتألق كأنها النجوم والنهر المنساب في أكتاف التلال البعيدة يبدو رشيقا غامر

إجمال ، والزوارق البخارية هابطة فيه مصعدة ، وأصواتها وهي
تمخر في الماء تصل في زفرات ثقيلة متعبة الى الشاطئ ذى المروج ،
حيث يملأ الهواء خريير الأمواج الخفيفة المتلاحقة بأصوات لطيفة
متكسرة . ثم اذا صف من الصنادل الكبيرة يشق طريقه ضد
التيار فيبدو أشبه بصف من الخنازير ذات الأجسام الضخمة المهولة
وهي تحرث الماء بخطمها وأنوفها حرثا شديدا ، والدخان الأسود
ينبعث في دفقات متقطعة من مداخنها ، ثم يتداوب ببطء في الهواء
الصافي . والصفارات التي تنطلق بين فترة وأخرى توحى بما يشبه
زئير بعض الوحوش المهولة التي ألجمتها الجن وسخرتها في القيام
بأعمالها . لقد كان كل شيء هادئا ساكنا في المروج المائية ، وكانت
الاشجار التي تبرز رهوسها هنا وهناك فوق صفحة الغضان مجللة
ببعض الاغصان الخضرة النضيرة ، والماء يخفى جذوعها ويعكس في
أديمه فروعا فيجعلها أشبه بكرات خضراء تتراشق في الهواء ، في
جمال خيالي ساحر . . . وأقل هبة من النسيم تدغدغ سطح الماء
المجلو الناعم فتجعله نثارا . . . يجري بعضه في اثر بعض .

وبدأت المرأة ذات الشعر الأصفر . . هذا الشعر الأحمر الداكن
. . تغنى بصوت هادئ حزين ، وعيناها ترمقان البعد

يا شراعا في يم فلجة يجرى

ناعم البال صانه تياره . . .

وتقطب قمحية اللون وتغضى عينيها الكبيرتين استخفا ، ثم
قول وهي تشيح بوجهها :

- كفى ما نحن فيه من وحشة فلا تزيدنا كآبة بغنائك .

ويقول فوما لفتاته ، وهو ينظر في وجهها نظرة رقيقة :

- بل دعيها تقنى !

ثم اذا هو شاحب الوجه جدا ، وقد انطفأ بريق عينيه ، وأخذ
ابتسامة غامضة حزينة ترف حول شفثيه •

واقترح السيد ذو الشوارب المدلاة أن تغنى الجماعة كلها •
ولكن أُوختشيف أسرع يقول :-

- لا •• بل تغنى فيرا وبافلنكا فقط • فيرا •• غنى أغنية
سأذهب مع الفجر - غنى معها يا بافلنكا •

وأومات الضاحكة الى القمحية وقالت مستأذنة :

- هل أغنى يا ساشا ؟

وتجيبها ساشا ، صاحبة فوما :

- بل •• سأغنى أنا ••

ثم تلتفت الى الفتاة التى لها أنف كمنقار الطير ، وهى ، على فكرة
أختها ، وتقول :

- غنى يا فاسا

وتجرى فاسا احدى يديها على حلقها ، وتنظر الى اختها ، فتقف
ساشا ، وتتكىء على المنضدة باحدى يديها ، وتميل الى الوراء برأسها،
ثم تشرع فى الغناء بصوت يشبه فى قوته وفى عمقه صوت الرجال :

السعيد السعيد من لا يبالى

بالذى تنذر البرايا الليالى

ذو فؤاد لا ينثنى فى نضال

وجنان أجرا من الرئبال •••

وتومئ أختها بحركة من رأسها ، ثم تغنى بصوت واطىء حزين
متدرج النغمات :

يا لقلب حملت ذات شجنا

وتلمع عينا ساشا ناحية أختها وهى تستجيب بنغمات عميقة :

قد ذوى منها كما يذوى الشجر

وتعانق الصوتان وأتلفا ، ثم طفوا فوق الماء فى نغمات خصبة
ممثلة كانت ترتجف من فرط ما فيها من قوة • لقد كان أحسد
الصوتين يشكو من شجو فوق ما يسع الصبر نفسه ••• شجو كان
مما بصاحبه من ظمأ يجرع سموم شكواه ، وهو ينشج بنشجه الذى
لم يكن يجدى معه عزاء •• أما الصوت الآخر •• الصوت العميق
الجرى ، فكان يذرف الدمع ليطفى نيران العذاب ، وكان يجلبجل
محنقا وهو يدوى قويا فى الهواء ، كما كان يتدفق بمقاطعہ الجليلة
الواضحة ، فى فيض جياش ، يحمل فى كل كلمة من كلماته نذر
الانتقام •

وسيلقى ذلك القاسى جزاءه •••

لقد كانت فاسا تغنى هذا اللحن النائح وهى مغمضة العينين ،
على حين كانت ساشا تغنى لحنا عاصفا ، فيه نذير وفيه تحذير ،
كانت تقذف بالكلمات فى الهواء قذفا ، وفى تصميم مخيف :

سوف أصليه وأشموى جلده

ثم غيرت الوزن والنغمة فجأة ، وكان الابتهاج يفرها وهى تصب
لشمتائم واللعنات بصوت طويل ممدود كصوت أختها :

أجف من الريح •• ريح الصحارى

أجف من العشب فى الشمس ملقى

ألم به منجل لا يبارى

ألم به منجل لا يبارى •

وكان فوما متكئا بمرفقه فوق المنضدة ، وهو يخلق فى وجه الفتاة ، وبالأحرى فى عينيها السوداوين الناعستين ، المحدقتين فى الفضاء ، وروح الانتقام يشع منهما فيجعل صوتها الناعم الباعم المتدفق من حنجرتها القوية أسود حالك السواد مثل عينيها ، متلائلا كما يتلا "ان ! وهنا .. تذكر ملاطفاتها له بيديها الناعمتين ، فراح يسأل نفسه : ترى ؟ ما الذى أصارها الى تلك الحال من الثورة والعنف ؟ انى لا لمس فيها شيئا مخيفا مفرعا !

أما أوتختشيف ، فقد قبع الى جانب صاحبتة ، وراح يستمع الى الغناء ، وعلى وجهه سيماء الانشراح والرضا . على حين كان زفانتسيف والسيد ذو الشوارب المدلاة مكبين على شرابهما ، ويتهامسان . أما الفتاة ذات الشعر الأصفر فكانت ممسكة بيد أوتختشيف ، وهى تدرسها بعناية وروية . وقد اكتسى وجه الفتاة الضاحكة بسيماء الوداعة ، وهى تنصت الى الموسيقى ، برأس منكس لا يكاد يتحرك ، وكأنما كانت تحت سحر إحدى الرقى ! وترك الفلاح مقعده عند الموقد ، وهب واقفا ، ثم جعل يمشى على أصابع قدميه فى حيطه وحذر ، ويداه خلف ظهره وعلى وجهه العريض ذى الشارب ابتسامة تختلط فيها الدهشة والبراءة .

آه .. رفقا بى .. صغيرى !

بهذا كانت تتغنى فاسا ، وهى تهز رأسها نائحة باكية .. على حين كانت أختها تختم الاغنية ، رافعة ذقنها أكثر مما كان مرفوعا ، بهذه الفقرة :

هكذا آلام حبيبى .. وغرامى .

حتى اذا فرغت ، جعلت تنظر حولها معجبة مزهوة ، ثم جلست الى جانب فوما ثم لفت عنقه بذراع قوية متينة . وسأله :
الغنية جميلة ؟

فقال لها وهو يبتسم لها :

« حلوة »

وصاح أوختشيف :

« مرحى ساشا .. مرحى ساشا .. »

ودوت أكف الجميع بالتصفيق ، لكنها لم تلتفت اليهم جميعا .. بل راحت تعانق فوما فى دلال وتقول له :

« لابد من هدية على هذه الاغنية »

« لابد .. لابد »

« وما هى ؟ »

« أى شىء تشتهين »

« حينما نعود الى المدينة .. أو .. ستريين من حبى ما لا يخطر لك »

يبال اذا أهديت الى ما أطلب !

وقال لها فوما وقد ضحك ضحكة يشوبها الشك :

« لهذا السبب فقط ! ألا يمكن أن تحبينى من أجل أنا لا من أجل شىء آخر ؟ »

وجعلت تنظر اليه بهدوء ، وبعد لحظة من التفكير قالت له :

« والله .. لا أستطيع أن أقطع فى ذلك برأى .. وأنا لا أستطيع »

« إن أكنب .. والنزى أستطيع أن أقوله بصراحة ودون أن أكنب هو »

« اننى لا أحب أحدا الا من أجل ماله أو من أجل هداياه ، وإن كنت »

« أعرف أن الانسان يمكن أن يحب بغير هذين .. ولكن بالنسبة الى »

« حالتنا ، فلم يحن الاوان للحكم بعد .. ولعل ، بعد أن تزدد معرفتى »

« بك ، أحبك بلا مقابل .. مجانا ! اما الآن .. فلا تقس فى حكمك »

« على .. فمن كانت تعيش العيشة التى أعيشها تكون فى مسيس »

« الحاجة الى النقود .. والنقود الكثيرة »

وكان فوما ينصت اليها .. وبيتسم ، وكان يرتجف كلما مس جسمها جسمه .. وكان يدرك ما يقوله زفانتسيف بصوت عال مشروخ تضطرب له أعصابه .

« لست أدري لماذا يهرف كل انسان بما لا يعرف عن جبال الاغاني الروسية ؟ ماذا فيها من الجمال ؟ أعواء شرذمة من الذئاب الجائعة - المتوحشة التي تتضور من الجوع - أم نباح قطيع من الكلاب ؟ ماذا فيها من البهجة او الرقة ؟ انما يجب أن تسمع الفرنسيين وهم يفنون .. أو الايطاليين !

وقال أوختشيف محتجا فى غيظ واستياء شديد :

« كفى هذيانا ، ايفان نيكولا ييفتش !

ووضع السيد ذو الشوارب المدلاة كأسه ليقول :

« أتفق أنا وايفان فى هذا .. فالأغاني الروسية ، أغان رتيبة ومبتذلة .

وغربت الشمس ، وكانت وهى تغرب ترقش الماء بأصباغ القرمز والذهب فى مكان ما وراء المروج المائية . وبينما كان فوما واقفا يشهد مسرحية الألوان المرتعشة على صفحة النهر اللامعة ، خيل اليه أن نقف الأحداث التى كانت تصك سمعه ، لم تكن الا أشبا بفراشات سوداء تطير هنا وهناك ، خبط عشواء ، وبلا غرض .. وهنا وضعت ساشا رأسها على كتفه وهمست بكلمات فى أذنه جعلتا يصطبغ بحمرة الحجل ، ويود لو أخذها فى ذراعيه ، ويوسعها لثب وتقبيلها .. والى ما لا نهاية ! لقد كانت هى وحدها من دون هذه المجموعة كلها ، التى لا تعجبه بأية حال من الأحوال . كما كان يخشى زفانتسيف والسيد ذو الشوارب المدلاة ..

وأنشأ أُوختشيف يصيح فجأة .

« فيم تحملك ؟ »

وكان يوجه صيحته الى الفلاح الذى انتزع الطرطور من فوق
اسه وضرب به ركبته ، وقال وهو يبتسم :

« لقد .. لقد .. كنت أحب أن استمع الى غناء السيدة . »

« وهل أعجبك ؟ »

« ومن فى الدنيا لا يعجبه هذا الغناء . »

ثم نظر الى ساشا نظرة كلها طرب وقال :

« ان صدرها فيه قوى لا يستهان بها . »

وأثار قوله ضحك المرأة ، كما أثار تعليقات ظريفة بين الرجال .

وسأله ساشا :

« وهل تغنى أنت ؟ »

ويجيبها فى احتقار :

« اذا أمكن أن تسمى غنائى غناء . »

« وأى الاغنائى تغنى ؟ »

وضحك ضحكة خفيفة فيها ما يشبه الاعتذار ثم قال :

« أوه ! كل الانواع .. لقد أفنيت عمري غناء . »

« اذن هلم .. لنغن معا .. أنا .. وأنت . »

« اننى لست أهلا لمشاركتك فى الغناء ، ولا من مقامك يا آنسة ! »

« لتبدأ أنت .. »

وقال زفانتسيف وهو يبتدى امتعاضه :

« أليس هذا لطيفا ! »

وتقول له ساشا وهي تنظر اليه نظرة كلها ازدراء :
« اذا لم يعجبك غناؤنا ، فلك أن تقذف بنفسك فى النهر لتريح
منك . »

وانتفض زفانتسيف لهذا الكلام ، ثم قال :

« ان الماء بارد جدا . »

لكن الفرصة مناسبة ، فالنهر فى الفيضان ، وأنت لا يمكنك
أن تنشر السم فى كل هذا الماء بجثتك هذه المنتنة المتعفنة .

وخشن الشاب عليها فى الرد ، وقال لها بازدراء :

« وحتى الساقطات فى روسيا مجردات من الرقة . »

ثم انصرف عنها الى زميله الذى ابتسم له ابتسامة ثملة . وكان
«أوختشيف سكران هو أيضا ، وعيناه العمشاوان لا تريمان عز
صاحبه على حين كان يتمتم اليها بكلام متقطع مفكك . أما فتاة منقار
الطير (!) فكانت تنقر فى اصبع من الشكولاته وقد حملت الصندوق
كله تحت أنفها ، على حين انسحبت بافلنكا الى طرف العوامة تاكل
البرتقال وتقذف بقشره فى الماء . »

وقال زفانتسيف شاكيا لجاره :

« أبدا ما اشتركت فى شلة غريبة كهذه فى حياتى . »

وكان فرما ينظر اليه وعلى فيه ابتسامة ساخرة ، وقد سره ما كان
فيه من غم وانتقاض ، وأثلج صدره ما سلقته به ساشا من لسانها
الحاد . وكان يرمق ساشا مبتهجا . . لقد أحب فيها أجوبتها الناشفة ،
وما تصون به نفسها من تلك الكبرياء والترفع . . كأنها احسدى
سيدات الطبقة الراقية .

وناداهما الفلاح الذى كان واقفا الى جوارها :

« يا آنسة .. لعلك لا تبخلين على بقليل من الشراب أبل به ريقى .. وأرد به روحى !

« املا' له كأسا يا فوما .

وجرع الفلاح الكأس جرعة واحدة ، ثم أخذ يتمتق !

ثم تقول له ساشا :

« والآن .. فابدأ اذن .

ومط الرجل أحد أركان فمه ، ثم انشأ يغنى بصوت عال :

أنا لا أستطيع الشرب .. بل .. لست آكل (!)

فراحت الفتاة تتم البيت الثانى من الصوت نفسه :

فروحي لا تلقى المزيد من الحمر

وابتسم الفلاح ابتسامة تفيض بشرا ، وهز رأسه ، ثم أغمض

عينيه ، وشرع يقذف بسيل من الألحان العالية ذات السن :

وقد آن لى أن أرحل اليوم عنكمو

فأكملت الفتاة بصوت باك :

وأناى عن الأهل الكرام وعن صهرى

ثم خفض الفلاح صوته وأخذ يردد البيت الآتى بين الغناء وبين

الكلام :

وأوى الى أى المدائن ؟ لا أدرى !

وعندما تردد الصوتان الباكيان فى حواشى سكون الأمسية

الباردة ، بدا أن كل شىء قد شاع فيه الدفء والخير ، وبدا أن جميع

ما فى الوجود كان يفتر عن ابتسامة ملؤها الحنان والرثاء لهذه النفس

البائسة التى كانت القوى والظروف الغامضة تنزعها من الأهل

والوطن انتزاعا ، وتذهب بها الى ارض غريبة .. لتذوب نفسه
حسرات في شقاء العمل . ان شكواه لم تجد صداها في الصوت أو
في الاغنية ، ولكن في دموع الانسانية المنبثقة من قلبه الدامي ..
ان شقاء الروح التي اتعبها النضال ، وألم الجراح التي نكأتها يد الحاجة
الحديدية - ان هذا كله هو الذي كانت تعبر عنه تلك الكلمات الفجة ،
وهذا الايقاع الباكي الذي يستحيل وصفه ، والذي كان يطفو عاليا
.. في السموات الحالية البعيدة الاتفاق .. التي تمتنع فيها الاصداء
على الأصوات .

واعتزل فوما المغنين ، وراح يلاحظهم بشعور أقرب الى الخوف .
لقد كانت الاغنية تنساب في قلبه انسياب الماء المغل ، فتستولى على
روحه بما في فيض أشجانها من قوة ، ومن ثمة ، أحس برغبته في أن
يذرف دمه صبيبا ، كما أحس بانقباض في حلقه ، واختلاج في
عضلات وجهه ، ولقفت عيناه نظرة مهوشة لعيني ساشا السوداوين
- هاتين العينين العظيمتين الراسختين اللتين كانتا كأنهما تكبران في
كل لحظة عما كانتا .. وخيل اليه أن الغناء لم يكن صادرا عن
شخصين فحسب ، بل أن الكائنات كلها كانت تغنى وتنشج وترتجف
مما بها من شجن ، وأن كل النسيم ، وكل ما فيه نفس يتردد كان
يلوذ بعضه بكنف بعض في قنوط وفي ياس .

وحينما انتهت الاغنية أحس برجفة تسرى في كيانه ، ورآه يبتسب
للمغنى والمغنية والدمع ينهمر من عينيه .

وسأله ساشا :

« هل بلغ تأثيرها فيك هذا المدى !!

لقد كان وجهها ممتعا مما بذلت من جهد ، وأنفاسها تتلاحق
بسرعة . ونظر فوما الى الفلاح الذي كان يجفف العرق المتصبب على
جبينه ، وهو ينظر من حوله في دهشة ، كأنه لا يفهم ما جرى .

ولم يكن يسمع أى صوت ، ولا يحس لهذه الجماعة أى ركز ، لقد
انوا جميعا يجلسون صامتين مبهورتين لا ينبسون !

ويقول فوما وهو يحاول أن يقيق مما غرق فيه من ذهول :
« يا لله ! ساشا ! وأنت .. أيها الأخ الفلاح .. ترى ؟ من أنت ؟
ويجيبه الفلاح كالمعتذر ، وعلى فمه ابتسامة :

« استبان .. اسمى استبان »

ويقول فوما وهو مأخوذ من الدهشة :

« ما أروع ما تغنى !

ويزفر الفلاح الروسى ويقول :

« عفوا سيدى .. انما هو البؤس الذى يصنع بنا هذا - البؤس
الذى يستطيع تحويل العجول الى بلابل - أما هذه السيدة الصغيرة -
فليس يعلم الا الله ماذا يجعلها تغنى هذا الغناء الجميل .. ان الانسان
اذا سمعها ، وشبع منها .. هانت عليه الدنيا وما فيها .. انها
جوهرة يا سيدى .. انها جوهرة !

ويقول اوختشيف وهو سارح من السكر :

« أداء جميل جدا ..

أما زفانتسيف فيقول فى هياج وانفعال :

« لعنة الله على الجميع ! لقد جئت هنا لاستمتع بوقت طيب ..
لا أمتع نفسى .. لا لكى أسمع ندبا فى مناعة .. ان هذا شئ مهيج
.. محطم للأعصاب .. ولا أسميه غير هذا .. لقد ضاق صدرى ..
وذاب صبرى .. ولم أعد استطيع البقاء هنا .. أنا منصرف ! »

ويقول له ذو الشوارب المدلاة :

« خذنى معك يا جان »

و نادى زفانتسيف صاحبه :

« فاسا .. البسى .. »

وتقول الفتاة ذات الشعر الأصفر لاؤختسيف :

« هيا .. حان أن ننصرف .. والبرد يشتد ، والدنيا توشك أن
تظلم . »

وتأمر فاسا الفلاح استبان بجمع كل ما يخصها .

ويأخذ الجميع فى التحدث والاستعداد للانصراف ، وفوما ساهم
واجم ، ينظر اليهم وهو لا يكاد يفهم شيئا .. ولا ينفك يرتجف من
حين الى حين .. والجميع يترنحون ، وقد ظهر الشحوب والذبول على
وجوههم ، وبعضهم يوجه الى بعض كلمات قدرة فى عبارات مخمورة
متقطعة ، وكانت ساشا تدفع بهم دفعا وهى تجمع حاجاتها وتقول :

— استبان .. ناد الحيل .

أما صاحبنا ذو الشوارب المدلاة فكان لا يزال يهلوس ، ويلو
بزجاجة وكأس فى كلتا يديه .. ويقول :

« اننى أشرب كأسا أخرى .. فمن يريد أن يشاركنى ؟ »

ولفت فاسا ايشاربا حول رقبة زفانتسيف الذى كان يقف أمامها
مقظبا كالطفل العابس وقد ملأت وجهه التجاعيد ، وعضلات رجليه
تختلج بحالة عصبية .. وقد ملأ منظره فوما بفثيان شديد حتى لقد
زوى وجهه عنه ، بل ترك له العوامة كلها ، وقفز الى العوامة المجاورة .
وكان مثار عجبه أن هؤلاء الناس كانوا يتصرفون وكأنهم لم يستمعوا
الى تلك الاغنية الساحرة .. وكان هذا لا ينفك يشغله ، ويثير فى
نفسه رغبة فى أن يقول شيئا ، أو يفعل شيئا .

وكانت الشمس قد غربت تماما فى تلك الآونة ، واتشح المغرب

بوشاح من الضباب الأزرق الذى لم يكده فوما يرمقه حتى أشباح
بوجهه عنه . ولم يرد فوما أن يعود الى المدينة فى صحبة هؤلاء
لأحلاس الذين كانوا لا يزالون يتنقلون فوق العوامة بأرجل متخاذلة
ثقيلة ، مترنحين من جانب الى جانب وهم يتمتمون بما لا يفهم . لقد
لانت النساء أكثر رزانة من الرجال ، وإن مضى بعض الوقت على الفتاة
القمحية حتى استطاعت أن تنهض ، مما كان بها من خمار ، وقد
أدركت هى ما بها من السكر حينما همت بالوقوف وهى تقول :

« حسنا .. الظاهراتى .. سكرى ! » .

وجلس فوما على قرمة من الخشب سواها الفلاح بساطوره ، ثم
ناول هذا الساطور وراح يقذف به فى الهواء ثم يتلقاه بمهارة ، ممة
جعل زفانتسيف يزوم قائلا : « يا للسوقية والفظاظة !

ولم يكن فوما يتصور هذا الانسان .. بل لم يكن يحب من هذه
المجموعة كلها سوى ساشا .. تلك المرأة التى ملائت قلبه رهبة ،
وجعلته فى خوف دائم من أن تأتى عملا غير منتظر من الأعمال التى
تجلب الكوارث .

وصرخ زفانتسيف :

« أنت أيها القدر !

ورآه فوما وهو يدفع بالفلاح الذى خطف طرطوره وولى مستخفيا ،
وصاح زفانتسيف وهو يفتفى أثره مهتاجا محنقا :

« يا أحمق .. يا أبا رأس جامد !

وهنا ، صاح فوما محذرا :

« قف . حذار أن تمسه بأذى .

وصرخ زفانتسيف ، وهو ينظر الى خلف :

« آه !

وحنى فوما ظهره متوثبا .. ثم دلف نحوه . وهنأ ، لمعت فى رأسه فجأة فكرة فكهة .. فهمس فى أذن الفلاح وهو يضحك ضحكة تفيض جدلا :

« هل العوامة مربوطة فى ثلاثة أماكن ؟

« نعم ..

« اقطع الحبال بالساطور .

« ولكن .. الناس !

« صه .. اقطعها قلت لك .

« ولكن .. اذا ..

« اقطعها .. واقطعها دون أن يتنبه اليك أحد .

وأخذ الفلاح الساطور وسار متباطئا الى طرف العوامة حيث كانت الأربطة . وضرب الحبال ضربات متتابعة .. ثم عاد الى مكانه بجانب فوما ، وهو يقول له :

« انى لا أريد أن أرد على ما قال يا سيدى .

« لا تخف .

وقال الفلاح وهو مذعور ، وقد راح يصلب على نفسه بسرعة .

« ان التيار يجرفها بشدة !

وضحك فوما فى نفسه ، وأن يكن قد أخذ يحس باضطراب فى بطنه ! وشعور شائك ملتهب ناشئ من خوف لم يكن له عهد به من قبل .. وان وجده شعورا لذيذا حلوا .

وكانت الجماعة لا تزال تنتقل فوق العوامة ، يصطلم بعضهم ببعض ، ويساعد بعضهم بعضا فى ارتداء معاطفهم ، ضاحكين مثرثرين على حين كانت العوامة تنفصل عن الشاطئ « ببطء » وتبتعد عز العوامات الأخرى .

وهمس الفلاح شبه معترض :

« انهم اذا اصطدموا بسلسلة من العوامات .. لتحطموا .. وانتهى الأمر »

« أسكت أنت .. نأخذ زورقا ونتبعهم »

« نعم نعم .. الا أنهم ناس .. لا تنس هذا »

وقفز الفلاح وراء فوما وهو يبتسم من عوامة الى عوامة حتى بلغا الشاطئ . ثم وقف فوما يحملق فوق الماء ، وبه شوق الى أن يصيح بالجماعة .. الا أنه كان يكتنم هذا الشوق حتى تكون بين العوامة وبين البر مسافة لا يجرؤ رفاته المخمورون أن يقفزوها ، والا وقعوا في الماء . وقد كان يجد في نفسه متعة وسرورا وهو واقف ينظر الى العوامة ، والتيار يحملها بعيدا بعيدا . وكان ابتعادها عنه كن يبعد عن قلب فوما ما خامره من الخوف والتوجس من قبل ، فراح يستنشق أنفاسا عميقة من الهواء النقي المنعش الذي أعاد الى رأسه صفاء ، وكانت ساشا تقف وظهرها اليه فوق حافة العوامة التي يجرفها التيار ، وقد ذكره منظر قوامها الجميل بقوام صوفيا بافلوفنا ، الا أن صوفيا كانت أصغر وأنحل .

وكانما أحس بوخز ذكرياته ، فصاح في لهجة ساخرة :

« وداعا ! أيتها الرحلة السعيدة ! »

وفجأة ، وفي وقت واحد ، تقوم جسوم الجماعة الدكناء بحركة نحوه ، فإذا هم جميعا يتكتلون في وسط العوامة ، وقد أصبح بينهم وبين فوما سنت أقدام من ماء النهر .. وبهتوا ! ولم ينبس منهم احد بكلمة فترة من الوقت .

ثم اذا عاصفة من الصراخ والصياح والولولة الرهيبة تنبعث من غريزة الخوف الفطري المركبة في طبائع الأحياء جميعا . وكانت أشد

الصيحات وأقوامها جلجلة وأعلاما دويا ، تلك الصيحة الرفية
المصرصة المرسعة التي أرسلها زفانتسيف وهو يصرخ :

- الـ ٠٠ نـ ٠٠ جـ ٠٠ مدة !

ثم يسمع بعضهم يزأر في صوت عميق ٠٠ لابد أنه صوت السيد
ذى الشوارب المدلاة .

- انه يريد اغراقنا ٠٠ انه يفرق أناسا، أحياء !

وصاح بهم فوما الذى كانت صيحاتهم تخزه وتقرصه كما تقرص
الحشرات السامة :

- اتسمون أنفسكم ناسا ؟

ورقفت الجماعة تزوم فوق العوامة فى فسزغ ، وكانت حركاتها
تؤرجع العوامة مما جعلها تنجرف أسرع وأسرع . وكان من الممكز
سماع الماء وهو يرقطم على جوانبها ومن أسفل منها ، وأخذت
صيحاتهم تشق الهواء ، وهم يثبون ويلوحون بأيديهم ٠٠ وكانت
ساشا وحدها هى التى ظلت حيث هى ٠٠ لا تریم ٠٠ ساكنة ٠٠
رابطة الجاش .

وصاح فوما مازحا :

- تحياتنا للاسماك والسرطين و ٠٠ أبو جلمبو :

وكان قلبه يزداد نشوة وابتهاجا ٠٠ كلما أبعدت العوامة فى اليم
وأخيرا صاح أختشيف فى صوت رزين ، وان تكن به رجة :

» فوما اجنا تيفتش ا فكر فيما أنت صانع ٠٠٠ ان هذه لعبة خطيرة
وسأقدم فيك بلاغا !

وضحك فوما وهو يقول :

« ان شاء الله .. بمجرد ان تطلع روحك ، أرجو أن تسارع الى تقديم هذا البلاغ .

وعاد زفانتسيف الى نشيجه وبكائه صائحا :
« أيها القاتل !

وقبل أن يجيبه فوما ، اذا شيء يرتطم فى الماء فيحدث صوتا يجعل النهر نفسه كأنه يذعر ويرتجف ، ويفغر فاه هلعاً .. وسرعان ما ارتجف فوما هو أيضا ، وتثلج .. لقد أرسلت النسوة صرخة مفزوعة ، وجعل الرجال يصيحون مرعوبين ، واخذ أثر الارتطام يبدو على وجوه الجميع فيملؤها بالذعر ... وراح فوما يحملق فى الماء مبهورا ... لقد كان فيه شيء أسود اللون يجاهد فى الوصول اليه .

وقذف فوما بنفسه فى الماء بدون تفكير على العوامة ، ثم مد ذراعه فوق صفحة الماء .. ومضت ثوان لم تكن من عمر الزمان ... ثم أحس أخيرا بأصابع باردة .. مبللة .. تمسك بأصابعه ، ثم اذا عيناه نرمقان عينين سوداوين تحدقان .

وحل الفرخ فى قلبه محل الذعر ... لقد شد الفتة ، ثم انتزعها من الماء ، وضمها الى صدره ، وراح يتفرس فى عينيها دهشا مسبوها بهو لا يدري ماذا يقول لها ... وابتسمت الفتاة اليه ابتسامة رقيقة .
وقالت ، وقد سرت فيها رعشة :

— برد !

وعند ماصافح رنين صوتها سمع فوما .. ضحك مبتهجا مسرورا ، ثم حملها فى ذراعيه ، وراح يتواثب فوق العوامات حتى كان على لشاطئ ، وكان يشعر بها باردة مبللة كأنها سمكة ، الا أن أنفاسها كانت تفيض دفئا وحرارة ، لقد كانت تلفح وجهه ، وتغمر فؤاده سررة وبهجة .

وقالت له وهى تتشبث به :

- وهكذا كنت تريد أن تغرقنى .. أليس كذلك ؟

فقال وهو يهرب من الإجابة :

- ظريف جدا القاوُك بنفسك فى الماء :

- وقد كان ظريفا منك أيضا ما صنعت ، من كان يتصور كل هذا
الجرأة يفيض بها قلبك ؟

- اسمعى اسمعى .. انهم لا يزالون يصيخون .

- الى الجحيم جميعا ! لكن .. اسمع .. انهم اذا غرقوا ، فستذهب
أنت وأنا الى سيبيريا .

ثم عادت اليها قشعريرتها .. ولما احس فوما ذلك ، راح يعدو
بها .. ويعدو .

وكانت الصيحات تنبعث من ورائهم طالبة النجدة .. وكانت
العوامة قد ابتعدت ، وأخذت تبدو كأنها جزيرة نحيلة فوق صفحا
الماء المنبسط ، وعليها أشباح آدمية داكنة تمرمر وتتململ ، والتيار
يجرف الجميع فى أديم الغسق .. بعيدا .. بعيدا .. عن الشاطئ
.. نحو ثبج التيار نفسه ، وأقوى جزء فيه .

وكان الليل يرخى سدوله .

الفصل التاسع

فى ظهيرة أحد أيام الاتحاد كان ياكوف ماياكين جالسا يشرب الشاي فى حديقة منزله تحت شجرة ظليلة من أشجار الكريز ، وياقة غميصة مفقوحة ، وحول عنقه فوطة يمسح بها عرقه المتصبب ، وقد جعل يرمى بيده هنا ويرمى بيده هناك ، وهو ممتلئ نشاطا وحيوية . لسانه لا يكاد يقف من طول ما يثرثر .

— ان الذى يسمح لبطنه بالتحكم فى عقله مجنون أحمق . . . ووغد لقد كانت عينا الرجل المعجوز باديتى الغضب ، وشفتاه تختلجان اختلاجة ظاهرة التأفف والازدراء ، والنصف الأسفل من وجهه ممتلئ بالتجاعيد التى تلعب وتهتز .

— اذا كان فوما ابنى الروحى أو ابنى من صلبى ، أفلا أعلمه شيئا أو شيئين ؟

وكانت ليوبا جالسة تعبت يعود من أعواد الأكاشيا ، وهى تتفرد فى وجه أביها الشديد الانفعال ، المختلج العضلات ، وكانها تدرسه ، ولكن فى صمت وبلا تعقيب ، وكان ميلها الى أبيها أخذ يقل عما كان متورا ونفورا ، وان لم تدرك معنى ذلك ، وكان ماياكين ، بالرغم من ذكائه الجم وحيويته التى لاخذ لها ، منطويا دائما على نفسه ، مؤثرا للعزلة ، وكانت ليوبا تدرك وخشته هذه ، وتعرف أنها مما لا يطاق ، وكان فى هذا مثار حنانها عليه وراثتها له ، وكانت أحيانا تتعمد مجاورته ومناقشته . وكان يكره دائما أن تعرض عليه أى اعتراض

ولهذا كان يسخر منها ويسمها "يسمهي" باعتراضاتها ، وإن كان يصغى الى حججها دائما بانتباه وامعان وطول أناة .

وأخذ الرجل يتحدث الى ابنته وهو يضرب بيده على المنضدة بقبضته قائلا :

- لو استطاع المرحوم اجنات أن يقرأ ماتكتبه الصحف عن ابنه لقتله . . يالهول ماتنشره هذه الصحف ! . فضائح !

وتجيبه ليوبا :

- انه يستحق .

- أنا لم أقل انه لا يستحق . . ولا دخان بلا نار . . ولكن . . يا ترى ، من هذا الشخص الذى كتب هذا الكلام ؟

- وماذا لو بقى اسمه مجهولا أو عرف الناس من هو ؟

- جميل ! لقد أبدع الوغد فى وصف سلوك فوما . . انه كان ولا بد أحد أفراد هذه الجماعة ، وانه ممن شهد الحادث القدر بنفسه .

- انه ليس من أصدقاء فوما بحال .

وقد شاعت حمرة الخجل فى وجه الفتاة وهى تقول هذا ، ولا سيما عند ما حدجها أبوها بنظرة لها معناها ، وعند ذلك قال لها ببطء وبلهجة قارصة :

- ماشاء الله على أصدقائكم الظرفاء يا آنسة ؟ حسن . . فمن كتب هذا إذن ؟

ولم تكن تود أن تخبره . . الا أنه أصر على أن يعرف ، وبصورة فيها غلظة وفيها خشونة :

وأخيرا قالت ليوبا :

- عدنى أولا انك لن تناله بأذى .

- لاأناله بأذى ؟ ماشاء الله .. انى سأقصف رقبته أيتها المجنونه .. انهم ليسوا حمقى ، هؤلاء الذين يكتبون فى الصحف .. انهم قوة مهولة .. عليهم لعنة الله ! ثم أنا لست المحافظ .. وحتى لو كنت المحافظ ما استطعت أن أكسر أيديهم ولا أن أقيد السنتهم .. انهم كالجرذان ، لاثنى عن الحفر والنقب .. قولى اذن .. من كتب هذا ؟

- هل تذكر الطالب الذى كان مع فوما فى المدرسة ، والذى اسمه ييزهوف ؟ الذى كان يحضر لزيارتى عندما كنت لأزال فى المدرسة ؟ هذا الشاب ذا الشعر الاسمر !

- أذكره .. فهو اذن كاتب هذا كله ؟ انه جرد بالفعل ! ان الانسان لم يكن يتوقع أى خير من هذا الملعون بالرغم من صغره فى تلك الايام ! ولو قد عرفته لاحضنته ، وربما كنت صنعت منه رجلا ! وهزت ليوبا كتفيها ، ثم راحت تسال أباهما متحمدة :

- وماذا جرى ؟ أليس رجالا هؤلاء الناس يكتبون للصحف ؟ ولم يعجل ماياكين بالجواب .. بل ظل ينقر على المنضدة وهو يتأمل صورته فى سطح غلاية الشاي النحاسى اللامع . ثم قال أخيرا ، وهو يرفع رأسه ويفتر عينيه :

- كلا .. ليسوا رجالا .. انهم قرح وخراريج ! لقد قسد الدم الروسى .. وهذا الدم الفاسد هو الذى يفلو مؤلفى الكتب وكتاب الصحف ، ومن اليهم من أولئك الفريسيين الهمج . انهم خراريج انتشروا فوق جسم روسيا كله .. ولا تزال العدوى منتشرة .. ولنتساءل : لماذا فسد دم روسيا ؟ الجواب : لانها تسير ببطء شديد .. ان فيها مستنقعات يتكاثر فيها البعوض .. ان كل أنواع

الطفيليات تنمو في المياه الراكمة .. وهذا هو ما يحدث تماما حينها
تصبح الحياة راكمة .

وقالت ليوبا في ظرف :

- لا احسب أنك على حق في هذا أيها السيد الوالد :

- ولماذا ؟

- لاظنك على حق . ان الكتاب من سائر الناس في الدنيا كاف .
هم الذين لا يسرهم شيء .. ولا يعجبهم العجب . ان من واجب الناس
ان يظفروا اليهم باحترام ، ويعتمدوا عليهم كل الاعتماد .. انهم
لا يكتبون لغرض ، ولا يلتمسون شيئا لانفسهم . وليس لهم
هدف الا العدالة .. والا الحق .. انهم ليسوا بعوضا .. بل هم ..

ولم تكن ليوبا تستطيع كبت انفعالها وهي تتغنى بمحامد أولئك
الذين تعجب بهم الاعجاب كله .. وقد صبغ خداهما بلون الدم ..
وكانت عينها تنظران الى أبيها متوسلتين ان يصدق ليوبا حتى لو
لم تكن قادرة على اقناعه بالكلام .

وقاطعها الرجل بقوله وهو يتنهد :

- يا حول الله ! انك تقرئين كثيرا يا ليوبا .. فقول لي اذن .
من هؤلاء الكتاب وما هم ؟ لا أحد يعلم ! فهذا يزهوف مثلاً - من
هو ؟ انه بشر ! دمل ! ولا يزيد عند الله عن هذا ! انك تقولين انهم
لا هدف لهم الا الحق .. يا سلام ! ما شاء الله ! ولكن ماذا
يصنعون اذا وجدوا أن الحق أندر من الكبريت الأحمر في هذا الوجود ؟
ثم ماذا اذا كان كل منهم يبحث عن الحق بطريقته هو ، ومن وجهة
نظره هو ؟ صدقيني ، انه ليس في الوجود هذه الخرافة التي يسمونها
الشخص غير الانساني ! وليس في الدنيا من يشتبهى الحرب دفاعاً
عنه ليس له ! واذا وجد هذا الشخص فهو مغفل ابله ، ولن يرجع

منه اى خير ، لا لنفسه ، ولا لائى شخص آخر . واذا اراد انسان ان يتجح فى هذه الحياة فلا بد له من أن يتعلم كيف ينافح عن حقوقه . عما يخصه هو شخصيا . الحق ؟ الله الله ! لقد ظللت حوالى اربعين عاما لا أقرأ الا صحيفة واحدة لا غير ، واليك ما تعلمته . انظرى الى وجه حضرتى ! هذا هو . . يحملق فيك . . ثم هذا هو ايضا ، على سطح هذه الغلاية الوجه نفسه ، ولكنه شئ مختلف . عال . . فهذا الوجه الذى يبدو فى سطح الغلاية هو الوجه الذى تعرضه الصحف لحضرتك يا آنسة . . والصحف لا تستطيع أن ترى حتى الوجه الاصلى . . وتأتين حضرتك فتأخذين هذا الوجه - الحبال - على أنه الشئ العظيم الفاسخ . . أما أنا . . فأعرف أن وجهى يبدو ملتويا مبروما شائها على سطح الغلاية . . وهذا الوجه الذى ارى لا يمكن أن يكون وجهى الحقيقى أبدا !

وتجيبه ليوبا معترضة فى امتعاض :

- ولكن الكتب والصحف ياسيدى الوالد تحارب من أجل المصلحة العامة ، وتحمل مصالح كل فرد .

- اذن فأرينى الصحيفة التى كتبت عنك أنك قضيقين ذرعا بحياتك وانك كان يجب أن تتزوجى منذ زمن بعيد . فهذه هى الطريقة التى يدافعون بها عن مصالح حضرتك ! وهم لا يدافعون عن مصالحى أنا الا آخر ، وكيف يمكنهم أن يفعلوا ؟ ومن منهم يعلم ماذا اريد ؟ ومن غيرى يعلم ما مصالحى ؟

ونادت ليوبا تعترض فى يأس مرة أخرى :

- يا سيدى الوالد : ان هذا كله خطأ . . ولست أدري كيف اعتبر لك عن ذلك . . الا اننى أشعر ان كل هذا خطأ فى خطأ . .
ويحييها الرجل المعجوز فى ثقة وتصميم

- بل هو حق كل الحق ، والصواب كل الصواب ! لقد فقدت روسيا صوابها . لم يعد فيها صلابة زمان ! لقد أصبح كل مافيهما رخوا مائما . وأهلها يعيشون فى تحيز وتحزب ، ويمشون فى غير الطريق المستقيم . وكل ما فيها منحرف عن الجادة . انك تسمعين ضجيجا من الأصوات المختلفة ، الا أن أحدا لا يدرى ماذا يحتاج غيره من الناس . قثمة ضباب على كل شيء ، والناس يتنفسون فى هذا الضباب فيتلف الهواء القاسد الرطب دماءهم . وهذا هو السبب فى تلك القرح وهذه الحرايرج . ان الناس يمنحون الحرية لكى يفكروا كما يحلو لهم ، لكنهم لا يسمح لهم بعمل أى شيء . ومن ثمة ، فبدلا من أن يحيوا حياة كاملة مملوءة يعطبون ويأسنون وتسال ليوبا أباهما وقد وضعت مرفقها على المنضدة ومالت نحوه .

- فما العمل اذن ؟

ويقول الرجل صائحا :

- ما العمل ؟ يجب عمل كل شيء ! على كل منا أن يقوم بكل مافى

وسعه ، ولكن يجب قبل كل شيء أن نسلس القيادة للشعب . ولكن اذا تركنا الامور على غاربها ، وسمحنا لكل مختال مغرور بأن يتوه أنه قادر على صنع العجائب ، وأنه انما خلق لتنظيم الحياة ، ولتنظيم الحياة فحسب ، ولينظمها وفق ما يرى هو . ففضلوا . سلموا لحضرتة القيادة . سلموا القياد لابن الكلبة هذا ، وليرنا ماذا فى وسعه أن يصنع . ومن هنا . تبدأ المهزلة . فبمجرد شعوره بأن العنان قد أفلت تراه يثب الى ما هو أعلى من رأسه ، ويندفع هنا وينطلق هناك ، مزهوا ، منتفخة أوداجه بالغرور . يحسب نفسه رجل الحوارق والاعاجيب .

وسكت ماياكين لحظة ، ثم ابتسم كما يبتسم الثعلب ، واستأنف يقول :

- ولكن .. صاحبك هذا ! رجل الخوارق والاعاجيب اياه ! مقطوع النفس الذى لا رفق فيه .. المنفوخ الذى لن يلبث حتى يغيظ : هذا البائس الحقيير الذى يسرى فيه السوس ! انه لابد أن يخلى مكانه ، هو وأمثاله ، ليحل محلهم السادة اللوذعيون .. الرجال المقتدرون ، ذوو الكفاية ، الذين من حقهم أن ينظموا الحياة بما يرون أنه المناسب ، والذين لن يحكموا بالعصا والاقلام ، ولكن بالعقول والافهام ، لا كهؤلاء الادعياء الذين يقولون لك اذا جسرت على انتقادهم : ماذا ؟ .. هل تجرؤ على مثل هذا ؟

وهنا يتخذ العجوز لهجة المتفطرس المتشدق ، المهلد المنذر :

- حسن .. أنت يا من صفتك ونعتك ، ويا من كذا وكذا .. اخرس .. اسحب لسانك ! .. ولا كلمة ! .. واذا جرؤت ، فستنظف الأرض منك ومن أمثالك كما تنظف الدار من الحشرات .. اخرس ! .. فهذا هو الحال يا ليوبا .. ه ه ه ه ه ه ه ه ه ه ! لقد كان ماياكين العجوز منتشيا يفيض بهجة ، وكان سروره يتدفق فى ملامحه وتجاويع وجهه .. بل فى جسمه جميعا ، وهو يشرح آراءه .. وكان يغمض عينيه ويتلمظ بشفتيه كأنه كان ينضج حكمته فى غلاية صلخته

- وحينئذ يكون هؤلاء الذين كانوا يسكون بالدفة حينما كان كل شيء فى فوضى شاملة هم الذين يقومون ببناء الحياة بحسب طريقتهم .. تلك الطريقة المعقولة .. وعند ذلك لا يكون شيء من هذا الهرج والمرج ، بل تكون الحياة أشبه بلجن موزون يغنيه الناس وفقا لنوطة مكتوبة .. ولكن .. وأسفاه ! انى لن أعيش لأرى هذا !

لقد كانت كل كلمة من كلماته ، فى نظر ابنته ، أشبه بعين فى سكة قوية أحكمت حلقاتها حول ليوبا التى لم تكن تستطيع تخليص نفسها منها ، فجلست تصفى وهى صامتة صمتا مذهلا ، منعمة النظر

فى وجهه ، باحثة عن الشواهد الاخلاقية فى أقواله ، لامسة فيها
أشياء أشبه بتلك الأشياء التى قرأتها فى الكتب ، والتى كانت تؤمن
بأنها الحق كل الحق .. ولكن ضحك والدها ، هذا الضحك الذى كان
يفيض نشوة ومسرة ، كان يمزق نياط قلبها .. ثم ان تلك التجمعات
التي كانت تتراقص كالديدان فوق وجهه ملأتها بالخوف منه . لقد
احسنت أنه كان يحاول أن يصرفها عن متابعة الاهداف التى كانت
تصور لها أحلامها أنها أهداف بسيطة مرغوب فيها

وسألته ، وهى تعتمد اثارته :

- بابا .. وتاراس ! مثل ماذا هو ياترى ؟

وجفل ماياكين .. وارتجف جبينه من شدة الاستياء ، وراح
يحدج ابنته بعينين حادتين وهو يجيبها فى غلظة :

- وماذا جعلك تسألين سؤالاً كهذا ؟

وتقول له ليوبا فى رقة :

- ولم لا ؟ هل ثمة ما يمنع من التحدث عنه ؟

وأوما الرجل بأصبعه فى وجه ابنته وهو يحملق ويقول :

- اسمعى .. أنا لا أريد التحدث عنه ، وإن كنت لا أنصحك

بان تتحدثي عنه

ثم نكس رأسه .. الا أنه قد يكون خطأ التعبير عما فى نفس
وهو يقول انه لا يريد التحدث عن ابنه ، بدليل أنه لم تكذب
دقيقة واحدة حتى عاد يقول بصوت بدا فيه الغضب :

- ان تاراس هو واحد من تلك القروح ، والحرايرج . ان ربح

الحياة تحمل جميع أنواع الروائح الى أنوفكم أيها التافهون . ولما
كنتم لا تستطيعون التمييز بين الرائحة الحبيثة والرائحة الطيبة .

أنكم تستنشقون هذه الروائح كلها ، ومن ثمة تتغشى عقسولكم
السباب .. ان تاراس ، بوز القرد هذا ، لابد أن يكون قد بلغ
ثلاثين - وهو .. بالنسبة .. بالنسبة .. الى .. لا وجود له

وتسأله ليوبا ، وهى تصغى بانتباه شديد الى كل كلمة من كلمات
بها :

- من يدري ! انى لا أزعم أنه هو نفسه يعرف ماذا صنع ، الا
كان قد عقل .. وفاء الى أمره الآن .. ولا بد أن يكون .. لقد
جبه والد ذكى .. وقد رأى الكثير من تجارب الزمن .. انه هم
مديرو التسامح مع هؤلاء الفوضويين .. آه لو كان الأمر بيدى !
ن ، لاأريتهم ، ولجمعتهم كلهم وأرسلت بهم الى .. الصحراء ..
لقلت لهم : « الى الامام .. سر ! هذا مكانكم أيها الشطار : هنا
صنكم لى تصبوا الحياة فى القالب الذى يحلو لكم ، فأرونا ماذا
ن وسعكم أن تصنعوا » ثم لجعلت بعض الفلاحين الأشداء رؤساء
ليهم ، وليقولوا لهم : هيا .. انا اطعمناكم ، وكسوناكم ،
عليناكم ؛ فأرونا ماذا تعلمتم ؛ فلقد آن الاوان لتردوا علينا
جميع الدين الذى فى أعناقكم . « تالله ماكنت لاضيع كوبكا واحدا
ليهم ، ولكنك أعصر كل قطرة من الدم فى أصلابهم ، ولجعلتهم
كفرون . انكم لا تستطيعون أن تطوحوا بالكائنات البشرية ، بل
بس فى وسعكم أن تلقوا بهم فى السجون ، لكنكم قد ثرتم على
لقانون ، أليس كذلك ؟ ثم أردتم أن تعيشوا بعد ذلك كما يعيش
لسادة .. أوه .. لا .. لا .. لن نمكنكم من ذلك ، بل سوف
حصل منكم على فائدة من عمل ما ، تقومون به .. والحبة الواحدة
ن القمح تنتج شجرة باكملها فيها ألف حبة ، فكيف نسمح لإنسان
احد بأن يحيا هذه الحياة الخاسرة دون أن نحصل منه على أية
فائدة ؟ ان النجار المقتصد ينتفع بكل كسرة من الخشب ، وبهذه
طريقة نفسها يجب الانتفاع بكل إنسان ، والى آخر قطرة من

دمه . ان أدنا حشرة من هوام الأرض لها مكانها فى هذه الحياة
ولا يصح أن ينزل الانسان الى ما هو أدنى من مراتب الهوام
ولكن . . وأسفاه . . ان من المؤلم أن نجد بيننا شبابا ليس
رؤسهم عقل . . ذرة من العقل . . وهذا فوما مثالا . . ولكن
من القادم ياترى . . انظرى يا نيوبا .

ولم تكدي نيوبا تستدير لترى ، حتى رأت ييفيم ، ربان السف
يرمق . وهو مقبل فى الممر ، وقد جعل يرسل صيحات مكب
مكتومة فى أدب واحترام ، وبيده طاقيته ، وعليه سيماء الجزع
بل أمارات الغم الشديد .

ولم يكدي مايا كين يلمحه وهو فى هذه الحالة حتى صاح به :

- ماذا ؟ ماذا حدث ؟

وحيا الرجل فى انحناءة ، ثم قال :

- لقد قررت أن أحضر اليك

- ألاحظ هذا جيدا . . ماذا . . أين السفينة ؟

وأجابه الرجل وهو يشير الى جهة ما ، فى قلق واضطراب

- السفينة هناك .

وصاح به مايا كين فى غضب شديد :

- هناك أين . . لعنك الله . . قل . . تكلم . . ماذا حدث ؟

وزفر ييفيم زفرة كبيرة قبل أن يقول :

- السفينة رقم ٩ . . تحطمت . . وجرح رجل واحد

ورجل آخر مفقود ، وأخشى أن يكون قد غرق .

وهمهم الرجل وهو يقول للربان وعيناه تقدرحان الشر :

- عال عال . . يا سيد ييفيم . . سنأخذ مزرعتك تعويض

لهذا .

وبأد الربان يقول :

- لست أنا السبب .

و قال مايا كين مسرعا ، وهو يرتجف من الغضب .

- لست . أنت ! .. اذن فمن ؟

- سيدي نفسه !

- فوما ؟ .. ويل لك .. وأين كنت أنت ؟

- لقد كنت نائما في العنبر .

- نائما ؟ كنت نائما !!

- كنت .. مقيدا !

- مق .. ماذا !

- .. سأقول لك كل شيء كما حدث .. لقد كان السيد .

شاربا .. شاربا كثيرا .. وكان يصيح ويصرخ .. اخرجوا كلكم

من هنا .. سأتولى أنا القيادة بنفسى . وقلت له : هذا غير ممكن

.. وكيف يمكن هذا وأنا الربان ؟ .. لكنه قال : قيدوا يديه ورجليه

.. وقد قيدوني وألقوا بى فى العنبر مع الملاحين والعمال . ولما

كان شاربا أكثر من اللزوم ، فقد أراد حضرته أن يمزح .. ويعملها

بكتة .. فعندما رأى قافلة من الصنادل مقبلة فى النهر ، وكان عدد

صنادلها ستة يجرها الرفاص شرنوجوتس ، اعترض طريقها

بسفينتنا .. فأرسلت الصنادل صافراتها .. وأطلقتها أكثر من

مرة .. واستمرت فى إطلاقها ، ومن العدل أن أقرر ذلك .

- عال .. ثم ..

- عال عال .. لم يستطع المركبان الأماميان تحويل طريقهما

.. فنطحا سفينتنا فى الجانب مباشرة ، وحطماها تحطيمًا .. وقد

عطباها أيضا ، إلا أن إصابتنا كانت أظلم .

وانتفض ماياكين من كرسيه وهو يرسل صرخة شديدة ..
بيفيم ، فحنى كتفيه .. وشرع يقول :

« لقد سمعت أخلاقه بدرجة شديدة .. عندما يكون صاحيا ،
لا يتكلم الى أحد .. بل يشدو كأن في دماغه شيئا .. ولكن في
اللحظة التي يعمر فيها مخه بكأس أو كأسين تراه يضرب السقف
برأسه .. وعند ذلك يقلت زمامه على نفسه وعلى عمله .. بل
يصبح ألد أعداء نفسه ، وأعداء عمله .. وأرجو المعذرة في هذا
الكلام .. لقد نفذ صبري ، وأريد أن أستمع في عملي وأنا لست
الأمير النهائي في حدود وظيفتي .. ولا يمكنني أن أقوم به على هذا
النحو .. »

ويزجره العجوز قائلا :

- كفانا من هذا .. أين فوما ؟

- هناك .. عند مكان الحادث .. لقد أعاد اليه صوابه في لحظة
.. فأرسل الى العمال في الحال ، لينتشلوا الصندوق .. وأظنهم
قد بدءوا العمل الآن .

وسأله ماياكين وهو يشمخ برأسه :

- وهل هو وحده هناك ؟

- ليس .. وحده .. تماما !

ونظر الى ليوبا مستحييا .. ثم قال :

- ان معه سيدة .. صغيرة سوداء الشعر .. وهي لا تبقي مع
نائما .. لكنها حينما تأتي تظل تغنى طول الوقت .. وهي تغنى
عناء جميلا .. يالها من فتاة مغرية !

وختم هذه العبارة بزرقة عميقة !

وقال له ماياكين وهو مضطرب النفس مبلبل الفكر :

- انا لم أسالك عنها !

كانت أسارير وجهه تشتد وتختلج من الألم ، حتى لقد خشيت عليه ليوبا من أن ينفجر باكيا .. فقالت تهدي سورته ، وبصوت لطيف :

- هون عليك يا أبى .. فربما تكون الخسائر غير كبيرة .

- غير كبيرة ؟ وماذا تصرفين عن ذلك أيتها الحمقاء ! اتحسبين أن الخسارة تنحصر في صندل ؟ انه رجل .. وهذه هي المصيبة .. رجل ممن نحن في شدة الحاجة اليهم .. أيها المغفلون الاغرار للاعين

واشار الرجل بيده إشارة مفضية .. ثم دخل المنزل .

في الوقت الذي كانت تجرى فيه هذه الحوادث كان فوما في كوخ روى على ضفة نهر الفولجا ، على بعد حوالى أربعمائة فرسخ . وكان قد استيقظ من النوم توا ، وجلس على كومة غضة من الدريس في وسط الكوخ ، وراح ينظر في اكتئاب خلال النافذة الى السماء الوشاة بقطع من السحاب الداكن المنثور ..

كان يجلس دون أن يأتى بحركة ، ورأسه مثقل بخمار السكر . كان يخيل اليه أن شيئا أشبه بقطع هذا السحاب الداكن الذي يطوف في أرجاء السماء ، يطوف في صدره .. متجولا بلا نهاية ، باعثا فيه رعشة رطبة لافحة . وكان يشعر كأنما شيء واحد .. شيء منهيب يتحرك في حذر واشفاق خلال تلك السحب ، أشبه بالشبح الذي يدب في الكوخ من جوفه .. لقد ترك ذكريات الأشباح القلائل الماضية تنساب داخل رأسه .. يتخيلها ولا يكاذ يفكر فيها .

ويجمع به الخيال . فيتصور انه كانما سقط في مجرى ممثلي.
حياء داكنة ساخنة آخذة بخناقه ، وكانما هذه المياه تجرفه في
بيارها وهي تجري وتتدفق كما يجري ذلك السحاب الداكن في
السماء ، ومن خلل الأصوات والظلمات الضاربة من حوله كان يكد
أن يتبين ، في شيء من الصعوبة والابهام أنه لم يكن وحده ، بل أن
أناسا آخرين كان يجرفهم التيار معه ، وأن هؤلاء الآخرين كانوا
يتغيرون من يوم الى يوم ، إلا أنهم جميعا كانوا في حالة من السكرير
لها ، ثم اذا هم يحدقون به وهم في سكرهم هذا ، وفي صخب
هذا ، وفي نهمهم الذي ليس كمثله نهم ، يشربون ويقصفون على
حسابه ، ويلعنونه ، ويشاجر بعضهم بعضا ، ولا ينقطعون عن
التسباح والصخب ، بل عن البكاء ، وكأنه يضربهم ، ويلكم أحدهم
في وجهه ، وينتش معطف آخر ثم يقذف به في الماء ، ثم يأتي ثاله
فيقبل يده بشفتين باردتين مملتين كأنهما جلد صفعدة ، وهو يتوسل
اليه والدموع تنهمر على خديه ألا يقتله ... والوجوه والكلمات
تقطع من الأصوات تومض في ذهنه ، وامرأة لابسة بلوزة من
الحرير الأصفر ، مفتوحة فتحة كبيرة من فوق الصدر تغني بصوت
ناك مرتفع :

يا حبيبي لا تفكر في غدا إلا غدا
دعه يندب نفسه ، فالغد غيب
وهلم اليوم .. نوسعه سرورا
وجيورا .. انه حب وقبيل

وكان جميع هؤلاء الناس تجرفهم الموجة الداكنة التي كانت
تجرفه .. وكانوا ، كما كان هو ، أشبه شيء بتفايات وحشالات
يقذف بها التيار بعيدا .. بعيدا .. ولم يكن أحد منهم يجري قط على
أن ينظر أمامه ليرى الى أين يذهب به التيار ، ولهذا كانوا يفرقون
مخاوفهم في كتوسهم ، ثم يصيحون ويصخبون ويشعوزون ويهرجون
في غير بهجة ولا مرح . وكان فوما يصنع كما يصنعون ... ثم به

، إنه إنما يصنع هذا لمجرد الافلات مما هو فيه بما يستطيع من
برعة .

ولم يبق محتفظا بصفاائه وهدوء نفسه وسط هذه الدوامة
لسعورة الفاجرة غير ساشا وحدها بين قوم عصفت بهم الانفعالات
للمامة ، كانوا أشبه بمخبولين يريدون أن ينسوا . . . أنها لم
تلبها السكر على نفسها قط ، وكانت تتكلم دائما بصوت ثابت
ر ، وكانت كل حركاتها أقرب الى أن تكون مملوءة بالثقة . . . حتى
أنما كانت هي التي تسيطر على تلك الدوامة بدلا من أن تكون من
محاياها . وقد أدرك فوما أنها أذكى من حوله جميعا ، وأنها
يديم حماسة للصخب والمرح . . . اذ كانت تصدر أوامرها الى كل
رد منهم ، وتفكر باستمرار في استحداث تسلييات جديدة ، وتعامل
لبيع معاملة متساوية ، مستعملة اللهجة نفسها . والكلمات
فيسها ، سواء كان المخاطب سائق عربة أو خادما أو ملاحا ، أو
إن صديقا حميما أو فوما نفسه . . . لقد كانت أصغر وأنضر من
يلاجيا ، وكانت ربتات كفيها باردة ندية ، وتقوم بها في هدوء
لطف . وقد خيل الى فوما أنها كانت تخفى في أغوار قلبها سرا
هييا ، وأنها لم تكن لتحب شخصا ما حبا تاما خالصا ، أو تكشف
بما في نفسها بصورة واضحة تمام الوضوح . . . ولقد كان
لثمانها هذا . . . هذا الغموض . . . هو الذي يجذب اليها . لقد
كان يثير فيه التطلع ، ويفريه بالارتواء في أغوار روحها التي لا تعرف
لتأثر . . . روحها السوداء القائمة كعينها .

قال لها فوما مرة :

- إنه مبلغ كبير جدا من المال ، ذلك الذي تذفنا به الى الريح
وما كان منها الا أن سألته :

- . . . وماذا كنا نصنع به غير هذا ؟

وراح فوما يردد في نفسه ماقالته : نعم . . . وماذا غير هذا ؟ . . .

بقوله وهو حيران مشدوه أن يجدها ثابتة لا تتردد هكذا !

وسألها في مناسبة أخرى قائلا :

- ليت شعري .. من أنت !

- ولماذا ؟ هل نسيت اسمي ؟

- ليس هذا بالضبط !

- اذن .. فماذا غير هذا تريد أن تعرف ؟

- لقد كنت أعجب ... من أين جئت !

- أوه .. كذا ؟! انني من أوجلش ، يا روسلافل جسيورنيا

مصنعتي العزف على القيثارة ... فهل زاد حبك لي الآن ، بعد ؟
عرفت من أنا ؟!

وتساءل فوما وفي فمه ضحكة خفيفة :

- وهل عرفت حقا ؟

- فهذا اذن لا يكفيك ... عال ... فلن أقول لك شيئا أكثر

من هذا . ولماذا أفعل ؟ لقد جئنا جميعا من المصدر نفسه ..
الناس والحيوانات على السواء ... وكل هذه الثروة عن الاصل
نحو وقبض الريح ! بل دعنا نتحدث عن شيء أكثر أهمية .. كيف
باتمري نقضي هذا اليوم ؟

لقد امضياه في زورق مع فرقة موسيقية كانت مسافرة مع
الزورق نفسه . ولقد شربوا من الشمبانيا ما ذهب برشده
جميعا . وغنت ساشا أغنية كان أخص ما تنسم به ما فيها من ألم
وشجن ، حتى لقد جعلت فوما يبكي كما يبكي الاطفال ...
وما كادت تفرغ من غنائها حتى قام فراقصها رقصة روسية ،
أن يبلغ منه التعب مبلغه فألقى بنفسه فوق الزورق في غير وعي وكا
سقط في الماء .

وحينما كان منبطحا على ظهر الزورق يستعيد صورة ما جرى ،
ويجتز ذكريات أخرى غير ذلك أحس بالحجل من نفسه ، وبالفغيان
من ساشا ٠٠٠ وراح ينظر الى قوامها البديع ، ويصفى منها الى كل
شيء ، حتى الى أنفاسها ٠٠٠ ثم أدرك أنه لا يحبها ٠٠٠ بل أنه
لا يريد لها ٠ وبدأت أفكار قاتمة حزينة تتكتل وتتجسم في رأسه
المهوش المتلبك ٠٠ لقد خيل اليه أن كل ما عاشه من عمره أخيرا
هو شيء أشبه بكرة من خيوط الصوف ، جامدة مبللة ، لا تنفك
تخبط هنا وهناك في دخيلة نفسه ٠٠٠ ثم اذا هي تنفك ، وتحرق
به خيوطها الدقيقة الداكنة ، فلا يستطيع من أحبولتها خلاصا ٠

وأخذ يفكر هكذا : ما هذا الذي ينتابني ؟ من أنا ؟ ٠٠

لقد أذهله هذا السؤال ، وراح يفكر فيه بروية وامعان ، محاولا
أن يعرف لماذا لا يستطيع أن يحيا حياة هادئة قانعة ، كما يعيش
سائر الناس ؟ وزادت هذه الفكرة من خجله من نفسه بصورة لم
يعرفها من قبل ٠٠٠ فجعل يتقلب وهو منبطح ، وتعهد أن يلكر
ساشا لكزة سرى فيها ضجره وضيقه ٠٠٠ مما جعل ساشا تقول
وهي ممددة الى جانبه ، وبفم نصف نائم : « حاسب ! »

ويجيبها مخاشنا :

- لا بأس ٠٠ لا تنسى أنك لست سيدة عالية القدر ٠٠ رفيعة
المقام ٠

- اه !

- لا شيء ٠

وأعطته ظهرها وهي تزوم متشابثة ٠ وأنشأت تقول والنعاس
يخالط صوتها :

- لقد حلبت أننى كنت أعزف على قيثارى لحنا منفردا ٠٠٠

وأغنى ٠٠٠ وكلب كبير واقف أمامي فاغر فاه ، ينتظر أن أنتهى من العزف ومن الغناء ٠ وأشاع هذا الذعر فى نفسى ٠٠٠ وأدركت أنا سوف يهجم على بمجرد أن أنتهى ، ومن ثمة ، فقد أنشأت أغنى وأغنى ٠٠٠ وأغنى ٠٠ حتى شعرت أن صوتى قد بج ٠٠٠ يا للشناعة ! انه لا يزال واقفا ٠٠ يصر بأسنانه ٠٠ بماذا تفسر هذا الحلم ؟

ويجيبها فوما بلهجة يشوبها النفاق :

- صبرك ٠٠٠ خبرينى أولا ٠٠٠ ماذا تعرفين عنى ؟!

وتقول له دون أن تدير له وجهها :

- أعرف أنك استيقظت من توك !

ويتمتم فوما وهو يضع يده وراء رأسه :

- أجل لقد استيقظت من توى ٠٠ أتستطيعين أن تخبرينى بالضبط ، لماذا سألتك : أى نوع من الناس تظنيننى ؟

وتجيبه متثابرة :

- أنت سكران !

ويقول لها متوسلا :

- اسمعى ٠٠ دعى هذا الاستغفال ٠٠ وخبرينى بأمانة : ما فكرتك عنى ؟

فتجيبه :

- اننى لا أفكر فيك مطلقا ٠٠

ويزفر زفرة عميقة ، ثم يصمت ٠٠ وتمضى دقيقة أو نحوها لا يتكلمان بشيء ٠٠

ثم تقول له ساشا ، بلهجتها العادية :

- شيء جميل ! منتظر حضرتك أن أشغل بالى بالتفكير فى كل من
هيب ودب ؟ لماذا ؟ اننى ليس لدى من الوقت ما أفكر فيه حتى فى
نفسى ! أو ربما .. نسيت أريد ذلك !

ويضحك فوما مكتبها ، ويقول :

- آه لو كان فى امكانى ألا أريد ذلك أنا أيضا !

ورفعت الفتاة رأسها لحظة لتتأمل فى عينيه ، وتقول :

- انك تفكر كثيرا .. فخذ بالك .. ان هذا لن يعود عليك بخير
.. وأنا لا أستطيع أن أخبرك بشيء عن نفسك .. وكل ما أستطيع
أن أخبرك به هو أنك أحسن حالا من غيرك .. ولكن .. ماذا
يشغلك ؟

ويسألها فوما مهتما :

- ولماذا أنا أحسن حالا ؟

- أوه ! لا أدري ! اننى اذا غنيت أغنية حزينة رأيتك تبكى ..
واذا بدا من شخص ما يدل على دناؤه ، يطشت به .. ثم أنت شخص
مهذب رقيق الحاشية مع السيدات .. ولا تستغل ضعفهن ! وفى
وسعك أن تكون شهما ذا مروءة ..

ولم يقتنع فوما بشيء من ذلك .. فقال لها بهدوء :

- انك لم تهمنى !

- اننى لا يمكننى أن أحزر ماذا فى رأسك ؟ .. انهم ينتشلونه
الصندل الآن .. فماذا عسانا أن نصنع ؟

- وماذا تعنين ؟

- هل نذهب الى نجنى نفجورد .. أو الى قازان ؟
- ولائى شىء ؟
- للفسحة .. فسحة طرب !
- لقد نلت من فسح الطرب ما فيه الكفاية .
ثم لبثا وقتا طويلا لا يتكلمان ، ولا ينظر أحدهما فى وجه أخيه
وقالت ساشا آخر الأمر :
- انك شخص من الصعب .. مصاحبتك ! ثقيل الظل !
ويجبها فوما فى رزاة :
- لقد عزمت على ألا أشرب بعد اليوم .
وتجيبه ساشا ذات الأعصاب الحديدية :
- لا أصدقك !
- سترين ! أتظنين أن هذه الحياة التى نحيهاها مما يصح ؟
- الزمن كفىل بالاجابة عن هذا ..
- ولكن .. صرحى لى .. أتظنين أن هذا يصح ؟
- وماذا أحسن من هذا ؟
ورمقها فوما بنظرة شزراء ، ثم قال مهموما :
- أخ .. ! ان الاصغاء اليك شىء منفر .
وتضحك ساشا وتساءله :
- اذن ، فأنت لا تحب طريقتى فى الكلام أيضا ؟
ويزوم فوما مجيبا :
- من كان مثلك ! وهذه الطريقة التى تعيشين بها ! اذا وضعت
رأسك ، لا تدريين أين تضعينه .. الصرصار يعرف أين يذهب ..

وانت ٠٠ لا تعرفين الى أين ٠٠ ومن أين !

وتقاطعه في منتهى الهدوء :

- وما شأنك أنت وما أصنع ؟ ان لك أن تأخذ ما تشاء منى ٠٠
ولكن ليس لك أن تتسرب الى دخيلة روحى !

ويسألها فوما مستهزئا :

- روحك ! وهل لك روح ؟

ونهدت ساشا ، وراحت تجمع ملابسها المتناثرة هنا وهناك ،
وفوما ينظر اليها ، والعجب مستحود على نفسه ، لأن ما قاله عن
روحها لم يستطع أن يثيرها أو يخرجها عن طورها ٠٠ لقد كان عدم
مبالاتها بشيء ، وضبطها المدهش لأعصابها هو ما يبدو عليها الآن
٠٠ كما هو شأنها دائما ٠٠ على حين كان فوما يريد أن يراها مغضبة
أو مستاءة ٠٠ أو أى شيء يجعلها انسانا كجميع الناس !

وواصل كلامه فقال :

- روحك ؟ كأن أحدا له روح يستطيع أن يحيا الحياة التى تحيينها !
ان الروح تنطوى فى داخلها على نار ! على الشعور بالحجل !

- وكانت جالسة على دكة ترقع جوربها ٠٠ فلما قال ذلك رفعت
رأسها وحملت فيه بعينين حادتين ، فيسألها :

- الام تنظرين ؟

فقالت وعيناها لا تزالان فى عينيه :

- لماذا تقول هذا الكلام ؟

وكان سؤالها يحمل معنى التهديد ، وقد جفل فوما بالفعل ،

وقال لها بصوت فقد شجاعته السابقة !

- ولم لا ؟

فتنهدت ساشا وهي مستمرة في لبس ملابسها :

- انك شخص ظريف !

- وماذا فى من الظرف ؟

- أوه .. لا شيء .. ! انك تبدو كأن أبوين قد أنجباك ! هل تذكر ماذا كنت ألاحظ عن الناس ؟

- ماذا ؟

- اذا كان شخص لا يستطيع أن يجيب عما يفعل ، فهو خائف من نفسه . وهذا معناه أنه شخص تافه لا يستحق الذكر .

ويسألها بعد لحظة :

- انك تقصديننى !

ونشرت على كتفها روبا قرمزيا فضفاضاً ، ووقفت تنظر الى الرجل الممدد تحت قدميها ، وقالت له بصوت لطيف عميق ، وبلا تردد :

- أتجروء على التحدث عن روحى ؟ انك لا شأن لك بها ، وأنا وحدى التى يحق لى أن أتحدث عن ذلك ، ولو أردت أن أفعل .. ما حفلت بك ولا بأمثالك جميعاً .. ولا تظن أننى عاجزة عن الكلام .. لا .. ان لدى منه ما أستطيع أن أستعمله مع أمثالكم .. كلام مثل المطارق الثقيلة ، وفى امكانى أن أدق بها أدمغتكم حتى لا يبقى فيها الا هذيان الجنون .. ولكن الكلام لا يمكن أن يكون علاجاً لكم .. وليس لكم من علاج الا صهركم بالنار لتطهيركم مما فيكم من خبث كما تظهر انوار الذهب المخلوط فتحيه ذهباً خالصاً ..

ثم نثرت شعرها بحركة مثيرة ، فسقط على كتفها في خصل
غزيرة سوداء ، وقالت في لهجة تفيض ازدياء :

- ليس يهمنى أن أكون امرأة قذرة كما ترى .. فبعض الناس
أنظف مائة مرة ، بالرغم مما يبلو عليهم من قدر ، من أولئك الذين
يلبسون أكسية الكتان ، ويرفلون في مطارف الديباج .. وآه لو
عرفتم فقط رأيي فيكم أيها التيوس ! وآه لو عرفتم ما ينوء به قلبي
من الكراهية والازدياء لكم ! لكنها الكراهية تجعلني أقفل فمي ، لاني
أخشي اذا ما نفست بالكلام عما في فؤادي أن يصبح خاويا فارغا ، ولا
استطيع مواصلة الحياة بعد !

وما كادت تقول هذا حتى عاد اليه حبه من جديد ، ذلك أن
ما قالته صادف هوى في فؤاده .. وانسجما لمزاجه ، وضحك فوما
نحكة خفيفة ، وبدا رضاه في صوته وفي وجهه وقد أنشأ يقول :

- أنا أيضا أشعر كأن شيئا يصل الى ذروته في أغوار نفسي ،
حينما يصير هذا ، فلسوف أجد أنا كذلك كلمة أقولها .

- ضد من .

ووثب فوما واقفا وهو يقول :

- ضد كل مخلوق ... ضد الادعياء المنافقين ! اني سأسألهم ..
وقاطعته ساشا ببرود :

- ستسألهم اذا ما كانت الغلاية قد غلى ماؤها !

وحدها فوما ينظرة خاطفة ثم صاح يقول :

- الى الجحيم أنت وأمثالك ! اذهبي واسألي عن ذلك أنت !

- ما هذا الصراخ ؟ عم تتحدث ؟ ثم خرجت ساشا من الكوخ !

فترسل صرخات الالم على حين الصحف الرقيقة تتطاير فتحدث ضحكات مأكرة ، وصلصلة السلاسل وصرير البكر يختلط بهدير الأمواج ، والريح تعوى وهى تسوق السحب أمامها فى كبد السماء

- هيل يا رجال .. هيا ..
ويحث بعضهم العمال قائلاً بصوت مرتفع :
- شدة واحدة أخرى .. شدة واحدة !

وكان فوما ، بقوامه البديع الفارع ، فى جاكنته الصوفية وحذاء الطويل ، يقف متكئاً الى أحد القلوع وهو يداعب لحيته بأصابعه المرتجفة ، ينظر فى اعجاب الى الشغالة . وكانت الأصوات التى تأتية من كل مكان تبعث فيه الرغبة فى الصباح ، ومشاركة هؤلاء فى عملهم ... فى نجر الحشيش ، وحمل الأحمال الثقيلة ، واصدار الأوامر ، وباختصار ، لكى يصبح مركز انتباه الجميع ، ولكى يرى كل انسان مقدار ما أوتى من قوة وسرعة ونشاط ! الا أنه كبح جماح نفسه ، ووقف كما هو .. لا يتكلم ولا يتحرك . وكان يشعر بالحجل فى الوقت نفسه . فقد كان سيد هؤلاء جميعاً ... ولو شاركهم فى العمل لظنوا أنه انما يفعل ذلك ، لا عن تواضع أو رغبة منه صادقة فى معاونتهم ، بل لكى يحفزهم الى مضاعفة مجهودهم اقتداء به ، وبهذا يستفيد هو باعتصار دمائهم ، لانهم سيعطونه عملاً يساوى أكثر مما دفع لهم .

وظل يمر أمامه صبى ظريف ذو شعر مجعد يلبس قميصاً مفتوحاً عند الرقبة ، مرة يحمل لوحاً على كتفه ، ومرة يحمل قادوماً فى يده ، وهو يشب رشيقاً كما تثب العنز ، ولا يكف عن المزاح والضحك والحلف ، ولا يناله الكلال من مداومة العمل .. يساعد هذا ويساعد ذلك ، جارياً فى خفة ورشاقة الى فوق والى تحت على ظهر الصندل المكس بالمواد المختلفة ... وقد امتلأ قلب فوما بالحسد لهذا الغلام الذى لم تكن عيننا السيد تنصرفان عنه لحظة

« انه سعيد ولا بد »

هكذا جعل فوما يحدث نفسه ٠٠٠ ومن هذه الفكرة ٠٠ لا ندري كيف ٠٠ انبثقت رغبة في نفس فوما بالحاق الضرر بالسلام ٠٠ بتحقيقه واذلاله بطريقة من الطرق ٠ لقد كان كل هؤلاء الناس منهمكين في عملهم العاجل الملح ، منسجمين انسجاما عظيما في تثبيت الصقالة وتركيب الجارات واعداد كل ما يلزم انتشال الصندل الغاطس من قاع النهر ، وكلهم يفيضون بشرا وتهللا ، وكلهم حياة نابضة دافقة مملوءة في تلك اللحظة ٠٠٠ وهنا ٠٠٠ كان فوما منتحيا ناحية ، يسائل نفسه في دهشة عما يجب عليه القيام به ٠٠٠ ولا يدري كيف يقوم بأى عمل ٠٠٠ شاعرا بأنه كان خارج محيط هذا العمل العظيم تماما ، وأنه ما من أحد في حاجة اليه ٠ وكان يؤله ويجرح كبريائه بتحقيقه من أنه شخص لا لزوم له ٠٠ وكان هذا الشعور يتضاعف ويشتد بطول ملاحظته لهؤلاء الناس وهم يعملون دائبين ٠٠٠ وكانت فكرة أن هذا كله يعمل من أجله هو ، ومع هذا فهو نفسه لا عمل له ، أشبه بسكين مغمود في قلبه

وسأل نفسه في هم وانقباض :

— ولأى شيء من هذا كله أصلح ؟ ما وظيفتى ؟

وحضر اليه المقاول ٠٠ وهو رجل قصير القامة ذو لحية مدببة وخطها الشيب ، ووجه ملأته التجاعيد ، فيه كوتان صغيرتان تطل منهما عينان !

وقال بصوت خفيض وعبارة مضبوطة النطق :

— كل شيء على قدم الاستعداد فوما اجناتيفتش ٠٠٠ كل منا في مكانه ٠٠٠ وببركتك ٠٠ سنبدأ العمل ٠

وأجابه فوما باقتضاب :

- ابدعوا •

ثم حول عن الرجل وجهه اتقاء تلك النظرات النفاذة التي كانت تنطلق من كوتى عينيه •

- حمدا لله •

قالها المقاول وهو يزر معطفه فى أناة ، ويشد كتفيه •• وبعد أن ختبر الصقالة المركبة على الصندل ، صاح قائلا :

- كل منكم فى مكانه يا اخوان !

وعند ذلك تجمع العمال جماعات صغيرة فوق ظهر الصندلين وعند الرافع •• ثم سكتوا وساد الصمت ، وكان بعضهم يتدافعون بالمناكب فى رشاقة وهم يصعدون فوق الصقالة ، ومن هناك ، جعلوا يجيلون أبصارهم فيما حولهم •

ثم صاح المقاول بصوته الرابط :

- نظرة أخيرة الى كل شيء يا رجال ، هل كل شيء متين ؟ عال !
توكلنا على الله ، ومن توكل عليه كفاه •• هيه ! مستعدون ••• اذن
•• صلواتكم •

وزحلق المقاول طرطوره على قفاه ، ثم رفع وجهه الى السماء ، وصلب مثنى وثلاث •• وصنع الشغالة مثل ما صنع • وكان بعضهم يصلى بصوت مرتفع فتختلط أصواتهم بخيرير الأمواج •

- باسمك اللهم وبركاتك •• وبركات الرسل والقديسين ••

ووقف فوما يستمع ••• وكانت كلمات الإذعية تسقط على روحه كالخجارة ورعوس الجميع عارية •• الا رأسه هو •• وعندما فرغت الصلاة نظر اليه المقاول غائبا معنفا وهو يقول :

— ألا تظن أنه كان من واجبك أن ٠٠٠٠ ؟
فأجابه فوما بلهجة قاصفة ، وهو يرمقه بنظرة غاضبة :
— ليس هذا شغلك ٠٠٠ لا تعلمنى !

وكان شعوره بأنه شخص تافه لا لزوم له يزداد حرافة ولذعا كلما تقدم العمل الذى ينهض به هؤلاء العمال المؤمنون بقوتهم وبأنهم أمر لرفع هذا الثقل الذى يبلغ الأطنان الكثيرة من غور النهر ٠٠ ولحسابه هو ٠ والعجيب أنه كان يرجو لهم الاخفاق فى مهمتهم ٠ لا لشيء ٠٠ الا ليسعروا بالمدلة وانكسار الحاطر ، فكان يحد نفسه بهذا الوسواس :

— ليت السلسلة تنقصف !
ونادى المقاتل : « ان ٠٠٠ تباه ! »
ثم أعطي إشارة بدء العمل بتلوينة من ذراعه : « شد »
واستجاب العمال للنداء ، فراحوا يصيحون بأصوات قوية حادة:
— هيللا ٠٠٠ هب

وهنا سمع صريف البكر وصريه ، وأخذت السلاسل تصلصل وهى تشد فى توتر ونظام ، والشغالة يصيحون وهم يضمون صدورهم الى عوارض الروافع ثم يدفعونها دفعا ، متحركين فى دوائر بخطى ثقيلة وثيدة ، والماء ينسحب بين الصندلين كأنه لا يريد أن يسلم وديعته لهؤلاء البشر ، والسلاسل والسلب المشدود يهتز فى كل مكان من حول فوما ، وكان بعضها ينزلق حول قدميه كما تنزلق الافاعي الضخمة الداكنة ، وبعضها يرتفع الى أعلى حلق بعد حلقة ، ثم تسقط الى الورا بصوت مجروش أجش ٠٠٠ وا تكن أصوات الشغالة تخدم جميع الاصوات الاخرى وتغطي عليها
— قربت يا رجال ٠٠ قربت ٠٠ قربت يا رجال ٠٠ قربت

وهكذا كانوا يتغنون ، على حين كان صوت المفاول القوى الواضح
شق موجة هذا الغناء المدوى كما تشق السكين قالبا من الجبن ،
اثلا لهم مشجعا :

- مع بعض يا أولاد ٠٠ مع بعض !

وكان فوما يشعر باضطراب وبليلة غريبة . لقد كان يتمنى من
اعماق قلبه لو كان جزءا لا يتجزأ من تلك الانشودة المتدفقة كما
تندفق النهر الكبير العريض ، وذلك لكي يندمج في صريف المعدن
صريره ، وفي هدير الامواج وزئيرها ٠٠٠ وكان شوقه هذا قويا
نيفا ٠٠ حتى لقد أخذ العرق يتصبب فوق جبينه ، كما أخذ وجهه
يشحب ويمتقع . ثم اذا هو يترك مكانه عند القلع فجأة ، ويتجه
نحو احدى الروافع صائحا بصوت قوى :

- مع بعض ٠٠ مع بعض

واذا به يصطدم أيضا صدمة عنيفة وعارضة الرافعة ، وان لم
يشعر بألم الصدمة التي كالحا له القدر في صدره ، بل راح يمزج
صوته بأصوات الشغالة ، وهو يدور معهم ويلدور ، ويدق الارض
بقدميه دقا قويا . وأحس فجأة بشيء ما يتدفق في صدره ليحل محل
الجهد الذي بذله عند الرافعة ، وموجة من الرضا تسرى في أعماقه ،
حتى اذا اقتربت من السطح انطلقت من فمه صيحات مستثارة .
لقد خيل اليه أنه كان وحده هو الذي يدير الرافعة ، ومن ثم أنه
هو وحده الذي كان ينتشل الصندل الثقيل الضخم ، وأن قوته كانت
تتضاعف وتزداد في كل دورة . وكان يندفع الى الامام ، وقد نكس
رأسه ، وقوس ظهره ، كما يتقوس الثور ، ليقابل هذا الثقل الكبير ،
الذي كان يرغب ارغاما على الاستجابة له بالدنو منه ، وان لم ينفك
يلقى به الى الخلف المرة تلو المرة . وكان ما يعروه من الانفعال يزداد
يزداد في كل خطوة ، وكان ما يبذله من الجهد على الدوام ، تعوضه

غمرة مغرية من الزهو والكبرياء • ثم أخذته الدوار ، واصطبه
عيناه بلون الدم ، ولم يعد يرى شيئا ولا يعي شيئا •• الا أنه ك
الفتى الرابع ، صاحب اليد العليا ، الذى يقذف بقوة عضلاته ليزر
سدا هائلا منيعا يعترض سبيله ••• يزيحه ••• ويلقى به جاز
••• وينتصر عليه ، وكان فى مقدوره بمجرد الفراغ من هذا العم
أن يصبح حرا يستنشق الهواء ملء رئتيه ، وقد غمره الزم
والاعجاب بنفسه • لقد كانت هذه هى المرة الاولى التى عرف فيه
الالهام الروحى ، ومن ثم فقد تشبثت روحه الجائعة بتلك الفرصة
وتملت بنشوتها ، فراحترسل الحانا من الجذل والطرب فى صيحات
مدوية منسجمة وغناء الشغالة :

— قربت يا رجال ••• قربت •• قربت يا رجال ••• قربت !

وفوجئ فوما بضربة على صدره جعلته يترنح الى الخلف • واذ
الضارب هو المقاتل الذى لمعت فى أسارير وجهه بوارق الثقة •
— تهنئاتي •• فوما اجناتيفتش ! حمدا لله ! هل أنت تعب ؟

وشعر فوما بريح تهب على وجهه ، وكانت تمتعات البهجة تصل
الى أذنيه من كل مكان ••• كل يباهى ويفاخر ••• وأقبل الشغال
يحدقون به فرحين متهللين ، وقد رفعت على وجوههم الابتسامات
اللطيفة المهدبة ، وراحوا يمسحون العرق المتصبب من جباههم •••
وبادلهم هو أيضا ابتساماتهم مسبوها مبهوتا • لقد كان لا يزال لم
غمرة من الانفعال لا تسمح له بأن يتبين ما حدث ، ولماذا كان كل مر
هؤلاء سعيدا منشرح الصدر الى هذا الحد • وكيف لا ••• وها هو ذ
صوت سعيد يقول :

— لقد انتشلنا من قاع النهر مائة وسبعين ألف روبل من جذوره
كما ينتشل رأس لفتة !

ورأى فوما من مكانه الذى كان يقف فيه فوق حوية من الحبال

ومن فوق رءوس الشغالة ، صندلا ثالثا ، بين الصندلين الاصليين .
داكن اللون ، مغطى كله بالطين ، مربوطا بالسلاسل . لقد كان
متلويا ومتنفخا كأنما أصابه مرض خبيث وطفا فوق الماء فى
مكانه ذاك ضعيفا قبيح الشكل ، متكئا على رفيقيه ، ملتصبا
عندهما المعونة ، وقد بدا قلعه المكسور باكيا مهيض الجناح ، وشائب
من الماء المختلط بالوحل تنز من فوق ظهره كما ينز الدم المتقيح من
جراح مطعون . وكان لا يزال مشحونا بحديد صديء وأخشاب
مبللة .

ولم يكن فى مستطاع فوما أن يقول شيئا وهو ينظر الى شكل
الصندل الشنيع أكثر من هذه العبارة : « لقد طفا ! » . وراح
يحدث نفسه وهو مستاء ممتعض فيقول : ترى ! أمن أجل انقاذ
هذا الوحش المعطوب الملوث القذر ما أشعر به من كل هذا الابتهاج
الغامر ، والانفعال الذى لا حد له ؟

وتتم فوما فى صوت غامض ، يسأل المقاتل :

- والآن . . هل الصندل ؟

ويقاطعه المقاتل مطمئنا :

- انه بخير . . وسنفرغ حملته ، ثم نكل به عشرين أو ثلاثين
نجارا لاصلاحه وقد يمضى زمن طويل حتى يعود الى حاله
الاولى .

ونظر الصبى اللطيف ذو الشعر المجعد الى فوما نظرة كاشرة
ضاحكة يقول :

- ألا كأس من الشراب ؟

وتدخل المقاتل عاتبا على الغلام فقال :

- ليس الآن . . ليس الآن . . ألا تلاحظ أن السيد تعب ؟

وقال الشغالة يجبنون ما قاله المقاول :

- طبعاً ٠٠٠ هو تعب !

- ان هذه عملية ليست سهلة !

- الذى يتعب منها هو من ليس معتاداً عليها !

- من ليس معتاداً عليها ٠٠ يتعب من أكل الفتة !

وهنا قال فوما محتداً ٠٠ وقد ضاق بهذا الغمز :

- اننى لست تعباً

وازدهم العمال حوله ٠٠ كل يبدى ملاحظاته فى أدب واحترام .

- ان العمل شئ سار ما دام الانسان يقوم به بقلب منشرح

- انه عند ذلك يكون كاللعب

وقال صوت خنزير مداعباً :

- أو ٠٠ كالنساء !

وكان الصبى المليح عز عليه ألا يشارك فى هذه الثرثرة فقال

مازحاً ٠٠ مبتسماً :

- ياسيد ٠ لسنا نطلب شراباً كثيراً ٠٠٠ كأساً واحدة ٠٠

كأساً !

وشعر فوما ، وهو ينظر الى هؤلاء العمال الملتحين ، بما يغريه

بالاستهزاء بهم ، ولكن رأسه كان خاوياً ليس فيه ما يقال ٠٠٠

ومضت لحظات قبل أن يقول :

- ان كل ما تفكرون فيه ٠٠ هو الشراب ٠٠٠ والشراب وحده .

أوصيكم اذا فعلتم شيئاً أن تتمهلوا ، وتسالوا أنفسكم : ترى لماذا

نصنع هذا ؟ ومن أجل أى شئ يجب عليكم أن تحاولوا فهم

هذا !

وبدا الوجوم على الأوجه الملتهبة ... وأنشأ العمال ذوو
القمصان الزرق والقمصان الأحمر يزفرون ويتنهدون ، ويهرشون
رؤوسهم ، ويزومون !

وكان بعضهم يحدث فوما بنظرة شذراء ... ثم ... ينصرف !
وتتم المقاول يقول :

- هذا صحيح ... الفهم شيء جميل جدا ... والله هذا كلام
حكيم ... هذا الذى قلته بأحسن منطق .

وقال الصبى المليح وهو يومئ برأسه :

- ان أمثالنا من الخلق لا ينتظر أن يفهموا هذه الحكم !

قالها وقد فقد اهتمامه بفوما ... وخامره قليل من الغضب
عليه ، لانه شك فى أن فوما لا يرى تشجيع العمال على شرب الخمر
ثم عاد فوما يقول بلهجة تهذيبيية ، وقد سره ما ظنه تكريما له ،
ما أبداه الصبى نحوه ، غير مدرك لنظرات السخرية التى كان الجميع
يحدثونه بها :

- أوه ! بل أنتم قديرون على ذلك ! ان الشخص عندما يفهم ،
يتحقق أنه لا بد أن ينهض بعمله بطريقة حسنة تضمن لهذا العمل
أن يبقى على وجه الزمان .

ويلتفت المقاول الى العمال ، ويقول فى لهجة تفيض ورعا وتقوى :

- يا الطاف الله ! هذا حق ... هذا حق لا ريب فيه !

لقد شعر فوما بما يحفز به الى أن يقول كلاما حقا له قيمته عسى
أن يجعل هؤلاء العمال يغيرون نظرتهم اليه . لقد ساءه أن يجدهم
جميعا يرجون أن يصمت ذلك السلام الظريف وألا يتكلم بشيء ،
وأنهم جميعا كانوا ينظرون اليه باستياء .

ثم قال وهو يرفع حواجبه قليلا :

- انكم بحاجة الى القيام بعمل خالد ينظر اليه الناس بعد
من السنين فيقولون : لقد قام بهذا العمل أناس من بوجورودسك
وينظر الغلام الظريف ذو الشعر المجعد الى فوما مشدوها :
يقول :

- وأى عمل هذا يا ترى ؟ نشرب الفولجا ؟

ويزوم ويهز رأسه ، ثم يعود فيقول :

- لو شربنا الفولجا لفرقت بطوننا كما تعلم !

وارتبك فوما وسقط في يده لما قاله الصبي ، ونظر حوله فوجا
العمال يتتسمون ابتسامة باهتة وبأنوف شامخة . وكانت ابتساماتها
كوخز الأبر .

وكان فيهم رجل وقور وخط الشيب لحيته ، ظل زمانا لا يتكلم
بشيء ، فتقدم الآن ليقول ببطء :

- اذا وجب علينا أن نشرب الفولجا حتى لا تبقى فيه قطرة ، وأن
تأكل بضعة من ذلك الجبل فوق ذلك ... فلسوف ينسى ذلك كله
أيها السيد ... ان الزمن كفيل بأن يسحب أذيال النسيان على كل
شيء ... فالحياة طويلة طويلة ... كما تعلم ... ثم ... اننا لسنا
نحن الذين يقومون بأعمال تبذ أعمال الآخرين ، وتسمو عليها .

ولم يكذب ينتهي حتى بصق على الأرض بازدراء ... وانصرف
... وهو يشق طريقه بين العمال كما يشق الاسفين الخشب ...
وكان ما قاله ضربة أخيرة لفوما ... فقد أدرك أن العمال عرفوا فيه
رجلا غبيا وسخيفا لا عقل له ... وفكر في شيء يحفظ عليه كرامته
في أعينهم ، ويعيد به انتباههم الذي بدده هذا الرجل ، فلم يجبه .

خيرا من أن يبرز صدره ، وينفخ خديه بشكل مضحك ٠٠ ثم يقوله :

- سأمر لكم بثلاثة جرادل من الفودكا !

ان أقصر الحطب هي دائما أكثرها سدادا ، وأعظمها تأثيرا ! لقد انسحب العمال في أدب جم ، وهم ينحنون أمام فوما اجلالا ، وبعد أن شكروه بلسان واحد ، ووجههم تفيض بشرا وتتهلل ابتساما وطلب فوما أن ينقلوه في زورق الى البر ، بعد ان أدرك أن موجة الانفعال الجديدة التي انتابته ربما لا تستمر طويلا ٠٠ لقد كان التبرم والضجر ينكأان قلبه ٠

ودخل الكوخ ٠ وكانت ساشا بثوبها الاحمر الجميل تضع الطعام والشراب على المائدة ٠ فلم يكدر يراها حتى قال :

- ان كل شيء يغثيني ! ٠٠٠ ساشا ! هل في وسعك علاج هذا ؟

وجعلت ساشا تنظر اليه ، كأنما تدرسه بعناية وأناة ٠٠ ثم جلست بجانبه على الدكة ٠

- اذا كان كل شيء يثير الغشيان في نفسك ، فأنت بحاجة الى تغيير ٠٠٠ أى شيء تشتتهي نفسك ؟

- لست أدري !

- فكر !

- لا أستطيع التفكير

فقالت برفق ، وفي شيء من السخرية : وهي تشيح عنه قليلا :

- أيها الطفل ! ان الذى تصبو اليه هو أكثر مما
التكهن به !

ولم يفتن فوما الى لهجتها وهى تتكلم ، ولا الى حركتها وهى
تشيع عنه . . . فلقد كان متكئا الى الامام ، قابضا على الدكة بكفة
يديه ، محمقا بشدة فى أرضية الكوخ .

- فى بعض الاحيان أجدنى أفكر ليلا ونهارا . . . أفكر أفكار
كثيرة جدا فى أنهم يلطخون جسمى كله بمادة سوداء أشبه بالقار
. . . وفى غمضة عين يبدو لى أن كل شىء قد زال عنى . . . ويتلاشى
فى الهواء كالهباء المنثور ، ثم اذا بى أحس أن روحى سوداء كظلا
القبر . . . شىء مرعب ! لكأنى لست مخلوقا آدميا مطلقا - لا شىء .
الا فجوة فغرت فاهها !

وحديثه ساشا بنظرة طويلة شذراء ، ثم أنشأت تغنى :

ايه يا ريج عـلى قلب تهب
وعلى بحر الهوى منها ضباب

- لقد شبت من تلك الحياة الوحشية : كل شىء هو هو باستمرار
. . . والناس هم هم . . . والمتع هى هى . . . والراح هى هى . . .
ان هذه حال تجعل دمي يغلي . . . وتجعلنى مغرما بضرب الناس
وايذائهم . . . انى لا أحب هؤلاء الناس . لاى هدف يحيون ؟ انه
لا يعرفون ولا يفهمون .

وتستمر ساشا تغنى ، وعيناها مثبتتان فى الحائط :

يا حبيب القلب ما عيشى بدونك ؟
قفرة ، موحشة ، مثل اليباب !

- ولكنهم يمشون فى الحياة ويستمتعون . . . وأنا وحدى الذى
أقف ساهما . . . أطرف بعينى . . . لعل أرى أمى التى ولدتنى

هكذا .. لا احساس لى • ان اشبينى يقول انها كانت باردة كالثلج
- وان بها شوقا دائما الى أن تكون فى مكان آخر غير الذى تكون فيه •
انى أحس كأننى أذهب وأقول للناس : أتوسل اليكم أن تنقلونى
مما أنا فيه ، يا اخوانى ! وما أشكو منه هو أننى لا أستطيع مواصلة
الحياة ! الا أننى حينما أنظر حولى ، لا أجد من أقول له هذا الكلام ..
لهم جميعا زائقون .. أبناء حرام !

ثم أقسم فوما يميننا فاحشة جعلت ساشا تقطع غناءها ، وتولى
بعيدا وكانت الريح تضرب زجاج النافذة بحففات من التراب ، وكان
بالامكان رؤية الصراخير وهى تسعى وتصر بين الاحجار فوق
الوقد ، وعجل يرسل أصواتا ضعيفة وائية فى حوضى الاهراء
القريبة ... ولم تكذ ساشا تسمع هذا حتى قالت لفوما :

- اسمع ! هذا هو أخوك فى الشقاء يعنى هبه هناك ! فاذهب
وانع همومك معه ! وفى وسعكما أن تنشدا أنشودة البؤس معا !
ثم وضعت يدها على رأسه ذى الشعر المجعد ، ودفعته دفعة
مداعبة :

- أوه ... علام تنوح يا ترى ؟ اذا كانت هذه الحياة التى نحيهاها
لا تعجبك ... فتفضل ... عد الى عملك
ويصيح بها فوما فى حلق وغيط :

- يا لله ! لو كان فى امكاني أن أعبر عما فى خاطرى بطريقة
تجعلك تفهميننى ! على ؟ هذا هو ما يسمونه ! العمل ! ولكنك لو
أنعمت النظر ، وفكرت بتؤدة وزوية ... لم تجديه شيئا .. غير
تضييع وقت • ما جدوى هذا العمل ؟ جمع المال ؟ لقد أوتيت مالا
كثيرا ، وفى وسمى أن أدفئك فيه حتى تختفى • سأدفئك فيه من
أعلى فرعك الى أخمص قدمك ... أن العمل ما هو الا خديعة كبيرة !
اتمد رأيت أفواجا من رجال الأعمال ... فرغت أنهم يقذفون

يأنفسهم فى دوامة العمل ليحجبوا أعينهم حتى لا ترى حقيقة حالهم
 ٠٠٠ انهم يخفون أنفسهم من أنفسهم ٠٠٠ هؤلاء النعام ! ماذا يحدث
 لهم اذا تخلصوا من هذه الدوامة ؟ انهم قد يخبطون كالعميان
 ويصابون بالجنون . انك تظن ان الانسان يكون سعيدا بمجرد ان
 له عملا ! ٠٠٠ أوه ٠٠ لا ٠٠ ان هذا هو جزء من السعادة فقط ٠٠٠
 ان الانهار تتدفق وتجرى لكى يسافر الناس عليها ، والشجرة تنمو
 لكى ينتفع الناس بها ٠٠٠ حتى الكلب نفسه مخلوق لغرض - لكى
 يحرس المنزل مثلا . وثم من الخير ما يمكن الحصول عليه فى كل شيء
 فى هذا الوجود ٠٠٠ الا الناس ! فهم كالصراصير ٠٠٠ لا يصلحون
 لشيء ! ان كل شيء مخلوق لمصلحتهم ٠٠٠ ولكنهم هم ٠٠٠ لاي
 شيء خلقوا ؟ ما الفائدة من وجودهم ؟

وأحس فوما بنشوة النصر ، وأنه قد اكتشف شيئا ربما ساعده
 وأضر بالناس ٠٠ ولهذا راح يضحك ضحكا عاليا .

وتسأله ساشا وهى تحقق فيه بامعان : « أتشكو صداعا فى
 رأسك ؟

ويجيبها فوما بلهجة فيها تحد : كلا ٠٠ بل أشكو من صداع فى
 روعى ! ٠٠ ان روعى تشكو ، لانها لا تجد الرغبة فى تقبل الاشياء
 على علاقتها ، انها تريد أن تعرف هذه العلات : فمثلا ٠٠ ما الأسلوب
 الذى يجب أن أتبعه فى الحياة ؟ ثم ٠٠ ما الهدف ؟ فهذا اشبيني
 مثلا ٠٠٠ هذا الرجل الذكى الارب ٠٠٠ انه يقول : اصنع الحياة
 على النحو الذى تريد منها أن تكون ، ولكن كل من عداه يقولون :
 ان الحياة تلتهمنا وتأتى علينا .

وتجيبه ساشا فى وقار وجد :

- اسمع ٠٠٠ ان ما أنت فى حاجة ماسة اليه هو أن تتزوج ٠٠٠
 وهذا هو الموضوع كله ٠٠ فلا تملحك .

ويهبز فوما كتفيه ، ثم يسألها :

- وما الذى يوجب على ذلك ؟

- لا نك فى حاجة الى لجام وشكائهم .. و ...

- أوه ! لا تهربى ! هأنذا أعيش معك ، أليس كذلك ؟ وأنتن جميعا سواء ، وليس فيكن من هى أكثر حلاوة من الاخرى ... وقد كان صاحبة قبل أن ألقاك ... صاحبة من النوع نفسه ... وان لم يكن مثلك تماما ... وقد صحبتنى لغير ما غرض .. صحبتنى لأنها أرادت ذلك ، وأحبتنى لسبب ما ... وكانت أنثى من نوع .. بأس به ... لكنك اذا تعمقت ما وراء ظاهرها ، وجدت أنها أنثى لسائر النساء . مثلك تماما .. لولا أنك أخف دما منها ... ولكن .. لقد كان ثم امرأة أخرى ... سيدة .. ومتزوجة ، سيدة حقيقية من الطبقة الراقية ... ويشيعون عنها أنها امرأة ساقطة .. انها سيدة ذكية ومتعلمة وتعيش عيشة رفيعة فخمة . وقد كان يخطر لى اننى أستطيع أن أتناوق الحياة الحق فى كنفها .. لكنها كانت شديدة الرافة بى ... ولعلها لو لم تكن كذلك ، لتغير كل شيء بالنسبة لى .. لقد كنت أتشهاها تشهاها فظيها ... وأنا الآن أغرق تفكيرى فيها فى كثوس الشراب ... وأحاول أن أنسى ! وأى خير فى النسيان ؟ آه .. يا للانسان من بهيم .. وحسن !

لقد كان فوما غارقا فى لجة من التفكير على حين أن ساشا تذرع الكوخ ذهابا وجيئة وهى تقضم شفيتها قضا ... حتى قالت له أخيرا بعد أن اتخذت لها موقفا أمامه وقد عقدت يديها خلف رأسها :

- اسمع ... انتى ساتركك !

ويسألها فوما دون أن يكلف نفسه رفع وجهه نحوها :

- والى أين ؟

- لست أدري ... وهذا لا يهم .. انك كثير الكلام ، وهذا يضايقنى .

وهنا .. رفع نحوها رأسه ، وسألها وهو يضحك ضحكة باهتة :

- أفصحى أفصحى : أجادة أنت ؟

- أنا مثلك .. عندما يحين الاوان أبداً أفكر فى كل شىء أيضا .
وهذه ستكون نهايتى ... ولكنها نهاية لا تزال بعيدة ... ولهذا يجب أن أستمتع أولا ... وبعد هذا .. ليكن ما يكون !
ويقول لها فوما بلا مبالاة ، وقد ضايقه ما يبذل من جهد فى الحديث :

- وهل هذه ستكون نهايتى أنا أيضا ؟

وتجيبه ساشا بلهجة الواثق المطمئن :

- أجل ... ان أمثالنا من الناس ينتهون نهاية سيئة دائما .
وجعل كل منهما ينظر الى الآخر دقيقة أو دقيقتين ثم سألها فوما :
وماذا ينبغى أن نصنع الآن ؟

- نتناول غداءنا .

- أقصد : ماذا ينبغى أن نصنع فيما بعد ، على وجه العموم ؟

- لست أدري !

- وعلى هذا فأنت ستتركيبنى !

- أجل ... ولكن هلم فلنقم بفسحة كبيرة قبل أن نفترق ...
لنذهب الى قازان ... لنخدع أنفسنا ، ولننسى رأسنا فى الرمال ...
وبهذا سنتغلب على ما يساورك من أحزان .

- هيا ... هذا صحيح ... لنبتعد من هنا .. يجب : يجب .
قاتل الله هذه المياعة الراكدة الآسنة . اسمعى يا ساشا ...
يقولون : ان أمثالك من النساء يحبين المال بشراهة .. بل هن
لا يتورعن عن سرقة .

وتجيبه ساشا بأعصاب هادئة :

- ليفولوا ما يشاءون !

ويسألها فوما مستغربا :

- وأنت ... ألا تشعرين بالمهانة لهذا الكلام ؟ لقد عرفتكَ ، ولا
يمكن أن يتهمك أحد بالشراهة ... وأنت من مصلحتك البقاء معي
! اننى غنى .. ولكن هانت ذى تنوين أن تتركينى .. وبعبارة
خرى ، انك لست شرهة

وأخذت ساشا تفكر لحظة ، ثم أشارت بيدها اشارة خفيفة
وراحت تقول :

- أنا ؟ ربما لا أكون شرهة ... ولكن ما قيمة هذا ؟ اننى لست
من أولئك الساقطات ... لست من بنات الأرصفة والشوارع .
اما ان أشعر بالمهانة لما يقوله الناس ، فمن يستطيع أن يسوءنى
أو يهيننى ؟ دعمهم يقولوا ما يشاءون ... ان الناس مولعون بالكلام
.. لكننى أعرف ماذا يساوى كلامهم هذا . اننى لو كنت قاضيا ،
لكان الموتى هم وحدهم الجديرين بصفحة .

وهنا تضحك ضحكة كريهة

- ولكن ... هيا . تغير الموضوع ... هيا تناول غداءنا .

فى صبيحة اليوم التالى كان فوما وبنايها واقفين جنبا الى جنب

على ظهر زورق يقترب من أوسنيه • وكانت قبعة ساشا الكبيرة السوداء ، ذات الريشات البيضاء • • والتي كانت مثنية الى وراء بشكل فاجر خليع ، محط أنظار الجميع • لقد كان فوما يتلوى استخذاء وهو واقف الى جانبها ، شاعرا كأنما كل هذه العيون الشاخصة تزحف على وجهه هو • ثم يصطدم الزورق والمنزل الذي احتشد فوقه جمع من الناس في ثياب زاهية ، فيهتز هزة خفيفة ويرسل صوتا لطيفا • ويخيل لقوما أنه لمح بين هذه الوجوه الغريبة وجها ليس غريبا عليه ، كان لا ينفك يتواري خلف ظهور الناس ، الا أنه لا يبعد عينيه عن عيني فوما أبدا

وبدا القلق على فوما ، فقال لساشا :

- هل ندخل الى القمرة

فضحكت وقالت :

- لا تحاول أن تستر خطاياك ! هل رأيت أحدا تعرفه ؟

- ان بعضهم ينظر الى

ونظر الى الجمع مرة أخرى ، فاذا تغير مفاجيء يعرف وجهه ويقول بصوت خفيض :

- انه اشيبني

كان ماياكين يقف عند حافة المنزل معصورا بين امرأتين سمينتين ، ووجهه الايقوني كان مرتفعا نحو فوما ، وقد أخذ يلوح بقبعته في أدب جم ، مشوب بشيء من المرارة ، ولحيته ترتجف ، وصلعته تلمع ، وعيناه تثقبان في وجه فوما كأنهما مثقبان !

وتتمم فوما وهو يتناول قبعته ليحييه محنيا رأسه :

- العقاب الأبله العجوز !

والظاهر أن الانحناء قد سرت ماياكين ، لأنه أخذ يتلوى ويرفع
بلا ويحط أخرى ، ويبتسم ابتسامات تشوبها المرارة .
وقالت ساشا لقوما مازحة :

- يبدو أنها مفاجأة عكرت مزاجك !

وكانت ملاحظة ساشا ، وابتسامات ماياكين شرارات أشعلت
نار في صدر فوما

وقال بصوت مكتوم في شيء من الاضطراب :

- سنرى كيف نتصرف ؟

لكنه لم يلبث أن تمالك نفسه ، وبدا صلب الوجه . ولم يك
لزورق يرسو حتى أخذ الركاب يتدافعون الى المنزل ، واضطر
اياكين الى التراجع لحظة بسبب تدافعهم ، الا أنه تقم في الحال
لى الامام ثانية ، وقد رقصت ابتسامة الفوز على شفثيه . وراح
وما يحده بعينين حادتين من تحت حاجبيه المعقودين وهو يخطو
على لوح النزول ، وقد زاد من ربكته تدافع الناس وتخبطهم
وتزاحمهم . . . وأخيرا كان تلقاء العجوز الذى انحنى أمام فوما أبدع
انحناء فى الدنيا كلها . . .

- والى أين العزم . . أيتها السيد فوما اجناتيفتش ؟

وأجاب فوما دون أن يكلف نفسه مشقة رد التحية :

- اننى هنا لأسباب شخصية .

ويقول العجوز بوجه متهلل :

- عظيم جدا . . ومن يا ترى هذه السيدة الصغيرة ذات الریش
الفاخر ؟

- خليلتي !

وقد قالها فوما بصوت عال وعينه لا تطرفان وهو يدافع نظرات
ماياكين النفاذة .

وكانت ساشا تقف هادئة خلف فوما مباشرة ، متأملة في الرجل
العجوز القميء الذي لم يكن رأسه يرتفع الى ذقن فوما . وقد استرعى
صوت فوما العالي أنظار الناس الواقفين حوله . وكانوا جميعاً
يحدقون عيونهم فيه منتظرين أن يشهدوا فضيحة . وكان ماياكين
هو أيضاً ينتظر ذلك ، فقد كان مزاج فوما المتحفز يدل عليه ، وقد
أخذ يرقص تجاعيد وجهه ، ويمضغ شفثيه لحظات قبل أن يقوا
بصوت لطيف رطب :

- أحب أن أتكلم معك كلمتين . . فهل نذهب الى فندق ؟

- لا بأس . . . ولكن ليس لمدة طويلة .

وقال الرجل وهو لا يكاد يتمالك نفسه أكثر مما فعل :

- ليس لديك وقت ، اه ! مستعجل لكي تحطم صندلا آخر !

وقال فوما وهو يرغب :

- ولماذا لا أحطمها ما دامت قابضة للتخبطيم ؟

وهمس ماياكين يقول :

- لك حق . . صحيح لماذا لا تحطمها . . انك لم تكن أنت الذي

أشتراها . . فماذا يهمك ؟ عال . . هلم بنا . . هل يمكن ؟ . . و

بأس أن تغرق السيدة الصغيرة ساعة أو نحوها

ويتلفت فوما الى ساشا ويقول لها :

- اذهبي الى المدينة واحجزى غرفة في فندق سيبريا يا ساشا ،

ولن أغيب عنك طويلاً .

ثم يقول لماياكين :

- هلم بنا •

ووصلا الى الفندق دون أن ينبسأ بكلمة • ولما لاحظ فوما أن
اشبيينه يضطر الى توسيع خطاه ليحافظ على ملازمته تعمد أن
يزيد خطاه سعة ، وكان عاجز الرجل عن حفظ خطواته مع خطوات
فوما عاملا زاد في حنق ماياكين ونقمته ، تلك النقمة التي تهدد
بالانفجار في أية لحظة

ونادى ماياكين الجرسون وقد جلس هو وفوما الى احدى الموائد
في ركن من اركان صالة الاكل في الفندق ، ثم قال له بصوت
لطيف :

- أحضر لي زجاجة من عصير التوت يا ولد :

وقال فوما :

- أما أنا فزجاجة من الكونياك !

وضحك ماياكين ثم قال :

- هذه هي الطريقة ••• عندما تكون أوراقك خاسرة ••• فلا

باس من تلفيق ورقة رابحة !

وقال فوما وهو يجلس :

- أنت لا تعرف كيف ألعب

- أوه ! أنا لا أعرف ؟ هذه هي الطريقة التي يلعب بها كثير من

الناس •

- ان طريقتى فى اللعب هى : اما أن أكسر رأسى أو أكسر الحائط .
ثم ضرب بقبضته المائدة ضربة قوية .
ويسأله ماياكين وعلى فمه ابتسامة شاحبة :
- هلا أفقت من سكرتك الأخيرة بعد ؟
واعتدل فوما فى كرسيه ، ثم قال بوجه ملوى :
- انك رجل ذكى أيها السيد الوالد . . . وأنا أجلك واحترامك
من أجل ذكائك
ويجيبه ماياكين ، وهو يقف قليلا وينحنى محيا :
- شكرا . . . شكرا يا ولدى !
- انما أردت أن أقول : اننى لم أعد بعد هذا الشاب ابن العشرين
عاما . اننى لست طفلا !
- لا لا . . . لا سمح الله ! انك لسبت طفلا بعد . . . وكم شتاء مر
على رأسك الاثنيب هذا ! انه لو قدر لبعوضة أن تعيش كل هذه
السنين التى عشتها لأصبحت فى حجم الكتكوت !
وأجابه فوما على ذلك بقوله :
- وفر عليك نكاتك فقد تحتاج اليها فيما بعد !
وقد قال ذلك بصوت متزن جعل ماياكين يجفل الى الوراء ، وأخذت
أساير وجهه تلعب وتتراقص فى قلق . وسأله فوما :
- ما الذى جاء بك الى هنا ؟
- لقد بلغنى سلوكك ال . . . سيىء . . . فقلت أحضر ، لأرى
مقدار الحسائر . . . بما أننى أشبه الناس بأحد أقاربك . . . بل
القريب الوحيد الذى لك !

- لقد كان يجب ألا تبالي . أسمع أيها السيد الوالد ، اعمل حاجة من اثنتين ٠٠٠ اما أن تتركنى وشأنى نهائيا ٠٠ أو خذ أنت العمل كله ٠٠ بحذافيره - الى آخر روبل !

ولقد دهش فوما - بقدر ما دهش ماياكين ، أن يسمع نفسه يقول هذا الكلام ٠٠٠ انها فكرة لم تخطر بباله من قبل ، الا انه بمجرد أن قالها شعر أن ماياكين اذا قبل أن يقبله من جميع أملاكه أمكن أن يكون حرا ٠٠ وأمكن أن يذهب الى أى مكان يحب أن يذهب ، مهما كان هذا المكان . لقد كان مكبلا على الدوام ، وإن لم يعلم ماذا كان يكبله ويغل نفسه ، ولا كيف يتخلص من قيوده وأغلاله ٠٠٠ والآن ٠٠٠ ها هي ذى تلك الاغلال ، تسقط عنه من نفسها ٠٠٠ تسقط عنه بمنتهى البساطة ، وبلا ألم مطلقا . لقد أشرق فى قلبه شعاع من الأمل . وملاؤه هذا بالبهجة والجيشان ، وبدأ يتمتم فى هدوء بهذا الحديث السائب المتقطع :

- قد يكون هذا أحسن ٠٠٠ تأخذ كل شيء ، وتدفع ثمنه ونكون متخالصين . أذهب حيث أشاء ٠٠ انى لا يمكننى أن أصل حياتى على هذا النحو ٠٠٠ كأننى مقيد الايدي مغلول الرجلين ٠٠ أريد أن أكون حرا ٠٠٠ أريد أن أعرف حقائق الأشياء ٠٠٠ أشق طريقى بنفسى ٠٠ إننى ٠٠ كما أنا الآن ٠٠ من أنا وماذا ٠٠٠ سجين ! ٠٠ خذ كل شيء ٠٠ الى الجحيم بها جميعا ٠٠ لن أكون تاجرا أبدا ٠٠٠ انى أكره الأعمال التجارية كلها . فاذا أخذتها ٠٠٠ فسأنتطلق الى مكان ما - وسأجد لنفسى عملا ما أقوم به . أما اذا استمر الحال على هذا المنوال فلن أكف عن الشرب ٠٠٠ وهأنذا ، قد قيدت نفسى بتلك المرأة .

وكان ماياكين ينظر ويسمع بوجه أصلب وأبرد من الحجر الصلب ؛ وكان كل الفندق ضجيجا من حولهما ، والناس يجيئون ويروحون وماياكين يقوم وينحنى لهذا ولذاك ، وهو لا يدري لمن ينحنى ٠٠٠

لقد كان انتباهه كله مركزا على وجه ابنه الروحي ٠٠٠ ذلك الوجه الذى كان يكتسى ابتسامة سعيدة رقيقة ٠٠٠ شاردة

وزفر ماياكين أخيرا ، ثم قال :

— يا لك من عيل صغير بائخ ! لقد فقدت صوابك وأفلتت صواميل عقلك كلها ! ما هذا الكلام الفارغ ! أريد أن أعرف : هل هذا من أثر الكونياك ، أو من أثر ضعف اعترى قواك العقلية ؟

وقال فوما محتجا :

— أيها السيد الوالد ٠٠٠ لست أنا أول من يصنع ذلك ٠٠٠ لقد صنعه كثيرون قبلى ٠٠٠ كانوا يتركون كل شيء ، ويتجردون من كل شيء ٠٠٠ ثم ينهبون الى حال سبيلهم !

ويجيبه ماياكين بلهجة قاسية :

— لم يحدث هذا ٠٠ ولم أعرفه فى حياتى ! ٠٠ ولو قد حدث ٠٠٠ لأريتهم !

— بل كثيرون جدا تجردوا مما يملكون وأصبحوا نساكا !

— لم يكن يمكن أن يفعلوا ذلك لو أنهم كانوا قد قابلونى لأناقشهم هذا الأمر ! ولكن ٠٠٠ فبم أحاول التحدث اليك حديثا جديا ؟ به !

ويقول فوما مستاء :

— ولكن ٠٠ لم لا يا سيدى الوالد !

— اسمع : اذا كنت كناس مداخلن ٠٠٠ فتسلق الأسطح ، وخيبة الله عليك ! واذا كنت من رجال المطافىء فعليك أن تصعد الى قمة البرج ! ان لكل صنف من الناس صنفا من الحياة خاصا به ٠٠٠ ولا يعقل أن تزار العجول كما تزار السباع ٠٠٠ فكن لما ولدت أن

كون . . . ولا تنظر بعين الحسد الى بساطين الآخرين . . . عشي
بياتك الخاصة بطريقتك الخاصة .

وكان هذا الكلام الرزين الممتليء حكمة ، والذي طالما سمع فوما
لكثير منه ، يندفع في سبيل متدفق من تلك الفجوة المظلمة التي هي
ثم الرجل العجوز . . . ولكن . . . لا . . . لقد كان فوما عما قال
الرجل في صمم . . . لقد كان مستغرقا في أحلام الانطلاق والتحرر
التي بدا تحقيقها الآن قاب قوسين أو أدنى . انها كانت تستولي
على لبه استيلاء تاما . وأصبح قلبه ثابتا لا يتزعزع في تصميمه على
الخلاص من تلك الحياة الكثيبة العكرة التي يحيها ، وعلى الخلاص
من كل مقومات تلك الحياة أيضا . . . من اشيبته ، ومن المراكب
والصنادل ، ومن حياة القصف والتهتك . . . ومن كل ما يجعل
الحياة بهذا القدر من الكآبة والضيق والاختناق .

لقد كان صوت الرجل يصل الى أذني فوما كأنه آت من بعيد . .
بعيد . . ثم يختلط بأصوات قرقرة الأطباق ، وجمجمة السكاري ،
ووقع أقدام الحدم على أرضية الصالة .

ثم قال ما ياكين وهو يضرب المائدة بيديه :

- لقد دخل كل هذا الكلام الفارغ الى رأسك لأنك ممتليء امتلاء
شديدا بالنزوات الشابة الطائشة . . . ان طيشك وتهورك خرق
وسوء فهم . . وأفكارك لا قيمة لها . . . قل لي . . ما رأيك في أن
. . . أن تذهب الى دير ؟

وكان فوما يصغي ، ولا يعلق . وكانت الأصوات في الغنشدق
تخف وتتلشى قليلا قليلا . . . وكان يخيل اليه أنه في وسط كتلة
مضطاحنة من البشر ، برزت أعينهم خارج رؤوسهم ، وجعلوا ، لأسباب
غير معروفة ، يصيحون ويتدافعون ويقعون ويتزاحمون . . . دون
أن يذهبوا الى أي مكان . وقد ساءه عجزه عن فهم ما يريدون أو

الثقة بما يقولون ٠٠٠ وكان يتمنى لو يستطيع أن ينفلت منهم
وأن يقف ليلاحظهم من بعد ٠٠٠ فلو قد أمكن هذا لكان من المؤكد
أن يستطيع فهم ما كان يجرى ، وأن يجد لنفسه مكانا بينهم
وقال ماياكين بصوت أكثر ليونة لما رأى من حيرة فوما وشروء
ذهنه :

- مفهوم . انك تريد أن تجد السعادة ٠٠٠ ولكن هذا ليس أمرا
هينا . فالبحث عن السعادة أشبه بالبحث عن نبتة عشب الغراب
وسط غابة بأكملها ٠٠٠ والبحث عنها يتطلب منك قصم ظهرك .
وعندما تظن أنك قد وجدتها فقد تتكشف عن أنها لا شيء ! لا شيء .
أكثر من خيبة أمل !

ويرفع فوما رأسه ويقول بلهجة تجعل ماياكين يحول عنه وجهه
اتقاء عينيه المتقدتين :

- عال ! هل يمكنك أن تعطيني حريتي ؟ أعطني متنفسا ، أتنفس
فيه . أعطني فرصة أتخلص فيها من كل شيء اننى اذا استطعت يوما
أن أنظر الى الأشياء وأنا خارج عنها فلعلنى ٠٠٠ أما اذا ظللت غارقا
فيها على هذا النحو فلا حيلة لى الا التداوى بالشراب حتى الموت !

ويصيح به ماياكين غاضبا :

- كف، عن هذا الكلام الفارغ ٠٠٠ وكن رجلا معقولا .

فبرد عليه فوما هذا الرد الهادئ :

- عظيم . فانت لن تستجيب لطلبى . . اذن . . انتهى كل
شيء . . وسأقذف للريح بكل شيء . . ولم يعد ثم ما يقوله أحدا للآخر
٠٠ أنت ٠٠ وأنا ؛ وداعا . . وسيجرى كل شيء على مايرام هذه المرة
- وسترى : كيف تأتي النار على كل شيء حتى لا تدع الا رمادا .

لقد كان فوما ثابنا رابط الجأش قوى الصوت . وانقا من أن
انسيبنيه لن يستطيع أن يقف فى سبيل ما استقر رأيه على تنفيذه .
الا أن ماياكين هب واقفا ، وراح يقول له بصوت ليس أقل قوة من
صوته :

- وهل تعرف الاجراءات التى يمكننى أن أقوم بها ؟
ويلوح فوما بيده قائلا :

- اعمل ما شئت !

- حسن ! واليك ما سوف أعمل : سأعود الى المدينة حالا .
سأعمل مايلزم الحجر عليك ووضعك فى مستشفى للمجاذيب !

يقول فوما بصوت تشويه الريبة ، وقد أخذه شيء من الخوف
- وهل هذا ممكن ؟

- كل شيء ممكن ما دعت أنا الذى سأعمله . . يا صغيرى الشاب!
وسرت الرعدة فى جسم فوما ، وراح يحدث نفسه قائلا :

- انه يستطيع أن يفعل هذا . . . انه قاس لا يرحم !

- اذا كنت جادا فى أن ترتكب حماقة المجانين هذه، فسوف أتخذ
الاجراءات التى تحول بينك وبين هذا . لقد عاهدت أباك على ملازمتك
حتى تقف على رجليك . . . وأنا مصمم على أن أفى بذلك العهد . . .
ماذا لم تشأ أن تقف فسأربطك داخل مشاية من حديد تجعلك تقف
حيدا . . . انى أعرف أن هذا الذى أصابك ناشئ من كثرة ادمانك
الشرب . . . لكننى اذا رأيتك تبعر أموال أبيك التى طالما شقى
بى جمعها ، وذلك لمجرد اللهو والسرف ، فسأعرف شغلى معك .
سأدخلك الشق . . . وأنا رجل متعب لا يستطيع أحد أن يضحك
على ذقنه . . يا صغيرى !

وعند هذا تجمعت غصون خديه وكراميشهما تحت عينيه اللتين كانتا تبسمان في برود وسخرية وهما يبصبسان من هاتين النقرتين القاتمتين ، وقد صنعت الخطوط التي في جبهته رسما غريبا في قاعدة جمجمته الصلعاء ، وأخذ وجهه طابعا صارما خاليا من الرحمة .

وسأله فوما واليأس مستول على نفسه :

- وبعبارة أخرى ٠٠ لا مفر ولا مهرب من ذلك كله ٠٠٠ وإنه تقطع على كل طريق من طرق الخلاص !

- أمامك طريق واحد ، فعليك به ، وسأريك السبيل إليه .
وسينتهي بك الى بر السلامة

وكانت وداعة الرجل ، وكبرياؤه التي لا تقهر قد أثارنا نائره فوما وبلغنا به درجة الجنون ٠٠ فما كان منه الا أن دفع يديه في جيوب معطفه اشفاقا من أن يرسلهما في وجه الرجل ، ثم اعتدل في مقعده ، وراح ينفخ كما تنفخ الافاعي قائلا :

- ليت شعري ما الذي يجعلك فخورا مختالا هكذا ؟ ماذا عنديك مما يفخر به ويزهى ؟ ابنك ؟ أين هو ؟ ابنتك ؟ ماذا صنعت منها ؟ لله ما أظرفك وأنت تعلم الناس كيف يعيشون ! رجل ذكي ٠٠ تعرف كل شيء ! قل لي : ما هدفك الذي تعيش من أجله ؟ ألا تنتظر أن تموت ؟ وأى شيء فعلته كان يستحق أن تفعله ؟ وبماذا سوف يذكرك الناس ؟

وارتعشت أسارير ماياكين ، ثم ٠٠ أنهارت ، بحيث بدا وجهه كثيبا كسييفا معزنا ٠٠٠ وفتح فاه ٠٠ ولكن الكلام خانه ٠٠ فلم يفه بشيء ٠٠٠ ولم يملك الا أن يجلس مكانه مأخوذا مشدوها ٠٠٠ ينظر الى ابنه الروحي في ذهول ٠٠٠ وفي خوف أيضا ، لكنه استطاع أن يقول أخيرا :

- اخرس ٠٠ أيها الجررو !

ونهض فوما ٠٠٠ ونثر الكاب على رأسه ، ووقف يحرق في الرحم ،
هي بغض :

- اني أتحداك ٠٠ وسأكون معك في نزال ٠٠٠ وسأنفق كل
ما ملكت يدي .

- عال جدا ٠٠ وسنرى ماذا تكون النتيجة ؟

وقال فوما مستهزئا :

- وداعا ٠٠ أيها النا ٠٠ صح الحكيم !

ويجيبه ماياكين بصوت ناعم ٠٠ وكأنه مقطوع النفس :

- والى أن نلتقى مرة أخرى !

وجلس ياكوف ماياكين وحيدا فريدا في الفندق ٠٠ وقد ظل
حالسا الى مائدته يرسم بأصابعه المرتعشة رسوما غريبة في بضع
حبات من الجويدار كانت منشورة على صينية ٠٠٠ وكان رأسه
المنتصب لا ينني يميل ويميل ، كأنما كان يحاول أن يستشف معنى
ما رسم من تلك الرسوم على الصينية ، بأصابعه التي كانت جلدا
على عظم ٠٠٠

وكانت قطرات من العرق قد وقفت على جلدة رأسه الاصلع ،
وتجاعيد خديه ترقص كعاداتها في قلق واضطراب .

وأخيرا نادى الخادم ، وسأله وهو حزين مهتاج :

- كم حسابك ؟

الفصل العاشر

لقد كان فوما قبل شجاره هذا مع ماياكين يشرب الخمر لا حباً فيها ، ولكن لما كان يشعر به من انقباض وسأم وكرهية للحياة . أما الآن فهو يقبل على شربها كأنه ينتقم لنفسه من شيء ، يشربها بدافع من النعمة والقنوط ، وكأنه يتحدى الناس جميعاً . وفي بعض الأحيان كان هذا التحدى ينهله هو نفسه . لقد كان يخيل له أن أهل الوقار من الناس ، أولئك الذين لا يذوقون الخمر ولا يسمحون لها بأن تذهب برشدهم ، هم حمقى ومجانيت . سينو البخت . . . أما السكارى . . . فكانوا أهل ثورة وتمرد ، وأشدهم حماقة وجنونا من الآخرين . انه لم يكن يجد ما يحبه فى أى واحد من رفاقه . . . بل لم يكن يعنى بالسؤال حتى عن أسمائهم ، وسرعان ما كان ينسى الوقت الذى عرفهم فيه والمكان الذى لقيهم فيه ، وكان يجد ما يغريه على الدوام بتحقيقهم والزراية بهم . وكان يحيط با فى المطاعم الغالية ذات النمط الحديث أهل الفن والنظامون والمشعوذون والممثلون ووجهاء الريف المفلسون الذين بددوا ثرواتهم فى الحياة السائبة المستهتره . وكان هؤلاء أول ما يلقونه يتظلمهرون بمظهر الدعاية له ، وأنهم حماة المخلصون . وكانوا لا ينفكوا بفخرون أمامه بحسن تذوقهم للخمر وواسع المامهم بصنوفها وخبرتهم الواسعة بألوان المطاعم والمشارب ، ثم لا يلبثون بعد ذلك أن يظهر أمامهم بمظهر الاذلاء . الغلبة ! فيقترضوا منه النقود التى يقترضه هو بدوره بموجب سندات موهورة بامضائه . وأخذ الحلاقون والمهرة فى لعب البليارد ، والموظفون الكتائبون والمغنون يحومون

حوله كما تحوم جوارح الطير حول الجيفة ، وذلك عندما يغشى
المشارب الوضيعة والخمارات . وكان يشعر فى وجوده بينهم
بالغبطة ، ومن ثم كان يأنس اليهم أكثر مما يأنس الى غيرهم .
وكانوا فى نظره أقل فسادا وأيسر فهما . . انهم لم يكونوا الغاذا
كسائر الناس ، وكانوا فى بعض الاحيان يظهر من العواطف
القوية السليمة ما لم يكن يصدر عن غيرهم ، وكانوا على الدوام
يسمون بقدر أوفى من الإنسانية . . . الا أنهم لم يكونوا يقلون عن
السادة المحترمين ، شراهة الى المال وصفاقة فى الحصول عليه .
بطالما كان يشمتد فى سخريته بهم من أجل هذا

وكان ممن يحومون حوله طائفة من النساء بالطبع . وكان فوما ،
لعجولته وسلامة بنيته ، يؤوى النساء من كل صنف ، الرخيصات
مهن والغاليات . . الجميلات والقيحات . وكان يهدى اليهن المبالغ
الكبيرة من المال . . وكان يبذلهن غالبا كل أسبوع كما يبذل الإنسان
خداه . . الا أنه كان يحترمن اجمالا أكثر مما يحترم الرجال .
وكان يسخر منهن أحيانا ويوجه اليهن الالفاظ النابية المزرية ، غير
أنه لم يكن يستطيع قط - حتى فى أحوال السكر الشديد - التغلب
على ذلك الحجل الذى كان يعتريه فى حضرتهم . وكان يشعر بأنهن
جميعا ، حتى أقلهن حياء واحتشاما ، كن عاجزات لا يملكن الدفاع
عن أنفسهن كالأطفال تماما . ولم يكن فوما وهو هذا الفتى المستعد
باستمرار لاثارة الشجار مع أى رجل ، ليرفع يده على امرأة ، وان لم
ير بأسا فى توجيه أشنع الشتائم الى من تهيم له سببا لذلك ، لقد
كان يشعر أنه أقوى بما لا يقاس من أية امرأة ، وأعظم حظا أيضا .
وكانت المرأة التى تباهى بفجورها وتهالك على الاثم والفسق تغشى
نفسه ، وتملؤه بالضيق والشعور بالعار فى مصاحبتها . وقد
صربته امرأة شبه مخمورة من هذا الصنف ذات ليلة بقشرة شماعة
على خده وهما على مائدة العشاء ، فامتقع لونه ، وما كان منه الا أن

وقف وقد وضع يديه فى جيوبه ، وقال لها بلهجة شديدة ، وبصوت يرتجف غضبا :

- هيا .. اخرجى من هنا يا كلبة ... لو كان أحد عيرى لحطم رأسك من جراء تلك الفعلة ... ولكنك تعرفين أن مثلى لا يمكن أن يمسك بأذى ، ولو بأصبع واحدة من أصابعه ... يا جرسون ... اقذف بها من هنا !

وعندما ذهب هو وساشا الى قازان ، لم تمض أيام حتى تركته ساشا وذهبت لتعيش مع ابن أحد صناع الجعة

وقد قالت لقوما وهى تتركه لتقوم برحلة مع عشيقها الجديد فى نهر كاما :

- وداعا يا حبيبى ... ولعلنا نلتقى يوما ما مرة ثانية : وتذكر أننا .. أنا وانت ، مسافران فى الطريق نفسه .. وصيتى ألا ترخي العنان كثيرا لمشاعرك ... بل متع نفسك بالموجود ، ودون أن تلقى بالك الى شيء ... وعندما يفرغ الطبق .. كسره ... وداعا !

ثم طبعت على شفتيه قبلة طويلة عنيفة ... وعندما تركته كانت عيناها أشد سوادا من كل عهد مضى !

وكان فوما سعيدا بهذا الفراق ... لقد ملها وزهد فيها ... وكانت قللة مبالاتها ترعبه وتثير القزع فى نفسه ... ومع هذا ، فقد شعر فى تلك اللحظة بوخزة من الألم والأسف ... ثم ولى عنها وهو يتمتم :

- اذا لم تلقى حظك معه .. فعودى الى !

وكان جوابها على ذلك كلمة الشكر المعتادة ، قالتها وهى تضحك ضحكة خشنة وقحة .. لم يعتد أن يسمعها منها من قبل

وهكذا ٠٠ جعل فوما يعيش من يوم ليوم آخر ، وهو يرصع لبان
الامل المداعب ، الذى يغازله بالهرب من مععان الحياة الى هامشها
٠٠٠ الى ما وراء الدوامة ٠٠٠ بعيدا عن العاصفة ٠ لقد كان اذا خلا
الى نفسه فى الليل ، يغمض عينيه تماما ، ثم يخيل له أنه يرى فى
رحابها حشدا من الناس وكأنهم فى فوهة بركان ضخمة ممتلئة بالحمم
والشراب وهم يدورون حول أنفسهم كما يدور الحب فى نقرة
الطاحونة ، وكأنما تخت أرجلهم حجر كهذا الحجر . وهو يطحنهم
طحنا ، وهم يرتفعون ثم يسقطون موجة بعد موجة ، وبعضهم يحاول
ان يسبق الآخرين الى النقرة لكي يطحنه الحجر قبل اخوانه .
ويقضى عليه قضاء مبرما وبأسرع ما يمكن ٠٠ على حين كان البعض
الآخر يحاول أن يبقى بعيدا ٠٠٠ فوق القمة ٠٠٠ ليفلت من ذاك
الحجر الذى لا يرحم .

وكان يخيل لفوما أنه يتبين وسط هؤلاء البائسين بعض الوجوه
التي له بها عهد ٠٠٠ لقد كان يتبين وجه أبيه وهو يدفع غيره دفعا ،
وبوجه ضاحك ٠٠٠ بل بصوت مقهقه ٠٠٠ ثم اذا هو يتشر ويختفى
تحت أقدام القوم ، وكان بينهم كذلك وجه اشيبينه وهو ينفلت كما
ينفلت الثعبان ، ويتواثب على أكتافهم ، وينسرب بين أرجلهم ،
ويرقص جميع عضلات جسمه النحيل الهزيل ٠٠٠ وكانت فيهم
ليوبا وقد طفقت تصيح وتصرخ وتكافح ٠٠٠ تثب الى أمام مرة ،
ثم تنفلت الى خلف مرة أخرى ، وهى فى كل ذلك تحاول الإمساك
بأبيها حتى لا يغوص فى نقرة الطاحونة ، أما ييلاجيا فقد كانت
تتحرك بسرعة فى جهة واحدة ، وأما صوفيا بافلوفنا فكانت تقف
وذراعاها مرتختتان فى ترهل الى جانبيها ، تماما كما كانت واقفة فى
صالونها آخر مرة لقيها فيها فوما ، وكانت عيناها العظيمتان
ممتلئتين ذعرا ٠ وكانت ساشا ٠٠٠ تلك الجريئة الرابطة الجأش ،
كانت تشق طريقها وسط الجمع شقيا ، غير ملتفتة الى ما حولها من
تدافع ، وهى تتفرس فى القوم بعينيهما الضافتين السوداوين ٠٠

وكان فوما يستمع الى صراخهم وضحكهم وهتافاتهم المغمورة
ومخاوراتهم .. وكانت الاغاني وعبارات الندبة والنواح تأتي محلة
فوق هذا الجمع المضطرب من الابدان البشرية المحبوس في النقرة
والزاحف هنا وهنا ، يعصر بعضه بعضا ، ويثب بعضه على اكتاف
بعض ، متعثرين متخبطين كالعميان ، متشاجرين .. متساقطين .
ثم غائبين عن الابصار . ثم سمع حفيفا وخشخشة كان أوراقا مر
البنكنوت تتطاير كالحفافيش فوق رؤوس القوم الذين يتلقفونهم
بشراة . وسمع أيضا رنين الذهب والفضة وقرقرة زجاجات الحم
وقتح فليئاتها ونشيج السكرى ، وتلك النغمات الحزينة التي كان
بمتزج بها صوت احدى النساء وهي تغنى تلك الاغنية :

يا حبيبي لا تفكر في غد الا غدا

دعه يندب نفسه ، فالغد غيب

وهلم اليوم .. نوسعه سرورا

وحبورا .. انه حب وقرب

ولم يستطع فوما لنفسه فكাকা من تلك الرؤيا التي كانت تزداد
تألقا وتزداد عظما كل مرة تداعب عينيه بمناظرها ، والتي كانت
تثير مشاعر مختلطة تنقذف في دوامتها كما تنقذف مسایل الماء في
النهر الكبير ، مشاعر من الخوف والسخط والرثاء والغضب ، كانت
تغلي وتضطرب في صدره الى أن تتحول ، فتكون رغبة كبيرة ، تكاد
من عظمها تخنقه ، فينبثق التمتع في عينيه ، ويحس رغبة في الصياح
والعواء كما يعوى الذئب ليخيف الناس ... أما هذه الرغبة فهي
أن يضع حدا لذلك الهرج الذي لا جدوى فيه ، وأن يضيف هو
شيئا الى الاضطراب ... أن ينطق بكلمات ذات معنى ، يرسلها
بصوت عال ... وأن يجعل كل هؤلاء الناس يسيرون في جهه
واحدة ، بدلا من اختلاطهم وتدافعهم هكذا بلا نسق وفي غير
نظام ، لقد كان يحس بالرغبة في أن يمسك بهم ليفصل بعضهم عن

بعض ، وأن يجلد بعضهم ، ويربت على ظهر بعض ٢٠ . وأن هؤلاء وهؤلاء جميعا ، وأن يلقي ضوء بعض نار عظيمة عليهم .

لكنه كان صفر اليدين - لا كلام عنده ولا نار - لا شيء ٢٠ . الا الرغبة ٢٠ . يلمسها ويحسها ٢٠ ولكن لا يستطيع تحقيقها ٢٠ . لقد رأى نفسه واقفا خارج النقرة التي كان الناس يطحنون داخلها ٢٠٠ . واقفا في ثبات وتصميم ٢٠ ولكن ٢٠ في ضمت وبكم : لقد كان في مقدوره طبعاً أن يهتف بهؤلاء القوم :

- أيها الناس ٢٠ ما هذه الحياة التي تحيونها ؟ ألا تخرجون ؟ ولكن ماذا تكون الحال اذا سمعوه ، فقالوا : « ولكن أى نوع من الحياة نرى أنت أن نحياها ؟ » لقد كان يعرف تمام المعرفة أنهم لو سألوه هذا السؤال لا يمكن أن ينهار من هذه الذروة التي يقف فيها لتطأ أقدامهم ، وليطحن بين الحجرين اللذين لا يرحمان . وان الناس سيضحكون ولا بد حينما يرونه يحقق به الهلاك !

وكان يخيل اليه أحيانا أنه صائر الى الجنون لا مخالفة من كثره . ما يكب على الشراب ، وكان هذا هو السبب في تمكن تلك الرؤيا ٢٠ وبالأحرى ، ذلك الرغب ، من عقله . وكان في مقدوره حينئذ أن يخمد بقوة ارادته . الا أنه في اللحظة التي كان يخلو فيها الى نفسه ، ولا يكون السكر متمكنا منه تماما ، كانت نوبة الحرف والهذيان تعاوده فتطحنه طحنا . وكان تشوفه الى الحرية والانطلاق بغوى ويشتد ، الا أنه كان أعجز من أن يحطم عنه قبود ثروته . وأغلالها .

أما ماياكين ، الذي كان فوما قد أعطاه السلطة القانونيه لاداره أعماله ، فلم يكن يدع يوما يمر دون أن يفرض عليه الشعور بمسئوليته . عرضا فكان يرسل اليه أصحاب الديون ليحصلوا كمبيالاتهم

والمقاولين لامضاء عقود الشحن . والكتبة لمناقشة لأمور التي تولوا ابرامها بأنفسهم . وكان هؤلاء يبحثون عنه في المشارب والحمارات لكي يسألوه عما يجب أن يفعلوا ، والنحو الذي يتصرفون بمقتضاه . وكان هو يوجه اليهم نصائحه التي لم يكن في كثير من الأحيان يوقن وجه الصحة فيها . وكان هو يلاحظ مايتلقون به هذه النصائح من التشاؤم والشك في جدواها . كما كان يلاحظ أنهم ، بدلا من أن يتصرفوا كما أشار عليهم ، كانوا يتصرفون بوحى من أنفسهم ، حيث يكون التصرف أفضل وأحسن مما كان يرى هو . وكان يعلم أن اشبيته كان وراء هذا كله . وأن هذه كانت حطة ماياكين التي رسمها ، والتي حرص فيها على القاء عبء المسئوليات على كاهله عسى أن يعيده الى الجادة ، والطريق السوى المستقيم الذي اختاره هو له .

وكان فوما يدرك كل الادراك أنه لم يكن الرأس المدبر لأعماله في حقيقة الأمر ، بل انه لم يكن الا مجرد ملحق من ملحقاته ، وشخصية ثانوية فيه ، بل شخصية لا أهمية لها أيضا . وكان ضيقه بهذه الحال يضاعف من شعور الكراهية للرجل العجوز ، ويزيده شوقا الى يوم الخلاص من ربة أعماله . حتى لو كان في الخلاص منها حرا به . ومن ثم راح يبعثر الأموال بمعدل فظيع في المشارب وبيوت الفجور . الا أن ذلك لم يستمر طويلا : فقد أقفل ماياكين حساباته في البنك . وأخذ فوما يدرك أن الناس لم يعودوا يسارعون الى تلبية ما يطلب اليهم من القروض كما كان من شأنهم معه من قبل .

وكانت هذه ضربة لكبريائه ، الا أن الضربة الحقيقية ، الضربة التي أذهلته وأطارت صوابه ، حاقت به عندما بلغه ما كان يشيعه عنه اشبيته من الشائعات عن جنونه ، وما كان يلمح به من ضرورة تعيين وصى شرعى يكون صاحب القوامة عليه . ولم يكن فوما يعلم

الى أى حد يستطيع اشبينييه أن يمضى فى ذلك ، ومن هنا فقد نردد
فى أن يستشير أحدا فى هذا الموضوع .

وكان يؤمن بأن ماياكين شخصية ذات أهمية كبيرة فى عالم
التجارة تستطيع القيام بما تشاء . وقد أذهلته أول الامر يد اشبينييه
الباطشة ، الا أنه سرعان ما اعتادها ، فسار فى طريق شهواته ،
لا يلهه الا الاختلاط بمن كان يهوى الاختلاط بهم .

وكان لا ينفك يزداد ايمانا بأن البطانة التى حوله من أولئك
الناس كانت أخبث منه وأشد دنسا ، وأنهم انما يحيون حياة تافهة
فارغة لا معنى لها ولا هدف . انهم لم يكونوا سادة الحياة والمتحكمين
فيها ، بل لم يكونوا الا مجرد تبع ، ومجرد مداهنين - ولا دليل -
.. تلقى بهم الحياة الى ما تشاء ، وتعصف بهم كما تشاء .

وهكذا ظل سادرا فى حياته تلك ، كأنما كان يعبر مستنقعا نكدا
بهدهد فى كل خطوة بأن يبتلعه وحله ، على حين كان اشبينييه يلتف
حوله كما تلتف ساق من سيقان العنب ، نام فى أرض جافة صلبة
.. فهو لا ينى يرمقه من بعد بعين حذرة متيقظة .

ذهب ماياكين ، بعد مشاجرته مع فوما ، الى منزله مقطبا عابس
الوجه مستغرقا فى التفكير . وكانت عيناه تكتسيان بلوعة جافة ،
وهو يشد نفسه شدا فكان أشبه بسمط متوتر وقفت حباته حبة
نوق حبة . وكانت أخاديد وجهه أشد عمقا ، وكأنما ازدادت سمحتة
تقبضا وظلاما ، حتى لقد حسبته ليوبا مريضا بمرض خطير ولا بد
... اذ كان يلدق الأرض بقدميه فى عنف وشدة ، ويوجه اليه
دودا جافة خشنة على أسننتها .. ثم يصيح بها أخيرا :

- اغربى عن وجهى .. دعينى وحلى .. فليس عندى وقت لك !

وقد ثارت في قلبها مشاعر الحنان لما كانت تراه من سيماء التعس
في عينيه الخضراوين . وعندما جلس ليتناول غداءه لم تملك أن
ذهبت إليه حيث وضعت كفيها على كتفيه ، وسألته وهي تنظر إليه
في حنان وعطف :

١ - أتشعر بشيء يا أبى ؟

انها ندر ما كانت تبدي له شيئا من أمارات العطف والمحبة ،
فاذا حدث أن أبدت من عطفها شيئا ، كان ذلك يهز قلبه هزا ...
وكان هذا يلذه منها ، وان لم يكن يحفل قط بأن يبادلها عطفًا يعطف
... أما هذه المرة فقد نثر يديها بعيدا عن كتفيه ثم قال :

- تعالى تعالى .. اجلسي .. قولى لى .. ما الذى يربكك هكذا ؟

لكنها لم تجلس ، بل ظلت واقفة حيث هى ، محدقة في وجهه ..
ثم شرعت تقول له في احساس جريح :

- لماذا يا أبى تخاطبني دائما بهذه اللهجة ، كأننى طفلة أو فتاة
عبيبة ؟

- بل لأنك كبيرة ولا ذكاء عندك ... هذا هو السبب ...
عاجلسي وتناولى غداءك .

وجلست في الكرسي المقابل له في صمت ، وقد زمّت شفنيها ..
ومضى وقت طويل والرجل يمد يده إلى طعامه ... بل كان يحملق
في حسائه وينقر المائدة بملعقته ، وهو ذاهل شارذ اللب ... إلى
أن قال فجأة ، وهو يتنهد :

- آه لو كان رأسك الفارغ المهوش هذا يستطيع أن يفهم أفكار
والدك !

ورمت ليوبا ملعقتها ، ثم أجابته وهي توشك أن تبكي

- لماذا تتعمد دائما أن تجرح مشاعري يا أبنى ! ألا تستطيع أن تلمس ما أنا فيه من وحشة ؟ ليس يخفى أنك تفهم مقدار ما فى حياتى على هذا الأسلوب من قسوة . ومع هذا ، فأنت لا تعطينى ريقا حلوا مطلقا ولكن . . ما الفائدة ؟ . . فحياتك مثل حياتى مقفرة موحشة . . . ومن الصعب عليك أن . . .

وقاطعها بقوله وهو يضحك ضحكة خفيفة باهته :

- تنهقين كحمار بلعام . . . هيه . . . وماذا تريد أن تقول أيضا ؟

- انك شديد الزهو والفخر بذكائك .
- وماذا أيضا ؟

- يجب ألا تكون مزهوا فخورا . . ثم لماذا تظل تصدمنى هكذا . . مع علمك أنه ليس لى أحد سواك فى هذه الحياة ؟

ثم فاضت عينها بالدموع . . فذهل الرجل ، ونظر إليها بعينين بدعورتين ، وهو يقول :

- آه لو لم تكونى بنتا . . أو لو كان لك عقل مثل عقل . . ماريا بوسادنستا . . اذن لسخرت بالدنيا وما فيها ياليويا ! . . بفسوما بكل شخص سواه . . تعالى . . عيب . . لا تبكى . .

وتساله وهى تمسح دموعها :

- وماذا يصنع فوما ؟

- يحرن . . كما يحرن الحصان . . ويقمص ويرفس . . انه يقول لى : خذ كل ما أملك ودعنى حرا . . يريد أن يجد الخلاص فى اخور ! فهذا هو الذى يداعب خيال فوما !

- ولكن . . لماذا ؟

- لماذا ! .. هذا : اما من أثر الحمر .. أو .. كان الله في عونه ،
وراثه عن أمه - الكارثة القديمة نفسها .. وهو اذا أصر على هذا
الجنون فسوف أحاربه بأسناني وأظفري .. لقد أعلنها حربا
مكتشوفة بيني وبينه .. هذا المنفوخ المتكبر .. المتغطرس .. الا أنه
شباب حدث .. ولا ينطوى على شيء من خبث أو دهاء .. انه يقول
انه سوف يأتي على كل ما يملك ! أوه .. انه يستطيع ؟ أليس
كذلك ؟ والله لأرينه !

ويرسل ماياكين قبضته في الهواء مهددا ، ويصل كلامه فيقول :
- كيف تجرؤ على ذلك ؟ من الذي أنشأ هذه الاعمال ؟ أنت ؟
كلا ! انه أبوك ! لقد كدح في سبيلها أربعين سنة من عمره ، وتأتي
أنت فتحاول قذفها الى الريح ! لقد كان من دأبنا نحن التجار أن
سافر معا في البرية في صفوف ، أحدا خلف الآخر ، ونحن
نتسلق القمم ونهبط الاودية .. ولا نفك نمضي قدما حتى نبلغ
مقاصدنا .. اننا نحن التجار وأصحاب الدكاكين .. نحن الذين
حملنا روسيا على أكتافنا جيلا بعد جيل .. ولا نزال نحملها الى
اليوم ..

لقد كان بطرس الاكبر رجلا آتاه الله الحكمة ؛ فهو الذي عرف
قيمتنا ، فماذا فعل لمعاونتنا ؟ لقد طبع لنا الكتب التي تعلمنا عملنا
لقد حصلت على كتاب من تلك الكتب التي طبعها .. كتاب من تاليف
بوليدور فرجيل أوربنسكي عن المخترعين ، طبع سنة ١٧٢٠ م
ألقي بالك الى هذا ، لقد أعطانا بداية .. وها نحن أولاء قد وقفنا على
أرجلنا ، الا اننا نريد أن نمضي قدما دون أن يعوقنا عائق .. لقسا
أرسينا أسس الحياة ، ووضعنا أرواحنا نفسها في الأرض مع الحجار
.. وقد آن أن نبني الآن طبقات البناء طبقة بعد طبقة .. وكان لآبا
لنا من الحرية للقيام بهذا العمل ، فهذا اذن هو خط سير العمل التو

كان علينا أن نتبعه - وهذا هو العمل الذى أمامنا .. ولكن فوما لا يرى شيئا من ذلك .. غير أنه يجب أن يراه ، ويجب أن يستمر فيه . ان تحت يديه ثروة أبيه ، وعندما أموت فسوف يحصل على ثروتي أنا أيضا .. فلماذا لا يمضى فى طريقنا ويضطلع بعبء العمل؟ ولكنه بدلا من أن يفعل ، يشب على رجله الخلفيتين كالحصان الجامح .. ويصهل ! ولكن .. صبرا .. صبرك أيها التافه الصغير الذى لا قيمة له ! تالله لأردنك الى الجادة ، ولتكن فى مكانك الصحيح !

لقد كان الرجل يضطرم غضبا ، وكانت عيناه تقدحان الشرر ، كأنما كان فوما هو الذى أمامه ، وليست ابنته ليسويا .. ولشدهما انزعجت الفتاة لذلك .

- لقد مهد لك أبوك الطريق .. وما عليك الا أن تسلكه .. وأنا .. لقد ضللت خمسين سنة وأنا يستعبدنى هذا العمل .. ولماذا ؟ لا بنائى ! وأين أوثلك الأبناء ؟

ثم يتخاذل الرجل وينكس رأسه .. حتى إذا عاد الى الكلام ، كان كمن يتكلم من أحشائه :

- لقد مات أحدهم .. والثانى سكير عرييد أسلم نفسه للشيطان .. والثالثة ابنة .. فمن ذا الذى ينهض بعبء العمل بعد وفاتي ؟ فلو أن لى زوج ابنة .. الآن .. أو لو أمكن أن يشبع هذا الاحمق فوما من حماقات الشباب التى هو سادر فيها الآن ، ثم يقر قراره ، ويثوب الى رشده لزوجتك اياه ، ثم لأعطيته جميع ما أملك .. ولكن فوما لا يريد .. ولست أرى أحدا سواه .. ان الناس اليوم أصبحوا غيرهم بالأمس .. لقد كانوا قديما أحسن كثيرا مما هم عليه اليوم .. فلماذا ؟ ما السبب ؟

ثم نظر الرجل الى ابنته .. لكنها لم تنبس ! فراح يسألها :

- خبرينى يا ليوبا .. ماذا تريدان من الحياة ؟ وما رأيك فيما ينبغي أن تكون حياة الناس ؟ لقد ذهبت الى المدرسة يا ابنتى وقرأت الكثير من الكتب .. فماذا تريدان من الحياة ؟

وقد كانت الطريقة التى وجهت اليها تلك الاسئلة مفاجأة أربكتها ، لكنها مع ذاك شعرت بسرور كبير فى أن يسألها أبوها مثل هذه الاسئلة ، وان خشيت أن تجيب عنها مخافة أن تتضعض مكانتها فى نظره .. ومع ذاك فقد استجمعت كل قوتها ، وكأنما كان المطلوب منها أن تثب فوق المائدة ، ثم قالت بصوت مرتجف حائر :

- أريد أن يحيا كل انسان سعيدا .. مستكفيا .. وأن يكون الناس جميعا على قدم المساواة .. ان كل انسان يحتاج الى الحرية . . . يقدر ما يحتاج الى الهواء ، ولابد من المساواة فى كل شيء .

وما كان من العجوز الا أن قال لها فى ببطء وازدراء :

- تماما كما هو رأى فيك دائما .. مغفلة لا رجاء فيها !

وتخاذلت ليوبا .. وتفككت مفاصلها ، الا أنها لم تلبث أن مالت برأسها الى وراء وراحت تحتج قائلة :

- انك أنت نفسك قلت ان الحرية ...

- اخرسى ! انك أعجز من أن ترى حتى ما هو مكتوب على أنف كل مخلوق ! كيف يمكن أن يكون الناس جميعا سعداء ومتساوين وكل منهم يكافح لكى يكون على رأس الجميع وفى مقدمتهم كلهم ؟ ان الشحاذ نفسه له كبرياؤه ، ولا يعدم ما يفخر به على زملائه ! بل ان أصغر طفل يحاول جاهدا أن يبد أقرانه فيما يمارسون من ألعاب .. ولن يمكنك مطلقا أن تجعلى الناس يقرون بالهزيمة بعضهم لبعض .. والمغفلون فقط هم الذين يظنون أن هذا فى امكانك . ان لكل انسان ذاتا يحبها ويحرص عليها ، وليس فى الناس من يسمح لك

يأتى تنجتيه وفقا للأنموذج نفسه الا أولئك الذين تجردوا من حبههم
لذواتهم .. يا غلبانة ! لقد قرأت كثيرا .. وبلغت من كل أنواع
النفائات ..

وكانت عينا العجوز الداهية تقصان بنظرات التسويخ المرة ،
والزراية الجافة .. ثم اذا هو يدفع كرسيه الى وراء ، ويهب واقفا ،
يرشع فى ذرع الغرفة الى أمام والى وراء فى خفة وبسرعة ، وهو
يهز رأسه ويجمع فى نفسه بكلمات متشنجة .. أما ليسوبا التى
امتقع وجهها خجلا وارتاباكا ، واستولى عليها شعور كثيب بعجزها
وغباؤها فلم تك تملك الا أن تصغى الى ما يجمع به من كلام بقلب
خفق مضطرب .

- رباه .. لقد تخلى عنى الجميع .. وأصبحت مثل عبدك أيوب
.. فماذا عسائ أن أصنع يا الهى ! .. ان لم أكن ذكيا مجتهدا ،
ممن غيرى يكون الذكى المجتهد ؟ وان لم أكن البارع اللودعى الواسع
الحيلة .. فمن غيرى يا ترى ؟

ورق قلب الفتاة لا يبيها ، وأحسست برغبة ملحة فى مد يد المساعدة
له فى حاله تلك .. فى أن يحتاج اليها . وكانت ترقب كل حركة
من حركاته بعينين مشتعلتين .. وأخيرا قالت له : وبصوت
منخفض :

- لا تبتئس الى هذا الحد يا أبى .. وعلى كل .. فتاراس لا يزال
حيا .. ولعله ..

وتوقف ماياكين بغتة ، كأنما تلقى ضربة ، ثم رفع رأسه يبطئ
وقال :

- اذا اعوجت الشجرة وهى لا تزال صغيرة ، فكيف يصلح حالها
اذا كبرت ؟ .. ومع هذا .. فصحيح أن تاراس قد يكون قسوة

ربما تعلقت بها ساعة الغرق ، وان لم يكند يكون خيرا من فوما .
ان فوما له شخصيته على الاقل ، وقد ورث عن أبيه جراثمه وجسارته
قلبه . وفي امكانه ان يصنع العظام لو عنى بذلك . أما . . . تاراس
. . . تاراس . . . فلقد أحسنت صنعا بتذكيرك لى اياه !

وأخذ الرجل الذى كان قبل لحظات يندرع الحجرة كأنه السنجاب
المحبوس فى قفص ، يمشى الآن ببطء وهدهوء نحو المنضدة ، ثم اذا
هو يعدل كرسيه فى وقار ، ويجلس عليه . وشرع يقول وقد بدأ
الجد على وجهه :

- لابد من محاولة معرفة شيء عن أحوال تاراس . . . انه يعيش فى
مدينة يوسوليه فى مصنع هناك . . . وقد أخبرنى بذلك بعض
التجار . مصنع صودا على ما يظهر - لابد من معرفة شيء ما عن
أحواله . لابد . . .

وسألته ليوبا بصوت ناعم ، وهى ترتجف حياء وفرحا :

- بابا . . . أتأذن لى فى أن أكتب اليه خطابا ؟

ويجيبها وهو يحدجها بنظرة خاطفة :

- أنت ؟

ثم يقول بعد لحظة من التروى :

- لعل هذا يكون أحسن . . . هيا . . . اذهبنى واكتبى اليه الآن .

اسأليه : هل تزوج ؟ وكيف يعيش ، وما ملامحه . . . ولكن . . . أقول
لك . . . سأخبرك عما تكتبين اليه عندما يحين أو ان ذلك . . .

- لنكتب اليه فى الحال يا أبى !

- بل الذى يجب أن يتم فى الحال هو زواجك . وأنا أفكر لك

فى ولد طيب ذى رأس أحر ، ولد عظيم على ما يبدو - ذى مزاج
أورباوى وهندام أورباوى !

وتسأله ليوبا فى تلهف :

- أيمكن أن يكون سمولين يا أبى ؟

- عال .. وماذا كان هو ؟

وتجيبه ليوبا وكأنها لا ترتبط بشئ :

- لا شئ .. أنا لا أعرفه !

- ستعرفينه .. لقد آن الأوان ، ليوبا .. لقد آن الأوان ..

«أنا لا يمكن أن نتكل على قوما ، وإن لم أقصد أن أدعه وشأنه .

- وأنا لم أكن أتكل عليه .. ولا أفكر فيه

- وأأسفاه ! لو أنك أوليته شيئا من العطف ورقة الإحساس ،

فربما لم يكن ليضل هذا الضلال .. اننى عندما كنت أراكما فى

خلوة كنت أقول لنفسى : أن الولد سوف ينشئ بيتا لصغيرتى ليوبا

.. ولكن .. لقد خاب فألى !

وشرد ذهن ليوبا عندما كانت تصغى الى والدها .. لقد كانت

فتاة قوية صحيحة الينية .. وكانت تكثر من التفكير فى الزواج

فى الأيام الأخيرة بوصفه المخرج الوحيد مما تشعر به من وحشة .

لقد كانت تفكر فى ترك أبيها والانطلاق من أسره كى تدرس وتعمل ،

لكنها أقلعت عن هذه الرغبة منذ زمن طويل ، كما أقلعت عن رغبات

كثيرة مثلها من الرغبات التى تقرب أن تكون نزوات طارئة . وكانت

الكتب الكثيرة التى قرأتها قد تركت فى نفسها رواسب عكرة لم

يكن فيها شئ من الحياة الا بمقدار ما فى البروتويلازمة منها . رواسب

جعلتها تعزف عن الحياة أو تغشى بها ، وتحن الى الانطلاق والحرية

«والاستقلال بنفسها ، والفكاك من هيمنة أبيها ، الا أنها مع ذلك لم تنته بها الى هذا التحرر بالفعل ، بل لم تدلها على طريق هذا التحرر . وفي الوقت نفسه كانت الطبيعة تسير فى طريقها ، فكانت ليوبا كلما شهدت الامهات الصغيرات وعلى أيديهن أطفالهن ، امتلأت بالحسد ، وخامرها الحنين الى أن تصبح مثلهن . وكانت ربما وقفت أمام المرأة أحيانا ، وأنشأت تنظر الى وجهها النضر الصغير الذى أخذت تبدو حول عينيه تلك الخطوط الداكنة ، وعندئذ كانت الحسرة تسرى الى نفسها . . . لقد كانت الحياة تمر بها مرورا وهى تسرى فى طريقها ، وكأنها تدفع بها عن موكبها . والآن . . . وهى جالسة تنصت الى أبيها . . . راحت تحاول أن تتخيل سمولين هذا . . . ترى ! ماذا يكون ؟ ومن ذا يكون ؟ . . . ان آخر عهدا به اذ هو طالب فى المدرسة الثانوية . . . وكان اذ ذاك فتى ثقیل الغل ، أفطس الأنف يكسو وجهه النمش ، لا يجيد الرقص ولا يستطيب رفقته أحد . . . بالرغم من أناقته ورقة سلوكه . الا أن هذا كله قد مضى عليه زمن طويل . . . وقد سافر الى الخارج ، وظل يدرس ثم منذ ذلك . . . فياترى ؟ ماذا يكون من أمره اليوم ؟ . . . ثم قفزت أفكارها من سمولين الى أخيها تاراس . . . وأخذت الهواجس تنتابها عما عسى أن يرد به على خطابها اليه . . . لقد كان هذا الاخ ، كما صورته لها خيالها لهم لديها بما لا يقاس من كل من أبيها ومن سمولين . . . وكانت تحدث نفسها فى تلك اللحظة بالذات بأنها لن توافق على الزواج حتى ترى تاراس . . . عندما هتف بها أبوها فأيقظها من شرودها وهو يقول :

— اصحى . . . ليوبا . . . بم تحلمين ؟!

— أوه ! اننى لم أكن أفكر الا فى السرعة العجيبة التى تمر بها !

— وما ذاك الذى يمر ؟

- الاشياء جميعا .. لقد خطر على الاسبوع الماضى ان اذكر اسم
تاراس .. والآن ..

- ان الحاجة هي التى تدفعنى الى ذلك دفعا .. الحاجة قوة عظيمة
يا ابنتى ، انها تستطيع أن تثنى الصلب نفسه فتجعله أطوع من
الزنبك .. والصلب قوى متين ! تاراس ؟ سنرى ! ان الإنسان
يدل على قيمته بمقدار ما يبدى من المقاومة للحياة ، فاذا ثناها لارادته ،
بدلا من أن ينثنى هولها .. فهذا هو الانسان فى نظرى .. الجدير
باعجابى . وأسفاه ! لشد ما يحزننى أننى بلغت من الكبر عتيا
هكذا ! ان الأمور تجرى على عجل هذه الأيام .. وبسرعة عجيبة
وكلما مضى عام زادت الحياة حلاوة ، وصارت أطرف طعما ، لك
فيها من مشيهات وبهارات ! ما أعظم ما أتمنى أن أعيش وأعيش ،
لاقوم بجلائل الأعمال ! ومضمص الرجل بشفتيه ، ثم دعك يديه
بعضهما ببعض ، وتلاّأت عيناه ، وقال :

- ولكنكم أنتم أيها الشباب الغض .. ان الدماء تجرى فى عروقكم
دماء رقيقة مترفة .. انكم تعطبون قبل أن تنضجوا ، وسرعان
ما تذبلون وتكونون كالقجلة البائتة . وأنتم لا تستطيعون حتى أن
تروا كيف تطيب الحياة وتحلو . لقد عشت على هذه الأرض طوال
سبعة وستين عاما .. وهأنذا ، وأنا أقف على حافة القبر ، الاحظه
ان الدنيا ممتلئة بالورود والازهار أكثر مما كانت الحال فى شبابى ،
وأن عدد الفقراء اليوم ودرجة فقرهم شيء لا يذكر ، بالقياس الى ماكان
الفقر والفقراء فى أيامنا الخوالي .. ان كل شيء يزداد حسنا هذه
الأيام .. وما عليك الا أن تنظرى الى هذه المباني الرشيقة التى
ترتفع الى عنان السماء والى الأدوات .. أدوات التجارة .. والى
السفن ! والى العقول التى انصبت فيها حتى أنتجتها ! انها تجعلك
تريدى أن تقولى وأنت تنظرين اليها : مبروك عليكم ، أيها الناس ،
مبروك عليكم ! .. ان كل شيء جيد ولطيف ، وكل شيء يجلب السرور

الى النفس ، كل شيء . . ما عدا أبناءنا ووارثينا ، أولئك الذين حرموا
أى شرارة من الحياة فى قلوبهم . ان أحقر مشعوذ من بين صفوف
الطبقة العاملة فيه روح أكثر مما فى شبابنا هذا الخرع المنخوب !

واليك مثلاً هذا ال . . ما اسمه ؟ . . آه . . الشاب ييزهوف
. . ولد لا هنا ولا هناك . . ولكنه من الصفاقة والتلامة بما يجعله
قاضيا على الدنيا بأسرها ! ولد لديه من الشجاعة ما يجعله يتصرف
بحسب ما يرى ، دون أن يخشى أحدا . أما أنتم فوأسفاه ! انكم
تحيون كالشحاذين . . ان الأولى بكم أن تسلكوا أحياء وينثرالملح
على لحكمكم ، فهذا هو الذى يمكن أن يجعلكم تقفون باعتدال . .
وفى غير عوج !

وارتجف ياكوف ماياكين - هذا الرجل القمى ، المكرمش ، الجلد
على عظم ، الأصلع ، ذو اللطح السوداء على أسنانه وفمه ، ذو الجلد
القاتم الذى كأنما قد فى قرن الحياة ، ارتجف ياكوف ماياكين هذا
وسرت الرعدة فى جسمه وهو يصب كلماته المؤذية المهلكة هذه على
رأس ابنته الغضة البضة الحسنة التى نظرت اليه فى توجس كأنما
جنى جنائية ، ثم ابتسمت ابتسامة هيابة خجولا . . وشعرت بما
يجول فى أعماق قلبها من مشاعر الاحترام لهذا الرجل العجوز أبيها
. . الذى كان يجرى وراء ما يهدف اليه بمثل هذا التصميم العنيد
الشرس !

★ ★ ★

لم يقلع فوما عن حياة اللهو والعبث

وبينما كان يدخل مطعما مألوفاً من مطاعم المدينة وجد من يعاينه
عناقاً حاراً كله مرح وكله اثناس . . ولم يلبث أن فطن الى الذى
يعاينه . . انه هو بعينه ابن صانع الجعة . . الفتى الذى صبت اليه
ساشا وسافرت معه . . والذى يقول لقوما :

- يا للمفاجأة ! لقد مضت على أيام ثلاثة فى هذه المدينة والوحدة
تذيينى وتضمنينى ، دون أن ألقى فتى محتشما آنس اليه ، حتى
لم أجد بدا من مصاحبة نفر من رجال الصحافة لما يثست من وجود
غيرهم . وعلى كل .. لقد كانت شلة لا بأس بها .. لقد تشامخوا
على أول الأمر ، وكانوا ينظرون الى من طرف أنوفهم .. ثم لم يلبثوا
أن تهافتوا على كائنذباب لما أغرقتهم فيه من الشراب .. انتظر ..
سأقدمك الى أحدهم ، واحد ممن يدبجون المقالات الهامة الجذابة ،
لصحفى الذى كتب عنك ، ما اسمه يا ترى ؟ شخص ظريف مسل
.. عفريت يلهفه !

لكن فوما راح يسأله ، وقد أذهلته شيئا ما تصرىحات ذلك
الشباب الطويل الذى يرفع الكلفة على هذه الصورة ، والذى كان
يلبس تلك الملابس البراقة المبهرجة :

- وكيف ساشا ؟

ويجييه وهو يرقص وجهه ساخرا :

- أخ ! ساشا ، صاحبك هذه فتاة .. غير مليحة ، فتاة
مكتنفها الاسرار والظلمات .. كثيبة جدا .. باردة كالسمكة ..
قد تركتها ..

وسأله فوما وهو مستغرق فى التفكير :

- باردة !

ويجييه ابن صانع الجمعة بأسلوب محكم مقتضب :

- أى شىء يقوم الانسان بعمله ، فلا بد أن يعمل على أحسن
لوجوه .. فمثلا .. إذا وافقت على أن تكون خليلية لشخص ما ..
لابد أن تقوم بالواجب عليك نحوه ، هذا اذا كنت امرأة أمينة حقا !
على فكرة .. ما رأيك فى شىء من الفودكا ؟

وشربا .. حتى غابا عن صوابهما ..

وفي هذه الليلة اجتمع خلق كثير صاحب في الحان ، وقد خاطبهم فوما بصوت ثمل غليظ ، وهو في شبه كابوس مزعج :

- هذا هو رأيي في الناس .. اه ! بعضهم ديدان .. وبعضهم عصفير .. العصفير هم التجار .. وهم يأكلون الديدان .. هذا هو عملهم .. وذلك هدفهم .. ولكن .. أنا .. وأنتم .. ما عملنا بها هدفنا ! .. لا عذر لنا .. ولا أحد يريدنا .. وهؤلاء الآخرون .. وكل شخص غيرهم .. ما الغرض من وجودهم .. هذا موضوع جدير بالتفكير .. من يريدني ؟ لا أحد يريدني .. اقتلونني .. اقتلونني يا ناس ! أريد أن أموت !

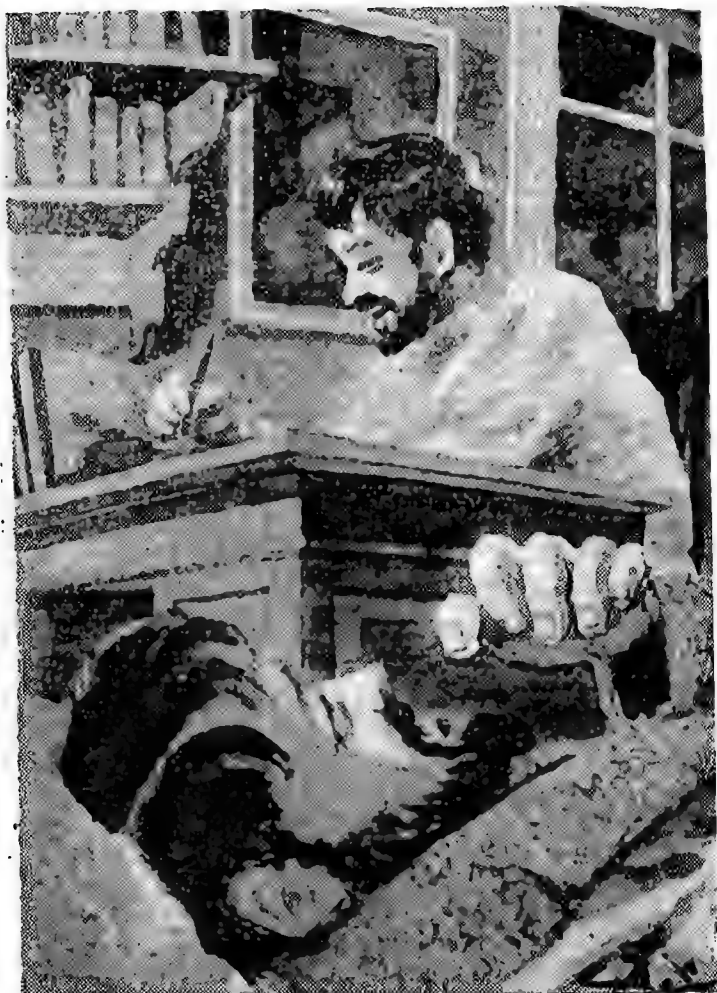
ثم بكى .. وسكب الدموع مدرارا .. وجاء اليه رجل فكه صغير الجسم أسمر البشرة ، ثم انحنى فوقه وأسر في أذنه بكلمة ، ثم رمى بنفسه فوق صدره ، وصاح وهو يدق المائدة بسكين في يده :

- سكوتا ! الناس الطيبون هم أصحاب الكلمة الآن ! أفيال هذه «اللقاعة» و«مامونات» لهم الكلمة الآن .. استمعوا الى الكلمات الظاهرة الصادرة عن الضمير الروسى الطيب : تكلم يا جوردييف ، واجهر بكلامك .. اجهر بكل ما فيك من قوة ..

ثم قبض على كتف فوما ، وارتقى على صدره ثانية ، حيث ظل رأسه المستدير الأسود الحليق ملقى يتلوى ويتقلب تحت أنف فوما الذى لم يكن يستطيع أن يرى وجه هذا المخمور الثمل ، حتى ضاق به ، ودفعه عنه دفعة قوية وهو يقول :

تعال هنا ! مائة روبل في الشهر ، وسكن ، وأكل ! ما شاء الله الى الجحيم بالورقة ! أنا أدفع أكثر من ذلك ..

لقد كان كل شيء يهتز ويتمايل في حركات متزنة .. وكا



واستطاع فوما بجهد ان يرفع راسه من فوق الوسادة ليرى
الرجل جالسا عند الدرج يكتب في نشاط

الجمهور يتردد الى الورا مرة ، ثم يتقدم الى الامام مرة أخرى ،
والارضية ترتفع ، والسقف يهبط ، ويخيل لقوما أنه لا تكاد تمضى
لحظة حتى ينحصر بينهما فيتحطم تحطيمًا ٠٠ ثم يخيل اليه بعد هذا
أنه كان راكبًا فى زورق يجرفه نهر سريع الجريان ، وأنه يكافح
كفاحًا شديدًا وقد وقف مضطربًا صائحًا :

- الى أين نحن ذاهبون ؟ أين الربان ؟

وتجيبه أصوات ضحكات ثملة مجلجلة ٠٠ ومعها صوت الرجل
الاسمر الصغير الجسم المبحوح الأجنح :

- صحيح ٠٠ أو ٠٠ أين الربان ؟

واستيقظ فوما من كابوسه المزعج ليجد نفسه فى حجرة صغيرة
ذات نافذتين ، وكان أول شيء وقع بصره عليه شجرة تمس إحدى
النافذتين من الخارج ، ذات ساق ضخمة ، منتفخة اللحاء ، تمنع
الضوء من النفاذ الى داخل الحجرة ، وكانت أغصانها الخالية من
الورق ، السوداء اللون ، الملتوية كالثعابين ، تتسكع فى الفضاء ،
وتصفى صفيرا محزنا كلما هبت الريح . وكان المطر يتساقط ،
وسيل منه تنهمر على زجاج النافذتين ، ويمكن سماعها من فوق
السطح وهى تنسكب على الارض ، محدثة صوتا باكيا ٠٠ أضف
الى هذا كله صوتا متقطعًا لقلم يخربش على الورق ، تصحبه نوبات
من غمغة وتمتمة .

واستطاع فوما بجهد أن يرفع رأسه من فوق الوسادة ليرى
الرجل جالسا عند الدرج يكتب فى نشاط ، مبديا موافقته من حين
الى حين ، وهو يلوى رأسه من جانب الى جانب ، ويحرك كتفيه
حركات مضحكة ، بل يحرك كل عظام جسمه وجميع عضلاته
باستمرار ، كأنه جالس على جمر متقد لا يستطيع لسبب ما أن يقوم
من عليه ٠٠ ولم يكن عليه من الملابس شيء الا قميص ولباس . وكان

لا ينسى أن يسمح بجبينه بذراعه المعروفة ٠٠ الجلد على عظم ! أو يرسل
تخلجات صوتية في الهواء ، وقدماه العاريتان تتأرجحان الى امام
وراء فتحدثان احتكاكا بالارض مزعجا ٠ وكانت الاخايد الرفيعة
التي في قفاه ترتعش ، بل كانت أذناه نفسها تختلجان ٠ وعندما
أدار وجهه رأى فوما شفتيه وهما تهتمان بلا صوت ، وكلما ضحك
كان أنفه الحاد الأشم وشاربه الأشعث يشبان وينتفضان ، وكان
وجهه شاحبا شديدا الصفرة غزير التجاعيد حتى ليحسب الناظر
الى عينيه السوداوين البهيجتين انهما ليستا لهذا الوجه !
وأشاح عنه فوما بعد أن ملأ ناظره منه وراح يديرهما ببطء
في جوانب الفرقة التي دقت المسامير بكثرة في جدرانها ، حيث
علقت مجاميع من الجرائد ، محدثة فيها زوائد بشعة أشبه بالخراريخ ٠
وكان الورق الذي غطى به السقف قد أصبح مقببا ، والأجزاء المقببة
قد انفجرت ، وأصبح الورق متدلليا حول هذه الأجزاء نشأثر قدرة ٠
وكانت الأرضية مبدورة بالملابس والأحذية والكتب ومزق من
الورق ٠٠٠ وعلى العموم لقد كانت الحجرة تبدو كأنما مر خلالها
أعصار ٠

ثم قذف الرجل القميء بقلمه على المنضدة ، وانحنى فوقها ، وشرع
ينقر بأصابعه فوق حافتها بعصبية ، ثم انطلق يغنى لنفسه بصوت
دفع مسرعا :

كن جريء القلب ان كنت محبا
واطبع القبلة في ثغر الحبيب
فهمو ما أوصى به علم وفن
وسبنا الحكمة من كل أريب

ثم زفر فوما زفرة عميقة وقال :

- لو أمكن أن تأتيني بقدر من الصودا ٠

وانتفض الرجل القميء ، ودفع بكرسيه بعيدا ، ثم جلس على
حافة سرير فوما ، ثم قال :

- آه ! صباح الخير يا صديقي . صودا ؟ بكنياك أو بغير كنياك ؟

- يكون أحسن لو كانت بكنياك !

ثم قبض فوما على اليد النحيلة الممتدة اليه وراح يحملق في وجه الرجل .

ونادى الرجل وهو يدير وجهه نحو الباب :

- ييجودوفنا !

ثم يدير وجهه ثانية نحو فوما ، ويقول :

- ألا تتذكر من أنا ، يا فوما اجناتيفتش ؟

- فيك ملامح يبدو أن لى سابق عهد بها . . . والظاهر أننا تلاقينا من قبل .

- لقد كنا نلتقى طوال أربع سنين متصلة . . . لكن هذا كان من سنين خلت . ألا تذكر ؟ ييزهوف !

وهتف فوما وهو يتكئ على مرفقيه :

- يا الهى ! هل هو أنت حقا ؟

- أحيانا أشك فى ذلك أنا نفسى يا صديقي . . . ولكن الشكوك لا قلبت أن تتلاشى أمام شعاعة من الحقيقة .

ولوى ييزهوف وجهه بطريقة غريبة ، ثم راح يتحسس صدره .
وفغر فوما فمه يقول :

- يا لله ! انك تبدو كبيرا طاعنا . . . ما سنك ؟

- ثلاثون

- انك تبدو كأنك فى الخمسين . . . مالك أصفر هزيلا هكذا ؟
يظهر أن الحياة قد قست عليك ؟

وأسف فوما لرؤيته صديق الصبا هذا ، الذى كان يوما ما فتى
مرحا رشيقا ، بهذه الحال من الهزال والضعف ، ويعيش فى مثل هذا
البحر ! لقد عبس عبسة حزينة وهو يتفرس فيه ، ويلاحظ اختلاجات
وجهه ، ونظرات عينيه السريعة الحادة . وكان يزهوف مشغولا
بفتح زجاجة الصودا فلم يتكلم ، وكان يمسك بها بين ركبتيه ،
ويبدل كل ما فى عضلاته من قوة لكى ينزع سدadtها ، وقد أثر
عجزه الظاهر عن فتحها فى نفس فوما

وقال فوما متألما :

- لقد امتصت الحياة كل ما كان فيك من خير . وكنت يوما ميلا
إن التعليم .

وأخيرا أفلح فى فتح الزجاجة ، فقمها لفوما ثم جلس الى جانبه
بلهث ويمسح العرق المتصبب على جبينه ، وقد طار لون وجهه من
لنعب .

وراح يقول :

- دعنا بالله من ذكر التعليم ، فالتعليم شراب مقدس يا صديقى ،
لا أنه لما يصلح للاستعمال بعد ، شأنه فى ذلك شأن الخمور التى
لم تنضج بعد . . . انه الى الآن لا يستطيع أن يجلب السعادة
لأهله . وكل انسان يجعل التعليم ملتجأ لا يمكن أن يحصل منه
الا على الصداق . . . مثلى ومثلك الآن . . . وعلى فكرة ، ما الذى
يجعلك تشرب كثيرا هكذا ؟

ويضحك فوما ويقول :

- وماذا يمكن أن يصنع الانسان غير هذا ؟

وتضيق عينا ييزهوف وهو ينظر الى فوما دهشا :

- بمقارنة هذه الملاحظة بالحكمة التى كانت تتدفق من فمك

اللبلة الماضية ، أستنتج أن الحياة لم تكن شيئاً جميلاً بالنسبة إليك أنت كذلك .

وزفر فوما زفرة مسموعة ، ثم نهض من فراشه ، وهو يقول بمرارة :

« الحياة ! الحياة مستشفى للمجاذيب ... انى دائماً فى غربه .. ولا يفارقنى العجب مطلقاً فى سبب هذا كله ... وأنا لا يسرنى شيء قدر ما يسرنى أن أبصق عليها جميعاً ، ثم أذهب الى مكان .. لا يلقانى فيه أحد ... اننى أحلم بالهرب من كل شيء .. ان الحياة عبء لا أطيعه ، وأنا أنوء به .

ويقول ييزهوف وهو يدعك يديه ، وجسمه كله ينتفض :

« عجب جداً .. ان هذا ان كان صحيحاً فانه يكون شيئاً عجيباً جداً ، لأنه يؤيد الواقع من أن روح السخط المقدسة قد نفذت الى مخادع الطبقة التجارية ، وأنها قد أخذت تتحرى النفوس الميتة .. نفوس أولئك الذين لا هم لهم الا بطونهم ... الغارقين فى الدسم ، وفى بحار من الشاى والمشروبات الاخرى . قص على قصتك يا صديقى .. وسأجعل منها رواية .

ويقول فوما وهو يدرس وجه صديق صباه ، مشدوهاً من جديد .. ماذا يمكن مثل هذا الخطام البائس أن يكتب ؟

« لقد قالوا لى : انك كتبت عنى شيئاً ما بالفعل !

« فعلاً .. هل قرأت ما كتبت عنك ؟

« كلا .. فلم أستطع الحصول على نسخة

« وماذا قالوا لك ؟

« انك قسوت على قسوة شديدة ... مزقت لحمى !

وسأله ييزهوف وهو يحدق نظره فيه :

- اهم ٠٠ ألا يسرك أن تقرأه ؟

وأسرع فوما يقول : وقد لاحظ أن عدم مغالاته قد أذت صديقه :

- أوه ٠٠ بل لا بد من قراءته ٠٠

ثم أضاف وهو يبتسم ابتسامة مهذبة :

- ويسرنى أنه مكتوب عنى .

وأثارت فيه هذه المواجهة بينه وبين صديق الدراسة مشاعر لطيفة هادئة مصحوبة بذكريات من ذكريات الطفولة التي مرت بأهله كما تمر الأشعة الضئيلة الحاطقة خلال السنين .

وذهب ييزهوف الى المائدة التي كانت غلاية الشاي فوقها ، وصب منها كوبين من الشاي الأسود الشديد السواد ، ثم قال :

- تعال ٠٠ اشرب الشاي ٠٠ وقص على كل شيء .

- ليس عندي ما أقضه عليك ٠٠٠ فلقد كنت أحييا حياة فارغة ٠٠
وأنا أفضل أن أسمع منك ؛ فلقد رأيت أنت أكثر مما رأيت أنا .

وانتابت ييزهوف موجة من التفكير وهو لا يزال يختلج ، ويهز رأسه من جانب الى جانب ٠٠٠ وكانت عضلات وجهه وحدها هي التي تحتفظ بسكونها على حين كان غارقا في تفكيره ، وإن كانت التجاعيد التي حول عينيه لا تنفك تطيف بهما كما تطيف الأشعة ، وكأنما عيناه تفوصان في أغوار الكوتين المعقورتين أسفل جبينه .

وقال ييزهوف وهو يهز رأسه :

- حقا ٠٠ لقد رأيت شيئا أو شيئين يا صديقي ٠٠٠ وأحسب أنني أعرف أكثر مما يصلح لأمثالي ٠٠٠ ومعرفة الانسان الشيء

الكثير الزائد عن الحد . . . مضرة به . . . تماما . . . كمعرفته الشيء القليل التفاهة . . . وعلى هذا ، فانت تريد أن أحدثك عن نفسي ! سأحاول . انني لم يسبق أن حدثت أحدا عن نفسي قط ، لأن أحدا لم يسبق أن أظهر لي أى ميل منه الى قط . وما أبغض العيش فى هذه الحياة حين تخلو من صديق ، يضع أقل ما يمكن من ثقته فيك !

ويقول له فوما وقد وثق ثقة تامة بأن هذا الأخ هو أيضا يجد الحياة شيئا ثقيلا :

— أستطيع أن ألاحظ من وجهك ، ومن كل شيء آخر فيك ، أنك قاسيت من الحياة ألوانا .

وفرغ ييزهوف من شرب شايه ، ووضع كوبه على الطبق ، ثم رفع قدميه ووضعهما على حافة كرسيه ، ولف ذراعيه حول ركبتيه ، وأسند ذقنه عليهما . وبعد أن اتخذ هذا الوضع الذى كان يبدو فيه من الضالة والليونة كأنه قطعة من الكاوتشوك ، شرع يقول :

— كان من عادة الطالب ساتشكوف ، الذى كان يوما ما ولى أمرى ، وهو الآن دكتور فى الطب ، أن يقول لى كلما سمعت دروسى جيدا : مرحى يا كوليا مرحى ! يا كوليا مرحى ! انك شاب ذكى . ان الفقراء أمثالنا ، أولئك الذين جاؤوا الى الحياة من بابها الخلفى ، مضطرون الى الدراسة بجهد وجلد اذا أرادوا أن يتقلموا كل من عداهم . ان روسيا فى ميسيس الحاجة الى الأذكىاء والامناء من الرجال ، فاذا قدر لك أن تكون من هؤلاء ، فلسوف يكون فى مقدورك التحكم فى مستقبلك ، كما تكون عضوا نافعا فى المجتمع . ان آمال بلادنا انما تقوم علينا نحن بالذات ، ممن لا ينتمون الى طبقة بعينها . . . اننا نحن الذين استنجد بهم الوطن ليشيعوا النور والحق فى قلوب الشعب . . الى آخر ما كان يقوله ساتشكوف من أمثال هذا الكلام . وكنت أصدقه ، وأومن بكلامه . . هذا الوغد ! ثم تمضى

عشرون سنة أو نحوها منذ ذلك الوقت . ونكون ، نحن ، الذين لا ننتمى إلى طبقة بعينها ، قد كبرنا ٠٠٠ إلا أن أحدا مع ذلك لم يكده يشعر بنا ، ولا بما فينا من بدوات الذكاء ٠٠٠ ولم نشع شيئا من النور فى هذا الظلام المحيق ببلادنا ٠٠٠ وروسيا لا تزال تقاسى الأمرين من علتها المزمنة ، هذا الفيض الزائد عن الحد من الشباب الأوغاد السفلة ، والناس الذين من صنفنا ليسوا على استعداد لآى شيء ، إلا لينفخوا أوداجهم .

ان ولى أمرى السابق ، هذا الوغد ، واسمح لى بأن أقولها مرة ثانية ، ان هو الا رجل مداهن ذليل ، نكرة ، يصنع دائما ما يأمره المحافظ أن يصنع . ثم أنا ٠٠٠ من أنا ؟ اننى لست أكثر من بهلوان ٠٠ مشعوذ فى خلسة المجتمع . لقد حصلت على قدر من الشهرة ليس بالقليل فى تلك المدينة ٠٠٠ وعندما أمشى فى أى شارع من شوارعها أرى سائقى العربات يلكر بعضهم بعضا ويقولون : خذ بالك ٠٠ ها هو ذا ييزهوف ٠٠ لقد أحدث دونا مرعبا هذا الشيطان اللعين ، فحتى شهرة مثل هذه ، لا بد من الكفاح للحصول عليها ، يا صديقى : أفليس هذا بلاء !

ثم اختلجت عضلات وجهه ، وراح يضحك ضحكا مكتوما ، لا يعدو حدود شفتيه . ولم يفهم فوما مما قاله ييزهوف شيئا . ٠٠٠ إلا أنه ، لعلمه أن صاحبه ينتظر منه كلمة يقولها ولو مجاملة ٠٠٠ قد أطلق لسانه بأول ماجال فى ذهنه :

— وعلى هذا فانك لم تصل الى الهدف الذى كنت قد رسمته لنفسك ؟

— أبدا ٠٠٠ لقد كنت أحسب أننى سوف أصبح رجلا أكثر أهمية يوما ما . وقد كان من الممكن أن أكون !
وقال ييزهوف عبارته الأخيرة متعجبا ، ثم قفز من كرسيه

واقفا ، وراح يندرع الغرفة ذهابا وجيئة ، ومضى يتكلم بصوته
المجلجل وهو يقول :

- ولكن لا بد للانسان من مصادر ضخمة اذا أراد أن يحتفظ
لنفسه بالسلامة والحيوية الكاملة . وقد كانت لي هذه المصادر .
فلقد كنت ذكيا ، وقابلا للتكيف بحسب الظروف والاضاع . . .
الا أنني استنفدت جميع هذه المصادر في تعليم لم تكن لي به اليه
حاجة . لقد نهبنا أنفسنا ، أنا وكثيرون ممن على شاكلتي لنقيم
مدخرا كنا نظن أننا سنسحب منه ما نشاء في المستقبل . وبأمل
أن أرفع من قيمة نفسي عملت كل ما من شأنه أن يجعلني تافها حقير
الشأن ، فتصور هذا ! لقد ظلمت ستة أعوام تباعا أعلم حقنة من
الاطفال حروفهم الابجدية ، وكنت أبلغ الاهانات التي كان «باباتهم»
و «ماماتهم» ، يصوبونها أكواما فوق رأسي . ولم أكن أحتمل هذا
كله الا لكي أستطيع أن أقيم أودي في أثناء دراستي . وكنت أجد
من الوقت ما أكسب فيه خبزي وملحي ، لكنني لم أكن أجد منه
متسعا لاكسب أحذيتي وأكسييتي . . . ومن ثم فقد قدمت التماسا
الى إحدى جمعيات البر رجاء اقراضى سلفة . وآه يا صديقي لو درت
جمعيات البر هذه مقدار ما تقتل من روح الانسان وتهدر من كرامته
في سبيل الابقاء على بدنه ! وآه لو درت أن كل روبل تعطيه اياه من
أجل خبزه يحتوى على تسعة وتسعين كوبكا من السم الذي يقضى
على روحه وكرامته ! وآه لو أمكن أن تنشق صدورهم مما تثير فيهم
ألوان نشاطهم الخيرية والانسانية من عوامل الزهو والكبرياء ! انه
ليس على ظهر الأرض مخلوق كربه تعافه النفس كرجل يعطى
انصداقات ! ولا مخلوق أكثر تعسا من رجل يأخذ هذه الصدقات !

وكان ييزهوف لا يزال يندرع أرض الغرفة كالذي به مس ، وكانت
الأوراق المنتشرة على الأرض تحدث حفيفا وتمزقا ثم تتطاير من
تحت قدميه ، وكان يصر بأسنانه ، ويلوى عنقه ، ويرخي ذراعيه

كانهما جناحان مهيضان • وكان احساسان يتنازعان نفس فوما
وهو يصغى اليه ••• لقد كان يرثى له ويعطف عليه •• الا انه كان
يلذه ما يراه من منظر شقوته وبلائه •

ثم انبثق من صدر ييزهوف صوت صرير أشبه بصوت رافعة
لم تغمس في الزيت ، وهو يقول :

- لقد سمعوني باسم الشفقة الانسانية ، ثم جروا على الخراب
حينما جعلوني على استعداد قاتل لتقبل القليل الثافة ، انتظارا
للكثير الجم • وهو هذا الاستعداد الذي تراه في كل فقير يريد أن
يرفع رأسه في هذا العالم •• آه يا صديقي ! ان الذين يموتون لعدم
تقدير مواهبهم ومقدراتهم لاكثر عددا من الذين يموتون بالسل !

وأحسب أن هذا هو السبب في أن الرجال الذين كان الواجب
أن يكونوا قادة الشعب يصبحون من رجال البوليس السرى •

ويتحمس فوما •• ويرسل يده في الهواء قائلا :

- الى الشيطان بهم جميعا ••• أكمل قصتك •• أكمل •

- قصتي !

ويقف ييزهوف قى وسط الحجرة ضاربا بيده على صدره ، ثم
يقول :

- اليك يا صديقي هذه القصة ، القصة بحذائرها • لقد أنجزت
كل ما كان في وسعي أن أنجزه • لقد ارتفعت الى منصب المخرج
العام ! الهلפות الاعظم ! وليس في امكاني أن أرقى الى ما هو أعلى !
وقاطعه فوما قائلا :

- لحظة من فضلك •• خبرني أرجوك : ماذا يستطيع الانسان
أن يصنع لكي يعيش في أمان ، أعني لكي يكون قانعا راضيا عن
حياته :

- أن تحيا حياة عاصفة ٠٠٠ وأن تخشى القناعة خشيتك من الطاعون ؟

ولم يكن لهذه الكلمات أى معنى فى نظر فوما ٠٠٠ انها لم تثر أى احساس فى قلبه ، ولا أية أفكار فى عقله .

- ان الانسان يجب دائما أن يجاهد فى سبيل شئ فوق استطاعه ، لأن الحاحه فى طلبه يخلق منه رجلا أعظم مما هو .

وكانت لهجة ييزهوف قد صارت أكثر هدوءا الآن بسبب توقفه عن التحدث عن نفسه ، ومن ثم كان صوته ثابتا مستقرا مقنعا ، ووجهه مقطباً رزينا . وكان يقف فى وسط الحجرة وهو يومئ باحدى يديه ، ويتكلم كأنه يقرأ من كتاب :

- ان الشخص القانع بحاله ان هو الاخراج قتال فى جسم المجتمع ، انه يتختم نفسه بحقائق تافهة لا يعتد بها ، ويسر من الحكمة الآتية ، ويكون أشبه بالسندرة ، أو مخزن المهملات الذى تحتفظ فيه ربة الدار الشحيحة بكل أنواع النفايات التى لن تستعملها ، لا هى ، ولا أحد غيرها . وأنت اذا اقتربت من مثل هذا الانسان . اذا فتحت الباب الذى يؤدى الى دخيلة نفسه ، وجدت نفسك وقد غمرتك منه أبخرة الفساد وروائح العفن ، ان سيلا من النتن ينتشر منه فى الهواء الذى تستنشقه . وهذه المخلوقات التعسة هم الذين نسميهم رجالا أقوياء . رجالا ذوى مبادئ وذوى عقيدة . ولا يهتم أحد مطلقا بأن يلاحظ أن عقائدهم هذه ، ومبادئهم تلك ، ان هى الا مجرد أكسية يسترون بها أرواحهم العارية . ان اللفظتين الاعتدال والدعة لفظتان مكتوبتان فوق جباههم بأحرف براقة . وبالألمة من لفظتين زائفتين ! وتستطيع أن تمسح هاتين اللفظتين بيد قوية لترى مكانهما : ضيق الفهم والغباوة !

ويصيح ييزهوف فى فزع وغضب :

- ما أكثر من لقيت من أمثال هؤلاء ! انهم أشبه بالدكاكين التي تنجر في ألف صنف ! من قطران ... وأقماع سكر ... ومهلك صراصير ... وحبال قلع ، كل شيء ... الا الاشياء الطازجة الصحية التي لا غناء عنها : انك تأتي اليهم بقلب مثقل ، ونفس أرهقتها الوحشة ، متعطشا الى كلمة تشجيع ، فلا يقدمون اليك الا أفكارا فاترة مسروقة من الكتب ، ثم لاكتها الإفواه بعد ذلك حتى أصبحت رذلة ممجوجة . وهذه الأفكار الممجوجة أفكار تافهة لا يعتد بها لدرجة أنها تفتقر الى مقدار كبير من الكلمات البراقة والجمال الطنانة للتعبير عنها ومواراة سوءاتها . وأنا حينما أسمع مثل هذا الانسان يتكلم لا أملك الا أن أقول لنفسي : ها هو ذا حصان معلوف علفا طيبا ، معتنى به عناية عظيمة ، مزدان بالجلال والاجراس في كل مكان ، ولا يعمل له الا جر عرية الزبالة من المدينة ، ولا يمكن أن يسره شيء آخر غير هذا العمل ... ذلك الحيوان المسكين !

ويقول فوما :

- انهم أيضا ناس سطحيون .

ويقف ييزهوف في مواجهته ويقول متهكما :

- انهم ليسوا سطحيين ، ان همهم من الحياة هو أن يكونوا مثالا لما لا يمكن أن يتصوره العقل . واذا أردت الحق قلت : ان مكانهم الصحيح هو متحف تشريح ، حيث تعرض جميع صور الشذوذ . والانحرافات عن مألوف الطبيعة . ليس في الطبيعة ما هو سطحي يا صديقي ... حتى أنا ، لي مكان فيها . وليس من الناس من هم سطحيون الا أولئك الذين أبدلوا من قلوبهم الميتة قرحا كبيرة متقيحة ... الا أن هؤلاء أيضا لا يخلون من فائدة ، فائدة ربما لا تزيد على امدادى بموضوع أفش فيه غليل .

وجعل ييزهوف النهار بطوله يلغو ويثرثر ، ويصب النجاسات

على رموس من يكرههم وتغنى نفسه بهم ، وقد انتقلت عدوى ما كان يبيده من حقد ولد الى فوما ، فلم يلبث أن عرته انفعالات حماسية هو أيضا .

وقد جاءت أوقات فيما بعد كانت ثقته ببيزهوف تضعف وتزعزع . وفي ذات يوم قال له بصراحة :

— هل يمكنك أن تصرح للناس بأقوالك هذه في مواجهتهم ؟

— اننى أصرح لهم بها كلما واتت الفرصة . . بل أنا أصرح لهم بها كل يوم أحد في الجريدة . . فهل أقرأ لك ما أكتب ؟

وبدون أن ينتظر اجابة فوما تناول حزمة من الصحف معلقة على أحد المسامير ، ثم بدأ يقرأ وهو لا يزال يذرع أرض الحجرة . لقد كان يدمدم ويجمجم . ويهر كما تهر الكلاب ، ويبدى نواجذه . وكان بالضبط كجرو شرس صغير ، يشد السلسلة التي ربطوه فيها وهو فى غضب مكبوت ، ولم يكن فوما يعي مما يسمع شيئا ، الا أنه كان مأخوذا بهذه الجراءة المتهورة التي يبيدها صديقه ، وبسخريته اللاذعة وسخطه المتأجج ، وكان يستمتع بذلك كله ، يقدر ما يستمتع المستحم فى حمام بخارى بطبقة المدلك .

وكان لا يملك أن يهتف كلما صادفت بعض الجمل استحسانا فى نفسه :

— مرحى مرحى ! الله درك ! لقد شويتهم هذه المرة !

وكانت أسماء البارزين من المواطنين والتجار من معارفه تتكرر مرة بعد أخرى ، وكان يزهوف يسخر منهم سخرية مكشوفة وفى منتهى الجراءة ، تأتى كلذع الابر تارة ، وفى لهجة من الاحترام الجارح تارة أخرى .

وكان استحسان فوما ، وهذا البريق السعيد فى عينيه يشجعان

بزهوف ، فكان يتمادى فى دملته وججمته ، فتراه يسقط من
نعب على الفراش ، ولكن ليهب فى الحال ، وليقف أمام فوما ، الذى
لذ يصيح به :

- اقرأ ما كتبتة عنى اذن !

وجعل ييزهوف يقلب فى أكوام الصحف المتناثرة ، ثم اذا هو
ينتصب واقفاً وقد فرج قدميه أمام فوما الذى كان يبتسم له ، وهو
الس فوق هذا الكرسي الذى تقوضت نجاته

وكان المقال يبدأ بوصف لتلك الحفلة اللاهية الخليعة فى العوامة
كان فوما يجد لبعض عيسارات ييزهوف لدعا كلذع البعوض .
أخذ وجهه يستطيل ، وراح ينكس رأسه ، ويعروه الوجوم ...
م أخذ لذع البعوض يزداد حدة وشدة

ثم قال أخيراً وقد نال منه الغضب والحجل :

- ألم يكن الأجدر أن تجعل عبارتك أكثر ليونة وأقل ايجاعا ؟
ان فضح الناس وهتك أستارهم لا يقربك من الله زلفى ! وهب
يه بيزهوف كالكلب المسعور :

- صه ! صبرك !

وراح يكمل قراءته

وعندما فرغ من التدليل فى مقالته على أنه ليس بين جميع الطبقات
من يمكن أن ينافس التجار فى المشاغبات وحفلات القصف الزائفة ،
وقف ليسأل عن السبب فى هذا ... ثم يجيب عن ذلك فيقرأ :

- يبدو لي أن ميلهم هذا الى التهالك الشنيع على اللذات ناشئ
من الافتقار الى الثقافة فضلا عما يتمتعون به من نشاط وفراغ .

ولا يمكن أن يجادل أحد في أن تجارنا ، باستثناء عدد قليل منهم ، هم أوفر الناس قوة ، وأنهم في الوقت نفسه أقل الناس عملا . . . فعملهم لا يستنفد من وقتهم الا شطرا يسيرا .
وهنا ، يقول فوما مبتهجا ، وهو يضرب المنضدة بيده :

- هأنت ذا تصيب كبد الحقيقة . . . ان هذا كلام لم يتكلم بمثله أحد في صدقه وحقيقته . . . وهأنذا مثلا . . . لي قوة كقوة الثور ، أما عملي . . . فعمل يستطيع أن يقوم به عصفور !

ويصل ييزهوف قراءته :

- فكيف ينبغي للتاجر أن يستنفد قوته ونشاطه ؟ ان البورصة لا تستنفد منهما الا قدرا قليلا ، ومن ثم تراه يبعثر مبالغ ضخمة من رأس ماله الجسماني في الحانات والمشارب ، وهو خالي الذهن مع أنه كان يمكن أن ينفقه في وجوه تعود بالخير على المجتمع . انه لم يرتفع فوق مستوى الحيوانات بعد ، وما حياته الا قصص ضيق أشد الضيق .
بإنسان في مثل قوته وصحته وطبيعته الجارفة . ولانه ليس له ما يشغله من الاهتمامات الثقافية ، تراه ينصرف الى حياة اللهو والفسوق . وحياة اللهو والفسوق التي يحياها تاجر من التجار هي الهديان الذي يصدر عن الوحش المحبوس في القفص . وهذا بلا شك أمر مجزئ وباعث على الرثاء . ولكن . . . أوه ! انه ليس أفظع من هذا ولا أشنع الا حينما يطبق هذا الوحش ذكاه على القوة الوحشية المودعة فيه ، ويبدأ في استعمالها لتنفيذ ما ربه ! ثق أنه لن يكون أقل عنفا ، بل ان أعمال القوة التي يقوم بها عندئذ ستصير أعمالا تاريخية . . . وحين ذاك . . . نرجو أن يكون الله في عوننا . . . ان كل ما يقوم به عندئذ يكون مصدرة الرغبة في استيلائه على السلطة بكلتا يديه ، ورفع طبقته فوق سائر الطبقات ، وهو لن يعفى أحدا أبدا ولا شيئا مطلقا من استخدامه للوصول الى ذلك .

ويلقى ييزهوف بالصحيفة بعد اذ فرغ من قراءته ، ثم يسأل :

- أعلى حق أنا ؟

ويجيبه فوما :

- أنا لم أفهم النهاية ... لكنك على حق فى أنه سوف يقبض على
مقاليد السلطان .

ثم شرع فوما فى غمرة من الثقة والايمان يشرح ليزهوف آراءه
فى الحياة وفى الناس ، ويصف له حيرته الاخلاقية . ولما انتهى
قذف بنفسه على الفراش ... ولاذ بالصمت .

ويتمتم ييزهوف :

- اهم ... اذن فهذا هو المأزق الذى انتهيت اليه ... انه لمازق .
عجيب . وما رأيك فى الكتب ؟ هل تقرأ ؟

- كلا ... لست أحب القراءة ... ولم أقرأ كتابا فى حياتى .

- وهذا هو السبب فى عدم حبك القراءة ... لأنك لم تقرأ
قط .

- انى أشعر بالرهبة من القراءة ... ولقد رأيت ماذا كانت
نتيجة القراءة فى شخص أعرفه وبالأحرى ... فتاة ... لقد
فعلت القراءة بها شرا مما تفعله الحمر بالناس . ثم ماذا تقيس

القراءة ؟ ان الأشياء التى تقرأها ان هى الا أشياء مفتعلة . ولست
أجادل فى أنها ممتعة . الا أن الذى يظن أن الكتب قد تعلمه كيف
يعيش هو شخص مجنون ... ثم ... لا تنس أن الناس ، لا الله ،
هم الذين يكتبون هذه الكتب ... وماذا يستطيع الناس أن يضعوا
لأنفسهم من القواعد والقوانين ؟

- وما قولك فى الاناجيل ؟ ألم يكتبها أناس ؟

- بلى ٠٠ لكنهم كانوا رسلا ٠٠٠ وليس بيننا رسل اليوم .
- هذا حق ٠٠٠ الجواب الصحيح ! ليس بيننا رسل اليوم .
- ليس بيننا الا يهودات خونة ! ويهودات خائبون مع ذاك !

ولشد ما كان فوما مسرورا بحسن اصغاء ييزهوف اليه . وكان يبدو عليه وهو يتكلم أنه يزن كل كلمة يقولها . وهذا شيء لم يصنعه أحد معه من قبل . وقد كان شيئا مشجعا أن يصرح فوما بأفكاره بمثل تلك الصراحة والجرأة ، دون أن يحفل كثيرا بالتعبير والصياغة ، واثقا من أن ييزهوف يستطيع أن يفهم ، لأنه أراد أن يفهمه .

ثم تمضى أيام ٠٠٠ ويقول له ييزهوف مرة بعد حديث جرى بينهما :

- انك لشخص عجيب ٠٠٠ ان التعبير يلتوى عليك أحيانا ٠٠٠ الا أننى أحس أن لك قلبا شجاعا . ولو أنك أوتيت قدرا أكبر من المعرفة بأساليب الحياة ، لاستطعت أن تقول كثيرا ٠٠٠ ولأمكنك أن تجهر به بكل ما فى صوتك من قوة ٠٠٠ وهذا شيء لا أشك فيه .

وزفر فوما زفرة خفيفة ثم قال :

- ان الكلام لا يمكن أن يساعد الانسان فى تحرير نفسه . لقد كلمتنى مرة عن أولئك الناس الذين يتظاهرون بأنهم يعرفون كل شيء ، وأنهم يستطيعون أن يفعلوا كل شيء . وأنا أعرف هؤلاء الناس ، وأعرف منهم اشبيينى مثلا ٠٠٠ وكم أتمنى لو استطعنا أن نتخذ اجراء ما ضددهم ، أن نفضحهم ونشهر بهم ! انهم طغمة شريرة !

ويجيبه ييزهوف فى روية وتأمل :

.. لست أدري كيف يمكنك أن تعيش ومثل هذا العبء راسخ على قلبك يا فوما ؟

انه هو أيضا يشرب ٠٠٠ ذلك الرجل القمى الذى تعصف به الحياة وتقسو عليه تلك القسوة البهيمية .
واليك كيف كان يقضى يومه :

انه قد يقرأ الصحف المحلية وهو يتناول فطوره ، وفى أثناء قراءته يلتقط من المواد ما يلزم كتابة قصته الفكهة التى يكتبها على المائدة نفسها . ثم يسارع بعد ذلك الى دار الصحيفة التى يحرر فيها ، حيث يأخذ فى قص جذاذات من الصحف الواردة من خارج المدينة ليعد منها « مشاهد وصورا من الحياة فى الاقاليم » وفى يوم الجمعة يكتب قصته الفكهة التى تنشر يوم الأحد . ومقابل هذا كله يتسلم راتبا قدره مائة روبل فى الشهر . وكان سريع الانتاج ويكرس جميع أوقات فراغه « لزيارة ودراسة المنشآت الخيرية » وبالأحرى ، لقد كان هو وفوما يتنقلان من أحد الأندية ، أو المشارب أو المطاعم ، الى ناد أو حان أو مطعم آخر . وكان كلما غشى شبتنا من ذلك راح يجمع المواد لكتاباتاته ٠٠٠ تلك الكتابات التى كان يسميها « مكانس لكنس الضمير العام ! » وكان يشير الى رقباء الصحافة فيسميهم « الاوصياء المهيمنين » على توزيع الحقائق والعدالة ! وكان يسمى الصحف نفسها « القوادات التى ترشح الشعب للأفكار الخطرة » كما يعرف عمله فى الجريدة فيقول : انه هو « بيع روحى وضميرى بالقطاعى ! » أو انه « محاولة عاجزة لدس أنفى فى المحافل المقدسة » .

وكان من الصعب على فوما أن يدرك : هل كان يزهوف يمزح أو يجد ؟ . فهو يتكلم فى كل شئ باحساس عظيم ، وكانت أحكامه على الأشياء والأشخاص قاسية ، وخالية من الرحمة . وكان فوما

يجب هذا فيه ، الا أنه كان أحيانا يعكس آراءه في وسط حملة من التشهير المذدع ، ولا يبالي أن يرفض بالحماسة هذه الآراء التي كان يتحمس لها ، جاعلا ذلك كله مزاحا في مزاح . وكان فوما في مثل تلك المناسبات يشعر أن يزهوف انسان لا يستشعر قلبه محبة أي شيء محبة حقيقية ، وأن قلبه خال من أي مثال من تلك المثل التي تتمكن من القلوب ، فتتحكم في كل ما يفعل أصحابها . وكان يزهوف يتخذ لهجة مختلفة تمام الاختلاف اذا كان الحديث يدور حول نفسه . وكلما كانت عاطفته فائرة جياشة وهو يتحدث عن نفسه ، عنف عنفا شديدا خاليا من الرحمة على كل شيء وعلى كل شخص يتحدث عنه . ولم يكن ثابتا على مبدأ واحد تجاه فوما وكان يشجعه أحيانا فيقول له محرصا :

- كن هداما . . . اهدم كل شيء ، واكتسح أمامك كل شيء
وبكل ما فيك من قوة . . . تذكر أنه ليس شيء هو أثمن من الكائن
البشري . اهتف بأعلى صوتك : الحرية ! الحرية !

الا أن فوما حينما كان يخلو الى نفسه ويفكر في أحاديث يزهوف
التي كانت تستثيره وتملؤه حماسة ، كان يعجب كيف يستطيع أن
يكتسح هؤلاء الناس الذين يشلون حركة الحياة توخيها لمصالحها
الخاصة ، وكان اذا سأل يزهوف في ذلك صاح به قائلا :

- انس هذا ! وماذا تستطيع أن تفعل ؟ ان أحدا ليس في حاج
الى من كان مثلك . ان أيامك . . أيام الأقوياء ، وان كانوا جهلاء .
قد ولت وانتهت . . انك لا مكان لك في دنيانا هذه !

ويصيح فوما بدوره ، وقد أثاره تقلب يزهوف ، وعدم استقرار
على رأى :

- لا مكان لي ! هذا كذب !

- عال جدا . . . فماذا في وسعك أن تفعل في هذا اذن ؟

ويقول فوما مهتاجا ، مهددا بقبضته :

— أقتلك ! هذا ما أستطيع أن أفعل !

ويهز ييزهوف كتفيه ويقول :

— بهلوان ! وأى خير يؤدي إليه قتلى ؟ اننى شبه مقتول فعلا ! ثم

قول فى نوبة من الغضب والقنوط :

— لقد لعب الحظ لعبة قدرة معي ! فيم كان شغلي كما يشغل لعبيد هكذا طوال اثنتى عشر عاما بلا انقطاع ؟ من أجل هذا استطعت أن أدرس ، فلماذا درست طوال هذه الاثنتى عشر عاما في المدرسة وفى الجامعة ؟ . . . وكم بلغت من كلام فارغ . . . أقال من المناقضات الغثة الثقيلة التى ليس بى اليها حاجة ! لكى أصبح كاتب قصص مسلية ! ولكى أقوم بدور يومى لتسلية الجمهور ، معللا نفسى بأنهم محتاجون الى ذلك ، ويمكن أن ينتفعوا به . لقد أطلقت كل ما كانت روحى تدخره من مفرقات بسرعة ثلاثة كوبكات للطلقة الواحدة . . . ثم الام انتهت بى الحال لان أو من به ؟ لا شيء ! والشئ الوحيد الذى أصبحت أو من به هو أن هذه الدنيا بصورتها الحالية لاتساوى قلامة طفر ، وأن كل شئ فيها يجب أن يتحطم وتسوى به الأرض . ماذا أحب ؟ نفسى . ومع هذا فأنا مؤمن بأن نفسى التى أحبها غير جديرة بهذا الحب 1 «

وكانت دموعه على وشك أن تنهمر من عينيه ، وظل المسكين يمزق فى عنقه وصدره بأصابعه النحيلة الواهية .

وكانت موجة من الأمل المشرق تطيف به أحيانا ، وعند ذلك تراه يتكلم بلهجة جديدة ، فيقول مثلا :

« أو . . . اننى لم أغن أغنيتى بعد . . . انك سوف تسمع عنى ما يسرك فى القريب العاجل . . . وما عليك الا أن تنتظر - وسيأتى

اليوم الذى أهجرت فيه الكتابة فى الصحف ، ثم أنصرف الى عمل جدى ، وأنا أفكر فى كتابة كتاب صغير باسم « أغنية البجعة » أو أغنية الميت . وسيكون كتابى هذا البخور الذى سيحرق عند فراش مجتمعنا ذاك ، وهو يلفظ آخر أنفاسه .. والى حيث ألفت رحلها ..

وكان فوما يتتبع بعناية جميع ما يقوله ييزهوف ، ويوازن بين كل من أحاديثه ويقيس بعضها ببعض ، وقد استطاع بذلك أن ينتهى الى نتيجة عجيبة .. هى أن صديقه ذاك رجل ضعيف ومختلط التفكير مثله تماما ، الا أن فوما تمرن على استعمال الكلام فى مواضعه بكثرة الاصغاء اليه ، وكان يسره أحيانا أن يلاحظ أنه يعبر عما فى نفسه بلغة واضحة قوية .

وكان يلقي الكثيرين فى مناسبات عدة فى منزل ييزهوف ، وكان يخيل اليه أن هؤلاء يعرفون كل شيء ، ويفهمون كل شيء ، وأنهم لم يكونوا يرون فى الأشياء جميعا الا التفاهة والزيف ، وكان يلاحظهم ويصغى اليهم فى صمت وسكون ، وكان يعجبه منهم الجسارة التى يبدونها ، وان ضايقه ونال من نفسه ما كانوا يلقونه به من تشامخ واستعلاء ، وكان يدهشه منهم أنهم اذا لقيهم فى منزل ييزهوف كانوا أكثر ظرفا ولطفا مما لو لقيهم فى المشارب أو الشوارع . لقد كانت لهم كلمات وأساليب وإشارات خاصة يتبادلونها فيما بينهم اذا لقوا غيرهم من خلق الله بمجرد خروجهم الى الشارع ، وكانوا أحيانا ، حينما يجتمعون فى منزل ييزهوف يصخبون ويزههون كما تزهزه أنوار الزينة .. وكان ييزهوف عادة أكثرهم صخبًا وازدهاء ، ومع ذلك فلم تكن أنوارهم تلك تلقى فى نفس فوما شيئًا من الضوء يؤبه له .

قال له ييزهوف يوما : « اننا سنقوم برحلة ، وقد كون صفاقو الحروف فى جريدتنا جمعية تعاونية ، وهم يقومون بجميع أعمالهم

الجريدة بطريق التعاقد ، واحتفالا بتلك الذكرى سيقومون وليمة
عزى إليها ، وعلى فكرة أنا الذى اقترحت عليهم انشاء هذه
لجمعية التعاونية ، فهل تحب أن تحضر ؟ ان هذا مما يدخل السرور
لبيهم .

وقال فوما : ويسرنى أنا أيضا .

ولم يكن فوما يعنى بالطريقة التى يزجى بها فراغه . . هذا
! راغ الذى كان لديه منه الشئ الكثير الثقيل الذى لا يدري :
كيف ينفقه ؟

وفى ذلك المساء ، كان فوما ويزهوف يجلسان بين جماعة من
وى الوجوه الشاحبة اجتمعوا عند حافة الغابة خارج المدينة ، وكان
بند صفافى الحروف اثني عشر رجلا لبسوا جميعا الملابس اللاتقة ،
كانوا يعاملون فوما كأنه واحد منهم ، وهو الشئ الذى أثار
هشته . بل سخطه ، وذلك لما كان يلاحظه من رفعة منزلة
يزهوف بينهم ، وأنه كان أقرب الى السيد المطاع فيهم ، وأنهم لم
يكونوا أكثر من تبع له . انهم لم يكونوا يحفلون بفوما بالرغم من
ن ييزهوف حينما قدمه اليهم راحوا يضافحونه ويقولون له : انهم
يسعدهم أن يروه بينهم ، ومن ثمة فقد جلس وحده تحت شجرة
من أشجار الهندق ، وراح يلاحظهم عن كثب ، شاعرا بأنه ليس
نهم . والظاهر أن هذا أيضا كان موقف ييزهوف من فوما . . فقد
حمد أن يتركه وشأنه ولا يوليه من الالتفات أكثر مما يوليه
الآخرون . ولاحظ فوما أن كاتب القصص المسلية القمى هذا كان
يتعمد أن يوهم هؤلاء العمال بأنه ليس بأكثر من واحد منهم .
فها هو ذا يساعدهم فى اشغال النار وفتح زجاجات البيرة لهم ،
ويضاحكهم بصوت عال مدو ، ويحاول بكل الطرق أن يقلدهم .
وكانت ملابسه فى هذه الرحلة أيسر مما كان معتادا أن يلبس .

وقال لهم وكأنه يشمخ ويتباهى :

- ما أعظم أن يكون الانسان بينكم أيها الاخوان ! ثم أنا ..
لست من طينة غير طينتكم على كل حال .. انما أنا ابن حارس من
خراس الليل .. ضابط الصف ماتقى ييزهوف .

وعجب فوما .. لماذا ياترى يقول لهم هذا ؟ وماذا يهمهم أن
يعرفوا ابن من هو ؟ والمهم هو فضل الانسان .. لا حسبه ولا
نسبه !

وكانت الشمس تميل الى الغروب . وكانت للسماء أنوار زيتها
وزخرفتها وصبغت السحاب بحمرة الدم .. والغابة ترسل في
الوجود صمتها وندائها . وتستقبل على حواشيها أطيافا آدمية
داكنة تسير في سكون وبلا جلبة . وكان رجل نحيل ربعة يلبس
قبعة من القش ذات رفرف كبير يعزف على الاوكورديون ، على حين
أن رجلا آخر ذا شارب أسود وطرطور يتدلى على مؤخرة رأسه يغنى
غناء لطيفا مشجيا ، وأن أمامهما رجلين آخرين أخذوا يجربان قوتهما
بشد عصا من طرفيها ، وآخرين محنيين على السلة المحتوية على
الطعام وزجاجات البيرة ، ورجلا سميننا ذا لحية بيضاء ، واقفا وسط
ضبابة من الدخان يلقي في النار بقطع من الحشب كانت لا تلبث
أن تطلقق وتهش ، واللهب يمسك بها ويشتعل فيها .. ثم اذا
عازف الاوكورديون يرسل لحنا مرحا رشيقا ، فيأخذه صوت
المغنى ، وينسجمان معا انسجاما جميلا .

وكان ثلاثة غلمان أحداث ينبطحون عند حافة غدير صغير ، وقد
وقف أمامهم ييزهوف وهو يقول بصوت مرتفع :

- انكم تحملون في أيديكم لواء العمل المقدس ، وأنا أيضا لست
الا جنديا عاديا في الجيش نفسه .. وكلنا خدام في دولة صاحبة
الجلالة الصحافة ، ومن ثمة فينبغى أن نكون أصدقاء ثابتين على
الود ، واخوان وفاء وثقة .

ثم انصرف فوما عما يقول ييزهوف لهؤلاء الصبيغار ليصغى الى ما استرعى سمعه من حديث أكثر متعة يدور بين شخصين على مقربة منه ، وكان واحد من المتحدثين شخصا طويلا مسلول الجسم يقدر الزى له نظرات تفيض مرارة ونقمة ، أما الآخر ففتى حذب السن ذو لحية وشعر أشقر .

وكان الطويل المسلول يقول وهو لا ينفك يسعل :

- اذا أردت رأيي .. فهذا جنون وحماسة ، كيف يمكن لمن كان مثلنا أن يتزوج .. والزواج كما تعلم يأتي بالأطفال .. فمس ذا الذى يعولهم ؟ والزوجة تفتقر الى ما تلبسه ولا بد .. ثم من يدري .. ماذا تسفر عنه تلك الزوجة ؟ وماذا يكون معدنيا من خير أو شر ؟

ويقول الشاب الحدث فى شيء من الحجل :

- حمدا لله .. ان زوجتى فتاة صالحة .

- ربما تكون كذلك الآن .. وكونها خادمة شيء ، وكونها زوجه شيء آخر .. ولكن .. ليس هذا هو المهم . انما المهم هو : كيف يتيسر لك أن تعولهم .. انك سوف تضطر الى العمل الذى يجعلك جلدا على عظم ، وسوف تشقى هى كذلك .. أود .. كلا يا صديقى .. ان الزواج ليس لامثالنا من الأشقياء ! اذ كيف يمكن أن نقيم اود أسرة بهذا الاجر التافه الذى نحصل عليه ؟ فانا مثلا .. اننى متزوج .. منذ أربع سنوات فقط .. وهانذا قد نالنى ما ترى .. من التلف والقرف !

ثم أخذ يسعل .. ويسعل طويلا وبشدة .. سعالا ينتهى دائما بصفير .. حتى ، اذا انتهت نوبة السعال التفت الى زميله يقول وهو يلهث :

- دعنا من هذا ٠٠ لا فائدة ٠٠ لا فائدة !

ونكس الشاب الصغير رأسه في هم وفكر ٠٠ أما فوما فتمسم في نفسه قائلاً : الكبير المسكين على حق .

لقد كان يؤلم فوما أن يتجاهله الجميع على هذا النحو ، إلا أنه كان يشعر بالاحترام لهؤلاء البائسين ذوى الوجوه التي كأنما لطخت بذوب الرصاص ، وكان مبعث احترامه لهم أنهم لما ينافقوه ولم يتملقوه . لقد كانوا يتحدثون بطريقة جيدة ، وكان معظم حديثهم عن عملهم ، مستعملين في هذا الحديث كلمات كثيرة لم يتعود سماعها ٠٠ دون أن يحاول واحد منهم التقرب منه أو أن يفرض نفسه عليه ، كما كان من عادة رفاقه في الحانات أن يفعلوا . وكان هذا من دواعي سروره .

وكان يشعر بغمرة من الضحك المكبوت تملأ نفسه ، فلم بملك إلا أن يقول :

- يا لله ! يا لهؤلاء من معشر ذوى أنفة وكبرياء !

وقال أحدهم في شبه تعنيف :

- اسمع يا نيقولاى ماتيفيتش ، أنت لا تريد أن تحكم بما في الكتب ، ولكن بما ترى حولك .

- حسن جداً أيها الأصدقاء ٠٠ فماذا أفدتم من تجربة زملائكم العمال ؟

والتفت فوما ليرى ييزهوف الذى كان يلوح بقبعته في الهواء على حين كان يلقي خطبة نارية ، ولكن واحداً أنشأ يقول في تلك اللحظة :

- ألا تقترب قليلاً ، جوسبودين جوردييف ؟

وينظر فوما فيرى غلاما ظريفا عليه قميص عامل ، ويلبس حذاء
طويلا ، وقد وقف أمامه فى أدب جم ، وزاح يبتسم بوجهه سمين
مكور وأنف كبير ضاحك مما جعل فوما يحبه ويعطف عليه ، ويرد
ابتسامته بمثلها قائلا :

• بكل سرور • ولكن ألم يحن الوقت بعد لأن نقرب من
شربنا ؟ لقد أحضرت معى حوالى ائنتى عشرة زجاجة - لا تزال
ملفتها •

• أوه ! اذن فأنت تاجر كثير المال ! سأبلغ رسالتك الى المركز
العام !

وضحك الغلام ضحكا عاليا وطويلا لما حاوله من الفكاهة •
وشاركه فوما فى دعابته ، بعد اذ أحس بنفحة من الدفء لعلها
منته - اما من الغلام ، واما من النار المتأججة القريبة •

وأخذ الغروب يشحب فى بطنه ، وكأنما كان ثمة ستار قمرى
عظيم يهبط فى الغرب شيئا فشيئا ليبنى لنا أعماق قبة الليل
التي لا يسير غورها والتي رقشتها النجوم ، وقد أخذت يد مجهولة
تنثر الأضواء على هذا الغشاء القاتم الأسود الذى كان يتغشى
المدينة البعيدة ، التي لم يكن يبذ ظلامها الا ظلمات الغابة • ولم
يكن القمر قد بزغ بعد ، وكانت ظلمة دافئة تكتنف الحقل كلها •

وجلست الجماعة فى حلقة بالقرب من النار ، وأخذ فوما مكانه
الى جانب ييزهوف جاعلا ظهره الى الضوء ، وكان بهذا يستطيع أن
يرى الوجوه الباشة التي ينعكس عليها النور ، وأخذوا جميعا
بنشوة الشراب ، وان لم يدركهم السكر بعد ، يضحكون ويمرحون
ويغنون رقائى من الأغاني ، وهم فى أثناء ذلك يشربون ويأكلون
الحبز الأبيض وقطع الخيار والنسجق • • وكان فوما يجد لذة خاصة
فى كل شيء ، وجراته مشاركته لهم فى مرحهم ، فأحس رغبة فى

أن يقول شيئا لهؤلاء العمال يمكن أن يساعدهم ويجعلهم مثله .
وكان ييزهوف لا ينفك يتلوى ، ويلكزه بكتفه ، ويهز رأسه ويغنى
يتمتم بكلام غامض غير مفهوم .

وصاح الغلام الظريف يقول :

- أيها الزملاء ، هلموا نغن أغنية الطالب .. هيا : واحد ..
اثنان .

سراعا كموج البحر ...

ويشاركه أحدهم بصوت منخفض :

- أيام عمرنا تكرر ، فتطوينا الغداة وتذهب

ويهتف ييزهوف بالجميع :

أيها الاخوان !

ثم ينهض وهو ممسك بزجاجته ، لكنه يترنح ، ويستند الى
رأس فوما حتى لا يقع ، وهنا ينقطع الغناء ، وتوجه اليه جميع
الانظار . « يا رجال العمل .. اسمحوا لى بأن أقول لكم بضع
كلمات صادرة من أعماق فؤادى . اننى سعيد بأن أكون واحدا من
جماعتكم .. اننى أشعر بالرضا وأنا بينكم ، لأنكم رجال عمل ..
رجال لا يستطيع أحد أن ينكر عليهم حقهم فى السعادة .. وان لم
يعترف لهم بهذا الحق بعد . ما أجمل أن يجد رجل مثلى .. يعيش
فى كل تلك الوحشة ، وتجرحه الحياة كئوس مرها .. أن يجد
نفسه فى تلك الصحبة السعيدة المتعاونة ، صحبة أمثالكم من
الأمناء الأوفياء ! »

ثم يتراخى صوت ييزهوف ، ويميل رأسه .. وتسقط قطرة من
الشراب على يد فوما الذى يرفع رأسه ليرى وجه صديقه المختلج ،
وهو يصل كلامه قائلا ، وقد أخذ جسمه كله يرتجف :

- اننى لست وحدى .. ان ثمة كثيرين من أمثالنا .. مثلى أنا .. ممن قسا عليهم سوء البخت وقصم ظهورهم .. اننا أقل حظا منكم أيها العمال ، لاننا أضعف منكم جسوما وأرواحا ، لكننا أقوى منكم ، لاننا مسلحون بالعلم - العلم الذى لا نستطيع أن نفيد منه ! اننا لا نستطيع الا أن نكون سعداء اذا جئنا اليكم وتفرغنا لخدمتكم قلبا وقالبا عسى أن يجعل هذا حياتكم أيسر وألين جانبا .. انه ليس ثمة شيء آخر يمكن أن نقوم به غير هذا .. فنحن بدونكم لا يمكن الا أن نكون كالمعلقين فى الهواء ، وأنتم بدوننا تكونون كالضاربين فى الظلام .. أيها الاخوان ، اننا مخلوقون بعضنا لبعض ..

وقد عجب فوما : ماذا يريد منهم يا ترى ؟ وقد نظر فى وجوه صغافى الحروف ، وأدرك أنهم هم أيضا فى دهشة وحيرة وانقباض ..

ثم يقول ييزهوف بعزم وتصميم ، وبإيماء حزينة من رأسه :

« ان المستقبل مستقبلكم أيها الاخوة » .

ويقولها وكأنه ينفس عليهم هذا المستقبل ، ويكره أن يكونوا اصحابه ، لكنه يعترف لهم به رغم أنفه :

« ان المستقبل هو مستقبل العمال الامناء ، وان فى انتظاركم عملا عظيما ستقومون به ، وهذا العمل العظيم هو خلق نوع جديد من الحضارة لا يقوم الا على اكتافكم .. وأنا .. ابن هذا الجندى المتواضع ، اناصركم بجسمى وروحى ، وعليه .. لنشرب نخب هذا المستقبل الذى هو مستقبلكم ، .. مرحى .. مرحى يا اخوة ! »

ويستقل ييزهوف متهالكا على الارض ، والزجاجة فى فمه ، وقد انطلق العمال يرددون صيحته المهتومة ، مالتين الهواء بعاصفة من الهتاف كانت تهز أوراق الاشجار هزا ..

وحين يفرغون من هذا ، يقول الغلام الطريف :

« والآن .. الى الغناء ! »

ويوافقه صوتان أو ثلاثة ، الا أن الكثرة تدخل في نقاش عنيد حول الاغنية التي يتغنونها ، وكان ييزهوف وهو يستمع الى لفظهم يدير رأسه من جانب الى جانب ، ليلقى على كل منهم نظرة فاحصة .
ثم صاح بهم فجأة :

« أيها الاخوان ، أريد ردا .. ردا على نخبي ! »

ثم أخذ الهدوء يعود الى الجماعة رويدا ، وأخذوا يتفرسون فيه وقد استولى العجب على بعضهم ، وبعضهم يخفى ابتسامة ساخرة . وبعض لا يزال في استياء مكظوم باد على وجوههم .. وينهض ييزهوف ثم يشرع في الكلام مهتاجا :

« ان بينكم اثنين ممن نبذتهم الحياة .. ضيفكم .. وأنا .. وق نبذتنا منذ أمد طويل لسبب واحد ، وسبب واحد فحسب : هـ ادماننا التفكير في شئون هذه الحياة ، وما نشعر به من البهجة مر أننا لا غناء عنا . أيها الاخوان : ان هذا الزميل الضخم المغفل ..

ويقاطعه بعضهم ، فيقول معترضا . بصوت عميق :

« ليس لك أى حق في اهانة ضيفنا ، يا نيقولاى ماتفيتش !

ويوافقه الغلام الطريف قائلا :

« مؤكد .. ليس لك حق في هذا .. ممنوع الغمز واللمز ! »

ويقول ثالث مؤكدا بصوت مدو ولهجة حازمة :

« لقد جئنا الى هنا للراحة من عناء العمل ، ولنقضى وقتنا

طبا . »

ويقول ييزهوف وهو يتكلف الرد ويصطنع العذر :

« أيها المغفلون ، أيها المغفلون المهذبون ، اذن فأنتم تشعرون بالاسف

من أجله ! أليس كذلك ؟ فهل تعرفون من هو ؟ انه واحد من أولئك الذين يمصون دماءكم ! »

وهتف به الرجل قائلا :

« كفى كفى .. نيفولاى ماتفتش ! »

وعندئذ انصرفت الجماعة الى ما كانت فيه من حديث وثرثرة . منجاهلين ييزهوف تمام التجاهل ، وأسف فوما لما بدا من صديقه من مهاجمة ماقال ، ولا حظ أن الذين هبوا للدفاع عنه كالوا يتعمدون صد كاتب الاقاصيص وانتهاره . وأدرك أن ييزهوف لو عرف ذلك لآله وأذى شعوره ، ولكي يصرفه عن ادراك ذلك لكزه فى جنبه لكزة مازحة وقال له :

— هيا يا كوكى ، هلم نشرب كأسا .. أنفعل ، أم ترى أن الوقت قد حان لكى نعود الى بيوتنا ؟

ويجيبه ييزهوف :

— بيوتنا ؟ وأين هو هذا البيت الذى يأوى اليه رجل لا مكان له بين الناس ، أيها الاخوان ؟

الا أن كلامه لم يجد له جوابا .. لقد ضاع فى ضجيج الجماعة ، ولم يلتفت اليه أحد ، ولما رأى هو ذلك تكس رأسه وقال :

— اذن .. هيا .. لنعد .

— اذا شئت . وان كان البقاء لا يضايقنى .. فالجلسة جميلة ممتعة .. والله ما أظرف هؤلاء الشياطين .. ولو كانوا غير ذلك ما باليت البقاء بينهم ! ..

— لا أستطيع البقاء أكثر من هذا .. انى أكاد أتجمد من البرد .

ووقف فوما ، وانحنى يحيى العمال ، ثم قال لهم بلهجة باشة

- شكرا لكم هذا الطعام اللذيذ يا رفاق .. وداعا .

لكنهم أحاطوا به فى الحال ، ورجوه أن يبقى :

- لتبقى معنا قليلا . الى أين تمضى الآن .. اننا سنغنى .

- شكرا .. يجب أن أذهب .. لا يمكن أن أدع صديقى ينصرف وحده . فانعموا بوقت طيب «

ويقول الغلام الظريف :

- أو أو .. بل ابق .. فلم يحن وقت الرحيل بعد .. ونستطيع نحن أن نوصله .

ويقول الرجل المسكين المسلول فى صوت منخفض :

« ابقى بالله عليك .. وسيوصله أحدنا الى حدود المدينة ، ثم يضعه فى عربة .. ويعود من ثم صاحبنا .

وكان بود فوما لو يبقى ، وان كان يخشى فى الوقت نفسه أن يفعل ، من أجل خاطر ييزهوف الذى كان يتلوى ثملا ، ويشد كفه فوما قائلا :

- هيا .. هيا .. الى الجحيم بهم جميعا !

وهنا ، لا يسع فوما الا أن يقول :

- وداعا يا سادة .. انى منصرف ..

ويمضى مع ييزهوف .. ويهب الجميع يحيونه ويأسفون لفراقه

ولا يكادان يبعدان حتى يقهقه ييزهوف :

- ها ها .. ها ها .. انهم يودعوننا والدموع تكاد تنهل من

عيوبهم .. والحقيقة أنهم مسرورون لمفارقتي اياهم .. لقد كنت
تقف في طريقهم .. وكانوا هم يريدون أن يهرجوا وأن يعبثوا كما
نمى البهائم .

- حقا لقد كنت تقف في طريقهم . ما الذى دفعك الى القاء تلك
الخطب ؟ لقد جاءوا لقضاء وقت طيب ، لا ليسمعوا خطبا ومحاضرات
.. لقد ضايقتهم مضايقة شديدة .

- اسكت ! انك لا تدري : عم تتحدث ؟ .. اتظن أننى سكران ؟
ان جسمى هو الذى ثمل .. أما روحى فصاحية واعية . وهى على
الدوام صاحبة وواعية ، وتشعر بكل شيء .. واأسفاه ! كم فى هذه
الدنيا من دناءة وتفاهة وجمود فهم !! ثم هؤلاء التاعسون
الاغبياء !

ثم توقف ييزهوف ، وأخذ يترنح قليلا ، ممسكا رأسه بكلتا يديه
وتمتم فوما يقول :

- انهم لا يشبهون غيرهم من الناس فى شيء .. انهم فى منتهى
لادب ، ويكادون يكونون سادة ظرفاء ، ولهم أفكار ناضجة صادقة .
هم يعرفون ما يتحدثون عنه .. يا لهم من عمال بسطاء سلمي.
لنية !

وصافحت أذانها أغنية جماعية حملها اليهما الهواء من خلفهما ..
كانت تأتى متقطعة أول الامر ، ثم لا تلبث أن تزداد تماسكا حتى
تأتى متدفقة ، وفى موجة عظيمة تطيف بالحقول الخالية ، فى ثنايا
هراء الليل اللطيف المنعش .

ويقول ييزهوف فى صوت هادئ حزين :

- يا لله ! ماذا فى هذه الدنيا مما يمكن أن تتعلق به الروح ؟ ماذا

هيهما مما يمكن أن يطفىء ظمأها غير الحب والصداقة والاخوة والعمل
النظيف المقدس ؟

ويتمتع فوما الذي كان مستغرقا أشد الاستغراق في أفكار
وتأملاته حتى لقد كان هذا يشغله عن ادراك ما كان يقوله ييزهوف

- يا لهؤلاء العوام ! انهم قوم لا بأس بهم اذا نظرنا اليهم نظر
طيبة . بل انهم لقوم في منتهى الغرابة ! ان الفلاحين والعمال
عند النظرة الاولى اليهم يخيل للانسان انهم لا يزيدون عن تلك الحب
التي تسير وثيدا وهي تلهث وتضج ، وتنفخ نفخا شديدا .

ويسمعه ييزهوف فيقاطعه قائلا :

« انهم يحملون حياتنا كلها على ظهورهم ، ويسيروا وثيدا كما تسير
الحيل . . . بلداء مستسلمين . . . واستسلامهم هذا كارثة . . . لعنة .
! وظل سائرا يترنح وهو صامت لحظات . . . ثم اذا به يشرع في
الانشاد شيء من الشعر بصوت مبحوح ، ملوحا بيديه في الهواء في
أثناء ذلك :

يا حياة خدعتني وأمرت كأس عيني
ورمت غـور فؤادي من ما تسـيها بجيش
وتوقف عن السير ، وعن الانشاد ليقول لقوما بصوت حزين :
- لقد قيل هذا الشعر في يا صديقي . . . أما بقيته . . . أوه .
لقد نسيتها :

أين أحلامي التي أخفيتـها طي فؤادي ؟
لن ترى الضوء وان عا دت ففي يوم التنادي
« انك أحسن حظا مني . . . لأنك . . . لأنك مغفل !

ويجيبه فوما مستاء :

- كف عن هذه العريضة ، واستمع اليهم وهم يغنون .
- انى لا أريد أن أستمع الى أغاني الآخرين . . فلدى أغاني

نم أنشأ ينشد بصوت مرتفع مولول :
ان أحلامى التى أخفيتها طى فؤادى
لن ترى الضوء وما أكـ شر أحلام الفؤاد
هم أخذ ينشج ويبكى كما تبكى النساء ، وقد تأثر فوما بهذا .
أنه كان متضايقا .

ضرب يزهوف على كتفه مما به من سخط وقال له :
- كفى . . انك مخلوق ضعيف خرع !
وأمسك يزهوف رأسه بيديه ، وشد من قامته ، ثم راح يجاهد
في انشاد مقطوعته من جديد :

لن ترى الضوء وما أكثر أحلام الجنان
تلك أحلامى التى سجيتها طى اران
ضيق ، فى كفن من شعر قلبي وجناني
كم ترنمت لها ، كم أنشدت روى الأغاني
باكيات شاكيات : هامسات فى بياني

وهمس فوما فى قنوط ويأس : « يا رباه ! »
وجعل غناء العمال يأتى من بعيد خلال الظلام والسكون ، وكان
عضهم يرسل صفيحه بوزن الغناء ، فكان الصفيح العالى المجلجل
يرتفع فوق تلك الموجة من الأصوات القوية المدوية كما يعلو الفارس
الرشيق صهوة جواد منطلق . ونظر فوما خلفه فشهد حائط الغابة
المظلم . ولهب النار يتراقص عليه ، وأشباح العمال القائمة حصول

النار .. وكانت الغابة أشبه بصدر عظيم رحب ، والنار في هذا الصدر أشبه بجرح يدمى . وكان العمال يبدون كأنهم أطفال صغار وهم ملفوفون في سراويل العتمة . بل كانوا يبدون كأنهم لهم تتراقص بفعل انعكاس ضوء النار عليهم ، وقد أخذت أذرعهم تتمايل مع نغمة أصواتهم العالية القوية كأنها ألسنة تلك اللهب .

وكان ييزهوف واقفا الى جانب فوما يشهد معه ذلك المنظر . وإذا هو يعود فجأة الى انشاد أشعاره :

وانتهى الحنى ، وغنى الناي الحنه
مودعا في أخريات اللحن بلواه وحزنه

ايه يا ربى .. أرح روحي بعدلك
شقيت ما ليس يشقى أحد فامنن بفضلك
ايه يا ربى .. أرح روحي بعدلك

وفزع فوما لصوت ولولته الحزينة .. وزاده فزعا أن يطلق كاتب القصص البائس صرخة هستيرية مدوية .. ثم يلقي بنفسه ، ووجهه الى أسفل ، فوق الأرض ، حيث تأخذه نوبة من البكاء الهادي . الحزين الذي يفيض أسى .. كما يفعل طفل صغير مريض .

ويهتف به فوما وقد أمسك بكتفه !

- نيقولاى ! حسبك يا صديقى ، حسبك ! ماذا جرى ؟ ألا تحس من نفسك ؟

لا .. انه لم يكن ثمة ما يدعو الى الحجل .. لقد رمى بنفسه على الأرض كما ترتدى السمكة بعد خروجها من الماء ، حتى اذا رفعه فوما من فوق التراب راح يلقي ذراعيه المعروقتين حول صديقه ، ثم يفرق فى نوبة من البكاء

ويقول له فوما بصوت خفيض :

- تعال تعال ، هون عليك ٠٠ ولا تشق على نفسك يا صديقى

لعزيز

وساع الاسياء والحنق فى نفس فوما مما يمكن أن تسببه الحياة
للانسان من مثل هذا الشقاء ، فامتلا بالكرهية لها والازدراء عليها ،
وكأنه هو هذا الصديق ، وكأن مصائبه مصائبه ٠٠ واذا به يلتفت
الى حيث تتبلا* أنوار المدينة فى ظلام الليل ، فيقول فى صوت
كالرعد ، وفى فورة من المرارة :

- عليكم اللعنة ، أيها الشياطين !

الفصل الحادى عشر

عاد ماياكين من البورصة ذات يوم فقال لابنته :

— ليوبا • استعدى يا ابنتى للقاء أحد الخطاب هذا المساء • وأعدى
مائدة طيبة ، وأخرجى جميع الفضيّات القديمة وفازات الفاكهة أيضا •
بجب أن تجعلى المائدة تضربه فى أنفه مباشرة ، ويجب أن يرى جميع
الأشياء الثمينة التى نقتنيها

وكانت ليوبا جالسة بالقرب من النافذة ترفو جوارب أبيها • وقد
حنت رأسها وهى تعمل دائبة

وقالت تعترض على ما قال أبوها وقد أحست بالضيق :

— وفيم كل هذه المظاهرة يا أبى ؟

— هذا شيء لا غنى عنه •• انه كالبهريز الذى يكسب الطعام
نكهته •• ثم هذا هو الذى يجب أن يكون •• ثم •• ان البنّت
لست حصانا •• ولن يشتريها أحد الا اذا نصبنا له المصايد

وأومات ليوبا برأسها ايماءة لها معناها • ثم ألقت بالشغل •
وحذبت أباها بنظرة تجمع بين الحجل والاستياء — ثم عادت فتناولت
الجورب ونكست رأسها أكثر مما كان أولا • وراح العجوز يمشى
جيئة وذهابا ، محملا فى الفضاء ، وهو يجذب لحيته بشدة وفى قلق
كانما ينعم الفكر فى مشكلة صعبة عويصة • لقد كانت ابنته تعلم أنه
لن يصغى إليها اذا تكلمت ، وربما لا يبالى ما سببته كلماتها لها من

هوان . لقد كانت الأحلام الجميلة الفضية التي طالما ساورتها وملات خيالها بزواج يمكن أن يكون صديقا حقا بقدر ما هو زوج . . . زوج منقذ يستطيع قراءة الكتب الجميلة معها ، وأن يساعدها في فهم ما تشوق اليه من الآماني والآمال المبهمة الغامضة . . . ان هذه الأحلام كانت قد بخرت وقضى عليها قرار أبيها . . . هذا القرار الذي لا نكوص فيه ولا معدى منه ، بأن تتزوج سمولين . . . انه قرار ترك عكارة سوداء في روحها .

لقد اعتادت أن تنظر الى نفسها بوصفها أرفع مستوى من لذاتها من البنات العاديات ، بنات الطبقة التجارية اللائي لا هم لهن الا الملابس الفاخرة ، والزواج ممن يقرر آبلؤهن أنهم صفقة طيبة للزواج منهن ، دون أن يأخذوا في اعتبارهم ، الا نادرا ، أن لبثاتهم مشاعر وأحاسيس ينبغي احترامها ووضعها في حسابهم قبل أى اختيار آخر .

ثم ها هي ذى قد رأى أبوها أن يزوجه الآن . . . لا لسبب ما ، الا لأن وقت الزواج قد آن ، ولأن أباه محتاج الى زوج ابنة يمكن أن تمول اليه مقاليد أعماله وأملاكه . ولم يكن يخفى على ليوبا أن أباه كان يؤمن بأنها فقيرة في عوامل الجاذبية والجمال بدرجة لا يمكن معها أن تجتذب احدا من الراغبين في الزواج ، ومن ثمة فقد رأى أن يعرض هذا بعرض ما لديه من أسباب الغنى والجاه . . . ومنها هذه الفضيات التي أوصاها بالاكثار منها على المائدة . . .

لقد عراها الكثير من الارتباك والحيرة . . . فشكت أصبعها وكسرت ابرتها . . . ومع هذا . . . فلم تفه بكلمة ، لأنها كانت تعلم تمام العلم أن قلب أبيها لن يكون الا القلب الأصم الأبكم الذى لن يستجيب لشيء ولن يستمع لشيء مما تقول .

وظل العجوز يذرع الغرفة رائحاً غاديا ٠٠ وهو لا ينفك يتمتم
بدعاء أو صلاة ، أو يلقي على ابنته تعليماته التى يعلمها بها كيف
تلقى خطيبها ، وكيف تتصرف أمامه ٠٠ ثم اذا هو يتوقف فجأة
ليحسب على أصابعه حسبة ما ٠٠ ثم اذا هو يعبس ويتجهم ، ويعود
فيبتسم ٠٠ ثم ٠٠ يهمهم :

- هم ٠٠ اللهم يا كريم لا تجعل لأحد علينا حكماً الا حكمك ٠٠
وقنا اللهم شر الملقى والمتلقى وشر من لا يؤمن بك يا كريم ٠٠ ليوبا
٠٠ .ولابد أن تلبسى زمردات أمك ٠٠

ويكون صبر الفتاة قد نفذ ، فتنفجر فيه وقد ضاق صدرها

- حسبك يا أبى ٠٠ حسبك ٠٠ دعنى وشأنى أرجوك

- بل دعينا من ألعيبك ٠٠ وافعل ما أمرك !

ثم يعود الى ما كان فيه من حساب ، مضيقاً من أجفانه وهو يعد
على أصابعه :

- خمسة وثلاثون فى المائة ٠٠ هذا النصاب المحتال ، أنر بصائر
يا ٠٠٠

وتقاطع ليوبا متسائلة وقد استولى عليها الخوف :

- بابا ٠٠٠

- هيه ٠٠٠

- هل هو ٠٠٠ هل تحبه ؟

- من ؟

- سمولين ؟

- سمولين ؟ انه شاب لبيب ٠٠ واع ٠٠٠ والآن ، حان وقت الذهاب ٠٠ اسمعى يا ليوبا ٠٠ البسى أبهى ما عندك

وينصرف الرجل ٠ وتضع ليوبا شغلها جانبا ، ثم تتكىء الى حلف ، وتغمض عينيها ، وقد شحبت مفاصل يديها ٠٠ وتشنجت اصابعها المتشابكة ، وأخذت تدعو الله وتتوسل اليه ، مما تحس من المראה التى يحقر بها والدها من شأنها ، ولحوفها من المستقبل :

يا الهى اللطيف ٠٠٠ يا مقلب القلوب والابصار يا رب السموات ٠٠ أضرع اليك أن يكون لطيفا ٠٠ مثلك ٠٠٠ فاجعله ربي لطيفا ٠٠ ورقيقا وديعا ٠٠٠ يا عجبا ! رجل غريب يأتى دون سابق عهد ليحلق فى الواحدة منا ٠٠ ثم تصير ملكه بعد ذلك عشرات السنين ! لله ما أبشع وما أشنع ! وا خجلاه ! تداركننا يا الله ٠٠٠ ! ثم ٠٠ لو أن أحدا كان الى جانبي أشكو اليه بنى ويخفف عنى ما أجد ! لو كان تاراس هنا ٠٠ !

وعندما ذكرت أخاها شعرت بوطاة الظلم تزداد وتتضاعف ، وتتضاعف أحزانها وتزداد بلواها ٠ لقد كتبت الى تاراس خطابا طويلا ضافيا تقول له فيه : انها تحبه من صميم قلبها ، وتضع فيه جميع آمالها ، وتتوسل اليه أن يحضر ليقابل أباه بأسرع ما يستطيع ، مصورة له فى أبداع صورة ما يمكن أن تكون عليه حياتهما معا ، مؤكدة له أن أباهما رجل شديد الذكاء يستطيع أن يقدر الظروف ويفهم كل شيء ، وأنه بلغ من الكبر عتلا وأنه يحيا حياة كثيفة موحشة ، وان يكن يشعر بحماسة عجيبة لأن يحيا وأن يعمر ٠٠٠ ثم شكت اليه من الطريقة التى يعاملها بها هذا الوالد ٠٠

وانتظرت ليوبا أسبوعين طويلين وهى تتحرق لتسلم الرد ٠٠ علما تسلمته اذا هى تجتاحها نوبة هستيرية من الفرح بتسلمه ، كما انتابتها نوبة أخرى من اليأس وخيبة الرجاء ٠٠٠ لقد كان الرد

جافا ومختصرا ، وان يكن أنيقا محكما . لقد أخبرها تاراس أنه خلال شهر أو نحوه سيكون فوق القولجا فى عمل من الاعمال ، وأنه ربما زار والده فى أثناء ذلك ، اذا لم يكن لوالده اعتراض . لقد كان خطابا باردا فاترا ٠٠٠ ومن ثمة ، فقد أبكاه ٠٠٠ وبللته بدموعها ٠٠٠ ولهذا طوته وطبقته فى راحتها ٠٠٠ الا أن الليل الذى أصابه لم يرطب من مرارة ما فيه . لقد كان يخيل اليها أن وجها يبرز من سطح الورق المرقط ذى التجاعيد الذى كتب عليه الخطاب ، والذى غطته أحرف كبيرة ، خطتها يد جريئة مطمئة .. كان يخيل اليها أن هذا الوجه يبرز اليها مقطباً متجهما ٠٠٠ وحها نحيلا ملائته الغضون والتجاعيد مثل وجه أبيها .

وسمع الوالد العجوز أن ابنه قد كتب خطاباً ٠٠٠ فكان أثر ذلك شيئاً مختلفاً تمام الاختلاف عن الأثر الذى تركه فى نفس الفتاة . لقد أثار ذلك شئى الاحاسيس فى نفس الوالد ، وبادر من فوره الى ابنته ، وعلى شفثيه ابتسامة خاصة تختلج عليهما اختلاجا ، وأنشأ يقول :

- هيه ٠٠٠ خير ٠٠٠ أرينا يا ستي ٠٠٠ لنر كيف يكتب الشباب الأنيق الرشيق إياه ! أين نظارتى ٠٠٠ ؟ « أختى العزيزة » ..
اهم ..

وقرأ العجوز خطاب ابنه فى صمت ، حتى اذا انتهى منه وضعه على المنضدة . وجعل يتمشى قليلا فى زوايا الحجرة ، وقد ارتفع حاجباه مما عمراه من الدهشة .. ثم عاد فقرأ مرة ثانية ، وقف بعدها ينقر بأصابعه على المنضدة ، مستغرقا فى تفكير عميق ٠٠٠ ثم قال أخيرا :

- لا بأس ٠٠٠ خطاب طيب .. ناشف ٠٠٠ ليس فيه كلمة لا لزوم لها ٠٠٠ ولعل البرودة قد جعلته جامدا بعض الشيء ! ان

البرد هناك قارس قاس ٠٠٠ ليحضر يا ليوبا ٠٠٠ وسنلقاه ان شاء الله ٠٠٠ عجائب ! اهم ٠٠٠ هذا كما جاء فى مزمور داوود :
عندما رددت عدوى - لقد نسيت بقية الكلام الذى بعد هذا ٠٠٠
وأظنه كشيء من هذا القبيل : لقد ضعفت أسلحة عدوى فى النهاية ،
وتلاشت ذكراه وسط الضجيج ، حسن ٠٠ سننظر فى الامر ، أنا وهو ، بلا ضجيج ، ولا جلبة . وحاول العجوز أن يتكلم فى هدوء ورفق وفى ابتسامة فيها أنفة وفيها استعلاء ، الا أنه لم يستطع ذلك ، فلقد أخذت غصون وجهه تختلج من أثر ما تجيش به نفسه من الانفعال ، وراحت عيناه تلمعان لمعانا غريبا ، وهو يقول لابنته :

- اكتبى اليه خطابا آخر يا ليوبا وأطلبى اليه الحضور دون أن يخشى شيئا .

وكتبت اليه ليوبا هذا الخطاب الآخر ، وكان أقصر من خطابها الأول وأكثر ضبطا ٠٠٠ ثم بدأت تنتظر رده من جديد ، وهى لا تنى تفكر فيما عسى أن يكون أخوها هذا . لقد كانت تفكر فيه أول الامر بمثل الوقار الذى يكنه المؤمنون للصديقين والاولياء والضاربين فى سبيل الله ٠٠٠ أما الآن ، فقد أخذ تفكيرها فيه يملؤها رغبة ٠٠٠ انه شخص تعذب طويلا ، وقضى شبابه فى غربة أشبه بالمنفى ، ومن نعمة فهو رجل لا كسائر الرجال ٠٠٠ انه أصبح خيرا بالناس ، وله رأي فيما يصدر عنهم من أعمال ، وهو بالطبع سوف يسألها حينما يلتقيان ، وحين تأخذ رأيها فى الرجل المتقدم اليها .

- هل كنت حرة مطلق الحرية فى اختيار هذا الزوج ؟ وهل هو زواج يقوم على حب ربط قلبك بهذا الرجل ؟

وأخذت الأفكار السوداء تنتابها رويدا رويدا ، بل أخذت تتركها وتعذبها ٠٠ على أنها لم تملك الا أن تنفذ تنفيذا حرقيا ما أمرها به أبوها أن تفعل ، استعدادا للقاء خطيبها ، وكانت تنفذه وهي فى حال عصبية أشبه بحالات اليأس ، وان عينيها لتكادان تسكبان الدموع ، وان نفسها لا تقرب أن تكون فى غير وعيها ٠ لقد أعدت المائدة وملائتها بالفضيات القديمة ، ولبست ثوبا حريريا رمادى اللون ، ثم جلست أمام مرآتها بالقرب من النافذة لتبرم فى أذنيها ذلك الحلقى من الزمرد الذى كان يوما ما جزءا من حلى أسرة الأمير جروزنسكى ، وانتهت ملكيته الى ماياكين من غيره من الأشياء الثمينة الأخرى بطريق الرهن على قرض لم يستطع المقرض أن يرده

وشرعت ليوبا تنظر فى المرأة الى وجهها الثائر المضطرب ، الذى كانت شفتاه المستديرتان الناضجتان تبدوان أشد حمرة مما هما عليه لما يعرفو خديها من صفرة وشحوب ٠٠٠ ثم تنظر الى صدرها الناهد الممتلئ الذى يمسكه الثوب الحريري فيجعله بارزا مشدودا ، فتري أنها جميلة وقمينة بأن تسترعى انتباه أى رجل ٠ لقد كانت الزمردتان الخضراوان المتلاثلتان فى أذنيها لمسة سطحية ثقيلة على ذوقها ، وفضلا عن ذلك كان يبدو أنهما تلقيان ظلا أصفر باهتا على خديها ٠٠ ومن ثمة فقد انتزعت الزمردتين ، ووضعت مكانهما ياقوتتين حمراوين ٠٠٠ وهي فى أثناء ذلك كله لا تنى تفكر فى سمولين : ترى ٠٠٠؟ ما شكله ، وما فصله ؟

ولاحظت غضونا سمراء تحت عينيها ، فلم يسرها ذلك ، وأخذت تعالجها بشئ من البودرة ، وهي لا تزال تفكر فى سمولين ، وفى سوء البخت الذى جعل منها امرأة ٠٠٠ ولم يجعل منها رجلا ، ثم تنعى على نفسها ضعف شخصيتها ، بل فقدان هذه الشخصية ٠ ولاحظت ليوبا أن اختفاء الغضون السوداء من تحت عينيها قد سلبها

رونقهما وبهاءهما ، ولهذا ، فقد أزال البودرة وأعادتهما الى ما كانتا عليه . وبعد أن ألقت على نفسها نظرة أخيرة آمنت بأنها حسناء . . . حسناء حسنا أخاذا يبهز اللب ، ويسبى القلب وجميلة . . . هذا الجمال القوى الحى الذى يتدفق فى شجرة صغيرة من أشجار الصنوبر . وقد هدأ روعها الى حد ما هذا الذى اعتقدته من حسنها ، ودخلت الى غرفة الأكل بخطى ثابتة . . . خطى الفتاة الغنية الصغيرة الصالحة للزواج ، العارفة بقيمتها تمام العرفان .

لقد كان أبوها وسمولين فى انتظارها

وكانت ليوبا تمشى فى الطريقة على مهل ، وهى تزر عينيها بطريقة ظريفة ، وتهدل شفيتها فى تيه وكبرياء . . . وما كادت تلوح حتى نهض سمولين ، وتقدم للقائها فى انحناءة مؤدبة راقتها وصادفت هوى فى نفسها ، كما راقها هذا المعطف الجميل الذى ينسجم هو وجسمه القليل النحيل . . . لقد تغير قليلا عما كانت تعرفه ، وكان شعره لا يزال أحمر اللون وحليقا ، وجهه ممتلئا بالشمس ، الا أنه قد أصبح ذا شاربين بديعين ، والظاهر أن عينيه زادتا اتساعا .

وقال العجوز لابنته وهو يشير الى سمولين :

- عريس نموذجى ! اه ؟

وهنا ضغط سمولين على يد ليوبا ، وابتسم .

وتمتم سمولين فى نفمة لطيفة :

- أتعشم ألا تكونى قد نسيت زميل الدراسة القديم !

ويقول ماياكين وهو يلقي على ابنته نظرة فاحصة :

- تستطيعان كلاكما التحدث فيما بعد . . . تستطيعين يا ليوبا

انْ تُنْصُرْفِي لِلْإِشْرَافِ عَلَى الْخِدمِ حَتَّى نَنْتَهِي مِنَ الْحَدِيثِ الَّذِي كُنَّا
بَصْدَدِهِ . . . هَيْه ، وَهَكَذَا كَانَ أَفْرِيكَانَ دِيمْتْرِييفْتَشْ كَمَا تَقُول . . .

وَيَتَوَجَّهْ سَمُولِينَ بِالْحَدِيثِ إِلَى لِيُوبَا فَيَقُولُ لَهَا فِي رَقَةٍ بِالْفُحْ

.. أَسْتَمَحِيكَ الْعَفْو . . . أَنْسَةِ لِيُوبُوفَ يَاكُوفْلَفْنَا !

وَتَجِيبُهُ لِيُوبَا :

.. أَوْه . . . عَفْوَا . . . لَا شَيْءَ مُطْلَقًا .

وَتَتَحَدَّثُ إِلَى نَفْسِهَا فَتَقُولُ : أَنَّهُ رَقِيقٌ وَفِي مَنتَهَى الْإِدْب . . .
وَكَانَتْ وَهِيَ تَمْشِي بَيْنَ الْمَائِدَةِ وَصُوبِ الْفُضْيَةِ فِي الْغُرْفَةِ الْمَجَاوِرَةِ
تُخْتَلِسُ السَّمْعَ بِأُذُنِ فُطْنَةٍ إِلَى مَا يَقُولُ . . . « وَسَرَّهَا أَنْ تَجِدَ صَوْتَهُ
نَاعِمًا لَطِيفًا مِمَّتِلْنَا ثِقَةً » :

.. وَكَمَا ذَكَرْتُ لَكَ . . . لَقَدْ فُتِمَتْ بِدِرَاسَةِ طِبِيَّةِ الْجُلُودِ الْمَدْبُوعَةِ فِي
رُوسِيَا وَجَالَتِهَا فِي الْأَسْوَاقِ الْخَارِجِيَّةِ . . . لَقَدْ كَانَتْ الْجُلُودُ
الرُّوسِيَّةُ مِنْذُ ثَلَاثِينَ عَامًا أَجُودَ أَنْوَاعِ الْجُلُودِ . . . إِلَّا أَنَّ الْأَقْبَسَالَ
عَلَيْهَا أَخَذَ يَتَنَاقَصُ هَذِهِ الْأَيَّامَ ، كَمَا أَخَذَتْ أَسْعَارُهَا تَتَنَاقَصُ أَيْضًا
. . . وَهَذَا أَمْرٌ طَبِيعِي ، لِأَنَّهُ مَا لَمْ يَتَوَافَرَ رَأْسُ الْمَالِ وَالْعِلْمُ وَالْخَبْرَةُ
لَا تَسْتَطِيعُ مَصَانِعُ الْجُلُودِ الصَّغِيرَةِ عِنْدَنَا مُوَاجَهَةَ مَا يَقْتَضِيهِ انْتِاجُ
الْأَنْوَاعِ الرَّاقِيَةِ مِنْ نَفَقَاتٍ لَمْ يَكُنْ لِهَذِهِ الْمَصَانِعِ بِهَا عَهْدٌ ، وَمَا هِيَ
مُضْطَرَةٌ إِلَيْهِ فِي الْوَقْتِ نَفْسَهُ مِنْ تَخْفِيزِ النِّفَقَاتِ . . . وَمَعَ هَذَا
وَأَنْ مَا تَنْتِجُهُ يَكُونُ غَالِي الثَّمَنِ وَصِنْفًا رَدِيثًا إِلَى دَرَجَةِ كَرِهِيَّةٍ . لَقَدْ
أَلْحَقُوا بِرُوسِيَا أَضْرَارًا شَنِيعَةً بِالْقَضَاءِ عَلَى سَمْعَتِهَا بِوصْفِهَا مَنتِجَهُ
لِلْأَنْوَاعِ الرَّاقِيَةِ مِنَ الْجُلُودِ . وَبِوَجْهِ الْأَجْمَالِ أَنْ هَؤُلَاءِ الْمُنْتَجِينَ
الصَّغَارَ الَّذِينَ يَنْقُصُهُمْ رَأْسُ الْمَالِ وَالْمَعْلُومَاتُ الْفَنِيَّةُ الصَّنَاعِيَّةُ أَعْجَزُ
مِنْ أَنْ يَجَارُوا آخِرَ التَّطَوُّرَاتِ فِي الصَّنَاعَةِ الْحَدِيثَةِ ، وَمِنْ ثَمَّةَ فَهَمُّ
لَعْنَةٍ زُرْنَتْ بِهَا الْبِلَادُ ، وَطَفِيلِيَّاتٌ تَقْضَى عَلَى تِجَارَتِهَا .

ومن خلال ما كان يشف عنه حديث سمولين البسيط المنلي،
دراسة وفهما أدركت ليوبا ما كان يبدو على هذا الشاب من سمات
الترفع والاستعلاء حتى لكأنه كان يشعر أباهما بأنه النعم المتفضل
بالاصهار اليه وقد آلم هذا ليوبا وضاق به .

وهمهم العجوز واحد عينيهِ على سمولين ، والاخرى ناحيه
ليوبا ، ثم قال :

- وبالاختصار فانت تفكر في بناء مصنع ضخمة ضخمة كالخون
. . . . ليتلج جميع المصانع الصغيرة كما يتلج الحوت الاسماك
الطخيرة !

وقال سمولين ، وقد أوما ايماء لطيفة ينفي بها ما اتهمه به ذلك
لدهية العجوز :

- أوه كلا ان غرضي هو استعادة ما كانت تتمتع به الجلود
لروسية في الاسواق الخارجية من شهرة في الجودة وتهاود في
لأسعار

وعلى ضوء ما اكتسبته من علم بوسائل الانتاج الحديثة اعترم
ناء مصنع نموذجي لانتاج بضائع نموذجية افاجيء بها السوق ؛
في شرف البلاد

وسأله ماياكين مقاطعا وقد غرق في لجة من التفكير .
- وكيف من النقود قلت ان ذلك كله يتكلف ؟

- حوالي ثلثمائة ألف .

وعندما سمعت ليوبا ذلك همست في نفسها تقول :

- وهذه ذقتني ان كان أبي يضحي بمثل هذا المبلغ من أجل سواد
بيوني !

ويعود سمولين الى حديثه فيقول :

- ان مصنعي سيصدر الجلود مشغولة في صورة أحذية وشد
وسروج وأحزمة .

ويقاطعه العجوز مرة ثانية متسائلا :

- وكم يا ترى تبلغ الفائدة التي تحلم بالحصول عليها من ذلك

- أنا لا أحلم . . بل أقيم مشروعى على أرقام حسابية مضبوطة ،
مبنية على ما تسمح به الأحوال فى روسيا .

ويضغط سمولين على عبارة : الأرقام الحسابية المضبوطة مؤا
ثقا . . ثم يقول :

- ان عقلية المنتج يجب أن تكون عقلية باردة من الوجهة العملي
أشبه فى برودها بعقلية الرجل الميكانيكى الذى يخترع آلة ،
الآلات . فإذا كان يقصد بآلته أن تنهض بعمل كبير ضخم ، ل
أن يعمل حساب احتكاك أصغر عجلة من عجلات آلته من الناحية
الميكانيكية البحتة . . وكم أود أن تقرأ الملاحظات التى كتبتها
والتي بنيتها على دراسة طويلة عميقة لتربية الماشية وعلى تجا
ل اللحوم فى روسيا .

ويجيبه ماياكين ضاحكا ضحكة خفيفة :

- حسبنا هذا الآن . . . لقد جعنا . . . وملاحظاتك هذه لا تف
من الجوع شيئا . . الا اذا كانت مما يؤكل . . . عظيم جدا . .
كل انسان يستطيع أن يدرك أنك لم تضع وقتك فى أوروبا عبثا .
فالآن . . هلم نأكل شيئا . . . وعلى الطريقة الروسية القديمة
وجلسوا الى المائدة . . . وتوجه سمولين الى ليوبا بالحديد
سألها ، وهو يتناول سكينه وشوكته :

- والان ... كيف تقضين وقتك يا آنسة ليوبوف يا كوفلنا ؟
رينوب العجوز فى الرد عن ابنته قائلا :

- مسكينة .. انها ربة الدار هنا ... تشرف على كل صغيره
كبيرة فى المنزل كله ... ولهذا لا تجد متسعا من الوقت للترفيه
بن نفسها !

وتضيف. ليوبا :

- لا متسعا من الوقت ولا متسعا من الوسائل ... اننى لا أطيق
هذه الحفلات الراقصة ولا تلك الولايم التى يقيمها التجار .

ويسألها سمولين :

- والمسرح ؟

- أنا لا أذهب الى المسرح كثيرا ... لأننى لا أجد من أذهب

بمع

ويزوم ماياكين متعجبا :

- المسارح ! لعلك تتلطف وتشرح لى هذا الأسلوب الحديث. الذى
أدخلوه على المسارح اليوم ، والذى يصورون فيه التجار كحفنة من
المغفلين ! ان هذا شيء ظريف وفيه تسلية بالطبع .. الا أنه بعيد
من الحقيقة كل البعد ، ان التاجر هو أهم شخصية فى مجلس
المدينة .. والتاجر هو الذى بيده مقاليد الشئون التجارية ..
والتاجر هو الذى يملك هذه المسارح نفسها .. وبعد هذا يجرون
على تسميته مغفلا ! ان هذه المسرحيات التى يؤلفونها عن التجار
ليست من حقيقة الحياة فى شيء على الإطلاق .. أوه ! أنا أفهم أنه
لا داعى لأن تطابق القطعة المسرحية الاستعراضية واقع الحياة فى
المسرحيات التاريخية التى من قبيل : « حياة القيصر » بما فيها من
غناء ورقص ، أو « هملت » أو « الساحرة » أو « فاسيليزيا »

أقول : انه لا داعى لأن تطابق أمثال هذه المسرحيات واقع الحياة لأنها تتناول الماضى ، ولا شأن لها بنا نحن . وسواء كانت حقيقية أو غير حقيقية فالعرض هو أهم ما تهدف اليه . . . أما اذا كنت تتناول الحياة فى أيامنا هذه فواجبك أن تتحرى الحقيقة فيما تقول ، وأن تكون أميناً فى تصويرك الناس فى ضوء الواقع الصحيح .

وكان سمولين يبتسم فى أدب جم وهو يصغى الى العجوز ، به حدىج ليوبا بنظرة كأنما يوحى اليها بأن تتولى هى الرد على أبيها . . ومن ثمة قالت ، وفى نفسها شئ من الضيق :

- على كل حال . . يجب أن تعترف يا بابا أن معظم التجار وعائلاتهم هم أناس خشنون وغير متعلمين ويومئ سمولين موافقا ويقول :

- أجل . . هذا صحيح ، بكل أسف ، ولكن . . ألسنت عضواً فى جمعية من الجمعيات ؟ ان ثمة جمعيات من كل نوع فى هذه المدينة .

وتقول ليوبا ، وهى تنهد :

- أعرف هذا . . . ولكن . . . الظاهر أننى بعيدة بوجه ما عن كل ذلك .

ويتدخل أبوها فيقول :

- ان البيت يشغلها على الدوام . ويكفى أن تلقى نظرة على كل جنبه التحف والطرف التى جمعناها هنا . . . انها تحتاج دائماً الى العناية والرعاية . . وأن تظل نظيفة ومنظمة .

.. ثم أوماً فى زهو وكبر الى المائدة المكتظة بألوان الفضيات ، وإلى صوان الصينى الذى كان ينوء بحمله من الآنية الغالية التى تملؤه . . . والشئ كانت تذكر الانسان بما يعرض من أمثالها وبهذه الكثرة ،

في فترينات المحال التجارية. وكان سمولين ينظر الى ذلك كله وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ، لكنه كان يلتفت الى ليوبا ، لينظر اليها تلك النظرة التي تفيض بالمودّة ، والتي كانت تفهم منها أنه يتفق معها في كل شيء وكانت هي تدرك هذا ، وتحمد الله عليه ، وتشعر بسببه بمشاعر السعادة الغامرة تسرى ملء جوانحها في هيبة وخجل

لقد كان لمعان الزجاج المشطوف يتضاعف ويشتد في ضوء النجفة البرونزية الضخمة ، ومن ثمة كانت الغرفة تبدو مفعمة بالانوار .

ويبتسم سمولين الى ليوبا ابتسامة رقيقة ويقول :

- اننى مغرم غراما شديدا بمدينةنا القديمة العزيزة . . . انها مدينة جميلة ساحرة ، وزاخرة بالحركة والحياة . . . ان فيها شيئا يحفز الانسان الى الكد . . . شيئا يجعل الانسان يسعى الى العمل . . . ان روح جمالها فيه وحي وفيه الهام . . انه يجعل الانسان ميالا الى أن يحيا حياة مملوءة . . وأن يعمل بكل ما فى وسعه من نشاط وجد . . . ثم هي مدينة الأعمال المهنية الى هذا كله . . . وآية ذلك تلك الصحيفة المهمة التي تصدر فيها . . . وعلى فكرة . . . نحن معتزمون شراءها .

ويسأله ماياكين بلهفة :

- نحن ؟ . . ومن نحن هؤلاء ؟

- أوفانستوف وشتشوكين ، وأنا . .

ويقول العجوز وقد دق المائدة بيمينه :

- عال . . عال جدا . . . وعلى هذا فقد آن الاوان لاغلاق .

فواهمم - ولعبرى . . لقد آن اوان ذلك من زمن طويل . . ولكن

... ولا سيما قم هذا الملعون ييزهوف ... ذى الأسنان الحادة
المرهفة ! انكم تحسنون صنعا اذا بردتم أسنانه ... ابردوها ..
وثقوا انكم تؤدون للبلد خدمة جليلة

ويعود سمولين فيرمق ليوبا بنظرة باسمة ... وتعود مشاعر
السعادة فتغمر فؤادها من جديد .

وتقول ليوبا . وقد عراها الحجل ، وهي متوجهة بالحديث الى
ابيهما فى الظاهر ، والى سمولين فى واقع الأمر :

- ان لم أكن مخطئة ، ليس الغرض الذى يهدف اليه أفريكان
ديمترييفتش من شراء الجريدة هو اغلاق أفواههم كما تقول يا بابا
ويقول لها العجوز وهو يهز كتفيه :

- ولماذا اذن يريدون شراؤها ان لم يكن هذا هو غرضهم ؟ انها
صحيفة لا يصدر عنها الا الضجيج والتهويش .. أوه ، اللهم الا اذا
كان الذين سيكتبون فيها هم رجال الاعمال أنفسهم ... التجار
... أنفسهم .. نحن ...

ويقاطعه سمولين فيقول واضعا الأمر فى نصابه :

- ان نشر جريدة ما يمكن أن يكون عملا مربحا حتى اذا نظرت
اليه نظرة تجارية صرفة ، ولكن للجريدة بغض النظر عن ذلك هدفا
- مهما جدا ، وبالأحرى هو الدفاع عن حقوق الملكية الخاصة والمصالح
التجارية والصناعية .

- وهذا هو ما كنت أقوله تماما - ان التجار اذا كانوا هم الذين
يتولون أمور الصحيفة أمكن أن تستعمل استعمالا صالحا
- ولكن يا أبى ...

وشرعت ليوبا تتحدث ... لقد أرادت أن تعبر عن رأيها فى هذا
الموضوع أمام سمولين .. أرادت أن تشعره بأنها تفهمه ، وبأنها

يست هذه الفتاة العادية ٠٠ ابنة أحد التجار ٠٠٠ التي لا هم لها
لا الملابس والرقص ٠٠ لقد أحبت سمولين ٠٠ ولم يسبق لها قط
ن لقيت تاجرا قضى شطرا طويلا من عمره خارج بلاده ٠٠٠ تاجرا
تكلم بهذه اللهجة المقنعة التي تترك أثرها في وعي سامعها ، وله
مثل هذا الخلق النبيل ، ويعنى بهندامه الى ذاك الحد ٠٠٠ ثم ٠٠٠
هذا هو المدهش ٠٠٠ يتحدث الى السيد العجوز الداهية ، أذكى
جل في المدينة بأسرها ، بتلك اللهجة التي تفيض زهوا واستعلاء
٠٠ اللهجة التي يتكلم بها الرجل الكامل الرجولة الى صغير لا يزال
حبو في مدارج الطفولة .

وأخذت ليوبا تحلم ، وتتمنى الأمانى ، وتقول لنفسها : « ان شاء
له ٠٠ بعد الزفاف ٠٠ فسأجعله يأخذني معه الى الخارج » وراحت
لهذه الفكرة الطارئة تلح عليها الحاحا جعلها تنسى ما كانت تقصد
في تقوله لوالدها ٠٠٠ ومن ثمة ٠٠ فقد خجلت واحمر وجهها ولم
تستطع أن تقوه بكلمة ٠٠٠ وخشيت أن يضع هذا من قيمتها في
بنى سمولين ٠٠٠ وأخيرا لم تجد مخرجا من حيرتها هذه الا أن
نول :

— لقد تكلمتم بما فيه الكفاية ، وقد سرقنا الحديث فنسينا أن
ندم شيئا من الشراب الى ضيفنا .

ويقول لها أبوها : « هذا من صميم عملك أنت ٠٠ فأنت ربة
لدار »

ويقول سمولين : « أوه ٠٠ شكرا ٠٠ لا تشغلي نفسك ٠٠ فانا
أكاد أشرب شيئا على الإطلاق .

فيقول له ماياكين مازحا : « احم احم ! »

ولكن سمولين لا تزايله لهجة الجد ويقول

- صحيح والله .. أنا لا أكاد أشرب ... وإن كنت أحيانا أتناول كأسا أو كأسين إذا كنت متعبا متعبا شديدا أو إذا لم تكن صحتي جيدة ... وأنا لا أستطيع أن أسبغ معنى للشراب لمجرد الانبساط، فثمة أسباب كثيرة لا حصر لها للانبساط والتسلية أجدر بالرجل المتعلم .

ويقول العجوز غامزا :

- كالنساء مثلا !

ويظهر الامتعاض على وجه سمولين ، ويقول بجفاء وهو ينظر الى ليوبا :

- بل الكتب والمسارح والموسيقى ...

ويحملق الرجل مع هذا في الشاب العظيم الفاضل ، ويزفر كم نزفر الخنازير ، ثم يقول فجأة :

- ان الحياة في تغير دائم ... لقد كانت الكلاب الكبيرة تعيش يوما على الفضلات ... والآن ربما لا ترضى الاجراء الصغير، بالقشدة . ومعدرة عن لهجتى الحادة يا سيدى الفاضل .. والقافى تعذر كما يقولون ... وأنا طبعا لا أعنيك أستغفر الله !

وامتقع وجه ليوبا ، والتفتت نحو سمولين في رعب ... لقا كان يفحص ملاحه من الميناء قديمة الصنع ، وهو يبرم شارب كأنه غير ملق باله لما يقال ، الا أن عينيه كانتا أحلك سوادا من العادة ، وكانت شفتاه مزومتين بشدة جعلت ذقنه شديدة البروز كذلك .

ويقول ماياكين ، وكان شيئا لم يحدث :

- وهكذا يصبح جوسبودين صاحب المصنع المزعم انشاؤه والده

يتكلف ثلثمائة ألف روبل ثم تملأ الرياح شراعه وتسير السفينة
باسم الله مجريها .. أليس كذلك ؟

ويجيبه سمولين بلهجة الواثق الذى لا يتردد ، وهو يحدج الرجل
المجوز بنظرة صارمة باردة :

- فى خلال عام ونصف العام تكون بضائعى معدة للسوق ، ثم
يتوالى الانتاج بصورة متوسطة بعد ذلك .

- وتتكون الشركة من سمولين وماياكين .. ولا أحد غيرهما .
عظيم .. عظيم .. من كان يصدق أننى وقد بلغت هذه السن أفكر
فى مغامرة جديدة ، ألا تعتقد ذلك ؟ أنا .. الذى يجثم تابوت الموتى
فى انتظاره منذ سنين ! هه ! ما رأيك فى هذا ؟ ..

ولكى يقلت سمولين من الاجابة ، راح يضحك ضحكا عاليا ،
وان كان ضحكا باردا لا حرارة فيه ولا مبالاة ، كالذى يقول : الى
حيث ألفت ! ثم يقول أخيرا :

وقد سرت رعشة فى جسم ماياكين عندما صك أذنيه ضحك
سمولين ... ثم اذا هو يأخذه الوجوم من حيث لا يشعر

وتمضى لحظات وقد لاذوا جميعا بالصمت
ثم يقول ماياكين دون أن يرفع رأسه :

- أجل ... لقد آن أن نفكر فى ذلك .. لقد آن أن أفكر - أنا -
فى ذلك !

ثم يرفع الرجل رأسه ، ويحدق تحديقا شديدا فى ليوبا ثم فى
سمولين .. وينهض واقفا ، ويقول متجها :

- سأترككما وشأنكما لحظة .. فلدى شغل يجب أن أنجزه فى
غرفة المكتب .

ويتركهما بالفعل .. ثم يخرج ، ورأسه منكس .. وكتفاه
مرتخيتان .. وهو يجر قدميه جرا ...

ويحاول الفتى والفتاة أن يتحدثا بشيء بعد خروجه ... الا أن المحاولة لم تكن تزيدهما الا ربكة .. ومن ثمة فلم ينيسا بكلمة .. وسادهما صمت يشوبه الارتباك والخرج ، ومدت ليوبا يدها فتناولت برتقالة ركزت كل انتباهها فى تقشيرها ، أما سمولين فقد جعل ينظر الى شاربه ، ثم اذا هو يمد يده اليسرى ليسويه فى عناية ورفق ، ويتناول بيده اليمنى سكيناً ويشرع فى تقطيعه واللعب به .

ويمزق هذا الصمت بقوله لليوبا :

- معذرة عما وقعت فيه من عدم اللياقة ... ولكن ... لعلك لا تنكرين أنك تجدين فى المعيشة مع والدك شيئاً من الصعوبة والمشقة ... انه - كما يبدو لى - من رجال المدرسة القديمة - وأخشى أن أقول : الدقة القديمة ، ان لم يضرك أن أقول هذا ، أو أن أقول انه صلب الرأى فيه قسوة !

وأفزعت ليوبا صراحة هذا الرجل الصغير ذى الشعر الأحمر ، وأنشأت تنظر اليه نظرة كلها سرور ورضا وامتنان عظيم ، ثم قالت وكأنها توافق على ما يقول :

- ان المعيشة هنا صعبة وشاقة بالفعل ... الا اننى اعتدتها .. ثم ... ان له آراءه السديدة مع ذاك .

- أوه .. هذا ما لا يرقى اليه الشك ... ولكنك .. أنت ! أنت الفتاة الصغيرة .. الشديدة الجاذبية .. المهذبة الواسعة الثقافة ... التى لها آراؤها الخاصة فى الحياة ...

لقد كانت ابتساماته لها تفيض حناناً وعطفاً ، كما يفيض صوته رقة ولطفاً ، مما جعل قلبها يمتلئ بالدفء ، ومما زاد خيط السعادة الباهت الذى تشبثت نفسها به بريقاً ولمعانا .

الفصل الثاني عشر

كان فوما جالسا مع ييزهوف فى غرفته وهو يصغى الى ما كان يقص عليه من الشائعات التى تلوکها ألسن الناس فى المدينة .

وكان ييزهوف جالسا فوق منضدة حافلة بالصحف ، وقد راح يمرجح رجليه فى نشاط وخفة ، وهو يقول :

— لقد بدأت الحملة الانتخابية . وقد رشح التجار اشبينك ٠٠٠ السوسة العجوز ٠٠٠ انه رجل مستعص على الموت ٠٠٠ ولا يد أن يبلغ المائة والخمسين من العمر ٠٠٠ وسيزوج ابنته سمولين — هل تتذكره ٠٠٩ هو هذا الغلام ذو الرأس الأحمر ٠٠٠ انهم يقولون انه شاب مهذب دمت ٠٠٠ وهذا هو شأنهم فى تسمية كل شخص أوتى شيئا من الذكاء شخصا مهذبا دمت الأخلاق ، حتى لو كان غدا لثيما ٠٠٠ لأن الناس اليوم ليس فيهم من هو مهذب دمت الأخلاق . وأفريكان سمولين يتظاهر بأنه أحد الأذكياء المستنيرين — لقد شق طريقه بالفعل فى أوساط ذوى العقول الراجحة ، وهو يجذب اليه الانظار ٠٠٠ ان نظراته تشف عن أنه تصاب من الدرجة الاولى ، الا أنه واثق من نجاحه فى هذه الحياة لأنه وصولى ، ويعرف كيف يحقق ما يصبو اليه من فجاح ٠٠٠ أجل يا صديقى ٠٠٠ ان أفريكان سمولين رجل من حزب الاحرار ، والتاجر المتحرر مزيج من اللئيم والخنزير .

ويقول فوما وهو يلوح بيده :

— الى جهنم هو وغيره ٠٠ ماذا يعنينى أمره ؟ انك تشرب بشراة كعادتك !

— ولم لا ؟

لقد كان منظر ييزهوف ، هذا القمى الاشعث شبه العارى ، كمنظر الديك المنتوف الريش الذى خاض معركة قتالة ولم يهدأ من حرها بعد

— اننى أشرب لانه من الضرورى أن أطفىء ظمأ روى المتأجج من حين الى حين . أما أنت — يا كتلة الحشب المبللة — أفلا تزال تدخن ولم تنطفىء بعد ؟

وغمر قوماً بعينيه ثم قال :

— لا بد لى من الذهاب لزيارة هذا العجوز .

— خذ النور من قرنيه !

— اننى أشعر كأنى لا أستطيع هذا !

— اذن ٠٠ فلا تذهب

— ولكن هذا واجب

— اذن ٠٠ فاذهب ولا بد أن تأخذه من قرنيه

— أوه ٠٠ بالله عليك أقلع عن هذا المزاح ٠٠٠ فالموضوع لا يمكن أن يكون من الموضوعات التى تبسر أحدا

ويشب ييزهوف من فوق المنضدة متحمسا وهو يقول :

— بل أنا أجد فيه متعة أية متعة ٠٠٠ ألم تقرأ فى عدد أمس كيف مزقت لحم شخصية من أهم شخصيات المدينة وفرمتها فرما ؟ ٠٠

وفضلا عن هذا ، فقد سمعت نكتة طريفة ممتعة ٠٠ اسمع يا سيدى :
جلس جماعة من الناس عند شاطئ البحر حيث أخذوا يفلسفون
ويتحدثون عن الحياة ، واذا يهودى يوقف الحديث فجأة ليقول
(مألثا كلامه بالشينيات بدل السينات والثناءات) : أيها الشادة •
لماذا هذا الاشراف فى الكلام عن الحياة ؟ بوشعى أن الخش الموضوع
كله فى كلمة واحدة ٠٠٠ انها لا تشوى كوبكا واحدا ٠٠٠ لا تشوى
أكشر من هذا البحر ٠٠٠

ويقاطعه فوما قائلا :

— حسبك ٠٠٠ وودعا

— مع السلامة ٠٠٠ الطريق الذى يؤدى ٠٠ أنا مزاجى اليوم
رائق ، وليس لى دماغ لسماع زمجراتك ٠٠٠ وبخاصة مذ أبدلت
بزمجراتك هذه الوحوات التى تشبه قباغ الحنازير •

وانصرف فوما ٠٠ وغادر ييزهوف وهو يغنى بأعلى صوته :
خذ طبلك معك ولا تخف ٠٠٠

ولما سمع فوما هذا البيت همس فى نفسه : انك أنت نفسك
الطبل •

وكانت ليوبيا هى التى لقيته فى منزل والدها ٠٠٠ فقد ظهرت
امامه فجأة ، وفى حال من الدهشة الشديدة :
وقالت :

— أنت ! يا لله ! وما هذا النحول وما تلك الصفرة ٠٠٠ الظاهر
انك تعتنى بنفسك عناية كبيرة •

ثم يبدو عليها شىء من الذعر ، وعادت تقول هامسة :

— أوه ٠٠ فوما ! ألم يبلغك ؟ اليوم — من ؟ ألم تسمع ؟ انه الجرس
— ربما يكون هو •

وخرجت مسرعة ٠٠٠ تاركة من ورائها : حفيف ثوبها الحريري ،
فوما الذى لم يجد فرصة ليسألها حتى : ٠٠ هل أبوها موجود ؟ •
ولقد كان أبوها بالمتزل قعلا ٠٠٠ بل كان واقفا بالباب وقد أمسك
مصراعيه بذراعيه المفرودين على طولهما ، وهو لابس فراكه
الفضفاض الضافى ، وعلى صدره جميع نياشينه وأنواطه ، وجعل
يحملق فى فوما بعينه الخضراوين الصغيرتين • ولم يكد يدرك فوما
وجود العجوز الداهية حتى رفع رأسه ، وهنا أنشأ ماياكين يحييه
بلهجة فيها من التبكيت ما فيها :

- كيف الأحوال أيها السيد الظريف ؟ ،ومن أين أتيت ياترى ؟
ومن ذا الذى كان يمتص ذمك ، أو أن الخنازير - على حد المثل -
مهما أحببت القنارة اغتسلت ولو بقارة (١) ؟
ويقول له فوما مقطبا :

- هل هذا هو كل ما عندك مما أردت أن تقوله لى ؟

ثم يلاحظ أن العجوز قد فوجيء بشيء ، لم يكن ينتظره ، وأن
رجليه أخذتا ترتجفان ، وأنه يشدد قبضته على كتف الباب ، فى
حين أخذت عيناه تطرفان • ويخطو فوما نحوه خطوة ، طائنا أن
بالرجل شيئا من الوعكة ، الا أن ماياكين ينحيه جانبا وهو يقول
بشيء من الغلظة :

- اليك عنى - تنح ٠٠

ويتراجع فوما ، ويجد نفسه واقفا الى جانب شاب ربعة قليل
الجسم ، كان منحنيا ليحيى ماياكين قائلا :

- كيف الحال يا والدى !

(١) المفارقة : القطعة من الزفت الاسود •

ويجيئه العجوز وقد أمال رأسه قليلا ، وشفته تنفرجان عن ابتسامة لينة :

- كيف حالك أنت ، تاراس ياكوفلفتش ؟ كيف حالك .
لقد كانت رجلاه ترتجفان من هول المفاجأة ، ولذلك كان إمساكه
بالباب وإمساكه إياه بشدة ، خشية أن يقع .
وتنحى فوما مرة أخرى ثم جلس وقد تولاه العجب .

وأخذ جسم ماياكين الواهن الواهى يتمايل الى الأمام مرة وإلى الخلف مرة أخرى ، وهو منتصب الرأس مع ذاك ، يحدق عينيه فى ولده ، دون أن يتكلم . وكان ابنه يقف أمامه شامخا ، وقد انتشر حاجباه فوق عينيه الكبيرتين السوداوين . لقد كان له وجه أبيض النجيل وأنفه الكبير ، وكانت له لحية تنتهى بعثنون ، وشارب صغير أسود كان يختلج فى تلك الآونة . وكانت ليوبيا تقف خلف فوما ، فلما رفع رأسه لمح وجهها الشاحب المذعور ، وهى تنظر الى أبيها نظرات كلها رجااء وكلها توسل ، والدموع تكاد تنهمر من عينيه . . . لقد كانوا جميعا فى غمرة من المشاعر المختلفة التى أمسكت ألسنتهم ، فلم يجدوا الى الكلام سبيلا ، بل لم يكونوا يأتون معها بحركة . . .

ثم مزق ماياكين هذا الصمت آخر الأمر بصوته الساكن الذى لم يكن يعرف الهدوء قط ، وهو يقول :

- لقد أدركتك الشيخوخة يا تاراس !

وضحك ابنه ضحكة خفيفة ثم راح يرسل نظراته السريعة الى والده ، تأخذه من أعلى رأسه الى أخمص قدميه .

وترك الرجل كتف الباب التى كان يمسك بها ، ثم تقدم الى ابنه خطوات ، لكنه توقف فجأة ، وعلت وجهه عبوسة عجيبة . . . ولمس لاحظ تاراس ذلك ، تقدم هو ، وبسط يده الى أبيه .

وقال ماياكين بصوت ناعم :

« حسن جدا . . . هلم . . . وليقبل أحدا الآخر »



وتعانقا عناقا مثيرا ، واخذ كل منهما يقبل الآخر قبلات حارة

، وتعانقا عناقا متيرا ، وأخذ كل منهما يقبل الآخر قبلات حارة...
ثم انفصلا ... وكانت غضون ماياكين ترقص كعادتها ، أما وجهه
تاراس فكان هادئا رابط الجأش ، بل يكاد يكون جامدا ، في حين
كانت ليوبا تنشج نشيجا سعيدا . وفي حين كان فوما يجلس في
كرسيه متمللا ... لا يكاد يجد أنفاسه !

وأخذ ماياكين ينشج بصوت حزين يفيض أسى ويقول :

« أيها الاولاد : ان ماتفيض به قلوبنا ليس من حبور ولا ابتهاج ..
بل هو مما بها من هذا السرطان الذي يجعلها نخرة »

وكان ماياكين قد تخفف مما كان يجثم على صدره ويثقل على روحه
وهو ينفذ أشجانه في هذه الكلمات ... اذ لم يكده يفرغ من قوله
حتى أخذ وجهه يفيض بالبشر ، وأخذ جسمه يدب فيه النشاط ،
وتشيع فيه الحركة ، ثم قال لابنته في لهجة عذبة :

« طبعاً ... من مثلك اليوم ؟ من لقي أحبابه ، نسي أصحابه !
هيا .. أعدى المائدة لكي تقدم شيئا الى هذا الابن الضال .

ثم يتوجه بحديثه الى تاراس فيقول :

« الراجع انك نسيت شكل أبيك ياتاراس ، أليس كذلك أيها
العجوز ؟

وكان تاراس ماياكين يلبس ملابس سوداء كلها ، وكان الشيب
المنتشر في شعر رأسه وشعر لحيته يتلألأ لهذا السبب بشكل
واضح يسترعى النظر ، فلما قال له أبوه ما قال لم يزد على أن تبسم ،
ولم يتكلم ..

« حسن .. اجلس اذن وقص علينا قصة حياتك ، وماذا
كنت تصنع خلال هذه السنين الطويلة ، ثم ما آمالك في المستقبل ..

هذا هو ابني الروحي .. ابن اجنات جورديف .. هل تتذكر
اجنات ؟

« أتذكر كل شيء »

« حسن .. ان لم يكن قولك هذا تباهايا ! هل أنت متزوج ؟ »

« لقد ماتت زوجتي . »

« ألك أولاد ؟ »

« لقد ماتوا .. كان لي ابنان »

« وأسفاه ! كم كنت أتمنى أن يكون لي حفدة »

« أتأذن لي بأن أدخن ؟ »

« ولم لا ؟ .. هيا .. » سيجار »

« ان لم يكن لك اعتراض »

« أبدا أبدا .. هذا كله عندي سواء .. ان ما كنت أ .. ان ما

كنت أقصده .. هو أن تدخين السيجار من دأب الارستقراط ؟ »

وأنا لم أقلها الا .. الا على سبيل النكتة .. شاب رزين عجوز

منلك ، بهذه الشوارب ذات القطة الاجنبية .. وقد أمسك السيجار

بين أسنانه .. ثم ابن من ؟ ابن ماياكين .. هي .. هي !

ثم راح يضرب ابنه فوق كتفه وهو يضحك ... الا أنه يتوقف

عن ذلك كله فجأة ، كأنما أدركه شيء من الاحتشام .. أو الخوف ..

لقد أخذ يسائل نفسه .. هل كان قد تعجل الى اظهار الابتهاج

بأسرع مما ينبغي ؟ وهل كانت هذه هي الطريقة التي يلاقي بها هذا

الابن ذا الشعر الاشيب ؟ لقد راح ينظر متشككا في عيني ابنه

السوداوين اللتين كانتا تلمعان فوق نفاختي خديه الاصفرين ..

حتى لم يسع تاراس الا أن يبتسم ابتسامة لطيفة ، وهو يقول لابيه :

« هذا بالضبط هو ماكنت أذكرك به .. المرح ، والحيوية .. ان

السنين لم تغير منك شيئا قط . »

وشد ماياكين كتفيه فى زهو وخيلاء ، ثم دق صدره بقبضته
بهايا وقال :

« وهى لن تغير منى شيئا ٠٠ لان الحياة لاسلطان لها على من يقدر
نسه قدرها

« أو هو ٠٠ يالك من رجل ذى كبرياء

ويجيبه أبوه متثعلبا :

« كيف لا ؟ يجب أن أقتدى بابنى ٠٠٠ ابنى هذا المتكبر الاكبر
لنى لم يكتب الى حرفا واحدا طوال سبعة عشر عاما !

« هذا لان أباه لم يكن يحب أن يقرأ منه حرفا واحدا

« دعنا من هذا ٠٠٠ فאלله وحده يعلم من المعلوم ٠٠ وهو ، يسامى
مكتمه ، سيدلك يوما ما ٠٠ وليس هذا أوان الكلام فى مثل تلك
لامور ٠٠ انما أريد الآن أن تحدثنى عما كنت تفعل كل هذه السنين ،
كيف التحقت بالعمل فى مصانع الصودا ٠٠ ثم كيف شققت سبييلك
فى الحياة ٠

وزفر تاراس قائلا :

« هذه قصة يطول شرحها ٠

وبعد أن أخذ من سيجاره نفسا طويلا ونفثه فى الهواء مرة واحدة ،
محدثا ضبابة كبيرة من الدخان شرع يقول :

« عندما أطلقوا سراحي ذهبت للعمل فى مناجم الذهب - التابعة
لاخوان زمزوف ٠

« أعرفهم ٠٠ انهم اخوة ثلاثة ، أحدهم أعرج ، وثانيهم مغفل ،
وثالثهم بخيل مغلول اليد ٠٠٠

« وهذا الثالث هو الذى اشتغلت عنده لمدة عامين ، وقد تزوجت ابنته فى نهايتهما
» بديع .. مرحى مرحى ..

وهنا ، استغرق تاراس فى شبه غيبوبة ، وراح والده يتفحص وجهه الحزين الشاحب بنظرات عميقة ، ثم يقول :
« ألاحظ أنك كنت تحبها حبا شديدا - هذا مالا يد لنا فيه ...
ان الموتى يصعدون الى السماء ... ويبقى الذين لم يموتوا لكى تظل العجلة تدور ... على أنك لايزال فيك الرmq بعد ... وهل أنت أرمل منذ زمن طويل ؟

» من أكثر من عامين
» وكيف التّحقت بمصانع الصودا ؟
» انها كانت ملكا لصهرى
» أوه ... وكم كان يدفع لك ؟
» حوالى خمسة آلاف روبل
» لقمة طيبة ! اهم - ومن هنا تلك الجريمة التى حكم عليك من أجلها بالاشغال الشاقة ؟

وهنا رmq تاراس والده بنظرة متثلجة ، ثم سأل بهجاء :
» على فكرة ... ومن أين لك أننى حكم على بالاشغال الشاقة ؟
وهنا لاح شيء من الذهول على وجهه يماكين ... ثم لم يلبث أن حلت محله اشراقه من الفرح :

» عجباً ! ألم يحكم عليك بالاشغال الشاقة اذن ؟ ... حمدا لله !
ولكن ، كيف حدث هذا ؟ أرجو ألا يسوءك شيء ... ثم كيف كان يمكن أن أعرف الحقيقة ؟ لقد قيل أنك أرسلت الى سيبيريا ... والمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة هم الذين يرسل بهم اليها

وبدا التآثر على وجه تاراس ، وشرع يقول وهو يضرب بيده على ركبته :

- اذن .. فيحسن وضع حد لهذه الاقاويل .. وسأذكر لك ما كان من ذلك بالضبط .. لقد نفيت الى سيبيريا حيث قضيت بها ست سنوات ، وحيث قضيتها جميعا فى مناجم الذهب على ضفافه نهر ليئا ، وقد قضيت فى السجن تسعة أشهر فى مدينة موسكو .. وهذا هو كل ما هنالك .

ويتمتم ماياكين ، وقد انشرح صدره ، وان شعر ببركة :

- مفهوم .. ولكن من أين اذن تلك ال ... ؟

فيزوم تاراس قائلا :

- من أين كل تلك الشائعات الحمقاء التى تناقلتها ألسن السوء عندكم ؟

ويقول ماياكين وقد بدا عليه التألم :

- حقيقة .. لقد كانت شائعات حمقاء .

- وقد جرت على ضررا كبيرا .

- هل حدث هذا حقا ؟

فحدث .. لقد كنت وقتها قد بدأت أنسلم عملى ..

لقد كان فوما منزويا فى مقعده ذاك وهو يرقب الرجلين ، ويستمع الى حديثهما فى ريبة وقلق ، وهو يتفحص ماياكين الشاب .. وكان موقف ليوبا من أخيها ، ذلك الموقف الذى كان يستند الى ما كانت ألسنة السوء تشيعه عن ألوان نشاطه وهو بعيد عن أبيه .. كان

هذا الموقف هو الذى جعل فوما يعد تاراس شخصا شاذا لا يمكن بحال أن يكون له مثيل بين الأشخاص العاديين . . لقد كان يظن أن شخص له طريقته الخاصة فى الحديث ، وله أسلوبه الخاص فى الملابس . . وله بوجه الاجمال طريقته الخاصة فى كل شيء . . مما يجعله مختلفا عن الناس فى جميع أحوالهم . . ولكن . . ها هو ذا يرى أمامه شخصا يدل مظهره على أنه واحد من رجال الأعمال الناجحة . . رجل أنيق فى ملبسه . . لا يكاد يختلف عن أبيه فى شيء الا فى هذا السيجار الذى فى فمه . وهو يتحدث أحاديث عادية ، ولكن فى عبارات أنيقة وأسلوب المستيقن المتحقق . فماذا كان فيه مما يعد شذوذا ؟ . . لقد شرع يحدث أباه عما يمكن أن تغله تجارة الصودا من أرباح . انه لم يحكم عليه بالأشغال الشاقة قط . . لقد استنتجت ليوبا ذلك . . واستيقنته الساعة فحسب .

وكانت ليوبا لا تنفك فى حركة دائبة ، وكان وجهها مشرقا يفيض بهجة ، ولم تكن تحول عينيها مطلقا عن تاراس الذى كان يلبس معظفا محلى بالفرو ، مصنوعا من قماش راق شديد السواد ، ذا أزرة كبيرة وجيوب فى كلا جانبيه . لقد كانت تمشى على أطراف أصابعها ، ثم لا تنى تمد عنقها نحوه . وكان فوما ينظر اليها ممعنا ، لكنها كانت لا تكاد تلقى بالها اليه ، وهى تحمل الأطباق والزجاجات مبرولة من الباب الى المائدة ومن المائدة الى الباب .

وحدث أنها كانت داخله فى اللحظة التى كان تاراس يتحدث فيها الى أبيه عن موضوع منفاه ، فوقفت مسمرة فى مكانها ، والصينية فى يديها الممدوتين ، تصغى الى كل كلمة يقولها تاراس واصفا ما لاقاه فى منفاه ، حتى اذا فرغ من حديثه ، استدارت وانصرفت فى ببطء ، دون أن تلاحظ تلك النظرة الساخرة التى كان يحدثها بها فوما .

ولقد كان فوما موزع الفكر بين تاراس . وبين ما لقيه من اهمال

هؤلاء له جميعا ٠٠ حتى لقد انصرف ذهنه عن متابعة حديث تاراس قليلا ، ولم يعد الى وعيه الا حينما أحس فجأة بأن يدا تضرب على كتفه ، مما جعله يحفل ، ثم ينهض واقفا على قدميه ٠٠ وذلك أمر كاد يربك اشبيينه :

— أرأيت ! ها هو ذا أحد أفراد أسرة ماياكين ، فاتخذة مثالا ! لقد غلوه في سبع بواتق خرج منها كلها حيا وغنيا ٠٠ فهل يمكنك أن تستخلص لك عظة من ذلك ؟ لقد شق طريقه في الحياة بنفسه ، دون أن يستعين بأحد أو يطلب المساعدة من مخلوق ٠٠ وهذا هو ما يعنيه كون الانسان من أولاد ماياكين ! ان الرجل من أسرة ماياكين يقبض على مستقبله بيديه ٠٠ فهل تفهم ذلك ؟ استخلص لنفسك درسا من تاراس ٠٠ وإذا لم تجد له مثيلا في مائة من الرجال ، فابحث عن مثيله في ألف رجل ٠ ان الفرد من أسرة ماياكين يظل رجلا الى الأبد مهما ألم به من الأحداث ٠٠ وأية قوة في هذه الدنيا لا يمكن أن تنال منه أو تجعل منه اما قديسا ، واما « ابليس » ٠٠ وأرجو ألا تنسى ذلك أبدا ٠٠

ولم يدر فوما ما يقول ٠٠ فقد بدته هذه العبارات التي تفيض فخرا وكبرا ، والتي لم يكن ينتظر أن يتيه بها هذا الرجل زهوا ودلالا ٠ ولمح ابتسامة ترف على ركن من فم تاراس وهو يدخن سيجاره في هدوء ، وينظر الى أبيه ، لقد كان وجهه يتسم بسمة الرضا والتشامخ ، ومظاهر الكبر والاستعلاء تكسو شخصيته كلها ٠٠ والظاهر أن سرور أبيه بما سمعه منه كان يملؤه هو أيضا سرورا ومتعة ٠

وواصل ماياكين حديثه الى فوما فقال ، وهو لا ينى يلکمه بيده بالعاجزة الموهونة في صدره :

— اننى لا أعرف ابنى ٠٠ ابنى أنا الذى من صلبى ٠٠ انه لم

يطلعنى على خفايا صدره بعد ٠٠ وربما تكون بيننا هوة لا يستطيع
النسر أن يخلق فوقها ، ولا الجن أن يتخطاها ٠٠ وربما كان دمه قد
طال به الغليان فى دار الغربة حتى لم تبق فيه رائحة من دم أبيه
٠٠ ومع هذا ٠٠ فقد ظل فردا من سلالة ماياكين ٠٠ وقد أدركت
ذلك على الفور ، وتحققته ، وقلت لنفسى : حمدا لله ٠٠ حمدا لك
يا الهى ٠٠ الآن أستطيع أن أترك هذه الدنيا لأكون بين يديك ٠٠
مطمئنا ، هادىء البال .

لقد كان العجز يرتجف ارتجافا شديدا حتى خيل لفسوما أنه
يرقص ، وهب تاراس مسرعا لنجدته وهو يقول له :
- تفضل يا أبى ٠٠ تفضل ٠٠ هدىء من نفسك ٠٠ هلم
فلنجلس ٠٠

ثم ابتسم لفسوما عرضا ، وسار بأبيه نحو المائدة .
ولم يكد ماياكين يستريح حتى أنشأ يقول :

- اننى أومن بالدم . وكل ما فى الرجل من قوة هو فى دمه ٠٠
لقد كان من عادة والدى أن يقول لى : ان دمي يتدفق فى عروقك
يا ياشا . ودماء عائلة ماياكين أثقل من أن تستخفها أية امرأة ٠٠
فهلم فلنشرب زجاجة من الشمبانيا على هذا يا أولاد ٠٠ هل هناك
مانع ؟ ٠٠ وبعد هذا تذكر لى كل شىء - كل ما حدث لك - قل لى
٠٠ كيف تجرى الأمور فى سيبيريا !

ويعود ماياكين فتبدو عليه مرة أخرى أمارات القلق والتفكير
العميق وهو يحملق فى ولده بشدة ٠٠ ولكن تاراس لا يكاد يرسل
اجاباته الجازمة المطمئنة حتى يفرق أبوه فى نشوة جديدة من الجدل
والابتهاج . وكان فوسما يرمى ذلك كله وينصت اليهما من الركن
الذى كان جالسا فيه ساكنا لا يتحرك .

ويأخذ تاراس فى حديثه بهدوء وفى رزاة فيقول :

- الشائع بين الناس أن استخراج الذهب من مناجمه عمل يسير لا يكلف شيئا ، والحقيقة أنه عمل محفوف بالكثير من المخاطر ، ويفتقر الى رأس مال كبير . والتجارة مع الأهالى تعود على التاجر بربح جم ، وهى تملأ جيوب التجار بأموال وافرة ، حتى لو لم تكن تجارة منظمة . انها على الدوام مشروع ناجح ، الا أنه متعب . وهى لا تحتاج الى كثير من الذكاء ، ولا تتيح فرصة لذوى المواهب الكبيرة لى يظهروا فيها مواهبهم .

ثم تحضر ليوبا وتدعوهم الى المائدة . فاذا خرج الرجل وابنه من الحجرة أمسك فوما بكم ليوبا واستبقاها فى الحجرة ، فتسأله بسرعة :

- ماذا تريد ؟

فيجيبها فوما مبتسما :

- فى منتهى السعادة .

- ولماذا ؟

فتقول له وهى تنظر اليه متعجبة :

- يا لك من شخص مضحك ! ألا تستطيع أن تدرك ذلك من

نفسك ؟

ويجيبها باحتقار :

- عجباً ! كأننا يمكن أن يرجى أى خير من أبيك أو من طبقة التجار جميعاً ؟ ثم . . انك قد كذبت على . لقد أخبرتنى أن تاراس هو كذا وكذا ، وأنه كيت وكيت ، فاذا هو تاجر عادى كبقية التجار ، وله بطن كبطونهم !

ويسره أن يراها قد اصطبغ وجهها بلون الدم ، ثم اذا هى تمتقع

فبييض وجهها ثانية ، ثم تعض شفثيها فى استياء ، ثم اذا هى تلهث
وتقول :

- أنت .. أنت .. كيف تجرؤ على مخاطبتى هكذا ؟
فاذا بلغت الباب استدارت له بوجه يغلى غضبا ، ثم قالت بصوت
هادئ :

- أنت يا كاره البشر .. يا عدو الناس !
ويضحك فوما .. !

انه لم يرد أن يجلس الى المائدة مع هؤلاء السعداء الثلاثة .. لقد
كان يسمع أصواتهم المرحية وضحكهم الطافح بالسعادة ، كما كان
يسمع قرقرة الاطباق ، فيدرك انه لا مكان بينهم لشخص مثله مثل
القلب موزور النفس .. بل لا مكان له فى أى مكان مطلقا . وبينما
كان يقف وحده فى وسط الحجرة رأى أن يترك هذا المنزل لأصحابه
الذين كانوا يقصفون . ولما خرج بالفعل ، وجد قلبه يضطرب
بالسخط على هؤلاء الذين عاملوه هذه المعاملة .. على أنهم بعد هذا
كله ، وقبل هذا كله .. كانوا لا يزالون أقرب الناس اليه فى هذه
الدنيا ..

وأخذ ينظر بعين خياله الى وجه اسبينه بغضونه المرتعشة وعينييه
الخضراوين وهما تلمعان مسرورتين ، كما أخذ يتمثل هذا العجوز
كنلة من الخشب فاسدة ، جعلها السوس نخرة ، وهى تتأجج فى
الظلام .. ثم لا يلبث أن يتمثل وجه تاراس ، هذا الوجه الهادئ
الجاد ، ويتمثل جسم ليوبا وهو مشدود نحوه .. فاذا هو يحزن
ويحقد ..

وراح يسائل نفسه : كيف يستطيع أحد أن ينظر اليه بتلك
الطريقة .. ؟
وكانت الجلبة التى تحدثها حركة المرافىء على ضفة النهر قد

وردته الى كامل وعيه .. لقد كان الناس حوله في كل مكان يشحنون السفن بالبضائع ويفرغونها منها بحركات سريعة قلقة ، وبعضهم يحث الحياول ، وبعضهم يصيح ببعض آخر بأصوات مهتاجة ، مألئين الشارع بجلبة فارغة تغطي على حركة العمل . لقد كانوا يجيئون ويروحون في شارع ضيق مبطن بالحجارة قامت المباني العالية على أحد جانبيه ، وانحدرت ضفة النهر تحت جانبها الآخر .. وقد خيل لقوما أنهم انما يفكرون في الهرب من عملهم الى ذلك الشارع القدر المزدحم ، وأنهم يتعجلون الفراغ من أعمالهم التي تعوقهم هكذا حتى يستطيعوا الهرب بأسرع ما يستطيعون .

وكانت بواخر ضخمة ترسل الدخان الكثيف من مداخنها الكبيرة، وقد رست في انتظارهم قرب الشاطئ ؛ وكانت مياه النهر العكرة، الممتلئة بالسفن والصنادل من كل نوع ، لا تنى تضرب الشاطئ بأصوات مشجية ، كأنها تتمنى لوساد الهدوء والسكينة لحظات !

ومرت دقائق كانت الانغام السعيدة التي ترسلها أغنية يتغنى بها العمال .. أغنية « دو بنشكا » .. تأتي خلالها من أحد المرافئ . لقد كان متعهدو شحن السفن وتفريغها يقومون بمجهود متواصل مستعجل ، وكان الشغالة يثبون على نغمات الاغنية ، فيربطونها بنغمات حركاتهم .

فاذا أنشدت المغنى :

في الحانة يجتمع التجر

ظرفاء ترويهم خمـر

رد عليه الباؤون من أعماق قلوبهم :

أو ! دو بنشكا ! هيا ، تعالى

فاذا أصوات خفيضة ترسل أنغامها القوية في الهواء :

ها هي تأتي .. ها هي تأتي ..

فتردد الاصوات الصادحة أصداء هذه الكلمات نفسها :

ها هي تأتي .. ها هي تأتي ..

ووقف فوما يصغى الى الاغنية لحظة ، ثم قصد الى المرفأ الذي
تجىء منه . حيث وجد الشغالة قد اصطفوا صفين وهم يجرون
برميلين كبيرين من داخل عنبر احدى السفن . وكانوا يلبسون
قمصانا قذرة ، مفتوحة الصدور ، وأيديهم فى قفازات بلا أصابع ،
وأذرعهم عارية الى الكوعين ، وقد وقفوا عند مدخل العنبر يشدون
الحبال بطريقه مرحة تفيض دعابة وأخوة ، محافظين على أنغام الاغنية،
وقد انطلق صوت المغنى الاصلى المحجوب عن الاُنظار من داخل
العنبر ضاحكا ، وهو يغنى فى الوقت نفسه :

أما نحن الشغالة فى تلك السفن

فظماء لا نملك للخمرة من ثمن !

فيرد عليه الشغالة جميعا وبصوت واحد مدو :

أو .. دو بنشكا ! هيا تعالى ..

وكان غناؤهم يقع من نفس فوما موقع الموسيقى العذبة المنسجمة،
وسره أن يقف للملاحظتهم . لقد كانت وجوه الشغالة القذرة طافحة
مع ذاك بالبشر ، وكان العمل سهلا لينا لا تعقيد فيه ، وكان قائد
الغناء يفيض الهاما ، حتى لقد حسن فى عينى فوما لو استطاع أن
يشغل مع أمثال هؤلاء الرفاق على وقع ذاك الغناء البديع ، وكم يكون
جميلا سُرْب زجاجة من الفودكا بعد أن يكون الجهد قد نال منال
منه ، ثم التهام طبق من حساء الكرب صنعته تلك الفاسقة التي
تطبخ الطعام لهؤلاء العمال .

وسمع فوما بعضهم يقول فى صوت أجش :

- ما أبدعهم من عمال يفيضون نشاطا وحيوية ! ما أبدعهم !

فيلتفت ، ليرى رجلا سمينا منتفخ البطن ينقر على ألواح المرفأ
بعضاه وهو يتفرج على الشغالة بعينيه الصغيرتين ، والعرق يترقرق
فوق وجهه وعنقه ، وهو لا ينفك يمسحه بيده اليسرى ، ويتنفس
أنفاسا لاهنة كأنه كان يتسلق جبلا

ورمقه فوما بنظرة جافة ، ثم أخذ يحدث نفسه :

- ان غيره من الناس يقومون بالعمل .. أما هو فيعرق لهم ! ولكن
.. لعل أنا نفسي أردأ منه !

لقد كان كل طابع جديد يولد فيه أفكارا مضنية تزيده يقينا
بتفاهته ، وكان يحس كأن كل شيء فى الوجود ينطق بزجره
والتثريب عليه ، وكان كل كلمة زجر له أو تثريب عليه صخرة يروح
تحتها صدره .

وذهب فى مساء ذلك اليوم نفسه الى منزل آل ماياكين . ولم
يكن الرجل العجوز ثمة ، وكانت ليوبا وأخوها يتناولان الشاي
فى حجرة الأكل ، وقد سمع تاراس وهو فى طريقه الى الحجرة يقول
فى صوت مبجوح أجش :

ولماذا يهتم أبونا بأمره ؟

.. ولم يكده فوما يظهر حتى لزم تاراس الصمت ، وأخذ يتفرس
فيه ، فى حين بدا الارتباك على ليوبا ، وان قالت له كأنها تعتذر :
- أوه .. هل هو أنت ؟

وعندما كان فوما يأخذ مكانه كان يحدث نفسه قائلا :
- لقد كانا يتحدثان عنى .

وصرف تاراس نظره عن فوما ، ثم شرع يأخذ جلسة أخرى

تهيء له قدرا أوفى من الراحة ، ثم مضت لحظات من الصمت
المكثوم جلبت الرضا لنفس فوما • ثم سألته ليوبا أخيرا :

- أأست ذاهبا الى الحفلة ؟

- أى حفلة ؟

- ألم تعلم ؟ ان كونونوف ينزل مركبا جديدا الى الماء ، وستقام
حفلة تدشين ، تعقبها رحلة الى أعلى الفولجا

- اننى لم أدع •

- انه لم يدع أحدا ، بل اكتفى بالاعلان عن ذلك فى البورصة
بقوله وانه يسعده أن يشرفه من يشاء بالحضور •

- حسن •• وأنا لا يعيننى أن أذهب •

- صحيح ! لا تتعجل •• ان الشراب سيجرى هناك أنهارا ••

ثم رمقته ليوبا بنظرة شزراء ، فقال لها فوما :

- فى وسعنى أن أشرب حتى أغيب عن وعيى •• ولكن على
حسابى أنا •

وهزت ليوبا رأسها هزة لها معناها ، وهى تقول :

- ألا أعرف أنا ذلك ! ••

وكان تاراس يلعب بملقعة شاي وهو يرمقهما بطريقة غير
مباشرة •

وسألها فوما :

- أين السيد الوالد ؟

- ذهب الى المجلس حيث انعقد اجتماع لهيئة المديرين اليوم .
الانتخابات ستجرى .

- وهل سينتخب ؟

- طبعاً .

ويسود الصمت مرة أخرى . ويمضى تاراس فى شرب شايبه
جرعات كبيرة ، ثم يبتسم لأخته ، ويدفع كوبه نحوها دون أن
يتكلم ، وتبتسم هى أيضا سعيدة محبورة ، وتأخذ الكوب فتغسله ،
وتملؤه ، وتعيده الى أخيها ، ويكون وجهها قد تبدل من نظراته
السعيدة أماراة من أمارات الجلد أقرب الى أن تكون تجهما .. وتقول
بصوت هادئ مشوب بالوقار :

- هل يمكن أن نعود الى ما كنا نتحدث فيه ؟

ويجيبها تاراس باقتضاب :

- لا بأس .

- أنت تقول .. وأنا لا أفهم عنك تماما .. لقد قلت انك اذا
وجدت ذلك كله تفكيراً طوبويا .. وبالأحرى .. اذا كان مستحيلاً
أن .. نحلم .. فماذا اذن فى وسع انسان لا ترضيه الحياة أن
يفعل ؟

ثم جعلت تنظر فى وجه أخيها نظرات هادئة كلها ترقب ، وراح
هو يرمقها ثم يتلملح فى كرسيه ، ثم ينفض رأسه ، ثم اذا هو
يشرع فى حديث رزين كله يقين وثقة :

- اننا يجب أن نبحت عن السبب فى عدم رضا هذا الانسان
عن الحياة . فلعل هذا السبب يكون ناشئاً عن عجزه عن العمل ،
أو عن فكرة خاطئة تراوده عن قدرته الشخصية . ان غلطة معظم

الناس هي أنهم يتوهمون أنهم « أكفا » مما هم حقيقة . والواقع أن ما يطلب من الانسان هو شيء طفيف جدا . فما عليه الا أن يتخير العمل الذى يكون فى وسعه الاضطلاع به ، ثم يؤديه بعد ذلك على أحسن وجه يستطيع أن ينهض به . وإذا كان الانسان يحب العمل الذى يفوم به ، فإن أشق الأعمال يصبح حينئذ عملا نشائيا . والكرسى الذى يصب فيه صانعه كل ما أوتى من شغف بصناعته لا يمكن الا أن يكون كرسيا جيدا متينا جميلا . وهذا ينطبق على كل شيء . اقرئى سميلز . ألم تقرئيه . انه كتاب عظيم جدا . كتاب خير . . ثم اقرئى بعد ذلك لبك Lubbock وتذكرى دائما أنه لا يوجد شعب أكثر جدا فى ميدان العمل من الشعب البريطانى ، وهذا يفسر لك نجاحهم الذى لا يدانيه نجاح فى الميدانين التجارى والصناعى . ان العمل عند البريطانيين يكاد يكون نظاما دينيا . والمستوى الثقافى عند أية أمة من الامم يتناسب دائما وحجم العمل وكلما زادت ثقافة شعب من الشعوب ، وكلما توافرت له مطالبه بصورة كاملة قلت الحواجز التى تقف فى سبيل ما يصبو اليه وراء تلك المطالب من مطالب أخرى . والسعادة كل السعادة هي فى تحقيق كل ما يصبو اليه الفرد من طلبات . ومن ثم ترين أن سعادة الفرد انما تقوم على موقفه من العمل .

لقد كان تاراس ماياكين يسوق كلامه فى أسلوب بطيء حتى ليظن من يسمعه انه يجد فى الحديث ما يجده . ولكن ليوبا كانت تستمع اليه بشغف ، وكأنها كانت آذانا مصغية تعد ما يخرج من فيه لآلئ من الحكمة جديدة بأن تختزنها فى قرارة روحها .
وتسأله :

- وماذا اذا وجد انسان أن كل شيء كرهه تعافه النفس وتشمئز منه !

ويسألها فوما بدوره ، وفى هدوء أيضا . . ودون أن ينظر اليها :
- أى شيء بخاصة ؟

- كل شيء - الاشغال ، الاعمال ، الناس .. اذا رأى مثلا ان كل شيء كاذب .. ملفق .. مصطنع .. ليس شغلا حقيقيا ، بل مجرد ملء فراغ ، ملء فراغ للروح . فبعض الناس يعمل ، وبعضهم لا يصنعون شيئا الا أن ينتفعوا بعرق غيرهم ويصدروا اليهم الاوامر ، ومع ذلك فهم يحصلون على جميع الربح . فبماذا تعلل ذلك ؟ .
- لست أفهم ما تقصدين ..

وهنا يقطع فوما حديثهما ، وقد أدرك ما اكتسى به وجه ليوبا من سحوب ، فيقول بلهجة سباحرة :

- ألا تفهم ما تقصد ؟ اذن فلنعرض الموضوع على النحو التالى :
رجل يذهب الى عرض النهر فى مركب . مركب جيد . الا أن الماء شديد العمق تحته .. فهنا ، اذا بدأ الخوف يدب فى قلب الرجل من عمق الماء وعكره ، فماذا تجديه متانة المركب ؟ انها لن تذهب بهذا الخوف من قلب الرجل .

والفت تاراس نحو فوما غير مبال به . ثم جعل يتفرس فيه دون أن يتكلم ، وهو يدق طرف المنضدة بأصابعه دقا هيئا ليها . وكانت ليوبا تتلوى فى مقعدها قلقلة متململة على حين كان بندول الساعة يعلن مضى الوقت فى دقات وانبة أشبه بأنفاس الزمن ، فيدق قلب فوما فى بطء وثقل ، لانه كان يعلم أن أحدا من أهل المنزل لا يمنحه كلمة عطف فى الآونة التى تحقيق به حيرته المؤلة وعاد يقول : وكأنه كان يحدث نفسه أكثر مما كان يحدثهما :

- ليس العمل هو كل ما يفتقر اليه الانسان ، وليس صحيحا أن العمل يبرر كل شيء . وبعض الناس لا يقومون بأى عمل صغر أو كبر طوال حياتهم ، ومع ذلك فهم يعيشون خيرا مما يعيش من يعملون ويكدحون . فكيف تعلل ذلك ؟ ان عمالك ما هم الا مجرد عربات كارو بائسة ، يسوقهم غيرهم فيمثلون .. وهذا

هو كل شيء • انهم مبرعون من الذنب عند ربهم • وأنت ان سألتهم ما غرضكم من الحياة ؟ أجابوك : اننا لا نملك من الوقت ما نجيب بـ عن هذا السؤال • اننا نكدح طوال حياتنا ، ولكن • بماذا أبرر أذ عيشي في هذه الدنيا ؟ وبماذا يبرر حياتهم أولئك الذين لا يعملون أى شيء اللهم الا أن يصدرنا أوامرهم الى من حولهم ، ليقوموا عنهم بعبء عملهم ؟ لأى شيء يعيشون ؟ يبدو لى أن كل انسان يجب أن يعرف بالضبط الغرض الذى يعيش من أجله •
وتوقف عن الكلام قليلا ، ثم مال برأسه الى الوراء ، وأنشأ يقول بصوت عال :

- هل يمكن أن يقال ان الانسان لم يخلق الا ليعمل ؟ ليجمع مالا ؟ ليبنى بيتا ؟ ليربى أولادا ؟ ثم ليموت ؟ لماذا يعيش الانسان ؟ لقد آن أن نجد جواب هذا السؤال •• آن لنا أن نعرف • ان الحياة التى نجياها خالية من الهدف ، وليس فيها أية مساواة •• وهذا واضح بين لا يخفى على أحد • ان بعضنا غنى مسرف الغنى ، يكفى ما يملكه ألف شخص ، وهو مع ذلك لا يقوم بعمل ما ، فى حين يكدحون طوال حياتهم ويعرقون ، ومع ذاك فهم لا يدخرون كوبكا واحدا من عملهم ذاك • وبالرغم من هذا فليس ثمة فرق كبير بين هذا وذاك • وقد تجد بين الذين لا يملكون قميصا يوارى سوءاتهم من يفهم أمور هذه الدنيا خيرا مما يفهمها من يلبسون الحزوالديباج ! »

وكان فوما متحمسا لما يقول حتى لكان فى امكانه أن يمضى فى حديثه طوال النهار لو لم يقطع عليه تاراس أقواله بدفعه كرسيه بعيدا عن المنضدة ثم نهوضه واقفا ، وهو يقول ويأخذ نفسا طويلا .

- كلا •• سُكرا •• لقد سمعت بما فيه الكفاية ••

ويهز فوما كتفيه وهو ينظر الى ليوبا بابتسامة متكلفة ، فتقول له :

- من أين لك مثل هذه الفلسفة ؟ »

ويجيئها فوما في صوت هادىء :

- ليست هذه فلسفة ٠٠ انها عقوبة ! وما عليك الا أن تفتحى عينيك وتنظري من حولك لترى أن مثل هذه الأفكار ستزحف الى رأسك من تلقاء نفسها !

ويقول تاراس وهو واقف يتأمل الساعة المعلقة على الحائط وقد أولى ظهره للمائدة :

- وعلى فكرة يا ليوبا ٠٠ هل لاحظت يوما أن التشاؤم خلة غريبة تمام الغرابة على الجنس الانجلوسكسونى ؟ ٠٠ ان ما يسمونه تشاؤم بيرون وسويغت ليس شيئا الا استنكارا صارخا لأوجه النقص فى حياة البشر . أما هذا التشاؤم الأسود المتحلل فليس له أثر بين الانجليز .

ثم يلتفت نحو فوما فجأة ، وكأنه قد نسيه فيقول له وهو يضع يديه خلف ظهره ، ويشد ساقه :

- انك تثير قضايا مهمة ، وان سماها بعض الناس قضايا صبيانية ، فاذا شغلتك وألحت عليك كثيرا فلا بد لك من قراءة الكتب ٠٠ انك تجد فى الكتب ملاحظات كثيرة ثمينة عن الحياة ٠٠ هل تقرأ ؟

ويجيئها فوما باقتضاب :

- كلا ٠٠ اننى لا أطيق القراءة .

ويقول له تاراس مبتسما ابتسامة خاطفة وهو يضم شففيه :

- ولكن الكتب يمكن أن تفيدك كثيرا .

ولكن فوما يجيبه مقطبا :

- ان كان الناس لا يستطيعون أن يساعدوني على التفكير السليم ،
فبالكتب أشد عجزا منهم ولا بد .

لقد تعب فوما من طول ما تحدث الى هذا السيد العديم الاحساس ،
وكان يتمنى لو ينصرف ، الا أنه كان فى الوقت نفسه يريد أن يقول
شيئا لليوبا عن أخيها فيه بعض السخرية به ، والتحدى لها ، ومن
ثمة فقد انتظر رجاء أن ينصرف تاراس من الغرفة . وكانت ليوبا
تغسل فناجيل الشاي ، وهى مستغرقة فى الفكر ، ويداها تتحركان
فى فتور واسترخاء ، وكان تاراس يتمشى داخل الحجرة ؛ ثم وقف
أمام الصوان الصينى المقدس بالفضيات ، وهو يصفر صفيرا خفيفا ،
وينقر زجاج الصوان بأظافر أصابعه ، محملا فى الآنية الفضية ،
وقد رمقت ليوبا فوما بنظرة أو نظرتين كان يتبدى فيهما الاستهجان
والترقب ، بل كانتا تشفان بصراحة عن عظيم سرورها لو تفضل
حضرته فانصرف

وكانما لاحظ هو ذلك فقال وهو يبتسم :

- اننى سأفضى الليلة هنا ، لأننى أريد أن أتحدث الى السيد
الوالد ، فضلا عن ذلك ، فأنا أشعر بالوحشة فى منزلى .
وتقول له ليوبا مسرعة :

- اذن فاذهب وأخبر مارفيوشا لكى تعد لك سريرك فى حجرة
الناصية .

- حسن .

ونفض ثم غادر الحجرة ، ولم يكذ يتعدى بابها حتى سمع تاراس
يوجه الى أخته سؤالا بصوت خفيض .

ودار فى خلدته أنه يسألها عنه ، وسرعان ما جالت فى خاطره
فكرة شريرة : لماذا لا يتسمع ما يقوله هذان الأخوان الذكيان
عنه . . . ؟

من أجل هذا دخل الى غرفة الطعام المجاورة دون أن يحدث صوتا . وكان الظلام يسود أرجاءها الا شعاعة ضئيلة تنسرب اليها من شق فى الباب الذى يصلها بحجرة الطعام الاولى ، ثم أمسك أنفاسه وهو يقف خلف باب الحجرة .

ويقول تاراس :

- هذه شخصية معقدة

وتجيبه ليوبا بصوت سريع منخفض :

- انه يحيا حياة بوهيمية ، ويسلك مسلكا فى منتهى الحماسة ، مسلكا شاذا لا يجيزه عقل . وقد بدأ هذا كله فجأة . وكان أول ما صدر منه أنه أعطى زوج ابنة وكيل المحافظ علاقة ساخنة . وقد أثار والدى الأرض والسموات حتى يتحاشى الفضيحة . ومن حسن الحظ أن كان الرجل سييء السمعة ، الا أن تلافى الفضيحة كلف الوالد بالرغم من ذلك أكثر من ألفى روبل ، وبينما كان أبى يبذل كل ما فى وسعه ليعفى على آثار هذا الحادث كان فوما يكاد يسلم للفرق فى نهر الفولجا جماعة بأسرها كانوا فى حفلة قاصفة معه !

- يا له من حيوان تعس ! ومع هذا فهو يستسلم للتأملات فى الحياة !

- وفى مرة أخرى كان فى نزهة نهريّة مع طائفة ممن على شاكلته . ولما شربوا حتى غابوا عن وعيهم فاجأهم بقوله : صلوا على أنفسكم لانى سألقى بكم جميعا فى النهر . وهو شخص ذو قوة جنسانية فظيعة . فلما شرعوا يولولون ويتوسلون قال لهم : اننى انما أريد أن أؤدى لبلادى خدمة جليلة بتخليصها من أمثال هذه الحثالات ومن أمثالكم من الاوغاد !

- ظريف جدا !

- ثم هو شخص شنيع : وسيتولاك العجب لو عرفت جميع الحوادث المرعبة التى اقترفها فى هذه السنين الاخيرة القليلة ، والاموال الطائلة التى بعثها !

- خبرينى .. ما الشروط التى يدير له والدنا بموجبها اعماله ؛ هل تعرفينها ؟

- كلا .. لست أدرى . ولكن ابانا يتولاها بالوصية لمجرد المحافظة عليها ، لماذا تسأل ؟

- أوه .. كنت أسأل بدافع العجب فحسب . انها عملية عظيمة ، وهى بالطبع منظمة تنظيما كريها ، وعلى الطريقة الروسية القديمة ، وبالرغم من هذا فهى عملية عظيمة لو وجدت من يوليها عناية جدية ..

- ان فوما لا يعمل شيئا على الاطلاق .. وكل شئ ملقى على عاتق الوالد .

- عجباً !

- ويبدو لى أحيانا أن نوبات الكآبة التى تجتاح فوما ، ثم هذه الخطب التى يلقيها .. كل ذلك صادر منه عن اخلاص وطيبة قلب ، وأنه يمكن أن يكون شخصا محتشما معتدلا الى آخر حدود الاحتشام والاعتدال . الا أننى لا أستطيع أن أوفق بين تلك الحياة البوهيمية التى يحيها والاشياء التى يقولها !

- ولا جدوى فى محاولتك تلك .. فهو شخص كسول ، وقد نشئ تنشئة سيئة ، وهو على الدوام يحاول أن يجد مبررا لكسله ..

- ولكنه يكون أحيانا أشبه بـ ... أشبه بطفل برىء

- وهذا هو ما قلته بالضبط .. نشيء تنشئة سسيئة .. ومن
اضاعة الوقت أن نشغل أنفسنا بشخص غبي جاهل متوحش لا يريد
الأن يكون غيبا جاهلا متوحشا . لقد سمعته ! انه يحكم على
الاشياء كهذا النذب الذى تروى الاساطير أنه كان يلوى النير ولكن
حول عنقه !

- انك قاس شديد القسوة

- أنا قاس فعلا .. والقسوة هى ما يحتاج اليه الناس .. ونحن
الروس جميعا قوم كسالى وفيينا استرخاء شديد . ومن حسن حظنا
أن سارت حياتنا فى طريق جديدة تجعلنا نشد ظهورنا سواء شئنا
أو لم نشأ . ان الانغماس فى الأحلام لا يجدر الا بالولدان والصبايا
.. أما ذوو الجذ من الناس فأمامهم عمل جدى يقومون به

- اننى أحيانا أشعر بالأسف الشديد نحو قوما .. ترى ..
ماذا ينتهى اليه حاله ؟

- لا شئ على الاطلاق - لا خير ولا شر ، فلسوف تنفذ أمواله
جميعا ثم يصبح صعلوكا لا يملك شيئا .. ولكن .. كفانا هذا حديثا
عنه ، فأمثاله قليلو العدد هذه الأيام . وقد أخذ التجار يقدرون
قيمة التعليم ، أما هو .. هذا المخلوق الذى تكثرين من الحديث عنه
.. فسينتهى الى الدمار .

وهنا .. يبرز قوما من مكنه وهو يقول :

- هذا صحيح كل الصحة يا صديقى !

لقد كان مقبلا نحو الباب وهو ممتقع الوجه مقطب الجبين ملنوى
الفم ، لا تتحول عيناه عن تاراس وهو يتوجه اليه بالحديث :

- هذا صحيح كل الصحة .. اننى سأنتهى الى الدمار ، فاللهم
استجب ! وكلما كانت هذه النهاية أقرب .. كانت أحسن !

لقد وثبت ليوبا مفزوعة ، ثم أسرع الى تاراس تقف الى جانبيه كالتي تحتسى ، وكان تاراس يقف فى وسط الغرفة هادئا رابط الجأش ؛ وقد وضع يديه فى جيوبه •

وتصيح به ليوبا وهى فى كرب عظيم :

- فوما ! يا للعار يا فوما ! •• أيصح أن تتجسس علينا !

- اخرسى •• أيتها النعجة !

ويقول تاراس وهو ينظر الى فوما بازدراء :

- حقيقة •• ان التجسس شئ لا يليق !

ويجيب فوما وهو يلوح بيده :

- وماذا يهم ؟ هل هى غلطتى أن تكون الطريقة الوحيدة التى يستطيع الانسان بها أن يسمع بها كلمة الحق وهى التجسس !

وتقول له ليوبا وهى تزداد التصاقا بأخيها :

- أرجوك يا فوما •• أرجوك أن تنصرف •

ويسأله تاراس فى ثبات :

- لعلك نريد أن تقول لى شيئا ؟

فيجيبه فوما متعجبا :

- أنا ؟ وماذا يمكننى أن أقول لك ؟ لا شئ • بل أنت الذى يمكنك •• انك تحسن ان ترسل لسانك بما تريد •

فيسأله تاراس مرة أخرى :

- اذن فليس عندك ما تقوله لى ؟

- لا شيء .

- فأنا سعيد جدا

ثم يلتفت الى ليوبا ليسألها :

- هل تنتظرين أن يعود والدك حالا ؟

وكان فوما ينظر اليه لحظة وقد خامره شعور أقرب الى أن يكون
نعورا بالاحترام . ثم لم يلبث أن انصرف .

ولم يشأ أن يذهب الى منزله . . هذا المنزل الضخم الموحش
الحاوي . . الذى كان يسمع فيه صدى كل خطوة يخطوها . . ومن
نمة فقد أخذ طريقه فى الشارع الذى كان فى ذلك الوقت غارقا فى
عسق أخريات الخريف المقبض الكثيب ، والأفكار تساور رأسه
المضطرب عن تاراس ماياكين :

- انه رجل صارم مثل أبيه ، الا أنه ليس ملولا شديدا التبرم
منه ، والراجع أنه يتسلح لهذه الحياة بالغش والخداع كما يتسلح
أبوه تماما . . وهذا هو الشخص الذى تحسبه ليوبا قديسا . .
تلك المغفلة الصغيرة ! يا لله ما أبشع ما ذكرم عنى ! هذا القاضى
الفاضل ! هيه . . انها أشد عظفا على - على كل حال !

على أن هذه الأفكار لم تزده كراهية واشمئزا لتاراس ، ولا حبا
فى ليوبا .

ومر به جواد اشبينه وهو يركض بماياكين الذى لمح فوما شخصه
الضامر فوق صهوته . . الا أن هذا أيضا لم يجعله يشعر بأى شعور
جديد . ويمر وقاد من وقادى المصاييح بالقرب منه ، ويتوقف ليضع
سلمه الى عمود المصباح ، ثم يتسلق فوقه . . ولا يكاد يفعل حتى
يتزحلق السلم فجأة ، فيتعلق الوقاد بالعمود وقد أمسك به بكلتا
يديه وهو يلعنه ويلعن الدنيا . ويقف فوما ليشهد هذا المنظر .

ولكن فتاة صغيرة تمر به فتصدمه وتحرجه بهذا من تفكيره في حاله هذا الوقاد ، فاذا لاحظت الفتاة ذلك وقفت لتعتذر اليه قائلة

- أوه .. عفوا يا سيدى !

ويرمفها فوما بنظرة دون أن يتكلم .

وترسل السماء رذاذا كريها تنتثر قطراته فوق المصابيح ورجاج الفشريئات ، تختى لتبدو كأنما غطاها هباء من تراب قدز كان ينفذ الى خلوق الناس ، فيجعل تنفسهم شاقا عسيرا .

.. ويجعل فوما يسائل نفسه : ترى ؟ هل أذهب الى ييزهوف ؟ ..
لا بأس ، فسنشرب شيئا معا ، ثم نقضى الليل معا .

وانطلق الى دار ييزهوف ، وذهب اليه وان لم تكن به أقل رعه في الشراب ، أو فى رؤية صديقه نفسه .

ووجد فى غرفة ييزهوف رجلا أشمعت رث الهيثة يلبس قميصا وينطلونا رماديا ، جالسا على سرير صديقه . وقد حمل وجها قاتما كئيب المنظر ، أشبهه بجلد سمكة مشوية من سمك الرنجة ، وفى عينيه نظرة عابسة ، وعلى شفثيه شارب وحف منتشر كالشوك . لقد كان يجلس وهو يلف ذراعيه الغليظتين حول ساقيه اللتين رفعهما فوق السرير . مسندا ذقنه فوق ركبتيه . أما ييزهوف ، فكان جالسا على كرسي ، وقد انتحى ناحية ، وساقاه فوق ذراع الكرسي ، ورجاجة من الفودكا قائمة بين الكتب والجرائد المنتشرة فوق المنضدة والغرفة كلها معطرة برائحة السرددين والسمك المملح .

ونظر الى فوما فعرف أنه ينطوى على هم ثقيل فسأله

- هيه ! ماذا يفرى فؤادك !

ثم استرعى نظر صديقه الجالس على السرير قائلا

جوردييف .

وقال الرجل فى صوت أشبه بالصرير يقدم نفسه :

- كراسنو شتشيكوف

وجلس فوما على طرف السرير الآخر ، وقال موجهاً حديثه الى بيزهوف :

- لقد أثبت لأمضى الليلة عندك .

- لا بأس . . . استمر فى حديثك يا فاسيل .

وحج الرجل فوماً بنظرة شيزراء قبل أن يصل حديثه بصوته الذى يشبه الصرير ثم شرع يقول :

- أما أنا ، فلست أرى معنى لمهاجرتك الأغبياء من الناس بالطريقه التى تهاجمهم بها . لقد كان ماسا نيللو مغفلاً . . . ولقد كان قد صنع ما كان يحب أن يصنع بأحسن الطرق الممكنة . وكان صاحبك ونكريد مغفلاً على الأرجح ، هو أيضاً ، لكنه لو لم يطعن نفسه بالسوونكى لَمْ يَكُنْ . أن يتغلب على السبويسرى . وكم فى الدنيا من مغفلين أمثال هؤلاء . ولكن الواقع أن هؤلاءهم الأبطال فى أعين الناس ، أما الإذكياء فهم الجبناء الذين حينما يحين الاوان لكى يوجهوا ضربتهم وبكل ما فيهم من قوة ، راحوا يتساءلون : ولكن ! ماذا عسى أن تكون النتيجة ؟ ثم ماذا يحدث اذا ذهبت مجهوداتى أدراج الرياح ؟ ومن ثمة تراهم وقد وقفوا مسمومين جامدين كالآوتاد حتى تضيق الفرصة . أما الحمقى والمغفلون . . . فهم الشجعان حقاً . . . انهم لا يبالون أن ينطحوا الصخر برؤوسهم حتى تتحطم . . . وماذا عليهم لو تحطمت بالفعل ؟ ألا ما أرخص رؤوس العجول ! ثم هم اذا أخذوا ثغرة فى الحائط الذى ينطحون ، رأيت أصحابنا الأذكياء يأتون فيوسعون الثغرة حتى ينفذوا منها ، وينسبوا الفضل كله الى أنفسهم . . . كلا . . . انك مخطئ كل الخطأ يا صديقى نيكولاى

ما تفيفتشش .. ان الشجاعة شيء حسن جدا ، حتى لوجاهت بلا لدير
في العواقب !

ويلوح اليه ييزهوف بيده وهو يقول له :

ـ انك تتكلم كلاماً فارغاً يا فاسيلي

ويقول له فاسيلي موافقاً :

ـ ربما .. ولكن كيف تنتظر مني أن أدخل صالونا تلتقي فيه
سيدات الطبقة العليا لأجلس وسطهن يملأنني الحشنة الرثة هذه ؟
.. انني لست أعمى مع ذلك يا صاح .. فأنا أعرف أن ثمة
كثيرين من ذوى المواهب والذكاء ، الا أن الدنيا لا تستفيد في كثير
أو قليل من ذكائهم .

ويهم فاسيلي بالانصراف فيقول له ييزهوف :

ـ لم يحزن أوان انصرافك بعد

ـ بل يجب أن أنصرف ، فلدى عمل الليلة - وقد تأخرت قليلا

.. وسأزورك غدا ان لم يضايقك هذا .

ـ بل تعال .. وسأفرم لحملك ان شاء الله !

ـ طبعاً .. فأنت لا تجيد الا هذا .

وشد فاسيلي نفسه قليلا ، ثم نهض من فوق السرير ، وتناول يد
ييزهوف المعروقة النحيلة الصفراء في يده الكبيرة السمراء ،
ثم قال :

ـ وداعاً

وأوما الى فوما ، وأخذ طريقه الى الباب وهو يمشي مترنحا .

وسال ييزهوف فوما وهو يشير الى الجهة التى يأتى منها صوت
خطوات فاسيلي الثقيلة ، وهو يقطع المشى :

- هيه .. ما رأيك فى هذا الانسان ؟

- ومن يكون ؟

- فاسيلي كراسنو شتشييكوف . مساعد أحد التجار . ليكن لك
قدوة .. ولتتخذ منه مثالا .. لقد كانت سنه خمس عشرة سنه
حينما بدأ يتعلم القراءة والكتابة . وعندما بلغ الثامنة والعشرين
كان قد قرأ من الكتب مالا أعرف عدده من كثرته .. وكان قد تعلم
لغتين غير الروسية .. وهو الآن يعتزم السفر الى الخارج .

- ولائى غرض ؟

- ليدرس ، وليرى كيف يعيش الناس خارج روسيا .. فى حين
ان حضرتك تقضى حياتك بهذا الوجه العابس المكشر !

- ان ما قاله عن المغفلين والحمقى صحيح كل الصحة :

- لا أستطيع أن أقطع فى هذا برأى .. اذ أننى لست أحقق ولا
مغفلا !

- ان الحمقى من عادتهم أن يتصرفوا بسرعة البرق - يرتطمون
بكل شيء .. ويضربون به الأرض !

- هأنت تشطح كعادتك ! لنغير الموضوع .. قل لى .. هل
صحيح أن ابن ما ياكين قد عاد ؟

- أجل .. وماذا فى ذاك ؟

- لا شيء .. لا شيء ..

- بل أستطيع أن ألاحظ من سمات وجهك أن ثمة شيئا ..

- اننى اعرف ابن ما ياكين هذا • ولقد سمعت كل شئ عنه • هل هو مثل أبيه ؟

- أسمن منه قليلا • • وأكثر جدا • • إلا انه مثله تماما فى جمود مشاعره • احذر لنفسك منهم يا صديقى والا فلسوف يبتلعونك قبل أن تتنبه لذلك • ان تاراس هذا قد قام بأعمال بارعة ناجحه لصهره فى مدينة ييكاتربرج •

- ليبتلعونى اذا أرادوا • • ولن أملك الا أن أشكرهم على ذلك •

- الثغمة القديمة نفسها • • وعلى هذا فانت لا تريد الا حريتك ، ليس كذلك ؟ ولماذا تريد هذه الحرية ؟ ماذا عساك أن تصنع بها ؟ انك لا تصلح لائى شئ • • وأنت لا تكاد تقرأ أو تكتب • • آه لو كنت أنا مكانك !

ووثب ييزهوف من مكانه ، ثم اتخذ لنفسه موقفا فى مواجهه فوما ، وجعل يقول بلهجة خطابية ، وبصوت رنان :

- لو أننى أستطيع فقط تحرير نفسى من حاجتى الى شرب الفودكا وأكل الحبز لا يمكننى أن أجمع بقايا روحى المعذبة وأن أبصقها فيما أبصق من دماء قلبى فى أوجه هذه الطبقة المحترمة من أهل التفكير المستقل • • عليهم اللعنة الى الأبد ! • • ثم لقلت لهم : عار عليكم يا من أنتم عصارة أمتنا ، أنتم يا من اشترت بلادنا حياتكم نفسها بدماء العشرات من أجيال أبنائهم الروس ودموعهم ، عار عليكم أيتها الحشرات التى انتهى اليها أمركم : تذكروا ماذا كلفتم بلادكم ! وماذا تؤذون اليها من عمل الآن ! هل تصنعون اللاتىء مما ذرف أهل الأجيال السالفة من عبرات ؟ سائلوا أنفسكم : ماذا صنعتكم لكى تحيلوا حياة مواطنيكم أسعد حالا ؟ وماذا صنعتكم على الإطلاق مما يستحق أن يصنع ؟ كيف رضيتم لأنفسكم بهذه

الهزيمة ؟ ثم ماذا أنتم ضائعون الآن ؟ وكيف رضيتم لأنفسكم أن
تكونوا مادة لاضحاك الآخرين ؟

ثم يضرب الأرض بقدمه في عنف ، ويصر بأسنانه ، ويحدق في
يوما بعينين تتأججان كأنهما عينا وحش مهيج ، ويقول :

- اننى كنت أقول لهم : « انكم تضيعون من وقتكم ما لا حد له
فى الثروة والملق .. لكنكم ليس لكم الا نصيب ضئيل من الفكر
الناضج ، وأقل من ذلك من القوة والجلد .. وأنتم جميعا جبناء ، ان
قلوبكم أشبه بالحشايا المثلثة بريش النعام .. فهي مثلها معشوة
بالآداب والمقاصد الحسنة .. فأكرم بها من حشايا ناعمة تنام فيها
الروح الخلاقة يوما لذيذا عميقا ! وبدلا من أن تنشط وتداب وتندق ،
تتأرجح كما تتأرجح مهاد الأطفال .. اننى كنت أغمس أصبعى فى
دم قلبى لكى أكتب على جباههم كلمة الحزى والبُضيخة .. ولأمكن
أن تقاسى هذه الخلاصة من أهل الفكر المستقل ، بأرواحهم المجذبة ،
وسلامة نواياهم التى لا تستحق الا الاحتقار ! أوه ! ماذا يمكن أن
يقاسوا ؟ ان سطوى مؤلم ، وأن يدى لمتينة ! وأن حبى للابقاء عليهم
لعميق مع ذاك ! انهم لا يألون من شئ فى الوقت الحاضر ، الا أنهم
يتحدثون عن آلامهم حديثا طويلا بالغ الطول ، وبصوت مرتفع مدو .
ومن هنا فهم كاذبون .. لأن الألم الصادق الحق هو الألم الصامت
الذى لا يشغشق ، والعاطفة الصادقة الحق لا تعرف الحدود .
العاطفة ! وهل يدرك القلب الانسانى يوما ماذا تعنى العاطفة ؟ ان
مصيبتنا جميعا هو أننا مجردون من العاطفة ! »

وهنا ، انقطعت أنفاسه ، وأخذ يسعل ، بل أخذ يسعل مدة
طويلة ، وهو يذرع الغرفة ، ويلوح بذراعيه فى هوائها كما يلوح
المجانين . وعندما وجد نفسه واقفا أمام فوما هرب الدم من وجهه ،
وأخذت عيناه تصطبغان بلون الدم ، وراح يتنفس فى صعوبة
ومشقة ، وكانت شفتاه تختلجان فتبدو من ورائهما أسنانه الصغيرة

الحادة . لقد كان يبدو بشعره الحليق المبلل المنتشر أسفل رأسه من كل ناحية كأنه سمكة من أسماك القشر خرجت من الماء توا ، ثم ألقيت على الأرض بجوار النهر . وكان فوما طالما عهد به في تلك الحال ، وكان في هذه المرة ، كما كان في كثير غيرها ، يقف مشدوها مفكرا . لقد كان يصغى في صمت الى هذه الجملة من القذف التي يلقي بها ذلك الشاب الضئيل النحيل ، وهو لا يكاد يحاول أن يفهم منها شيئا ، أو أن يعرف ضد من يشنها ، بل هو لا يكاد يعقل منها الا ما يصبها فيها ييزهوف من قوة وعنفوان . لقد كانت الكلمات تنصب في أذنيه كما ينصب الماء المغلي من سخان ، فتجعل روحه حارة فائرة .

ويمضى ييزهوف في خطبته فيقول :

- اننى أعرف ما أودع في من قوة وبطش . انهم يصيحون بى لكى أمسك لسانى ، وهم يذودوننى كما تزداد الطير ، وهم يفعلون بى هذا هادئين وفي استعلاء وترفع . ناظرين الى من قمة شامخة ! وأنا أعرف أننى عصفور صغير . . وأعلم أننى لست بلبلا ، بل أنا أعرف أننى غبى بليد الفهم بالقياس اليهم . . اننى لا أزيد على كونى كاتب أقاصيص ، غرضه الوحيد فى تلك الحياة هو أن يسلى الجماهير . . ولكن . . دعهم يتصايحوا بى ويذودونى كما تزداد الطير ، وسأقبل سياطهم التى يصبونها على وجهى . . أما قلبى فسيظل خافقا نابضا وسأقول لهم : حقا اننى غبى بليد الفهم بالقياس اليكم ، غير أن الميزة الوحيدة الكبرى التى أمتاز بها عليكم هى أننى لا أومن أن حقيقة من الحقائق المطبوعة فى صفحات الكتب هى أعز على وأعلى قيمة عندى من الانسان ، ان الانسان هو الكون ، وليتمجد اسم الانسان الى الابد ، لأن فيه يقوم العالم بأسره ، ولكن . . أنتم ؟ انكم فى سبيل كلمات لا غير . . يجرح بعضكم بعضا ويلحق بعضكم الاذى ببعض . . فى سبيل هذه الكلمات المجردة التى لا قيمة لها يصب بعضكم حام غضبه على بعض ، وتجرون النكد والالام على أنفسكم . . وأنا

اجندركم وأطلب اليكم أن تتفهموا نذيرى : انكم ستدفعون الثمن
عاليا لقاء غفلتكم هذه . ان العاصفة سوف تثور ، وسوف تكتسحكم
من فوق سطح الأرض كما يكتسح المطر المنهمر ما يعلق بورق الشجر
من تراب . انه ليس فى جميع لغات البشر الا كلمة واحدة يفهمها
الجميع ، وهذه الكلمة هى : الحرية !

وهنا يثب فوما من فوق السرير ، ويمسك بكتف ييزهوف وهو
يقول :

- هذا صحيح . . . صرح لهم بهذا .

ثم يخلق فى وجه ييزهوف بعينين مشتعلتين . . ثم اذا هو يقول
له : وقد بدا الألم والمرارة فى صوته . :

- يا نيكولاى المسكين . . لشد ما أشعر بالأسف من أجلك . .
نسى لا أستطيع أن أصور لك مقدار أسفى من أجلك !

ولكن ييزهوف يصيح به ، وهو يدفعه جانبا ، وقد صدمته
كلمات فوما وآلمته ، وما أبداه من شعور غير منتظر :

- ما هذا ؟ أوه . . لا !

ويخفض فوما من صوته فيبدو أخصب وأغزر محبة واعزازا وهو
يقول له :

- آه يا أخى ! انك روح متأججة ! وا أسفاه على أن تضيع
بجهوداتك هذه كلها سدى !

- ماذا ؟ سدى ؟ هذا كذب !

- يا صديقى العزيز الطيب ! انك لن تصرح بما يجول بخاطرك
لأى مخلوق . فليس ثمة من يمكنك أن تصرح له به . اذ من يمكن
ن يصغى اليك ؟ لا أحد . . غيرى !

ويصيح به ييزهوف والشر بنقدح من عينه ، وهو يولى عنه كاه
دعاه ما يقول فوما .

- الى الجحيم بك !

نمر أن فوما يقول له بسرعة ولهفه ، وبصوت يفيض الما

- بل صرح لى بما يجول بخاطرك . ولسوف أحمل رسالتك .
حبيب تشمتد الحاجة اليها . اننى أفهمها . . . و . . . أوه . . . لسيوف
الفتح بها قلوب الناس ! وما عليك الا أن تنتظر ! ان دورى . آت
شك فيه !

ويصيح به ييزهوف بلهجة هستيرية ، وقد أسند ظهره الى الحائط
الذى كان يقف عنده مقطباً منطويا ، محطوم النفس ، محنقاً .
يصيح به وهو ينثر الذراعين اللتين مدهما نحوه :

- اليك عنى !

ومى تلك اللحظة ينفتح الباب وتبرز منه امرأة متشعبة بالسواد
بعض وجهها انفعالا وتقطر سخطا ، وقد ربطت منديلا حول وجهه
وتقول بصوت فيه صرير وحشرجة ، وقد أمالت رأسها الى وراء
ومدت يدها نحو ييزهوف :

- نيكولاى ماتيفتش ، معذرة اذا قلت لك اننى شبعت بما فى
الكفاية من هذا كله . . من هذا الصياح والشجار . . والزوار كل
يوم . . انك تسترعى أنظار البوليس . . ولقد أرخيت لك العنار
سما لم يعد فيه زيادة لمستزيد . . ويجب عليك أن تغادر هذا المنزل
غدا . . انك تعلم أنك لا تعيش فى صحراء . . ان حولك اناها من
كل جانب ، وهم يزيدون أن يعيشوا فى أمان واطمئنان . . وهائنة
دا ترى أن أسنانى تؤلمنى ألما شديدا . . فغدا أرجوك !

وكانت تتكلم بسرعة ، وكان الكثير من كلماتها يتلاشى في
يورها وصغيرها . . ولم يكن يفهم من كلامها الا تلك التي ترسلها
صياح وصخب . وكان طرفا المنديل يبرزان فوق رأسها كأنهما
نان صغيران كانا يهتززان حينما تتكلم . وكان منظرها مضحكا في
لمته وهي مهتاجة ، مما جعل فوما ينطرح على السرير مرة ثانية .
ييزهوف فقد ظل واقفا حيث هو ، وقد جعل يمسح جبينه ،
حاول أن يلقف ما تقوله تلك المرأة التي صرخت مرة أخرى من وراء
اب المغلق :

- وهذه آخر مرة أقولها لك : غدا . . فلا تنس ! ويا للفضيحة !

ريزم ييزهوف وهو يحملق خلفها مكتئبا :

- لعنة الله عليكن جميعا !

ويقول فوما في شيء من الدهشة :

- انها امرأة صارمة !

ريحدب ييزهوف كتفيه ، ثم يذهب الى المائدة حيث يصب لنفسه
نصف كوب من الفودكا ، فاذا عبه عبسا ، انطرح كأنه كومة فوق
الكراسي . . وتمضي دقيقة أو دقيقتان لا ينبس أحد الرجلين
لمة واحدة .

وأخيرا يقول فوما في رهبة :

- لقد جرى ما جرى على غرة . . ان لسانها كان أسرع من أن
يغ لنا فرصة حتى للتنفس !

ريحدجه ييزهوف بنظرة فائكة ، ثم يقول له بصوت منخفض

- أما أنت يا سيد فوما . . فاخرس . . ولا تتكلم . . هيا . .
قد في الفراش وأسلم للنوم جفنيك . . عليك اللعنة . . أيها

الهولة .. أيها الناطور .. يا خيال المقاةة !

ثم هز نحوه قبضته مهددا .. وصب لنفسه مزيدا من العودا
وعبها عبا ..

وتمضى دقائق ، ويكون فوما قد خلع ثيابه ورقد في السريه
وراح يرقب ييزهوف من خلال عينيه شبه الغمضتين .
ييزهوف لا يزال جالسا كالكومة عند المائدة ، محدقا في
الغرفة ومحركا شفثيه . ولم يكن فوما يستطيع أن يدرك
لانتهازه اياه على هذا النحو . هل كان السبب هو أن صاحبة ال
قد أذنته بالرحيل .. وبالأحرى .. بالطرد ؟ ولكن ييزهوف
الذي كان يصيح ويصخب .

وأخذ كاتب الاقاصيص يتمتم وهو يطحن الكلمات بأسنانه
- عليها اللعنة !

ويرفع فوما رأسه من فوق الوساة . ويزفر ييزهوف زفرة
وهو يتناول زجاجة الفودكا ليشرّب جرعة أخرى .
ويقترح عليه فوما بصوت ناعم قائلا :

- هلم فلنذهب الى أحد الفنادق .. فالوقت غير متأخر بعد .
ويحدجه ييزهوف بكلتا عينيه ، ويرسل ضحكة غريبة ، ثم
رأسه بيديه حكا عنيفا ، ويهب واقفا وهو يقول بصوت خاطف
- هلم فالبس ملابسك ..

فاذا تلكا فوما قال له ييزهوف :

- أسرع .. ألا تستطيع أن تسرع يا عجر !
كيبتسم فوما ابتسامة لطيفة ثم يقول :

- حسبك هذه الشتائم الآن .. أما ثمة ما يستحق أن تتشاج
من أجله .. لا لشيء الا لأن هذه المرأة قد أطلقت عليك لسانها ؟
ولم يزد ييزهوف على أن نظر اليه .. ثم بصق .. ثم أغرق
الضحك !

الفصل الثالث عشر

كان ايليا يقيموفتش واقفا فى مقدمة سفينته البخارية الجديدة .
دقا بعينيه المتلاثلتين فى ضيوفه المجتمعين حوله وهو يناديهم .

– هل حضر كل المدعوين ! .. الظاهر انهم حضروا جميعا .

ثم يرفع وجهه الباش المشرق ويهتف بالربان الواقف فى مركز
يادة قائلا .

– اعدل يا بتروخا !

– آى .. آى !

ويكشف الربان رأسه الاصلح ثم يصلب ، فاذا فرغ من ذلك
ع عينيه الى السماء ومر بيده على لحيته الكبيرة السوداء ، ثم يأمر
كانيكى قائلا :

– حول الآلات الى الناحية المضادة .. ببطء !

ولا يكاد الضيوف يشهدون الربان وهو يصلب حتى يقتدوا به ،
ئشفوا عن رهوسهم ، ويمسكوا بقبعاتهم الحريرية وكاباتهم فى
يهم ، وتزف هذه فى الهواء كما يرف سرب من الطيور السوداء .
يصلبوا .

ويهتف كونوف فى خشوع :

– بركاتك يا اله السموات !

نم يصدر الربان أوامره قائلا :

- أطلقوا سلب الباخرة .. بخار كامل .. هيا !

وهنا تطلق السفينة ايليا مورومتش سحابة من البخار الابيض
عوف رصيف الميناء ، وتهتز هزة تنسرى في هيكلها الضخم .
تتحرك ضد التيار في خفة ورشاقة كما يتحرك البجع .

ويصيح المستشار التجارى رزنيكوف ، ذلك الرجل الطويل
النخيل الوسيم المنظر : ها هي ذى تبتعد عن الشاطئ .. رشب
كانها قالب من القشدة .. وكما تنزلق الحساء فى حلبة الرقص
ويتمتم تروفيم زوبوف ، من مشايخ الكنيسة ، وأكبر مقرؤ
البنقود بالمدينة ، ذلك الرجل المحنى الكتفين ، الذى انتشرت
فى وجهه ثقوب الجدري :

- يا لها من حوت عظيم !

لقد كان اليوم يوما غائما ، والسماء محجبة بالسحب الحريه
التي كانت تنعكس على صفحة النهر ، فتجعلها باردة رصاصية اللو
وكانت الباخرة الحديثة الطلاء تبدو فوق هذا الاديـم كأنها رشاش
ماقع البياض منساج تحت عجاجة ذلك الدخان الأسود الذى تنفـذ
السفينة . لقد كانت الباخرة بيضاء ذات حواش قرنفلية
قلاياتها فحمراء شديدة الاحمرار ، وكانت كواها المستديرة ترمـه
سبمات سعيدة راضية ، وهى تجري رخاء وسط الامواج الباردة
ترسل بها الى الضفتين مواره مجرجرة .

زيقول كونونوف وهو يرفع قبعته بخيا اضيافه بانحناء لطيفه
- أيها الاصدقاء الافاضل ، أما وقد أدينا لله ما هو لله ، فهله
.. على نعمات الموسيقى ، نؤد لقيصر ما هو لقيصر ..

ودون أن ينتظر ردا ، يرفع يده الى شفـتيه ليهتف برئيس الفر
خائلا :

أيتها الرئيس ، نشيد القيصر !
 تشرع الفرقة الموسيقية العسكرية تعرف النشيد المطلوب .
 ويشرع مقامار بوبروف ، مدير بنك التجار ، يغنى في صور
 حقيق على حين كانت أصابعه تضبط الايقاع على كرشة الكبر
 الضخم .

يعيش القيصر .. قيصر روسيا العظيم
 تبرا .. لا .. لا ! .. بسم بسم بسم
 حتى اذا انتهى النشيد .. ظل كونونوف يقول وهو يشق طريقه
 وسط هذا الجمع من الضيوف :

والآن .. تفضلوا .. هلموا الى الموائد أيها الأصدقاء ..
 سمعنا أن تتناولوا شيئا من الطعام ..

لقد كان نمة نحو ثلاثين ضيفا .. كلهم من أعيان المدينة الباررين
 بإحصاء الطبقة التجارية . وكان النواب القدامى ، أولئك الصلح
 الشائبون ، يلبسون فراكات وكابات وأحذية ذات رقاب طويلة من
 النمط القديم ، الا أن عدد هؤلاء النواب القدامى كان شيئا لا يذكر
 وسط غيرهم ممن كانوا يلبسون القبعات الحريرية والأحذية اللامعة ،
 والمعاطف ذات الذيل الطويلة . لقد كانوا جميعا يقفون في مقدمه
 السفينة ، لكنهم أخذوا يذهبون الى المؤخرة بعضهم في أثر بعض
 حينما دعاهم كونونوف ، حيث اصطفوا حول الموائد المنظومة تحت
 الظلل . وكان ليوب رازنيوف يضع ذراعه في ذراع ماياكين ويسر
 إليه بالحديث وهو يمشى معه الى حيث الضيوف ، وكان ما يقوله له
 يجعله يبتسم ابتسامة خفيفة ، ولم يكن فوما الذي نجح اشيبينه في
 احضاره آخر الأمر الى الحفل يجد رفيقا له وسط هؤلاء الناس
 الذين كان يمقتهم ، ومن ثمة كان يبدو مقطب الجبين كاسف البال
 منطويا على نفسه ، فقد أورثه الشراب المستمر طوال اليومين
 الأخيرين مع ييزهوف صداعا شديدا يكاد يشق رأسه شقا . وكان

هو بطبعه يشعر بالحرج والقلق فى صحبة أمثال هؤلاء السادة ذوى المراتب العالية ، وكان الضجيج المنبعث من الفرقة الموسيقية ومن الجمع المحتشد ومن آلات الباخرة يثير أعصابه اثارة شديدة .

وكانت رغبته فى السكر تستبد به استبدادا لا يمكن أن يقاوم . ولم يكن يستطيع تعليل تلك الرقة المتناهية التى كانت تقطر من محيا ماياكين ذلك اليوم ، ولا السبب الذى جعل الرجل العجوز يحضره الى هذا الحفل الذى جمع الصفوة من أعيان المدينة ، أو لماذا كان يلح عليه الحاحا ، بل يتوسل اليه توسلا ، فى أن يحضر حفلة كونونوف وأن يشهد وليمته أيضا .

وقد حضر فوما بعد اذ انتصفت حفلة التدشين ، وأخذ موقفه فى مكان منعزل حيث يستطيع مشاهدة التجار جميعا .

ولقد كان القوم يقفون فى سكون يتغشاء الوقار ، وكانت وجوههم تنسم بسيماء الحشوع المصطنع ، كما كانوا يصلون فى حدة مفرطة ويزفرون زفرات عميقة ، فاذا ركعوا بالغوا فى الركوع ، واذا رفعوا أخذت عيونهم تتقلب فى السماء . وكان فوما كلما نقل ناظريه فى الواحد بعد الآخر ، راح يدير فى رأسه ما يعرفه عن كل منهم .

فها هنا مثلا كان يقف ليوب رزنتوف ، هذا الرجل الذى بدأ حياته بإدارة ماخور لم يلبث أن جعله من الأغنياء الموسرين . ويقال : انه كان قد اشترى فى مطلع حياته متجرا قرويا كاملا للغزل والنسيج صفقة واحدة . ثم أفلس بعد ذلك مرتين . وذلك كونونوف الذى قبض عليه منذ عشرين عاما بتهمة إشعاله النار فى أملاك مؤس عليها ، كما وجهت اليه تهمة افساد الغلمان ، وهو الآن تحت البحث والتحرى ومراقبة البوليس . ثم هذا هو زاخار كيريلوف روبستوف ذلك الرجل القصير السمين ذو الوجه المكور والعينين الزرقاوين المرحتين . لقد كان متهما بالتهمة نفسها وللمرة الثانية فى حياته . انه لم يكن بينهم جميعا واحد ، واحد فقط ! ، لم يكن فوما يعرف عنه شيئا فاضحا يدينه ويشينه .

وكان يعلم كذلك أنهم جميعا يحسدون كونونوف : ذلك التاجر الناجح الذى كان يضيف فى كل عام مركبا جديدا الى السفن التى يمتلكها . وكان كل منهم لا ينى يحمل المعاول لهدم أخيه . وكانوا جميعا يحارب بعضهم بعضا حربا لا هوادة فيها ولا رحمة فى ميادين الأعمال ، وكانوا جميعا يعرفون ما يقوم به كل منهم من معاملات نشوبها الشبهات . . . أما الآن ، وهم مجتمعون حول كونونوف المجدود المحسود ، فهم يندمجون فى كتلة جامدة قائمة ، تجيء وتروح كأنها كائن مفرد واحد كان يتغشاه الصمت المطبق ، ويحيط به شيء صلب لا تقع عليه العين ولا تدركه الأبصار . . . شيء كان يبعث النور والاشمئزاز فى نفس فوما ، ويشعره بالحجل والحياء فى حضرتهم .

وكان لا ينى يردد هذه العبارة بينه وبين نفسه من باب تشجيعها :

- خداع وتدليس !

لقد كانوا يسعلون ويتنهدون فى رقة وفى ظرف ، ثم يطأطئون رؤوسهم ويصلبون وهم واقفون صفا واحدا كالبناء المرصوص الأسود حول رجال القساوسة .

وكان فوما يتمتم : « لشد ما أنتم مراؤون منافقون ! » وذلك على حين راح ذلك الرجل الذميمة الأعور الاحدب بافلين جوشين (الذى قذف بأولاد شقيقه المغفل منذ وقت قريب الى الشارع لبشاحنوا ويتكفؤوا السابلة) . . . على حين راح ذلك الرجل يهمس فى انتهاز وروحانية ، وعينه الواحدة مرفوعة الى السماء الغائمة القاتمة :

- يا اله السموات : لا يحل بى غضبك . . . فجزاك العادل لم نبنى أوانه بعد . . . !

وكان فوما يعجب اذ يرى هذا الرجل يضرع الى الله متوسلا

مستغنياً ، مؤمناً برحمته ايماناً راسخاً لا يتزعزع على حين كان الكاهن
بدعو بصوت هادىء وذراعا مبسوطتان وعيناه فى السماء :

— يا ربنا ويا اله آبائنا .. يا من أوحيت الى عبدك نوح ان
يصنع الفلك للابقاء على النوع البشرى ، احفظ هذه السفينة أيضاً .
وارسل اليها ملكاً حارساً يتولاها بعنايته .. وارع كل من يسافر
عليها ..

وكان جميع التجار يمسدون أيديهم فى الوقت نفسه ليرسموا
اشارة الصليب ، وقد اتسمت وجوههم بما اتسم به وجه الكاهن
سيماء الايمان بقوة هذا الدعاء .

وكان هذا كله يترك أثره العميق فى نفس فوما ، ويجعله يعجب
كيف يمكن أن يكون أمثال هؤلاء الناس الذين لهم ذلك الايمان العميق
الراسخ فى رحمة الله ، مجردين من الرحمة نحو اخوانهم فى
الانسانية !

لقد كان يبهجه وينير السخط فى نفسه اعتدادهم المتين القوى ،
وعقيدتهم الثابتة الراسخة ، ووجوههم التى تفيض بالاعجاب
وأصواتهم المدوية ، وضحكهم العالى المقهقه . وكانوا قد أخذوا
مجالسهم فى تلك اللحظة حول الموائد ، وراحت لهواتهم تتلمظ ،
وأعينهم تقطر شراهة الى ذلك الحفش .. وبالأحرى هذا النوع من
السماك النهري الروسى اللذيذ ، المطرز بالحضر والسرطين الضخمة
وكانت عيناً تراقب زوبوف تكاد ان تلتهمان هذا الطعام السائل وهو
يثبت الفوطة حول رقبته .

وشرع يكلم صاحب الطاحون الجالس الى جانبه ، وكانت كلماته
نصدر كبقعة القلة التى تمتلئ بالماء ، لما فى فمه من طعام :

— انظر يا ايون نيكيفوروفتش الى ذلك الحفش ! أليس يقرب ان
يكون حوتاً عظيماً يكفى لأن يحتويك فى داخله ! انه على قدك

تعاما . . وأنت بداخله تكون أشبه بالقدم داخل الحذاء ! ها . ها .
ها . !

ومد ايون القميء ذو البطن المكور ذراعه القصيرة ليرفع وعاء فضيا
ممتلئا بالكافيار الطازج ، وشفتاه تتلمظان ، وعيناه لا تريمان عن
الزجاجات المرصوفة أمامه مخافة أن يمسها بأذى .

وكان فيما يلي كونوف حامل خشبي عليه برميل من الفودكا
المتعة التي أحضرها من بولندة . وقد رص محار المتدفلي في صدفة
كبيرة ضخمة موشاة بالفضة ، الا أن الطبق الأساسي كان عصيدة
ذات ألوان في قالب برج من الأبراج .
ويهتف كونونوف بضيوفه :

- تفضلوا أيها السادة ، تفضلوا . كل شيء مهيا أمامكم . .
نكلوا مما تشتهي أنفسكم وتلذذ أعينكم . . من طعامنا الروسى الشهى
لمعتاد ، أو من الأطعمة الأجنبية على السواء - ورأى أن نأكل من
هذا ومن ذاك ، وهذا هو الأفضل في نظرى . ماذا تفضلون ؟
لجندفلي أم الحلزون ؟ انه مستورد من الهند مباشرة ، كما يقولون !
وكان زوبوف يقول لجاره ماياكين :

- لقد كان الدعاء الذى قرأه الكاهن لا يكاد يناسب انزال
لرفاصات أو الزوارق النهرية الى الماء . . عفوا . . لا أريد أن أقول
نه لم يكن مناسباً ، بل أردت أن أقول انه لم يكن كافيا . ان
لزورق النهرى الذى يعيش فوقه الملاح يوما بعد يوم هو كالمنزل
ماما ، ولهذا كان ينبغي أن يضاف الى الدعاء الذى تلاه الكاهن دعاء
لمشين منزل : ماذا تفضل أن تشرب ؟
ويجيبه ماياكين :

- انتى لست ممن يدمنون على شرب الخمر . . صب لى كوبا من

الفؤدكا • وأدرك فوما الذى كان يجلس عند طرف المائدة بين الضيوف الأكثرين تواضعا أن عيني أشبينه ترصدانه ، ومن ثمة كان يتحدث الى نفسه قائلا :

- انه يخشى أن أحدث فضيحة لا تسره !

وانطلق رجل ذو بطن منفوخ من أصحاب السفن البخارية يقال له ياشتشوروف يقول :

- أيها الاخوان •• اننى لا أستطيع الحياة ان لم أكل رنجة ••• لا بد أن أبدأ طعامى بأكل الرنجة ••• وهذا هو ما فطرت عليه ،

- موسيقى ! لنسمع النشيد الفارسى !

- انتظر ، بل لنسمع : المجد للقيصر •

- حسن •• المجد للقيصر •

وملا أزيز الآلات ، وصوت القلابات المختلط بالموسيقى ، ملا الهواء بشيء أشبه بغناء العاصفة الثلجية الوحشى • وكانت النيات تصفر ، والصنوج ترن ، والابواق الفرنسية تزمجر ، ودق الطبله الصغيره يلطم ، والطبله الكبيره تططم ••• ثم تختلط هذه الاصوات جميعا وصوت ارتطام الماء المتواصل بالقلابات ، مجفلا فى الهواء ، ومارا بالسفينة فى اندفاع أشبه باندفاع الاعصار ، مما يضطر القوم ، اذا أراد احدهم أن يتكلم فيسمع الآخرون صوته ، الى أن يرفعوا أصواتهم بأقصى ما يستطيعون • وكانت الآلات فى الفينه بعد الفينه ربما أرسلت هسهسة محنقة ، وكان صوتها اذ ذاك يشوبه التبرم والازدراء ••• وهو الصوت الذى لا ينفك يقحم نفسه فى الضوضاء التى يختلط فيها صياح القوم وصراخهم وضجيجهم •

• ويصبح بعضهم مفضبا :

- اننى لن أغفر لك أبدا رفضك أخذ كمبيالتى •
ويتدخل بوبروف قائلا بصوته العميق :
— دعنا من هذا ! أذاك هو الوقت الذى تثار فيه هذه المسائل ؟
— أذاك هو وقت الخطب أيها السادة ؟
— الموسيقى ! صمتا !
— تفضل بزيارتى فى البنك ، وسأشرح لك السبب فى أننى لم
مدق عليه •
— أهذه خطبة ؟ صمتا !
— بل أوقفوا الموسيقى •
— الأرملة المرحلة
— بل السيدة آنجوت !
— كلا •• لا تسمعنا خطبك يا ياكوف تارازوفتش !
— ان اسمها عصيدة ستراسبورج
— خطبة ! خطبة !
— عصيدة ؟ انها لا تبدو كالعصيدة •• ولكنى سأجرىها •
— ماياكين ! خطبة !
— حاجة لذيذة جدا •• يجب أن أعترف بهذا •
ويقول روبستوف بصوته الاخف :
— وفى أوبرا هيلين الحسناء تبرز فوق المسرح شبه عارية
— وهكذا خدع يعقوب عيسا و ••• اليس كذلك ؟ آها !
— تعال ماياكين • لا تتجنبنا •
— صمتا أيها السادة • الكلمة لياكوف ماياكين •

وبعد أن يسود الصمت يسمع أحدهم وهو يقول فى غيظ
وسخط :

- ما أشد ما أوجعتنى ونالت منى تلك الكلية الصغيرة !

ويزمجر بوبروف قائلا :

- وفى أى مكان ؟

وينفجر القوم ضاحكين ، ثم لا يلبثون أن يعودوا الى صمتهم
حينما ينهض ماياكين واقفا ، ويسعل قليلا كالذى يستعد للكلام ،
ويمر بيده فوق صلعتة ، ويجيل عينيه فى الموجودين منتظرا أن
يسودهم الصمت . وهنا يهتف بهم كونونوف :

- ارهقوا أسماعكم أيها الاصدقاء .

ويقول ماياكين وقد ضحك ضحكة لطيفة :

- زملائي التجار ... ان هناك كلمة أجنبية لعلكم تسمعون الفئا
العالمة والمتعلمة تستعملها كثيرا .. وهذه الكلمة هى « التهذيب »
.. حسن .. ان هذه الكلمة هى التى يريد رجل بسيط مثل انا
يقول عنها أشياء قليلة .
- سماعا سماعا .

ويرفع ماياكين صوته قائلا :

- أيها السادة الافاضل ... ان الصحافة تدأب فى قولها ،
اننا نحن التجار لسنا على شئ من التهذيب ... واننا لا ندرى
ما هذا التهذيب ... بل لا نريد أن نعرف ما هو .. ورجال
الصحافة يدعوننا متوحشين .. همجا .. وأنا أتساءل الآن
بسرورى : ما هذا التهذيب ؟ انه ليس من اليسير على رجل طاعن فى
السن مثلى أن يسمع هذه الامور الصعبة تلوها الالسن ، ومن ثمة

فقد وجدتني ذات يوم آخذ على عاتقي اكتشاف ما تعنيه هذه الكلمة .

وتوقف ماياكين ، ثم راح يجول بعينيه في الموجودين قبل أن يعود الى الحديث ، وقد خبس في شدقه ضحكة انتصار بادية :

- الظاهر أن هذه الكلمة تعنى الحب - حب النظام .. الحب الشديد للترقى . فهل هذا هو الذى تعنيه ؟ وكثيرا ما فكرت في نفسى ، وبعبارة أخرى : ان الشخص الملهذ هو ذلك الشخص الذى يهوى النظام والترقى .. الشخص الذى يحب أن يتخلص من كل شيء ... الذى يحب الحياة ويعرف قيمتها ، ويعرف قيمة نفسه أيضا . حسن جدا .

وهنا يبدو الرجل وقد أخذته رجفة سرت في كيانه ، وانتشرت في تجاعيد وجهه أشعة من الابتسام منبعثة من عينيه الى شفثيه ، كما كانت صلعته تتألق كلها كما يتألق النجم فى حلك الظلام .

وكان التجار يلتفون كل كلمة يقولها ، والانتباء الشديد باد على وجوههم ، وقد جمدت أبدانهم فى وضعها الذى أمسكتهم فيه كلماته الافتتاحية .

- ولكن اذا كان ذلك كذلك (وهذا هو الذى يجب أن تفهم الكلمة بمقتضاها) - أقول : اذا كان ذلك كذلك . فهؤلاء الذين يسموننا متوحشين غير مهذبين ، يفترون علينا ، لأنهم انما يحبون الكلمة من حيث هى كلمة .. فهم يقولونها ولا يفهمون معناها . أما نحن فنحب معنى الكلمة الحقيقى .. نحب ليابها وجوهرها ... اننا نحب أن نعمل ... ومن ثمة كان لدينا نظام دينى حقيقى للحياة ، وبلا أخرى .. نحن نجل الحياة ، أما هم فلا يجلونها . انهم يحبون الكلام .. أما نحن ، فنحب العمل ..

ثم انظروا أيها الزملاء التجار .. هاكم الدليل على ما لدينا من

التهنيب ... على حبنا للتطور والارتقاء . الفولجا ! أبونا المحبوب
نهر الفولجا ! ان كل قطرة من مياهه تنطق بالدفاع عنا ، وتقضي
مفترياتهم : ان مائة عام فقط قد مضت منذ ذلك اليوم الذي أنزل
فيه بطرس الأكبر مراكبه الكبيرة البطون في مياهه ، وهامى ذى
اليوم أيها السادة تلك الآلاف من البواخر تتردد على موانيه . فمن
بنى تلك البواخر ؟ انه هو الفلاح الروسى ! هذا الرجل الذى ليس
لديه منسكة من تعليم ! ثم من مالك كل هذه البواخر والصنادل
الضخمة ؟ نحن نملكها ! ومن الذى فكر فى تسييرها ؟ نحن أيضا .
ان كل ما هو هنا نحن أصحابه . وكل شيء هو مما ابتكرته عقولنا
وهو ثمرة جرائنا واقدامنا ، وثمره حبنا للعمل ، وما من أحد قد
ساعدنا أو أخذ بأيدينا .

وقد كنا نحن الذين قضينا على اللصوص وقطاع الطرق الذين
كانوا يقومون بالسطو على المسافرين فى الفولجا . ونقودنا هى التى
استأجرتنا بها الفرق الكاملة للقضاء على القراصنة ، ونقودنا هى التى
أنزلنا بها الآلاف من الزوارق النهرية على طول الآلاف من المراسى
والمرافىء التى تقوم على الفولجا ...

ثم ما أحسن المدن التى على جانبي الفولجا ؟ المدن التى تعج بالعدد
الأكبر من التجار ! وبيوت من هى أحسن البيوت وأرقاها فى تلك
المدن ؟ انها بيوت التجار طبعاً . ثم من من الناس يبذل يد المعونة
للفقراء ؟ انهم هم التجار . اننا نهب مئات الآلاف من الروبلات
لأعمال البر ، وهى التى جمعناها كويكاً فوق كويك . ثم من الذين
يننون كئناثسنا ؟ نحن طبعاً . ثم من الذين يمدون الدولة بالأموال ؟
نحن ولا شك ؟

— سادتى : اننا نحن ... ونحن فحسب ، نعمل حبا فى العمل ،
حبا فى جعل الحياة أحسن مما هى . اننا نحن ، ونحن فحسب ،

الدين يحبون الحياة والنظام .. وما هذا الذي يقولونه عنا الا ...
الا ...

ويقول كلمة قبيحة لا يلبث أن يمضغها. بشفتيه حتى لا تسمع ...
فهذا هو اذن حالنا وحالهم ، فدعوههم يقولوا ما يحلو لهم اننا اذا نفخنا الدوارة ، دارت وأحدثت صوتا وضوضاء ، فاذا لم نفخها لم يسمع لها صوت ، على أنكم لا تستطيعون أن تستفيدوا فائدة تذكر من هذه الدوارة .. تلك اللعبة العقيمة .. لن تستطيعوا أب نتفعوا منها ما تنتفعون من مكينة .. ان كل ما يمكنها أن تقوم به هو أن تدور على نفسها وتحدث صوتا ! ثم ماذا كان في وسع هؤلاء الناس الذين جعلوا من أنفسهم قضاتنا أن يصنعوا على الإطلاق ما كان جديرا به أن يصنع ؟ ماذا صنعوا على الإطلاق لتحسين الحياة ؟ لم نسمع أنهم فعلوا من ذلك شيئا . أما ما علمناه نحن واضح لكل ذى عينين .

- يا زملائي التجار : انكم ملح هذه الارض . انه ليس فيها من عدلكم جدا واجتهادا . ان كل ما فعلته البشرية فيها فعلته بأيديكم . انه لا نهاية مطلقا لما لا يزال في وسعكم أن تقوموا به .. ومن جل هذا فأنا أشرب هذه الكأس في نخبكم . انى أحبكم وأجلكم لاجلال كله .. وأنا أقولها من سويداء قلبي :

يعيش تجار روسيا الشجعان المجدون المثابرون انفع الله بهم
لادنا حتى يتم لها المجد والازدهار . عاشوا . عاشوا .

وأثار هتاف ماياكين المجلجل عاصفة كالرعد من استحسنان لقوم . فقد أخذ كل هذا الحشد الكبير المتلاحم يتحرك فجأة ، وكان لصوت المدوي المنبعث من حناجرهم من القبوة بحيث كان كل حولهم يبدو كأنه يزلزل ويرتجف .

وصاح زوبوف وهو يرفع كأسه نحو ماياكين :

- يا كوف ! يا بوق الرحمن !

وهنا .. أخذت الكراسى تنقلب ، والموائد تهتز ، والقوارير تتساقط ، والاطباق تتخبط ، وذلك على حين كان التجار المجهزون المستوفزون يندفعون كالسيل نحو ماياكين وقد رفعوا في أيديهم الكئوس والأكواب .. والدموع تترقرق في أماقهم .

وراح كوفونوف يسائل روبستوف ، وهو ممسك بكتفه يهزه هزا :

- ما قولك في هذا ؟ .. هل تدرك معنى هذا الذي حدث ؟ لقد استمعنا الآن الى خطبة عظيمة !

- دعني أقبلك يا ياكوف

- ارفعوه على الاكتاف !

- ارفعوه على الاكتاف ! مرحي !

- موسيقي !

- موسيقي ! النشيد الفارسي

- الى الجحيم بموسيقاك !

- ألم تكن خطبته من الموسيقى بالقدر الكافي !

- ياله من ضئيل الجسم ، عظيم العقل !

- هذا كذب يا تزوفيم !

- وا أسفاه على أنك طاعن في السن متقدم في العمر الى هذا

الحد يا ماياكين ! ماذا نصنع حين لا تكون بيننا ؟

- أوه .. ان جنازته ستكون شيئا رائعا !

- أيها السادة .. هلموا فلنفتح اكتابا نسميه اكتتاب ماياكين

... وسأدفع أنا الالف الأول !

- امسك لسانك ! فيم تسرعك هكذا ؟

وهنا .. يعود ماياكين الى الكلام من جديد وهو يرتجف
ارتجافا :

- أيها السادة : ان من أهم الأسباب التي تجعلنا ملح هذه
الأرض ، وتجعلنا كذلك حكام بلادنا الحقيقيين هو أن دماء الفلاحين
تجرى فى عروقنا .

- هذا حق .. كل الحق !

- يا لله ! يا لك من رجل عظيم !

- لا تقاطعوا .. سماعا !

- اننا روسيون ذوو دماء نقية .. وكل ما يصدر عنا هو
روسى تتدفق فيه الدماء الروسية النقية ، ومن ثمة كان كل ما يصدر
عنا شيئا عظيما أصيلا .. ومن أهم الأشياء وأصفها جوهر .

- وأضح وأضح .. كأنفك الذى يحمله وجهك !

- اليس كذلك !

- ان رجلا العجوز حكيم .. حكيم كالبيومة !

- ووديع كال ..

- كالصقر .. هاها ! ..

وازدخم التجار حول خطيبهم ، وأخذوا يحدقون فيه بعيون بللها
الدمع ، وهم لا يقدرون على الاصغاء اليه فى هدوء من شدة انفعالهم ،
وكان طنين أصواتهم ، وخشخشة الآلات ، وضرب القلابات فى الماء
.. يكون دفعة من الصوت الذى يضيع فيها صوت الرجل

- هلموا فلنرقص رقصة روسية ! رقصة كارمنسكية !
بصيح ماياكين :

- هلموا انظروا ما صنعت أيدينا ... أيدينا نحن .. وليس
أحد غيرنا ! اننا نحن الذين جعلنا الحياة ما هي الآن !

ثم يعلو أحد الأصوات فجأة ، فتتلاشى فيه الأصوات الأخرى
جميعا :

- اذن فأنتم الذين جعلتم الحياة ما هي .. ليس كذلك ؟ أنتم ...
نم أردف - أنتم هذه - بطائفة من أقذر الكنى وأقبح الألقاب .
وسمعا كل من الحاضرين ، وساد صمت أشبه بصمت القبور .
على حين راحت الأنظار تجول حولها باحثة عن المتكلم . وكان
البشيء الوحيد المسموع فى تلك الآونة هو حُشخشة الآلات وصرير
سلاسل الدقة

وقال كونونوف متسائلا ، وقد قطب وجهه :

- من قال هذا ؟

وزفر رز نيكوف قائلا :

- أخ ! اننا لا يمكن أن نعمل شيئا دون أن يحدث شجار !
وكانت سيماء الوجوه يختلط فيها الشر والعجب والتطلع
والأسف . وكان التجار جميعا يتمتمون بشيء من الامتعاض
والاحتجاج ، الا ياكوف ماياكين وحده .. فقد حافظ على هدوئه
ورباطة جأشه ، وبدا كأنه راض عما حدث . ووقف على أطراف
أصابعه وراح يمد عنقه كأنما ينظر الى شيء فى الطرف الآخر من
المائدة ، وكان فى عينيه لآلاء ، كأنه كان جد مسرور مما رأى .

وهمس أحد الموجودين يقول :

- انه فوما جورديف

واتجهت الانظار نحو الجهة التى كان يحدق فيها ماياكين عينيه .

وهناك . . كان يقف فوما وقد أسند يديه على المائدة . لقد كان كسرا وهو يتفرس فى التجار بعينين مشتعلتين واسعتين . وكان يكه الأسفل يرتجف ، وكتفاه تختلجان ، وأصابعه القابضة على طرف المائدة لا تنى تخربش فى المفرش بحركة تشنجية ، وقد خرست التجار وقفته المغضبة ، والنظرات المتوحشة التى كانت نبعث من عينيه .

ويسألهم فوما ، وكأنه يزيح عن صدره سلسلة أخرى مما يجثم عليه من قبائح :

- فيم تحددقون أنظاركم هكذا ؟

ويهز بوبروف رأسه قائلا :

- انه سكران !

ويهمس رزنيكوف متسائلا :

- لماذا دعوه ؟

ويهتف به كونونوف فى لهجة مهذبة :

- فوما اجناتيفتش . . أرجو أن تحاول ضبط أغصابك ، وتتصرف بما يليق بك . . وإذا كنت قد أكثرت من الشراب فيمكنك أن تذهب بهدوء الى احدى القمرات وأن تنام فيها . . اذهب ونم يا بنى . . اذهب . .

ويتفرس فيه فوما وهو يصيح به :

- اخرس ! احذر. أن توجه الى أية كلمة ! اننى لست سنكران . أنا أكثر وعيا من أى واحد فيكم . أتفهم ؟

ويسعد الدم في وجه كونوف مما لحقه من تحد واهانة ، ويقول
متسائلا :

- لحظة أيها الرجل العزيز .. لحظة .. من الذى دعاك الى هذا
الحفل ؟

ويسرع ماياكين بالرد قائلا :

- أنا الذى دعوته .

- أوه ! فى هذه الحال فأنا ألتمس منك الصفح يا فوما اجناتيفتش
.. ولكن ما دمت أنت الذى أحضرته يا ياكوف فعليك أن تلزمه ..
ان هذا شيء لا يصح .

ويتسهم فوما ، ولا يقول شيئا . وينظر اليه التجار ولا يقولون
شيئا كذلك .

أما ماياكين فيهتف به قائلا :

- أواه ! فوما .. فوما .. هأنت ذا تفضحنى فى هذه الس-
المتقدمة مرة أخرى !

ويجيبه فوما وهو لا يزال مكشرا :

- أيها الوالد العزيز .. اننى لم أصنع شيئا بعد .. ومن ثمة
فمن سبق الحوادث أن توجه الى هذا التعنيف ... اننى لست
سكران ... بل لم أذق قطرة واحدة من الخمر - وكل ما فعلته أن
كنت أجلس وأستمع . أيها السادة .. اسمحوا لى أن ألقى عليكم
كلمة الآن . اسمعوا اذن الى ابن السيد ماياكين الروحى .

ويتسأل رزنيكوف :

- 'خطب ؟ هل يجب أن نستمع الى خطب ؟ لقد جئنا هنا لنمتع
انفسنا

٠ لا داعى للخطابة يا فوما اجناتيفتش !

خذ لك كأسا بدلا من الخطابة !

٠ أجل . دعنا نتناول كأسا ٠٠ آه يا فوما ! لله ما كان أطرف
أناك

وترك فوما حافة المائدة ، ثم شد نفسه وهو لا يزال يبتسم ،
ووقف يستمع الى كلمات الاسترضاء التى يوجهونها اليه لكى يسكنوا
نائثرته . لقد كان أصغر سنا وأبهى منظرا من أى تاجر من هذه
الطبقة البارزة من تجار المدينة ، وكان قوامه الوسيم فى فراكه الذى
بناسبه تمام المناسبة ، يناقض أجسامهم القصيرة السمينة ببطونها
المنتفخة . وكان لوجهه الاحمر الداكن بعينه الكبيرتين تضارده
رقسمات منتظمة لم تكن لوجوههم المتورمة الحمراء .

لقد أبرز فوما صدره ، وكشر عن أسنانه ثم فرج ما بين طرمي
معطفه ، ودفع يديه فى جيوب بنطلونه ٠٠ وبدأ يقول فى لهجة
صارمة متحدية :

٠ انكم لا تستطيعون أن تغلقوا فمى بعباراتكم اللطيفة ٠٠ وأنا
مصمم على أن أقول ما أريد قوله سواء استمعتم الى أو لم تستمعوا .
لن تستطيعوا اخراجى من هذه السفينة .

وهنا طرح الى الخلف رأسه ، ورفع كتفيه الى أعلى :

٠ ثم ٠٠ انى سأقتل أى مخلوق على أن يمسنى بأصبعه ،
أقسم بالله على ذلك .

وترنج الواقفون أمامه كما تترنج غصون الشجر هبت عليها
الرياح ٠٠ وأخذت همسات الخوف تنطلق هنا وهنا ٠٠ وقطب وجهه
نوما وازدادت عيناه اتساعا أكثر من قبل .

- لقد قيل : انكم انتم الذين جعلتم الحياة ما هي الآن ، وان كل ما فيها من جودة وحسن هو من صنع أيديكم .

وهنا ، شهب شهب طويلة ، ثم راح يرمقهم بكراهية لا يمكن تصويرها ، ويتفرس في تلك الوجوه التي كانت تبدو كأنما تورمت من شدة الاستياء والاشمئزاز .

وتككب التجار بعضهم الى بعض ، ولم يقولوا شيئا .

ثم اذا واحد في الصف الخلفي يتمتم قائلا :

- علام كل هذا ؟ وهل هذا من آي الكتب المقدسة ، أو هو من تلمعه ؟

ويهنر فوما رأسه ويقول :

- يا أبناء الكلاب ، ماذا صنعتكم ؟ انكم بدلا من أن ترتقوا بالحياة فد حولتموها الى سجن ، وبدلا من أن تدخلوا عليها النظام قد وضعتهم اهلها في السلاسل والاغلال ، فلن يستطيع أحد فيه قبس من حياة أن يجد ما يستنشقه من الهواء في دنياكم الخائفة هذه . انكم قتلة مغتالون . . . ولا شيء غير هذا . . . وليس ثمة سبب في أنكم لا تزالون أحياء الى اليوم الا طول ما قاساه الناس منذ أمد بعيد . . . ثم انتم لا تريدون أن تنسوا هذا !

ويقول رزنيكوف متعجبا وهو ينثر يده محتجا :

- انني لم أسمع شيئا مثل هذا من قبل ، ولا أريد أن أسمع كلمة فوق هذا ! .

ويصيح بوبروف :

- خذ حذرك يا جوردييف . انك تقول أشياء قد تندم على أنك قلتها !

ويقول له زوبوف محذرا أيضا :

- هل تدري ماذا يمكن أن يعود عليك من قولك مثل هذه
الاشياء ؟

ودمدم فوما والدم يكاد ينبثق من عينيه :

- ويل لك ! اهد بقدر ما يحلو لك الهذيان أيها الخنزير !

ثم يقول ماياكين بصوت فيه حكة ونذير كصوت المبرد فوق
المعدن :

- أيها السادة : أرجوكم ألا تقاطعوا .. دعوه يتكلم ما دام الكلام
يحلو له .. فما يضركم كلامه فى شيء ؟

ويصيح يوشكوف :

- عجباً ! كيف لا يضرنا ؟

أما سمولين الذى كان يلى فوما فيهمس فى أذنه قائلاً :

- كفى كفى .. هل أنت مجنون ؟

ويصيح به فوما ، وهو ينظر اليه بعينين ملتهبتين :

- اعزب عن وجهى .. اذهب وألق يدى ماياكين عسى أن يلقي
إليك بلقمة !

ويصفر سمولين صبغاً خفيفاً ثم ينسحب الى الطرف الآخر ..
ويتبعه التجار الآخرون فينسحبون واحداً فى اثر واحد ، ويزيد
هذا فى غضب فوما وثورته .. لقد كان يحب أن يستولى عليهم
بكلامه .. الا أنه لم يكن يجد الكلام القوى الذى تكفى قوته أن
تنيله غرضه .

ويعود الى قوله :

- فأنتم اذن الذين صنعتهم من الحياة ما هى الآن ؟ أليس كذلك
ومن أنتم ؟ أيها اللصوص النصابون !

ويرتد بعض التجار ممن ناداهم فوما بأسمائهم .

- كونونوف ! قل لى : متى يا ترى تحاكم على فعلتك التى فعلت
بتلك الفتاة الصغيرة ؟ انك سوف يحكم عليك بالاشغال الشاقة
جزاء فعلتك هذه ! انه سيكون الوداع يا كونونوف ! ما أسوأ
ما بنيت تلك الباخرة الظريفة يا صاح ! انهم سوف يشحنوك الى
سيبيريا ، ما فى ذلك شك !

ويغوص كونونوف فى أحد الكراسى وقد صعد الدم الى وجهه ،
وراح يهدد بقبضته فى الهواء . ويقول :

- ما عليك الا أن تنظر .. سوف ترى .. اننى لن أنسى لك
هذا أبدا !

لقد كان وجهه يتعقد ، وشفتاه ترتجفان بشدة ، حتى أدرك فوما
أن السلاح الذى شهره سوف يغيظ هؤلاء الرجال ويؤلمهم أكثر .

- تقولون : انكم حسنتم الحياة وارتيقتم بها .. حسن .. حينئذ
.. يا سيد جوشمشتين : هل تؤدى شيئا من الصدقة الى أولاد
أخواتك ؟

- انك - ولا بد - تعطيتهم كوبكا على الأقل فى اليوم الواحد ،
فلقد سرقت منهم الكثير الذى يجعلك تؤدى هذا اليهم ! وأنت
يا سيدى بوروف ! لماذا ألقيت بمعشوقتك الى السجن بافترائك
عليها تلك الكذبة حينما ادعيت أنها سرقت نقودك ؟ اذا كنت قد
شبعست منها فقد كان فى امكانك أن تنزل عنها لابنك ، وعلى كل
فقد حل محللك مع أقحوانتك الاخيرة البرية ! ألم يبلغك هذا ؟ أه
أيها الخنزير السمين ! أما أنت يا ليوب ... فلماذا لا تفتح لك

هاخورا مرة ثانية حتى يمكنك أن تسلخ « زبائنك » الظرفاء قبل
أن توجه اليهم ضرباتك القاضية ؟ اننى أستطيع أن أراك تفعل هذا
الآن . . ها ها . . ان من اليسير على رجل ذى معيا صالح ورع مثل
صحيّاك أن يفلت من عقوبة القتل ! . . ترى ؟ من كان هذا الشخص
الذى قتل تلك المرة يا ليوب ؟

وكان فوما يضحك وهو يتكلم . . وكان بوسعه أن يلاحظ الآثار
الواضحة التى يحدثها كلامه فى وجوه مستمعيه . انه حينما كان
يوجه اليهم الحديث اجمالا اول الامر - كان يلاحظ أنهم كانوا يزوون
وجوههم ويشيحونها عنه . وأنهم كانوا ينسحبون فى جماعات
صغيرة ، ويقفون بعيدا عنه وهم ينظرون اليه ، وقد شاعت فى
وجوههم ابتسامات الزراية والاستهزاء ، وكان هو يرقب ابتساماتهم
ويلمس سخطهم عليه فى كل حركة من حركاتهم ، وحينما أخذ
الغضب يبدو فى كلماته لم يكونوا يبالون كثيرا . . وكان هذا يشيع
البرد والتثلج فى روحه . . ومن ثمة كان يواجه ما قد ينتهى اليه
عجومه عليهم من مرارة الاخفاق وحسرة الخذلان . . لكنه لم يكذب
يتحدث الى كل هؤلاء التجار على حدة حتى تبدلت الحال غير الحال
. . وصعق القوم جميعا .

وعندما تهالك كونونوف على الكرسي وكانما أسقطته عليه
سخرية فوما ، لاحظ فوما ابتسامات الشماتة ترف على شفاه بعض
التجار ، وسمع بعضهم يهمس فى غيب وموافقة :

- مرحى ! أعطه أعطه . . أعطه جامدا !

فأمد هذا بقوة جديدة ، وشرع فى توجيه سخرياته وتوبيخاته
الى أول شخص وقعت عليه عيناه . وابتهج أيما ابتهاج حينما أدرك
قوة كلماته . . وحينما لاحظ أن مستمعيه كانوا يصغون اليه وكان
على رؤوسهم الطير . . بل كان بعضهم يزداد منه اقترابا .

لقد لغظت بعض الأصوات بالاحتجاج .. لكنها لم تكن أصواته مرتفعة ولا حادة . وبمجرد أن نطق قوما باسم أحد التجار أدهف الجميع آذانهم ، وأخذوا يلقون نظرات شذراء ملؤها الشماتة المحبورة بالرجل الذي كان الهدف الجديد .

وصدرت عن بوبروف ضحكة خفيفة مكتومة ، وأخذت عيناه الحادتان الصغيرتان تتفرس في قوما .. وتتفرس . وطفق ليوب رزنيكوف يلوح بيديه في الهواء ، وهو يحجل هنا وهناك متأوها فاعرا فاه . وهو يقول :

- انكم شهودي على ذلك .. وأنا لن أغفر له مثل هذه الاقوال ! بل سأرفع أمره الى المحكمة ! كيف يجرؤ على هذا ؟

ثم يلوح بذراعيه نحو قوما فجأة ويصرخ :

- امنعوه من الكلام ! امنعوه !

ويضحك قوما ، ويقول :

- انه لا يمكن منع أحد من قول الحق !

ويقول كونونوف بصوت أجش :

- سننظر في هذا !

ويتدخل ماياكين بصوته المسرع :

- أيها السادة .. أرجو أن تنظروا اليه نظرة طيبة .. لاحظوه بأنفسكم ماذا يشبه

- وأخذ التجار يدنون من قوما واحدا بعد واحد . ولاحظ هو أمارات الخوف والانفعال والتطلع والشماتة الراضية علي وجوههم . ويهمس أحد الضيوف الأكثر اتضاعاً في اذن قوما قائلاً :

- افض في قولك ولا تبال .. أعطهم جيئدا ... ان هذا كله سيكتب لك في صحيفة فخارك !

ويصيح فوما :

- علام تضحك يا روبستوف ؟ ما الذي يجعلك سعيدا مسرورا هكذا ؟ هل تظن أنهم لن يذهبوا بك الى سيبيريا ؟

ويصرخ روبستوف وقد وثب على رجله :

- اخرجوا الى الشاطئ !

وينادى كونونوف ربان الباخرة قائلا :

- ارجع بنا ! ارجع بنا الى المدينة ! الى المحافظ !

- ان هذا أمر مييت ، وتدبير له ما وراءه . لقد اتخذوه مغلب قط لانفاذه ، وأسكروه أولا .

- ان هذا شغب علني :

- امنعوه من الكلام ! أجمعوا لسانه !

ويتناول فوما زجاجة فارغة من زجاج الشمبانيا ثم يلوح بها في الهواء قائلا :

- حذار أن تلمسوني ! انه لا بد لكم من أن تستمعوا الى سواء رضيتم أو لم ترضوا !

وفي فورة من الانفعال ... في حميا حبوره وهو يرى هؤلاء الرجال يتسلون تحت ضرباته ... يبدأ فوما في الجهر بأسماء أخرى ، وفي سب ضحاياهم وقذفهم بأقذر الاساليب ... ولا يكاد يفعل حتى تخدم أصوات الاحتجاج . وكان أولئك الذين لا يعرفون فوما ينظرون اليه في اعجاب وتطلع .. بل كان بعضهم ينظر اليه

راضيا موافقا على ما يقول • ونظر واحد من هؤلاء • وهو رجل عجوز قمى أشيب ذو خدين موردين وعينين حادتين • نظر الى الذين كان يهينهم فوما ويتحداهم وقال لهم فى لهجة مداهنة :

- ان ضميره هو الذى يحفزه الى قول مثل هذه الأشياء ، فلا تلقوا بالا اليها • لقد كتب علينا أن نعانيها • انها دينونة نبي • اننا أيها السادة عصاة آثمون • وواجبنا أن نتكلم بالصدق . وننطق بالحق لأننا ...

وارتفعت أصواتهم ضده حتى أسكتوه ، ودفع زوبوف دفعة لطيفة غابت به عن الانظار •
وهنا يصبح فوما :

- زوبوف ! كم رددت من الناس عن وردك ، دون أن تمنح أحدا منهم كوبكا واحدا ؟ ألا يزورك فى منامك طيف ايفان بتروفتش ماياكينيكوف الذى سنق نفسه بسببك ؟ وهل حقيقة أنك تسرقه عشرة روبلات كل يوم أحد من طبق التحصيل ؟

وأصابت زوبوف هذه الهجمة بالبكم ، فظل واقفا حيث هو ، وذراعه معلقة فى الهواء • فلما أفاق أخذ يثب ثم يقعد ثم يهم واقفا وهو يصرخ :

- اذن فأنت لا تعفينى أنا أيضا من لسانك • أنا أيضا ! ثم نفخ خديه ، وراح يلوح بقبضته نحو فوما • ومضى فى صراخه يقول :

- تا لله لا بلغن عنك الأسقف ، أيها المجدف الملحد • انك أنت الذى سوف يحكم عليك بالاشغال الشاقة !

وازداد الشغب على الباخرة ، وقد جعل فوما منظر هؤلاء القوم الهائجين الساخطين يشعر كأنه بطل من أبطال الأساطير ينقض على

نعمان ضخم ليقتضى عليه . لقد كانوا يجيئون ويروحون وهم
بتصايحون ويلوحون بأيديهم وقد احمرت وجوه بعضهم ،
امتثقت وجوه بعض . . . وهم جميعا عاجزون عن صد تيسار
تشنيعاته وتشهيراتاه

ويمسك رزنيكوف بكتف كونونوف ويقول له :

- ادع عمال الباخرة وملاحيها . ماذا تعنى بهذا يا ايليا ؟ هل
عوتنا الى هنا ليتلاعب بنا ويشنع علينا ؟

ويصرخ زوبوف :

- هذا الكليب !

وأحدثت شرذمة من التجار حول ماياكين الذى كان يتحدث اليهم
فى هدوء ، ويصفغون اليه بوجوه تقطر شرا ، وهم ينغضون رؤوسهم
من حين الى حين .

ويقول روبستوف بصوت مرتفع :

- هيا . . . هيا فى الحال وبلغ . . اذهب حالا . . فنحن شهود
يا ياكوف .

الا أن صوت فوما المدوى يعلو على هذا الضجيج قائلا :

- انكم بدلا من تحسين أحوال العالم والارتقاء به قد انحططتم
به فجعلتموه شراكا وحفرة قدرة لصيد ضحاياكم . انكم قد
تكونون رجال أعمال . . الا أن كل ما فعلتموه هو جمع القاذورات
والدنس ونشر التنتن والروائح الحبيثة ! أليست لكم ضمائر ؟ الا
اله لكم ؟ أجل . . ان الهكم المعبود هو الذهب ، أما ضمائركم فقد
استبعدتموها . فأين استبعدتموها يا مصاصى الدماء ؟ انكم انما
تحبون على حساب غيركم من الناس ، وأنتم انما تعملون بأيدي

غيركم . وكم من الناس ذرفوا الدموع من أعينهم دماء بسبب
« أعمالكم العظيمة » التي تتيجحون بها ! ان الجحيم هي خير مثوى
لأمثالكم من الانغسال المخادعين . . وأجدر بكم ألا تتعذبوا في
لهبها الطاهر النقي ، بل يجب أن تحرقوا فيها في زبالتها المنتنة التي
تغلي كالحميم ، خالدين فيها أدهارا وأدهارا !

ثم تنتاب فوما نوبة من الضحك المفاجيء ، وينثر رأسه الى
الخلف ، ويشد جانبيه ، ويقف وهو يتمايل على قدميه . وفي هذه
اللحظة يتبادل كثير من التجار النظرات والغمزات ، ثم ينقضون
على فوما ، متكبيين عليه بثقل أجسامهم .

لقد بدأت معركة .

ويصبح بعضهم في دهشة :

- لقد أمسكوه !

ويلهف فوما قائلا :

- اذن . . فهذه هي مؤامرتكم !

ولم يطل النضال بين فوما وتلك الحلقة من الجسوم السوداء
المحكمة من حوله ، والتي كانت تدق الأرض دقا عنيفا ، وهي
تتصايح بأصوات مرتفعة :

- اطرحوه أرضا .

- امسكوا يده . . يده !

- آه . . لحيتي !

- ارفعوا أيديكم . . ارفعوا أيديكم ، قلت لكم :

- خلاص !



فوما مقيد في جلسة حزينة

- يا لله ! يا لها من عضلات !

وسحبوا فوما فوق ظهر السفينة الى غرفة الربان . ثم انثنوا وهم يصلحون ملابسهم ، ويمسحون العرق من فوق وجوههم . أما فوما ، فكان يجلس حيث هو ، دون أن ينبس ، بعد اذ أجهده النضال ، وفتت في عضده فضيحة الهزيمة ، وقد تمزقت ملابسه وتلوّثت بصورة مزرية . وكانت يدها وقدماء مربوطة بالفوط ربطا محكما .

والآن . . . لقد جاء دورهم لتقريعه والسخرية منه . وكان زوبوف أول من بدأ ذلك ، فقد ذهب اليه ثم رفسه رفسة في أضلاعه ، وراح يقول له في لهجة ساخرة ، وجسمه كله يرتجف من فرحة الانتقام :

- وهكذا صمت صوت النبي المدوى ! ترو ، ما احساسك بأن تكون أسيرا من أسرى بابل ؟ ها ها . . ها . .

ويجيبه فوما دون أن ينظر اليه :

- صبرك ، صبرك ! ليس عليك الا أن تنتظر حتى أسترد أنفاسي . . . وتذكر أنكم لم تربطوا لساني بعد !

على أن فوما كان يعلم أنه لم يكن ثمة ما يستطيع أن يقوله أو يفعل ، لا لأنه كان موثقا مقبدا اليدين والقدمين . . بل لأن شيئا ما كان قد مات في أعماقه ، وأن روحه كانت قد غدت سوداء خاوية

وأقبل رزنيكوف وانضم الى زوبوف . . . ثم انضم اليهم آخرون ، على حين تبع كونونوف وبوبروف وآخرون ياكوف ماياكين الى غرفة الربان ، حيث وقفوا يتباحثون في أمر ما ، بأصوات خفيفة . .

وكانت السفينة تغذ السير بأقصى سرعتها الى المدينة ، وكان وجيب الآلات يهز الزجاجات فوق المواثد فتحدثت صريرا عاليا

رفيعا ، وكان هذا الصرير هو وحده ، من بين جميع الاصوات .
لاخرى ، الذى يفرض فرضا على اذنى فوما ، وكان القوم
يزدحمون حوله ويشيرون اليه اشارات أثيمة مزرية .

الا أن فوما لم يكن يتبين وجوههم الا فى صورة مبهمه ، كأنما كان
بنظر اليهم خلال ستار قاتم ، وكانت الكلمات التى يوجهونها اليه
! تنال منه منالا . وكان فيض غامر من المראה يتدفق فى أغوار
نفسه ، فيشعر به يطفى وينتشر ، وبينما كان معناه أدق على فهمه
من أن يدركه كان يدرك ما هو فيه من شدة وزرايه .
ويقول له رزنيكوف :

- انظر ما جلبته على نفسك أيها المغفل ! كيف يمكنك أن تحتل
حياة بعد هذا ؟ انه ليس فينا الآن من تحدثه نفسه حتى بأنه
تنزل ويبصق عليك !

ويسأله فوما :

- ولماذا ؟ ماذا صنعت ؟

ويحلق به التجار فى حلقة سوداء محكمة .

ويقول له ياشتشوروف :

- لقد انتهى أمرك الآن يا فوما !

ويقول له زوبوف بصوت ناعم شامت :

- سنريك الآن يا صاح !

فيقول له فوما :

- اذن ففكوا وثاقى !

- أوه ٠٠ كلا ٠٠ ولو بحياتك !

- نادوا اشبينى !

ولكن ماياكين يكون قد وصل فى تلك اللحظة دون أن يدعو
أحد . ويقف الرجل أمام فوما ثم يتفرس فيه وهو فى مكانه ذاك ،
«وهيئته تلك . ثم يتأوه قائلا :

- آه ٠٠ فوما

ويقول له فوما فى صوت ذليل :

- قل لهم يفكوا وثاقى

- يفكون وثاقتك لكنى يجن جنونك مرة أخرى ؟ كلا ٠٠ ابق كم
أنت وقتما .

- لن أقول كلمة أخرى ٠٠٠ وأقسم بالله على ذلك ٠٠٠ أطلقوا
سراحى ٠٠ من العار أن أجلس هنا هكذا ٠٠ اننى لست سكران .

- اذن ٠٠ أقسم أنك ستسلك سلوكا طيبا .

ويتأوه فوما قائلا :

- أوه ٠٠ طيبا ٠٠ وأقسم على ذلك بربى !

وفكوا رباط قدميه ، لكنهم لم يفكوا رباط يديه .

وحينما هم واقفا على قدميه راح ينظر فى الوجوه المحدقة به ب
قال ، وهو يبتسم ابتسامة خاطفة مؤثرة :

- لقد كسبتم !

ويضحك ماياكين ضحكة خسنة ثم يقول :

- نحن نكسب دائما !

ومشى فوما ، ويداه مربوطتان خلف ظهره ، ليستخفى عند احدى الموائد ؛ دون أن ينبس بكلمة ، ودون أن يرفع عينيه فى أحد ، وقد بدا وكأنه تقاصر بعد طول ، ونحل بعد سمنة ، وقد تساقط شعره المنكوش الاشعث فوق جبينه ، وبرز قميصه الممزق المجعد من صدره ، وياقته تغطى فمه . وكان يلوى رقبته ليهبط بالياقة تحت ذقنه ولكن بلا فائدة ! . . . ولما لاحظ ماياكين ذلك ، أقبل نحوه ، ثم أصلح له ياقته . وقال وهو يبتسم فى وجهه :

— كان لازما أن تعانى ذلك !

فأما وقد حضر ماياكين . . . فقد سكنت ريح أولئك الذين كانوا يهزءون بفوما ، وأخذوا ينظرون الى الرجل العجوز نظرة المتطلع المتسائل ، كأنما كانوا يتوقعون أن يصنع ماياكين شيئا . لقد كان لا يزال محتفظا برباطة جأشه ، الا أن عينيه كانتا تومضان وميضاً لا يكاد يتفق مع الظرف الحاضر ، بالرغم من بريقهما ويقول فوما وهو يجلس عند المائدة ويتكى بذقنه فوقها بشدة :

— أريد شراباً !

لقد كان يبدو عاجزاً عجزاً مؤلماً وهو يجلس ثمة ، كأنه كومة من خطام . وكان من حوله يتهايمسون وهم يمشون على أطراف أصابعهم ، يختلسون نظرة اليه مرة ، ومرة الى ماياكين الذى كان يجلس فى الجانب الآخر من فوما . . . ولم يعجل ماياكين بتلبية طلب فوما للشراب . . . بل كان ينظر اليه متفحصاً ، وهو يصب له كوباً من الفودكا فى نهمل وبطء ، حتى اذا امتلأ الكوب ، رفعه الى فمه فى بطء أيضاً ، دون أن ينبس بكلمة

ورشف فوما الشراب . ولما فرغ الكوب قال :

— كوباً آخر .

فقال له ماياكين :

- بل هذا يكفى .

ثم تلت ذلك فترة من الصمت المطبق ، كانت مجهدة لاعتصاب
الجميع . وكان القوم يسترقون النظر من فوق المائدة ، وهم يمدون
أعناقهم لكي يختلسوا نظرة الى العاجز المسكين

ويسأله ماياكين قائلا :

- حسن . هل أدركت الآن ماذا صنعت يا فوما ؟

وبالرغم من أن ماياكين كان يكلمه بصوت خفيض ، فان الجميع
سمعوا ما قال

وأوما فوما برأسه :

ويقول له ماياكين بصوت أعلى :

- لا تنتظر منا أن نصفح عنك . . . ولن نصفح عنك أبدا . .
وبالرغم من كوننا مسيحيين . . . وهذا هو ما سيكون

ويرفع فوما رأسه ويقول فى تفكير :

- لقد نسيت أن أذكرك فيمن ذكرت يا اشبيني العزيز ! اننى
نعم أذكرك بكلمة سوء . . كلمة واحدة !

ويصبح به ماياكين فى مرارة وهو يشير اليه بيده :

- اسمعوا ماذا يقول !

وتعلو همهمة خفيفة من أصوات الاستنكار

يوزفر فوما ثم يقول :

— ولكن ٠٠ ما قيمة هذا ؟ ما قيمة هذا ؟ ماذا يعنينى على الإطلاق ؟ انه لم يحدث عن هذا شيء على الإطلاق !

ويسأله ماياكين فى شدة :

— وماذا كنت تريد أن يحدث عن هذا ؟

ويرفع فوما رأسه ، ويجيل عينيه فى التجار الواقفين حوله ، ثم بضحك ضحكة خفيفة مشوبة بالأسف ، ويقول :

— ماذا كنت أريد ٠٠٩ لقد كنت أريد أن ٠٠٠

— انك سكير ووغد !

ويقول فوما فجأة :

— اننى لم أكن سكران ٠٠٠٠ ولم أشرب غير كاسين ٠٠ لقد كنت فى كامل وعيى .

ويقول بوروف :

— وهذا دليل على أنك على حق . يا كوف تارازوفتش : انه مختل العقل .

وينطلق فوما قائلاً :

— أنا ؟

غير أنهم لم يلتفتوا اليه . وجلس رزنيكوف وزوبوف وبوروف ، ومالوا برؤوسهم الى ماياكين ، ثم أخذو يتهامسون ٠٠ وقد سمعهم فوما يقولون :

— ٠٠٠ تصبح قيما عليه ٠٠٠

وهنا ، يصيح فوما وهو يندفع الى الراء فوق كرسيه ، متفرسا فيهم بعينين زائغتين :

- اننى سليم العقل .. وأعرف ما كنت أريد .. لقد كنت أريد أن أقول لكم الحق .. كنت أريد أن أكتشف عنكم على حقيقتكم .

والتهبت عواطفه وفارت مرة أخرى ، وأخذ يملخ أربطة ذراعيه ملخا ، ويمسك بوروف بكتفيه وهو يقول له :

- ليس بهذه السرعة .. ليس بهذه السرعة ... أمسكوه أيهـ السادة .. أمسكوه !

ويقول فوما يائسا :

- آه .. أمسكونى .. أمسكونى ...

ويصيح به ماياكين بخشونة :

- الزم الهدوء !

ولا يجيب فوما بشيء .. ان كل ما حاول أن يقوم به .. قام به بلا نتيجة .. ولم يكن لكلامه أى أثر فى نفوس هؤلاء الناس . وهام هؤلاء لا يزالون حوله كالبنيان المرصوص ... وهو لا يرى حوله غير هذا البنيان ... لقد كانوا ينظرون اليه فى هدوء وعقيدة ثابتة على أنه شخص مجنون ، وكان هو يعلم أنهم يكيدون له كيـدا ما .. ولقد كاد هذا السور الاسود المكون من أولئك التجار البارعين الكبيرى الثقة بأنفسهم يسحقه سحقا .. انه لم يكن يعرف نفسه فى تلك اللحظة ، بل لم يكن يدري ما فعله ، ولماذا فعله .. بل لقد كاد يحس بالآلام شديدة فى حلقه ، وبأن قلبه ينوء تحت أثقال من التراب خففت من ضرباته وأضعفت من نظامها .

وانطلق يقول فى تفكير عميق ، دون أن ينظر الى أحد :

- لقد أردت أن أعلن الحقيقة .

ويجيبه ماياكين فى ازدراء وسخط :

- أيها المغفل ! كيف يمكنك أن تعلن الحقيقة ، كأنك تفهم شيئاً ما !

- لقد كان قلبي يوشك أن ينفجر ... وكنت أشعر بزيف كل شيء ويقول بعضهم :

- واضح من الطريقة التي يتكلم بها أن بعقله مسا .

ويقول ماياكين بلهجة الذي يعلم من حوله ، وهو يؤكد كلامه لأحدى يديه :

- انه غير مسموح لكل انسان بأن يقول الحق . وليس يكفي أن يحس بالأشياء ، فالبقرة نفسها تستطيع الاحساس بأنك تلوى نيلها ... فالشيء يجب أن يفهم ... لا أن يحس فقط ! يجب أن يفهم كل شيء ... أن تفهم أعداءك ... تفهمهم فهما جيداً يمكنك من أن تحزر ما يدور في أخلادهم ... وعند ذلك تستطيع أن تقتحمهم قمتحماً .

وكان ممكناً أن يمضى ماياكين في عرض أفكاره الفلسفية بحماسة لمعتادة نفسها لو لم يدرك فجأة أن الانسان لا يصح أن يعلم خططه الحربية لعدوه المقهور ... لقد نظر اليه فوما في اكتئاب ، ثم أخذ يتوسل وهو يومئ إيماءة هينة برأسه ويقول :

- دعوني وشأني ! لقد كسبتم ، أفلا يكفيكم هذا !

لقد كان كل من المجتمعين حول فوما في اللحظة التي فتح فيها فوما متنبها مرهفا أذنيه ... وكان في تنبههم هذا ، غير الطبيعي ، لذيير من نذر الشر

- ان هذا الذي شهدته يجرى من حولي جعل دمي يغلي في عروقي ، حتى فار آخر الامر ... وهذا هو كل ما جرى ... والآن ليس ثمة قطرة واحدة من القوة باقية في ... لقد استنزفت قواي كلها .

وكان يتكلم بلهجة رتيبة لا طعم لها ولا لون ، كأنه فى ذهول .
وضحك ما ياكين :

- وهل تظن أن فى وسعك أن تزيل جبلا بأن تلعبه بلسانك ؟
وهل من الحكمة أن تهاجم دبا وأنت فى قوة بعوضة ؟ انظروا بالله
عليكم الى هذا النبى ؟ آه ، لو أن والدك المسكين رآك فى حالتك
هذه !!

ويجيبه فوما بصوت عال كله تصميم ، وبعينين ينطلق البرق من
أعماقهما :

- ولكنك أنت الملوم فى هذا كله . فأنت الذى تفسد كل شيء .
انك الرجل الذى يضيق الارض على الناس بما رحبت ، وأنت الذى
تأخذ بخناقهم حتى يلفظوا أنفاسهم . ومهما يكن هذا الحق الذى
أنطق به ضدك ضعيفا فانه الحق على كل حال . . . انك كل هذا
. . وأقولها صراحة . . وعليك لعنة الله !

ثم يبذل كثيرا من الجهد وهو يشد نفسه عسى أن يفك ذراعيه
فاذا لم يقدر ، راح يزأر ، وعيناه تدوران فى ثورة وفورة :
- فكوا يدى !

ويحرق به التجار أكثر وأكثر ، وقد اكتست وجوههم بأمارات
الحق والغضب . . . ويقول له رزنيكوف مهددا :

- اقصر الآن وأمسك لسانك . . اننا نوشك أن نصلى ا.
المدينة ، فلا تفضح نفسك وتفضحنا معك . أو تريد أن نأخذ
مباشرة من المرفأ الى مستشفى المجاذيب !
ويصيح به فوما :

- اذن فهذا هو ما دبرتم ! تريدون أن تذهبوا بى الى مستشفى
المجاذيب ؟ أليس كذلك ؟

ولم يرد عليه أحد • وجعل ينظر في وجوههم لحظة ، ثم نكس رأسه •

وقال بعضهم :

- اذا سلكت سلوكا حسنا فسوف تفك يدك •

ويجيبه فوما بهدوء :

- لا تتعب نفسك •• ان هذا لا يهم !

ثم يعود الى الحديث من جديد وكأنه في ذهول :

- لقد ضعت ••• ولم أضع لائكم أقوياء ••• ولكن لا أننى ضعيف جد ضعيف • وأنتم أيضا لستم أكثر من ديدان أمام الله •• وما عليكم الا أن تنتظروا ، وستلقون جزاءكم ••• لقد ضعت بسبب عماى • لقد نظرت الكثير الذى أعمانى • كالبومة ، البومة التى كنا نطاردھا فى الاخدود اذ نحن أطفال • لقد كانت لا تنفك تعلق وتنخبط فى كل شيء • وكانت الشمس تعشى بصرھا ••• وكانت تنخبط كثيرا حتى أصابتها الجراح والندوب فى جميع أجزاء جسمھا ••• وعند ذلك فقدتها • وأذكر أن والدى قال لى حين ذاك : ان هذا نفسه هو الحال مع الكائنات البشرية ، ففي بعض الاحيان يندفع الانسان هنا ثم يندفع هناك ، وهو يتخبط فى هذا الشيء ثم فى ذاك ، حتى تصيبه القروح والكلال ، ويتمنى لو يزحف ليختبئ فى أول جحر يصادفه ليجد فيه الخلاص ••• يا لله ! فكوا يدى الا يملون ؟

ويمتقع ، ويصفر لون وجهه ، ثم يغمض عينيه ، وترتجف كتفاه ، ويشرع يتأرجح فى كرسيه الى الامام والى الورا ، وهو فى هذه المزق والاسمال التى كانت ملابس أنيقة من قبل ، ويضرب صدره فى حافة المائدة ، وهو يتمتم فى نفسه بكلام غير مفهوم •

وتبادل التجار نظرات لها معناھا • ولكن بعضهم جيرانهم وهم

يومثون برءوسهم فى جهة فوما دون أن ينطقوا بكلمة • وكان وجه
ماياكين جامدا صارما كأنما نحت من جرانيت

ويهمس بوبروف قائلا :

— لعل الواجب يقتضينا أن نفك يديه !

ولكن ماياكين يقول فى صوت منخفض :

— كلا •• يجب ألا نفعل •• بل سنتركه هنا •• وليذهب بعض
لاحضار النقالة ••• وسيحمل عليها الى المستشفى مباشرة •

ثم مشى نحو جسر القيادة ، وهو يقول :

— خذوا بالكىم منه ، فقد يحاول أن يثب فوق ظهر السفينة •

ويقول بوبروف وهو ينظر الى ماياكين ذاهبا :

— لشد ما أشعر بالاسف لهذا الغلام !

ويجيبه رزينكوف فى حدة :

— لا لوم على أحد اذا كان هو نفسه مغفلا !

ويهمس زوبروف •• وهو يرمى الى ماياكين ، وهو عائد من
حيث ذهب :

— ولكن ماياكين •••

— وماذا فى ذاك ؟ انه لن يفقد شيئا اذا تم هذا العمل •

— هذا صحيح •• صحيح تماما •• انه سيتولى كل شىء بوصفه
القيم على هذا الولد •

وكانت همساتهم وضحكاتهم تضيق فى خشخنة الآلات • ولم
يكن فى وسع فوما أن يسمعهم ، فقد كان يجلس وهو يحدق باكتئاب
فى اللانهاية ، وشفتاه تختلجان من حين الى حين •

ويقول بوبروف هامسا :

- لقد عاد ولده

ويجيئه ياشتشوروف :

- انى أعرفه • لقد قابلته فى يرم •

- وما صفته يا ترى ؟

- شاب رشيق • يرأس عملا كبيرا فى أوسوى •

- وبعبارة أخرى ••• ان ماياكين لم يعد بحاجة الى هذا الولد ،
وهذا هو المهم !

- انظروا •• انه يبكى !

- ما هذا ؟

لقد كان فوما متكئا فوق كرسيه الى خلف ، ورأسه مائل الى أحد
جانبيه ، وعيناه مغمضتان ، والدموع تترقرق من أسفل أهدابها
فتتسائل عبرة بعد عبرة فوق خديه •• ومنهما خلال شاربه على
حين تختلج شفتاه اختلاجا شديدا •• ثم تنحدر الدموع من خلال
شاربه لتتلاشى فوق صدره • وكانت الحركة الوحيدة التى يأتيتها
هى حركتى الشهيق والزفير •• يعلو معهما صدره ويسفل •• وجعل
التجار يلاحظون وجهه الممتقع الأصفر لحظة ، وقد نال منه الالم ،
وبللتة الدموع ••• ثم راحوا ينسحبون فى هدوء •

لقد تركوا فوما وحده ، ويداه مربوطتان من خلف ، جالسا الى
المائدة المغطاة بالاطباق القنرة ، وبقايا الوليمة ••• وكان هو يفتح
عينيه من حين الى آخر للنظر خلال جفونه المتورمة وخلال دموعه
ايضا ، الى الانقاض والاطلال المتناثرة فوق الموائد !

وتقضى ثلاث سنوات

ويكون ماياكين قد قضى بعد تدشين باخرة كونونوف بعامين ٠٠٠ وقد ظل محتفظا بكامل قواه العقلية الى آخر لحظة فى حياته ، وقبل أن يلفظ آخر أنفاسه بساعات قلائل دعا اليه ابنه وابنته وزوج ابنته ، ثم راح يقول لهم باللهجة التى لزمته طول عمره :

- عيشوا واطفروا يا أبنائى ٠٠٠ لقد استمتعت بثمرات هذه الحياة حتى امتلأت منها ٠٠٠ وقد حان أن أخرج من بستانها ٠٠ هل ترون أن فى وسعى أيضا أن أموت دون أن أشكو ؟ وسيضيف الله سبحانه هذا الى مفاخرى ٠ انى ربما أكون قد أغضبت المولى جل وعلا ببعض احتيالاتى وخدعى ، ولكنى لم أغضبه قط بالتأوهات والتوجعات ! تباركت يا ربى ٠٠ انى ليسعدنى أن أقول ذلك ! أقسم بعظمتك وجلالك لقد عرفت كيف أشق طريقى فى هذه الدنيا ! وداعا يا أولادى ٠ عيشوا فى اخاء ومودة ، ولا تبذروا تبذيرا ، واذكروا ان هذا الذى يختبئ من الذنب ويحرص على أن يضع جنبه فوق المضجع الآمن ، لن يكون بهذا قديسا أبدا ٠ ان الجبن لن ينجيكم من الآثام ، كما تروى لنا قصة الوزنات ٠ فاذا صمتم على أن تظفروا من حياتكم بشيء ، فيجب ألا تجزعوا من الوقوع فى الائم ٠ ان الله سوف يغفر لكم خطاياكم ٠ لقد خلق الله الانسان ليهذب الحياة ٠٠ ومع هذا ، فانه لم ينعم عليه بالكثير من الذكاء ، ومن ثمة فهو لا يمكن أن يطالبه بما يشق عليه ٠ ان رحمته واسعة ، وطرقه مستقيمة ٠٠٠

ولقد كانت سكرات الموت التى عاناها ماياكين قليلة غير طويلة ، وان كانت وبيلة مؤلمة ٠



لقد كان باستمرار رث الهيئة لا يكاد يفيق من سكره أبداً وكان يبدو عليه اختلال العقل .

ولم يمض زمن طويل على الأحداث التي وقعت في باخرة
كونونوف حتى أجبر ييزهوف على مغادرة المدينة .
وتكونت شركة تجارية جديدة تحمل اسمي : « تاراس ماياكين
وأفريكان سمولين »

ومرت سنوات ثلاث لم يكن الناس يسمعون خلالها شيئا عن
فوما . ويقال انه بمجرد خروجه من المستشفى أرسله ماياكين الى
أقارب والدته في اقليم الاورال

ثم ظهر في المدينة بعد مضي سنوات ثلاث . لقد كان باستمرار
رث الهيئة ، أشعث الهندام ، لا يكاد يفريق من سكره أبدا . وكان
يبدو عليه حقيقة اختلال العقل ، وربما كان يرى أحيانا وهو يطوف
في شوارع المدينة مقطب الجبين منكس الرأس عليه سيماء الكراهية
والمقت ٠٠٠ وأحيانا أخرى ، كان يرى وقد افترت شفته عن بسمة
حزينة مؤثرة ٠٠٠ بسمة رجل صالح أبله ! وكانت تعاوده فورات
هياجه القديم في بعض الظروف ٠٠٠ الا أن هذا كان لا يحدث الا
نادرا . وقد سمحت له ليوبا سمولينا بالاقامة في منزل صنفير
خلاوى خلف منزلها .

وكان من يعرفونه من التجار وأهل المدينة لا ينفكون يتخذون منه
مادة لدعاباتهم ، وكانوا اذا رأوه مقبلا من بعيد صاحوا به :
- ايه ! أيها النبي ! تعال هنا !

وكان قلما يستجيب لهم . انه كان يتجنب لقاء الناس ، ولم
يكن يطيق التحدث اليهم . لكنه كان اذا فعل ، غمزوه قائلين :
- حدثنا بشيء عن يوم الدين . هل تفعل ؟ هاها ٠٠ ها ٠٠ أما
انك لنبي حقا !

المؤلف



مكسيم جوركى من أدباء روسيا
المخضرمين ، امتزجت حياته الخاصة
بأحداث روسيا الاجتماعية حتى أصبح
انتاجه الأدبي تعبيرا عن المجتمع الروسى
وتطوره الثقافى .

ولد جوركى سنة ١٨٦٨ م فى نرنى نوفجورود باقليم الفولجا ،
ومارس مهنا شتى أكسبت حياته الفكرية ثراء ، وغرست فى نفسه
الاحساس بالواقعية بجانب ما كان يراوده من آمال فى حياة أفضل .
وجوركى يتغنى بالانسان المتحرر ذى العقل والبصيرة ، المسيطر
على الآلة والطبيعة .

ومن أشهر أعماله « ماكار شودورا » و « الأم » و « الاعتراف »
و « فوما جوردييف » المنشورة سنة ١٨٩٩ م ، وهى اتجاه للتحرر
من القيود والاضلال .

ومات جوركى عام ١٩٣٦ .